كتاب

ادب الدنيا والدين

تأليف

العالم العلامة الحبر الفهامة الامام الكبير المحقق الشهير أقضى القضاة
أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي
رحمه الله تعالى

وبهامشه كتاب تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق
للشيخ أبي علي أحمد بن محمد المعروف بابن مسكويه
المتوفى سنة ٤٢١

﴿ الطبعة الاولى ﴾

طبع بالمطبعة الادبية بسوق الخضار القديم بمصر

سنة ١٣١٧ هجريه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال القاضي أبو الحسن محمد بن علي بن حبيب البصري

رحمه الله تعالى

الحمد لله ذي الطول والآلاء وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الرسل والأنبياء وعلى آله وأصحابه الاتقياء (أما بعد) فان شرف المطلوب بشرف نتائجه وعظم خطره بكثرة منافعه وبحسب منافعه تجب العناية به وعلى قدر العناية به يكون اجتناء ثمرته وأعظم الامور خطرا وقدرا وأعمها نفعا ورفدا ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة والأولى لان باستقامة الدين تصح العبادة وبصلاح الدنيا تتم السعادة وقد توخيت بهذا الكتاب الاشارة الى آدابهما وتفصيل ما أجمل من أحوالهما على أعدل الامرين من ايجاز وبسط أجمع فيه بين تحقيق الفقهاء وترقيق الادباء فلا ينبو عن فهم ولا يدق في وهم مستشهدا من كتاب الله جل اسمه بما يقتضيه ومن سنن رسول الله صلوات الله عليه بما يضاهيه ثم متبعا ذلك بأمثال الحكماء وآداب البلغاء وأقوال الشعراء لان القلوب ترتاح الى الفنون المختلفة وتسأم من الفن الواحد وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ان القلوب تمل كما تمل الابدان فاهدوا اليها طرائف الحكمة فكان هذا الاسلوب يجب

التنقل

(بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله الذي أرشد الى الصراط المستقيم ومدح الخلق العظيم وأرسل نبيه محمدا متمما لمكارم الاخلاق وأدبه فأحسن تأديبه على الاطلاق

اللهم انا نتوجه اليك ونسعى نحوك ونجاهد نفوسنا في طاعتك ونركب الصراط المستقيم الذي نهجته لنا الى مرضاتك فأعنا بقوتك واهدنا بعزتك واعصمنا بقدرتك وبلغنا الدرجة العليا برحمتك والسعادة القصوى بجودك ورأفتك انك على ما تشاء قدير

(قال) أحمد بن محمد ابن مسكويه غرضنا في هذا الكتاب ان نحصل لانفسنا خلقا تصدر به عنا الافعال كلها جميلة وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي

التنقل فى المطلوب من مكان الى مكان وكان المأمون رحمه الله تعالى يتنقل كثيرا فى داره من مكان الى مكان و ينشد قول أبى العتاهية رحمه الله

لا يصلح النفس اذ كانت مدبرة * الا التنقل من حال الى حال

وجعلت ما تضمنه هذا الكتاب خمسة أبواب ﴿الباب الاول﴾ فى فضل العقل وذم الهوى ﴿الباب الثانى﴾ فى أدب العلم ﴿الباب الثالث﴾ فى أدب الدين ﴿الباب الرابع﴾ فى أدب الدنيا ﴿الباب الخامس﴾ فى أدب النفس وانما أستمد من الله تعالى حسن معونته وأستودعه حفاظ موهبته بحوله ومشيئته وهو حسبى من معين وحفيظ

﴿باب فضل العقل وذم الهوى﴾

اعلم أن لكل فضيلة أسا ولكل أدب ينبوعا وأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل الذى جعله الله تعالى للدين أصلا وللدنيا عمادا فأوجب الدين بكماله وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه وألف به بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم وجعل ما تعبدهم به قسمين قسما وجب بالعقل فوكده الشرع وقسما جاز فى العقل فأوجبه الشرع فكان العقل لهما عمادا . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما اكتسب المرء مثل عقل يهدى صاحبه الى هدى أو يرده عن ردى . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شئ دعامة ودعامة عمل المرء عقله فبقدر عقله تكون عبادته لربه أما سمعتم قول الفجار لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروءته خلقه . وقال الحسن البصرى رحمه الله ما استودع الله أحدا عقلا الا استنقذه به يوما ما . وقال بعض الحكماء العقل أفضل مرجو والجهل أنكى عدو . وقال بعض الادباء صديق كل امرء عقله وعدوه جهله . وقال بعض البلغاء خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل . وقال بعض الشعراء وهو ابراهيم بن حسان

يزين الفتى فى الناس صحة عقله * وان كان محظورا عليه مكاسبه
يشين الفتى فى الناس قلة عقله * وان كرمت أعراقه ومناسبه
يعيش الفتى بالعقل فى الناس انه * على العقل يجرى علمه وتجاربه
وأفضل قسم الله للمرء عقله * فليس من الاشياء شئ يقاربه
اذا أكمل الرحمن للمرء عقله * فقد كملت أخلاقه ومآربه

واعلم أن بالعقل تعرف حقائق الامور ويفصل بين الحسنات والسيئات وقد ينقسم قسمين غريزى ومكتسب

فالغريزى هو العقل الحقيقى وله حد يتعلق به التكليف لا يجاوزه الى زيادة ولا يقصر عنه الى نقصان وبه يمتاز الانسان عن سائر الحيوان فاذا تم فى الانسان سمى عاقلا وخرج به الى حد الكمال كما قال صالح بن عبد القدوس

اذا تم عقل المرء تمت أموره * وتمت أمانيه وتم بناؤه

والطريق فى ذلك أن نعرف أولا نفوسنا ما هى وأى شئ هى ولاى شئ أوجدت فينا أعنى كمالها وغايتها وما قواها وملكاتها التى اذا استعملناها على ما ينبغى بلغنا بها هذه الرتبة العلية وما الاشياء العائقة لنا عنها وما الذى يزكيها فتفلح وما الذى يدسيها فتخيب فان الله عز من قائل يقول ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ولما كان لكل صناعة مبادى عليها تبتنى وبها تحصل وكانت تلك المبادى مأخوذة من صناعة أخرى وليس فى شئ من هذه الصناعات أن تبين مبادى أنفسنا كان لنا عذر واضح فى ذكر مبادى هذه الصناعة على طريق الاجمال والاشارة بالقول الوجيز وان لم يكن

وروى الضحاك في قوله تعالى لينذر من كان حياً أي من كان عاقلا واختلف الناس فيه وفي صفته على مذاهب شتى فقال قوم هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات ومن قال بهذا القول اختلفوا في محله فقالت طائفة منهم محله الدماغ لان الدماغ محل الحس وقالت طائفة أخرى منهم محله القلب لان القلب معدن الحياة ومادة الحواس وهذا القول في العقل بأنه جوهر لطيف فاسد من وجهين أحدهما أن الجواهر متماثلة فلا يصح أن يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها ولو أوجب سائرها ما يوجب بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله والثاني أن الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهرا لجاز أن يكون عقل بغير عاقل كما جاز أن يكون جسم بغير عقل فامتنع بهذين أن يكون العقل جوهرا . وقال آخرون العقل هو المدرك للاشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى وهذا القول وان كان أقرب مما قبله فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو أن الادراك من صفات الحي والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون متلذذا أو آلما أو مشتهيا . وقال آخرون من المتكلمين العقل هو جملة علوم ضرورية وهذا الحد غير محصور لما تضمنه من الاجمال ويتناوله من الاحتمال والحد انما هو بيان المحدود بما ينفي عنه الاجمال والاحتمال . وقال آخرون وهو القول الصحيح ان العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وذلك نوعان أحدهما ما وقع عن درك الحواس والثاني ما كان مبتدأ في النفوس فأما ما كان واقعا عن درك الحواس فمثل المرئيات المدركة بالنظر والاصوات المدركة بالسمع والطعوم المدركة بالذوق والروائح المدركة بالشم والاجسام المدركة باللمس فاذا كان الانسان ممن لو أدرك بحواسه هذه الاشياء لعلم ثبت له هذا النوع من العلم لان خروجه في حال تغميض عينيه من أن يدرك بهما ويعلم لا يخرجه من أن يكون كامل العقل من حيث علم من حاله أنه لو أدرك لعلم وأما ما كان مبتدأ في النفوس فكالعلم بان الشئ لا يخلو من وجود أو عدم وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم وأن من المحال اجتماع الضدين وأن الواحد أقل من الاثنين وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفي عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله فاذا صار عالما بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل وسمي بذلك تشبيها بعقل الناقة لان العقل يمنع الانسان من الاقدام على شهواته اذا قبحت كما يمنع العقل الناقة من الشرود اذا نفرت ولذلك قال عامر بن قيس اذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل وقد جاءت السنة بما يؤيد هذا القول في العقل وهو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال العقل نور في القلب يفرق بين الحق والباطل وكل من ذي أن يكون العقل جوهرا أثبت محله في القلب لان القلب محل العلوم كلها . قال الله تعالى أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها فدلت هذه الآية على أمرين أحدهما أن العقل علم والثاني أن محله القلب . وفي قوله تعالى يعقلون بها تأويلان أحدهما يعلمون بها والثاني يعتبرون بها فهذه جملة القول في العقل الغريزي

وأما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزي وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة واصابة الفكرة وليس لهذا حد لانه ينمو ان استعمل وينقص ان أهمل ونماؤه يكون بأحد وجهين

أما

مما قصدناله واتباعها بعد ذلك بما توخيناه من اصابة الخلق الشريف الذي يشرف ثمرة ذاتيا حقيقيا لا على طريق العرض الذي لا ثبات له ولا حقيقة أعني المكتسب بالمال والمكاثرة أو السلطان والمغالبة أو الاصطلاح والمواضعة فنقول وبالله التوفيق قولا نبين به ان فينا شيأ ليس بجسم ولا بجزء من جسم ولا عرض ولا محتاج في وجوده الى قوة جسمية بل هو جوهر بسيط غير محسوس بشئ من الحواس ثم نبين ما مقصودنا منه الذي خلقنا له وندبنا اليه فنقول

﴿تعريف النفس﴾

انا لما وجدنا في الانسان شيأ ما يضاد أفعال الاجسام وأجزاء الاجسام بحده وخواصه وله أيضا أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه حتى لا

امابكثرة الاستعمال اذالم يعارضه مانع من هوى ولاصاد من شهوة كالذى يحصل لذوى الاسنان من الحنكة وصحة الروية بكثرة التجارب وممارسة الامور ولذلك حمدت العرب آراء الشيوخ حتى قال بعضهم المشايخ أشجار الوقار ومنابع الاخبار لايطيش لهم سهم ولايسقط لهم وهم ان رأوك فى قبيح صدوك وان أبصروك على جميل أمدوك وقيل عليكم بآراء الشيوخ فانهم ان فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدت لاسماعهم آثار الغير . وقيل فى منثور الحكم من طال عمره نقصت قوة بدنه وزادت قوة عقله وقيل فيه لاتدع الايام جاهلا الا أدبته . وقال بعض الحكماء كفى بالتجارب تأديبا وبتقلب الايام عظة . وقال بعض البلغاء التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل . وقال بعض الادباء كفى مخبرا عما بقى ما مضى وكفى عبرا لاولى الالباب ما جربوا . وقال بعض الشعراء

ألم تر أن العقل زين لاهله * ولكن تمام العقل طول التجارب

(وقال آخر)

اذا طال عمر المرء فى غير آفة * أفادت له الايام فى كرها عقلا

وأما الوجه الثانى فقد يكون بفرط الذكاء وحسن الفطنة وذلك جودة الحدس فى زمان غير مهمل للحدس فاذا امتزج بالعقل الغريزى صارت نتيجتهما نمو العقل المكتسب كالذى يكون فى الاحداث من وفور العقل وجودة الرأى حتى قال هرم بن قطبة حين تنافر اليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة عليكم بالحديث السن الحديد الذهن ولعل هرما أراد أن يدفعهما عن نفسه فاعتذر بما قال لكن لم ينكر قوله اذعانا للحق فصار الى أبى جهل لحداثة سنه وحدة ذهنه فأبى أن يحكم بينهما فرجعا الى هرم فحكم بينهما وفيه قال لبيد

ياهرم ابن الاكرمين منصبا * انك قد أوتيت حكما معجبا

وقد قالت العرب عليكم بمشاورة الشباب فانهم ينتجون رأيا لم ينله طول القدم ولا استولت عليه رطوبة الهرم . وقد قال الشاعر

رأيت العقل لم يكن انتهابا * ولم يقسم على عدد السنينا
ولو أن السنين تقاسمته * حوى الآباء أنصبة البنينا

وحكى الاصمعى رحمه الله قال قلت لغلام حدث من أولاد العرب كان يحادثنى فامتعنى بفصاحة وملاحة أيسرك أن يكون لك مائة ألف درهم وأنت أحمق قال لا والله قال فقلت ولم قال أخاف أن يجنى على حمقى جناية تذهب بمالى ويبقى على حمقى فانظر الى هذا الصبى كيف استخرج بفرط ذكائه واستنبط بجودة قريحته ما لعله يدق على من هو أكبر منه سنا وأكثر تجربة . وأحسن من هذا الذكاء والفطنة ما حكى ابن قتيبة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير فهربوا منه الا عبد الله فقال له عمر رضى الله عنه مالك لم لاتهرب مع أصحابك فقال ياأمير المؤمنين لم أكن على ريبة فأخافك ولم يكن الطريق ضيقا فاوسع لك فانظر ما تضمنه هذا الجواب من الفطنة وقوة المنة وحسن البديهة كيف نفى عنه اللوم وأثبت له الحجة فليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية . وحكى أن سليمان بن عبد الملك أمر الفرزدق بضرب أعناق أسارى من الروم

تشاركه فى حال من الاحوال وكذلك نجده يباين الاعراض ويضادها كلها غاية المباينة ثم وجدنا هذه المباينة المضادة منه للاجسام والاعراض انما هى من حيث كانت الاجسام أجساما والاعراض أعراضا حكمنا بأن هذا الشئ ليس بجسم ولا جزأ من جسم ولا عرضا وذلك انه لايستحيل ولا يتغير وأيضا فانه يدرك جميع الاشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا كلال ولا نقص (وبيان ذلك) ان كل جسم له صورة ما فانه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الاولى الا بعد مفارقته الصورة الاولى مفارقة تامة (مثال ذلك) ان الجسم اذا قبل صورة وشكلا من الاشكال كالتثليث مثلا فليس يقبل شكلا آخر من التربيع

فاستعفاه الفرزدق فلم يفعل وأعطاه سيفا لا يقطع شيأ فقال الفرزدق بل أضربهم بسيف أبي رغوان مجاشع يعني سيف نفسه فقام فضرب به عنق رومي منهم فنبا السيف عنه فضحك سليمان ومن حوله فقال الفرزدق

أيعجب الناس ان أضحكت سيدهم * خليفة الله يستسقى به المطر
لم ينب سيفي من رعب ولا دهش * عن الاسير ولكن أخر القدر
ولن يقدم نفسا قبل ميتتها * جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر

ثم غمد سيفه وهو يقول

ما ان يعاب سيد اذا صبا * ولا يعاب صارم اذا نبا * ولا يعاب شاعر اذا كبا

ثم جلس وهو يقول كأني بابن المراغة قد هجاني فقال

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع * ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ثم قام فانصرف وحضر جرير وخبر بالخبر ولم ينشد له الشعر فانشأ يقول

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع * ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ثم قال يا أمير المؤمنين كأني بابن القين وقد أجابني فقال

ولا نقتل الاسرى ولكن نفكهم * اذا أثقل الاعناق حمل المغارم

فاستحسن سليمان حدس الفرزدق على جرير ثم أخبر الفرزدق بشعر جرير ولم يخبر بحدسه فقال الفرزدق

كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها * وتقطع أحيانا مناط التمائم
وان نقتل الاسرى ولكن نفكهم * اذا أثقل الاعناق حمل المغارم
وهل ضربة الرومي جاعلة لكم * أبا عن كليب أو أخا مثل دارم

فشاع حديث الفرزدق بهذا حتى حكى أن المهدي أتي باسرى من الروم فأمر بقتلهم وكان عنده شبيب بن شيبة فقال له اضرب عنق هذا العلج فقال يا أمير المؤمنين قد علمت ما ابتلى به الفرزدق فعير به قومه الى اليوم فقال انما أردت تشريفك وقد أعفيتك وكان أبو الهول الشاعر حاضرا فقال

جزعت من الرومي وهو مقيد * فكيف ولو لاقيته وهو مطلق
دعاك أمير المؤمنين لقتله * فكاد شبيب عند ذلك يفرق
فنح شبيبا عن قراع كتيبة * وأدن شبيبا من كلام يلفق

وليس العجب من كلام الفرزدق ان صح من جودة القريحتين ولكن من اتفاق الخاطرين ولمثل ذلك قالت الحكماء آية العقل سرعة الفهم وغايته اصابة الوهم وليس لمن منع جودة القريحة وسرعة الخاطر عجز عن جواب وان أعضل كما قيل لعلي رضي الله عنه كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم فقال كما يرزقهم على كثرة عددهم وقيل لعبد الله بن عباس أين تذهب الارواح اذا فارقت الاجساد فقال أين تذهب نار المصابيح عند فناء الادهان وهذان الجوابان جوابا اسكات تضمنا دليل اذعان وحجتي قهر ومن غير هذا الفن وان كان مسكتا ما حكي عن ابليس لعنه الله أنه حين ظهر لعيسى بن مريم عليه السلام قال ألست تقول

والتدوير وغيرهما الابعد ان يفارقه الشكل الاول وكذلك اذا قبل صورة نقش أو كتابة أو أي شئ كان من الصور فليس يقبل صورة أخرى من ذلك الجنس الابعد زوال الاولى وبطلانها البتة فان بقي فيه شئ من رسم الصورة الاولى لم يقبل الصورة الثانية على التمام بل تختلط به الصورتان فلا يخلص له احداهما على التمام (مثال ذلك) اذا قبل الشمع صورة نقش في الخاتم لم يقبل غيره من النقوش الابعد ان يزول عنه رسم النقش الاول وكذلك الفضة اذا قبلت صورة الخاتم وهذا حكم مستقيم مستمر في الاجسام . ونحن نجد أنفسنا تقبل صور الاشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات

انه لن يصيبك الا ما كتبه الله عليك قال نعم قال فارم نفسك من ذروة هذا الجبل فانه ان يقدر لك السلامة تسلم فقال له يا ملعون ان الله ان يختبر عباده وليس للعبد أن يختبر ربه ومثل هذا الجواب لا يستغرب من أنبياء الله تعالى الذين أمدهم بوحيه وأيدهم بنصره وانما يستغرب ممن يلجأ الى خاطره ويعوّل على بديهته وروى قثم بن العباس رضى الله عنهما قال قيل لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه كم بين السماء والأرض قال دعوة مستجابة قيل فكم بين المشرق والمغرب قال مسيرة يوم للشمس فكان هذا السؤال من سائله اما اختبارا واما استعصارا فصدر عنه من الجواب ما أسكت فأما اذا اجتمعا هذان الوجهان فى العقل المكتسب وهو ما ينميه فرط الذكاء بجودة الحدس وصحة القريحة بحسن البديهة مع ما ينميه الاستعمال بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار فهو العقل الكامل على الاطلاق فى الرجل الفاضل الاستحقاق روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير فقال كيف عقله قالوا يا رسول الله ان من عبادته ان من خلقه ان من فضله ان من أدبه فقال كيف عقله قالوا يا رسول الله نثنى عليه بالعبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الاحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر وانما يقرب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقولهم واختلف الناس فى العقل المكتسب اذا تناهى وزاد هل يكون فضيلة أم لا فقال قوم لا يكون فضيلة لان الفضائل هيآت متوسطة بين فضيلتين ناقصتين كما أن الخير توسط بين رذيلتين فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة وقد قالت الحكماء للاسكندر أيها الملك عليك بالاعتدال فى كل الأمور فان الزيادة عيب والنقصان عجز وهذا مع ما وردت به السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال خير الأمور أوساطها وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه خير الأمور النمط الاوسط اليه يرجع العالى وبه يلحق التالى * وقال الشاعر

لا تذهبن فى الأمور فرطا * لا تسألن ان سألت شططا * وكن من الناس جميعا وسطا

قالوا ولان زيادة العقل تفضى بصاحبها الى الدهاء والمكر وذلك مذموم وصاحبه ملوم وقد أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى الاشعرى ان يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد يا أمير المؤمنين أعن موجدة أو خيانة فقال لا عن واحدة منهما ولكن خفت أن أحمل على الناس فضل عقلك ولاجل هذا المحكى عن عمر ما قيل قديما افراط العقل مضر بالجسد وقال بعض الحكماء كفاك من عقلك ما دلك على سبيل رشدك وقال بعض البلغاء قليل يكفى خير من كثير يطغى وقال آخرون وهو أصح القولين زيادة العقل فضيلة لان المكتسب غير محدود وانما تكون زيادة الفضائل المحمودة نقصا مذموما لان ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة كالشجاع اذا زاد على حد الشجاعة نسب الى التهور والسخى اذا زاد على حد السخاء نسب الى التبذير وليس كذلك حال العقل المكتسب لان الزيادة فيه زيادة علم بالأمور وحسن اصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن الى ما يكون وذلك فضيلة لا نقص لقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أفضل الناس أعقل الناس وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال العقل حيث كان مألوف وقد قيل فى تأويل قوله تعالى قل كل يعمل على شاكلته أى

على التمام والكمال من غير مفارقة للاولى ولا معاقبة ولا زوال رسم بل يبقى الرسم الأول تاما كاملا وتقبل الرسم الثانى أيضا تاما كاملا ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبدا دائما من غير أن تضعف أو تقصر فى وقت من الاوقات عن قبول ما يرد ويطرأ عليها من الصور بل تزداد بالصورة الاولى قوة على ما يرد عليها من الصورة الاخرى وهذه الخاصة مضادة لخواص الاجسام ولهذه العلة تزداد الانسان فهما كلما ارتاض وتخرج فى العلوم والآداب فليست النفس اذن جسما * فأما انها ليست بعرض فقد تبين من قبل أن العرض لا يحمل عرضا لان العرض فى نفسه محمول أبدا موجود فى غيره لا قوام له بذاته وهذا الجوهر الذى وصفنا حاله

بحسب عقله وقال القاسم بن محمد كانت العرب تقول من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه فى أغلب خصال الخير عليه وقيل فى منثور الحكم كل شئ اذا كثر رخص الا العقل فانه اذا كثر غلا وقال بعض البلغاء ان العاقل من عقله فى ارشاد ومن رأيه فى أمداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله فى اغواء ومن هواه فى اغراء فقوله سقيم وفعله ذميم وأنشدنى ابن لنكك لابيه

من لم يكن أكثره عقله * أهلكه أكثر ما فيه

فاما الدهاء والمكر فهو مذموم لان صاحبه صرف فضل عقله الى الشر ولو صرفه الى الخير لكان محمودا وقد ذكر المغيرة بن شعبة عمر بن الخطاب فقال كان والله أفضل من أن يخدع وأعقل من أن يخدع وقال عمر لست بالخب ولا يخدع عنى الخب واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله الى الشر كزياد واشباهه من الدهاة هل يسمى الداهية منهم عاقلا أم لا فقال بعضهم أسميه عاقلا لوجود العقل فيه وقال آخرون لا أسميه عاقلا حتى يكون خيرا يينالان الخير والدين من موجبات العقل فأما الشرير فلا أسميه عاقلا وانما أسميه صاحب روية وفكر وقد قيل العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه حتى قال أصحاب الشافعى رضى الله عنه فيمن أوصى بثلث ماله لاعقل الناس أنه يكون مصروفا فى الزهاد لانهم انقادوا للعقل ولم يغتروا بالامل وروى لقمان بن أبى عامر عن أبى الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا عويمر ازدد عقلا تزدد من ربك قربا قلت بابى أنت وأمى ومن لى بالعقل قال اجتنب محارم الله وأد فرائض الله تكن عاقلا ثم تنفل بصالحات الاعمال تزدد فى الدنيا عقلا وتزدد من ربك قربا وبه عزا وأنشدنى بعض أهل الادب هذه الابيات وذكر انها لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه

ان المكارم أخلاق مطهرة * فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها * والجود خامسها والعرف ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها * والشكر تاسعها واللين عاشيها
والنفس تعلم أنى لا أصدقها * ولست أرشد الاحين أعصيها
والعين تعلم من عينى محدثها * من كان من حزبها أومن أعاديها
عيناك قد دلتنا عينى منك على * أشياء لولاهما ما كنت تبديها

واعلم أن العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزى لانه نتيجة منه وقد ينفك العقل الغريزى عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل موفور الرذائل كالانوك الذى لا تجد له فضيلة والاحمق الذى قلما يخلو من رذيلة وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الأحمق كالفخار لا يرقع ولا يشعب وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الاحمق أبغض خلق الله اليه اذ حرمه أعز الاشياء عليه وقال بعض الحكماء الحاجة الى العقل أقبح من الحاجة الى المال وقال بعض البلغاء دولة الجاهل عبرة العاقل وقال أنوشروان لبرزجمهر أى الاشياء خير للمرء قال عقل يعيش به قال فان لم يكن قال فاخوان يسترون عيبه قال فان لم يكن قال فمال يتحبب به الى الناس قال فان لم يكن قال فعى صامت قال فان

هو قابل أبدا حامل أتم وأكمل من حمل الاجسام للاعراض فاذن النفس ليست جسما ولا جزأ من جسم ولا عرضا وأيضا فان الطول والعرض والعمق الذى به صار الجسم جسما يحصل فى النفس فى قوتها الوهمية من غير أن تصير به طويلة عريضة عميقة ثم تزداد فيها هذه المعانى أبدا بلا نهاية فلا تصير بها أطول ولا أعرض ولا أعمق بل لا تصير بها جسما ألبتة ولا اذا تصورت أيضا كيفيات الجسم تكيفت بها أعنى اذا تصورت الالوان والطعوم والروائح لم تتصور بها كما تتصور الاجسام ولا يمنع بعضها قبول بعض من اضدادها كما يمنع فى الجسم بل تقبلها كلها فى حالة واحدة بالسواء وكذلك حالها فى المعقولات فانها تزداد بكل معقول

لم يكن قال فوت حارف وقال سابور بن أزدشير العقل نوعان أحدهما مطبوع والآخر مسموع ولا يصلح واحد منهما الا بصاحبه فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال

رأيت العقل نوعين * فمسموع ومطبوع
ولا ينفع مسموع * اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

وقد وصف بعض الأدباء العاقل بما فيه من الفضائل والاحمق بما فيه من الرذائل فقال العاقل اذا والى بذل فى المودة نصره واذا عادى رفع عن الظلم قدره فيسعد مواليه بعقله و يعتصم معاديه بعدله ان أحسن الى أحد ترك المطالبة بالشكر وان أساء اليه مسيء سبب له أسباب العذر أو منحه الصفح والعفو والاحمق ضال مضل ان أونس تكبر وان أوحش تكدر وان استنطق تخلف وان ترك تكلف مجالسته مهنه ومعاتبته محنه ومحاورته تعر وموالاته تضر ومقاربته عمى ومقارنته شقا * وكانت ملوك الفرس اذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل والاحمق يسيء الى غيره و يظن أنه قد أحسن اليه فيطالبه بالشكر ويحسن اليه فيظن أنه قد أساء فيطالبه بالوتر فساوى الاحمق لا تنقضى وعيوبه لا تتناهى ولا يقف النظر منها الى غاية الا لوحت ماوراءها مما هو أدنى منها وأردى وأمر وأدهى فما أكثر العبر لمن نظر وأنفعها لمن اعتبر * وقال الاحنف بن قيس من كل شيء يحفظ الاحمق الا من نفسه وقال بعض البلغاء ان الدنيا ربما أقبلت على الجاهل بالاتفاق وأدبرت عن العاقل بالاستحقاق فان أتتك منها سهمة مع جهل أوفاتتك منها بغية مع عقل فلا يحملنك ذلك على الرغبة فى الجهل والزهد فى العقل فدولة الجاهل من الممكنات ودولة العاقل من الواجبات وليس من أمكنه شيء من ذاته كمن استوجبه بآلته وأدواته وبعد فدولة الجاهل كالغريب الذى يحن الى النقلة ودولة العاقل كالنسيب الذى يحن الى الوصلة فلا يفرح المرء بحالة جليلة نالها بغير عقل ومنزلة رفيعة حلها بغير فضل فان الجهل ينزله منها ويزيله عنها ويحطه الى رتبته ويرده الى قيمته بعد أن تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير مادحه هاجيا ووليه معاديا واعلم أنه بحسب ما ينشر من فضائل العاقل كذلك يظهر من رذائل الجاهل حتى يصير مثلا فى الغابرين وحديثا فى الآخرين مع هتكه فى عصره وقبح ذكره فى دهره كالذى رواه عطاء عن جابر قال كان فى بنى اسرائيل رجل له حمار فقال يارب لو كان لك حمار لعلفته مع حمارى فهم به نبي من أنبياء الله فأوحى الله اليه انما أثيب كل انسان على قدر عقله واستعمل معاوية رجلا من كلب فذكر المجوس يوما عنده فقال لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم والله لو أعطيت عشرة آلاف درهم ما نكحت أمى فبلغ ذلك معاوية فقال قبحه الله أترونه لو زادوه فعل وعزله و ولى الربيع العامرى وكان من النوكى سائر اليمامة فأقاد كلبا بكلب فقال فيه الشاعر

شهدت بأن الله حق لقاؤه * وأن الربيع العامرى رقيع
أقاد لنا كلبا بكلب ولم يدع * دماء كلاب المسلمين تضيع

وليس لمعار الجهل غاية ولا لمضار الحمق نهاية قال الشاعر

تحصل له قوة على قبول غيره دائما أبدا بلا نهاية وهذه حال التمقابلة لاحوال الاجسام وخاصة فى غاية البعد من خواصها * وأيضا فان الجسم قواه لا تعرف العلوم الا من الحواس ولا يميل الا اليها فهى تتشوقها بالملابسة والمشابكة كالشهوات البدنية ومحبة الانتقام والغلبة وبالجملة كل ما يحس ويوصل اليه الحس * والجسم يزداد بهذه الاشياء قوة ويستفيد منها تماما وكمالا لانها مادته وأسباب وجوده فهو يفرح بها ويشتاق اليها من أجل أنها تتمم وجوده وتزيد فيه وتمده فأما هذا المعنى الآخر الذى سميناه نفسا فانه كلما تباعد من هذه المعانى البدنية التى أحصيناها وتداخل الى ذاته وتخلى من الحواس بأكثر ما يمكن ازداد قوة

لكل داء دواء يستطب به * الا الحماقة أعيت من يداويها

﴿ فصل ﴾ وأما الهوى فهو عن الخير صاد وللعقل مضاد لانه ينتج من الاخلاق قبائحها ويظهر من الافعال فضائحها ويجعل ستر المروءة مهتوكا ومدخل الشر مسلوكا . قال عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما الهوى اله يعبد من دون الله ثم تلا أفرأيت من اتخذ الهه هواه وقال عكرمة فى قوله تعالى ولكنكم فتنتم أنفسكم يعنى بالشهوات وتربصتم يعنى بالتوبة وارتبتم يعنى فى أمر الله وغرتكم الامانى يعنى بالتسويف حتى جاء أمر الله يعنى الموت وغركم بالله الغرور يعنى الشيطان . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اقلعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلاعة تنزع الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مرى وان الباطل خفيف وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة أورثت حزنا طويلا وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه أخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الامل فان اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الامل ينسى الآخرة وقال الشعبى انما سمى الهوى هوى لانه يهوى بصاحبه وقال اعرابى الهوى هوان ولكن غلط باسمه فأخذه الشاعر وقال

ان الهوان هو الهوى قلب اسمه * فاذا هويت فقد لقيت هوانا

وقيل فى منثور الحكم من أطاع هواه أعطى عدوه مناه . وقال بعض الحكماء العقل صديق مقطوع والهوى عدو متبوع وقال بعض البلغاء أفضل الناس من عصى هواه وأفضل منه من رفض دنياه . وقال هشام بن عبد الملك بن مروان

اذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى * الى كل ما فيه عليك مقال

قال ابن المعتز رحمه الله لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت . وقال الشاعر

اذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى * فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
وقد أشمت الاعداء جهلا بنفسه * وقد وجدت فيه مقالا عواذله
وما يردع النفس اللجوج عن الهوى * من الناس الا حازم الرأى كامله

ولما كان الهوى غالبا والى سبيل المهالك موردا جعل العقل عليه رقيبا مجاهدا يلاحظ عثرة غفلته ويدفع بادرة سطوته ويدفع خداع حيلته لان سلطان الهوى قوى ومدخل مكره خفى ومن هذين الوجهين يؤتى العاقل حتى تنفذ أحكام الهوى عليه أعنى بأحد الوجهين قوة سلطانه وبالآخر خفاء مكره فاما الوجه الاول فهو أن يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى يستولى عليه مغالبة الشهوات فيكل العقل عن دفعها ويضعف عن منعها مع وضوح قبحها فى العقل المقهور بها وهذا يكون فى الاحداث أكثر وعلى الشبان أغلب لقوة شهواتهم وكثرة دواعى الهوى المتسلط عليهم وانهم ربما جعلوا الشباب عذرا لهم كما قال محمد بن بشير

كل يرى أن الشباب له * فى كل مبلغ لذة عذر

ولذلك قال بعض الحكماء الهوى ملك غشوم ومتسلط ظلوم . وقال بعض الادباء الهوى

وتماما وكمالا وتظهر له الاراء الصحيحة والمعقولات البسيطة . وهذا اذن أدل دليل على أن طباعه وجوهره من غير طباع الجسم والبدن وأنه أكرم جوهرا وأفضل طباعا من كل ما فى هذا العالم من الامور الجسمانية * وأيضا فان تشوقها الى ما ليس من طباع البدن وحرصها على معرفة حقائق الامور الآلهية وميلها الى الامور التى هى أفضل من الامور الجسمية وايثارها لها وانصرافها عن الامور واللذات الجسمانية يدلنا دلالة واضحة أنها من جوهر أعلى وأكرم جدا من الامور الجسمانية . لانه لا يمكن فى شئ من الاشياء أن يتشوق ما ليس من طباعه وطبيعته و أن ينصرف عما يكمل ذاته

عسوف والعدل مألوف . وقال بعض الشعراء

يا عاقلا أردى الهوى عقله * مالك قد سدت عليك الامور

أتجعل العقل أسير الهوى * وانما العقل عليه أمير

وحسم ذلك أن يستعين بالعقل على النفس النفور ويشعرها ما في عواقب الهوى من شدة الضرر وقبح الاثر وكثرة الاجرام وتراكم الآثام . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات . أخبر أن الطريق الى الجنة احتمال المكاره والطريق الى النار اتباع الشهوات . قال على بن أبي طالب رضي الله عنه اياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم فان عاجلها ذميم وآجلها وخيم فان لم ترها تنقاد بالتحذير والارهاب فسوّفها بالتأميل والارغاب فان الرغبة والرهبة اذا اجتمعا على النفس ذلت لهما وانقادت وقد قال ابن السماك كن لهواك مسوفا ولعقلك مسعفا وانظر الى ما تسوء عاقبته فوطن نفسك على مجانبته فان ترك النفس وما تهوى داؤها وترك ما تهوى دواؤها فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء . وقال الشاعر

صبرت على الايام حتى تولت * وألزمت نفسي صبرها فاستمرت

وما النفس الا حيث يجعلها الفتى * فان أطعمت تاقت والا تسلت

فاذا انقادت النفس للعقل بما قد أشعرت من عواقب الهوى لم يلبث الهوى أن يصير بالعقل مدحورا وبالنفس مقهورا ثم له الحظ الاوفى في ثواب الخالق وثناء المخلوقين . قال الله تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى . وقال الحسن البصري أفضل الجهاد جهاد الهوى . وقال بعض الحكماء أعز العز الامتناع من ملك الهوى . وقال بعض البلغاء خير الناس من أخرج الشهوة من قلبه وعصى هواه في طاعة ربه . وقال بعض الادباء من أمات شهوته فقد أحيى مروءته . وقال بعض العلماء ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن آدم من كليهما فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم . وقيل لبعض الحكماء من أشجع الناس وأحراهم بالظفر في مجاهدته قال من جاهد الهوى طاعة لربه واحترس في مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه . وقال بعض الشعراء

قد يدرك الحازم ذو الرأي المنى * بطاعة الحزم وعصيان الهوى

وأما الوجه الثاني فهو أن يخفى الهوى مكره حتى تموه أفعاله على العقل فيتصور القبيح حسنا والضرر نفعا وهذا يدعو اليه أحد شيئين اما أن يكون للنفس ميل الى ذلك الشئ فيخفى عنها القبيح لحسن ظنها وتتصوره حسنا لشدة ميلها . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم حبك الشئ يعمي ويصم أي يعمي عن الرشد ويصم عن الموعظة . وقال على رضي الله عنه الهوى عمى . قال الشاعر * حسن في كل عين من تود * وقال عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه

ولست براء عيب ذي الود كله * ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا

ويقوم جوهره فاذن كانت أفعال النفس اذا انصرفت الى ذاتها فارقت الحواس مخالفة لافعال البدن ومضادة لها في محاولاتها وارادتها فلا محالة أن جوهرها مفارق لجوهر البدن ومخالف له في طبعه

وأيضا فان النفس وان كانت تأخذ كثيرا من مبادي العلوم عن الحواس فلها من نفسها مباد أخر وأفعال لا تأخذها عن الحواس ألبتة وهي المبادي الشريفة العالية التي تبنى عليها القياسات الصحيحة . وذلك أنها اذا حكمت انه ليس بين طرفي النقيض واسطة فانها لم تأخذ هذا الحكم من شئ آخر لانه أولي ولو أخذته من شئ آخر لم يكن أوليا . وأيضا فان الحواس تدرك المحسوسات فقط وأما

فعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدى المساويا

وأما السبب الثانى فهو اشتغال الفكر فى تمييز ما اشتبه فيطلب الراحة فى اتباع ما استسهل حتى يظن أن ذلك أوفق أمر به وأحمد حاليه اغترارا بان الاسهل محمود والاعسر مذموم فلن يعدم أن يتورط بخدع الهوى وزينة المكر فى كل مخوف حذر ومكر وعسر. ولذلك قال عامر بن الظرب الهوى يقظان والعقل راقد فمن ثم غلب . وقال سليمان بن وهب الهوى أمنع والرأى أنفع وقيل فى المثل العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح . وقال الشاعر

اذا المرء أعطى نفسه كلما اشتهت * ولم ينهها تاقت الى كل باطل
وساقت اليه الاثم والعار بالذى * دعته اليه من حلاوة عاجل

وحسم السبب الاول أن يجعل فكر قلبه حكما على نظر عينه فان العين رائد الشهوة والشهوة من دواعى الهوى والقلب رائد الحق والحق من دواعى العقل . وقال بعض الحكماء نظر الجاهل بعينه وناظره ونظر العاقل بقلبه وخاطره ثم يتهم نفسه فى صواب ما أحبت وتحسين ما اشتهت ليتضح له الصواب ويتبين له الحق فان الحق أثقل محملا وأصعب مركبا فان أشكل عليه أمران اجتنب أحبهما اليه وترك أسهلهما عليه فان النفس عن الحق أنفر وللهوى آثر . وقد قال العباس بن عبد المطلب اذا اشتبه عليك أمران فدع أحبهما اليك وخذ أثقلهما عليك وعلة هذا القول هو أن الثقيل يبطئ النفس عن التسرع اليه فيتضح مع الابطاء وتطاول الزمان صواب ما استعجم وظهور ما استبهم . وقد قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه من تفكر أبصر والمحبوب أسهل شئ تسرع النفس اليه وتعجل بالاقدام عليه فيقصر الزمان عن تصفحه ويفوت استدراكه بتصير فعله فلا ينفع التصفح بعد العمل ولا الاستبانة بعد الفوت وقال بعض الحكماء ما كان عنك معرضا فلا تكن له متعرضا وقال الشاعر

أليس طلاب ماقد فات جهلا * وذكر المرء مالا يستطيع

ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى وما يقارنه من محن الدنيا فقال الهوى مطية الفتنه والدنيا دار المحنه فانزل عن الهوى تسلم وأعرض عن الدنيا تغنم ولا يغرنك هواك بطيب الملاهى ولا تفتنك دنياك بحسن العوارى فمدة اللهو تنقطع وعارية الدهر ترتجع ويبقى عليك ما ترتكبه من المحارم وتكتسبه من المآثم . وقال على بن عبد الله الجعفرى سمعتنى امرأة بالطواف وأنا أنشد

أهوى هوى الدين واللذات تعجبنى * فكيف لى بهوى اللذات والدين

فقالت هما ضرتان فذر أيهما شئت وخذ الاخرى فاما فرق ما بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما فى العلة والمعلول واتفاقهما فى الدلالة والمدلول فهو ان الهوى مختص بالآراء والاعتقادات والشهوة مختصة بنيل اللذة فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهى أخص والهوى أصل هو أعم . ونحن نسأل الله تعالى أن يكفينا دواعى الهوى ويصرف عنا سبل الردى ويجعل التوفيق لنا قائدا والعقل لنا مرشدا . فقد روى أن الله تعالى أوحى الى عيسى

النفس فانها تدرك أسباب الاتفاقات وأسباب الاختلافات التى من المحسوسات وهى معقولاتها التى لا تستعين عليها بشئ من الجسم ولا آثار الجسم وكذلك اذا حكمت على الحس انه صدق او كذب فلست تاخذ هذا الحكم من الحس لانه لا يضاد نفسه فيما يحكم فيه ونحن نجد النفس العاقلة فينا تستدرك شيأ كثيرا من خطأ الحواس فى مبادى أفعالها وترد عليها أحكامها . من ذلك ان البصر يخطئ فيما يراه من قرب ومن بعد أما خطؤه فى البعيد فبادراكه الشمس صغيرة مقدارها عرض قدم وهى مثل الارض مائة ونيفا وستين مرة يشهد بذلك البرهان العقلى فتقبل منه وترد على حس ما شهد به

عليه السلام عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحى منى • وقال محمد بن كناسة

مامن روى أدبا فلم يعمل به * ويكف عن زيغ الهوى باديب
حتى يكون بما تعلم عاملا * من صالح فيكون غير معيب
ولقلما تغنى اصابة قائل * أفعاله أفعال غير مصيب

وقال آخر

ياأيها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى * كيما يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فانت حكيم
فهناك تعذر ان وعظت ويقتدى * بالقول منك وينفع التعليم
لاتنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

حكى أبو فروة أن طارقا صاحب شرطة خالد القسرى مر بابن شبرمة وطارق فى موكبه فقال ابن شبرمة

أراها وان كانت تحب كأنها * سحابة صيف عن قريب تقشع

اللهم لى دينى ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه أبو بكر أتذكر قولك يوم كذا اذ مر بك طارق فى موكبه فقال يابنى انهم يجدون مثل أبيك ولا يجد أبوك مثلهم ان أباك أكل من حلوائهم فحط فى أهوائهم أماترى هذا الدين الفاضل كيف عوجل بالتقريع وقوبل بالتوبيخ من أخص ذويه ولعله من أبر بنيه فكيف بنا ونحن أطلق منه عنانا وأقلق منه جنانا اذا رمقتنا أعين المتبعين وتناولتنا ألسن المتعنتين هل نجد غير توفيق الله تعالى ملاذا وسوى عصمته معاذا

باب أدب العلم

اعلم أن العلم أشرف مارغب فيه الراغب وأفضل ماطلب وجد فيه الطالب وأنفع ماكسبه واقتناه الكاسب لان شرفه يثمر على صاحبه وفضله ينمى على طالبه • قال الله تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون فمنع المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم • وقال تعالى ومايعقلها الا العالمون فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرا أو يفهم منه زجرا • وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أوحى الى ابراهيم عليه السلام انى عليم أحب كل عليم • وروى أبو أمامة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد فقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا • وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الناس أبناء مايحسنون • وقال مصعب بن الزبير تعلم العلم فان يكن لك مال كان لك جمالا وان لم يكن لك مال كان لك مالا • وقال عبد الملك بن مروان لبنيه يابنى تعلموا العلم فان كنتم سادة فقتم وان كنتم وسطا سدتم وان كنتم سوقة عشتم وقال بعض الحكماء العلم شرف لاقدر له والادب مال لاخوف عليه • وقال بعض الادباء العلم أفضل خلف والعمل به أكمل شرف • وقال

فلا يقبله • واما خطؤه فى القريب فبمنزلة ضوء الشمس اذا وقع علينا من ثقب مربعات صغار كخلل الاخواز وأشباهها التى يستظل بها فانه يدرك بها الضوء الواصل الينا منها مستديرا فترد النفس العاقلة عليه هذا الحكم وتغلطه فى ادراكه وتعلم انه ليس كما يراه وتخطئ البصر ايضا فى حركة القمر والسحاب والسفينة والشاطئ وتخطأ فى الاساطين المسطرة والنخيل واشباهها حين يراها مختلفة فى أوضاعها وتخطئ ايضا فى الاشياء التى تتحرك على الاستدارة حتى يراها كالحلقة والطوق وتخطئ ايضا فى الاشياء الغائصة فى الماء حتى يرى أن بعضه أكبر من مقداره ويرى بعضها مكسورا وهو صحيح وبعضها معوجا وهو مستقيم وبعضها

بعض البلغاء تعلم العلم فانه يقومك ويسددك صغيرا ويقدمك ويسودك كبيرا ويصلح زيفك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوم عوجك وميلك ويصحح همتك وأملك . وقال على رضى الله تعالى عنه قيمة كل امرئ ما يحسن فأخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

لا يكون العلى مثل الدنى * لا ولا ذو الذكاء مثل الغبى
قيمة المرء قدر ما يحسن المر * ء قضاء من الامام على

وليس يجهل فضل العلم الا أهل الجهل لان فضل العلم انما يعرف بالعلم وهذا أبلغ فى فضله لان فضله لا يعلم الا به فلما عدم الجهال العلم الذى به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله واسترذلوا أهله وتوهموا أن ما تميل اليه نفوسهم من الاموال المقتناه والطرف المشتهاه أولى أن يكون اقبالهم عليها وأحرى أن يكون اشتغالهم بها . وقد قال ابن المعتز فى منثور الحكم العالم يعرف الجاهل لانه كان جاهلا والجاهل لا يعرف العالم لانه لم يكن عالما وهذا صحيح ولاجله انصرفوا عن العلم وأهله انصراف الزاهدين وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعاندين لان من جهل شيأ عاداه . وأنشدنى ابن لنكك لابى بكر بن دريد

جهلت فعاديت العلوم وأهلها * كذاك يعادى العلم من هو جاهله
ومن كان يهوى أن يرى متصدرا * ويكره لا أدرى أصيبت مقاتله

وقيل لبزرجمهر العلم أفضل أم المال فقال بل العلم قيل فما بالنا نرى العلماء على أبواب الاغنياء ولا نكاد نرى الاغنياء على أبواب العلماء فقال ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الاغنياء بفضل العلم . وقيل لبعض الحكماء لم لا يجتمع العلم والمال فقال لعز الكمال . فأنشدت لبعض أهل هذا العصر

وفى الجهل قبل الموت موت لاهله * فأجسامهم قبل القبور قبور
وان امرأ لم يحى بالعلم ميت * فليس له حتى النشور نشور

ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسا ولا يسقم نفسا فأخرج له طعاما ونفقة فقال فاقتى الى كلامكم أشد من فاقتى الى طعامكم انى طالب هدى لا سائل ندى فاذن له العالم وأفاده عن كل ما سأل عنه فخرج جذلا فرحا وهو يقول علم أوضح لبسا خير من مال أغنى نفسا واعلم ان كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها محال قيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلوم فقال كل الناس . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه فى غير منزلته التى وصفه الله بها حيث يقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا . وقال بعض العلماء لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته كنا قد بدأنا العلم بالنقيصة ولكنا نطلبه لننقص فى كل يوم من الجهل ونزداد فى كل يوم من العلم . وقال بعض العلماء المتعمق فى العلم كالسابح فى البحر ليس يرى أرضا ولا يعرف طولا ولا عرضا . وقيل لحماد الراوية أما تشبع من هذه العلوم فقال استفرغنا فيها المجهود فلم نبلغ منها المحدود فنحن كما قال الشاعر اذا قطعنا علما بدا علم . وأنشد الرشيد عن المهدى بيتين وقال أظنهما له

يا نفس خوضى بحار العلم أو غوصى * فالناس ما بين معموم ومخصوص

منكسرا وهو منتصب . فيستخرج العقل اسباب هذه كلها من مباد عقلية ويحكم عليها احكاما صحيحة وكذلك الحال فى حاسة السمع وحاسة الذوق وحاسة الشم وحاسة اللمس . أعنى حاسة الذوق تغلط فى الحلو تجده مرا عند المريض أو ما اشبهه وحاسة الشم تغلط كثيرا فى الاشياء المنتنة لاستيفاء المنتقل من رائحة الى رائحة فالعقل يرد هذه القضايا ويقف فيها ثم يستخرج أسبابها ويحكم فيها أحكاما صحيحة والحاكم فى الشئ المزيف له او المصحح أفضل واعلى رتبة من المحكوم عليه وبالجملة فان النفس اذ علمت ان الحس صدق أو كذب فليست تأخذ هذا العلم من الحس ثم اذا علمت انها قد أدركت معقولاتها فليست تعلم هذا العلم من علم

لاشئ فى هـــذه الدنيا نحيط به * الا احاطـــة منقوص بمنقوص

واذا لم يكن الى معرفة جميع العـــلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة أهمها والعناية بأولاها وأفضلها وأولى العـــلوم وأفضلها علم الدين لان الناس بمعرفتـــه يرشدون وبجهله يضلون اذ لا يصح أداء عبادة جهل فاعلها صفات أدائها ولم يعلم شروط اجزائها . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العلم خير من فضل العبادة وانما كان كذلك لان العلم يبعث على فضل العبادة والعبادة مع خلو فاعلها من العـــلم بها قد لا تكون عبادة فلزم علم الدين كل مكلف . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم وفيه تأويلان أحدهما علم ما لا يسع جهله من العبادات والثانى جملة العلم اذا لم يقم بطلبه من فيه كفاية واذا كان علم الدين قد أوجب الله تعالى فرض بعضه على الاعيان وفرض جميعه على الكافة كان أولى مما لم يجب فرضه على الاعيان ولا على الكافة . قال الله تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهـــم لعلهم يحذرون . وروى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فاذا هو بمجلسين أحدهما يذكرون الله تعالى والآخر يتفقهون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا المجلســـين على خيـــر وأحـــدهما أحب الى من صاحبـــه أما هؤلاء فيسألون الله تعالى ويذكرونه فان شاء أعطاهم وان شاء منعهم وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفـــقه ويعلمون الجاهل وانما بعثت معلما وجلس الى أهل الفقه . وروى مروان بن جناح عن يونس بن ميسرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الخير عادة والشر لجاجة ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خيار أمتى علماؤها وخيار علمائها فقهاؤها . وروى معاذ بن رفاعة عن ابراهيم بن عبد الرحمن العذرى قال قال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ليحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنـــه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال على خلفائى قالوا ومن خلفاؤك قال الذين يحيون سنتى ويعلمونها عباد الله . وروى حميد عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال التفقه فى الدين حق على كل مســـلم ألا فتعلموا وعلموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالا وروى سليمان ابن يسار عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وســـلم قال ما عبد الله بشئ أفضل من فقه فى الدين ولفقيه واحد أشـــد على الشيطان من ألف عابد ولكل شئ عماد وعماد الدين الفقه وربما مال بعض المتهاونين بالدين الى العلوم العقليـــة ورأى أنها أحق بالفضيلة وأولى بالتقدمة استثقالا لما تضمنه الدين من التـــكليف واسترذالا لما جاء به الشرع من التعبد والتوقيف والـــكلام مع مثل هذا فى أصل لا يتسع له هـــذا الفصل وان ترى ذلك فيمن سلمت فطنته وصحت رويته لان العقل يمنع من أن يكون الناس همـلا أو سدى يعتمدون على آرائهم المختلفـــة وينقادون لاهوائهم المتشعبة لما تؤول اليـــه أمورهم من الاختـــلاف والتنازع وتفضى اليه أحوالهـــم من التباين والتقاطع فلم يستغنوا عن دين يتألفون به ويتفقون عليه ثم العقل موجب له أو مانع ولو تصوره هذا المختل التصور أن الدين ضرورة فى العقل وأن العقل فى الدين أصل لقصر عن التقصير وأذعن للحق ولـــكن أهمل نفســـه فضل

آخر لانها لو علمت هذا العلم من علم آخر لاحتاجت فى ذلك العلم أيضا الى علم آخر وهـــذا أمر بلا نهاية فاذن علمها بأنها علمت ليس بمأخوذ من عـــلم آخر البتة بل هو من ذاتها وجوهرها أعنى العقل وليست تحتاج فى ادراكها ذاتها الى شئ آخر غير ذاتها ولهذا ما قيل فى أوائل هذا العلم . ان العقل والعاقل والمعقول شئ واحـــد لا غيرية ثم يتبين فى موضعه . فاما الحواس فلا تحس ذواتها ولا اداء وموافق لها كل الموافقة كما سيتبين أيضا واذ قد تبين من هـــذه الاشـــياء بيانا واضحا ان النفس ليست بجسم ولا بجزء من جســـم ولا حالا من أحوال الجسم وأنها شئ آخر مفارق للجسم بجوهره واحكامه وخواصه وافعاله فنقول

وأصل وقد يتعلق بالدين علوم قد بين الشافعي فضيلة كل واحد منها فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم العربية رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه ولعمري ان صيانة النفس أصل الفضائل لان من أهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته وتوكلا على ما يلزم الناس من صيانته سلبوه فضيلة علمه ووسموه بقبيح تبذله فلم يف ما أعطاه العلم بما سلبه التبذل لان القبيح أتم من الجميل والرذيلة أشهر من الفضيلة لان الناس لما في طباعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن الى المساوى فلا ينصفون محسنا ولا يحابون مسيئا لاسيما من كان بالعلم موسوما واليه منسوبا فان زلته لا تقال وهفوته لا تعذر اما لقبح أثرها واغترار كثير من الناس بها . وقد قيل فى منثور الحكم ان زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام من أشد الناس فتنة قال زلة العالم اذا زل زل بزلته عالم كثير فهذا وجه واما الآن الجهال بذمه أغرى وعلى تنقيصه أحرى ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة التخصيص عنادا لما جهلوه ومقتا لما باينوه لان الجاهل يرى العلم تكلفا ولوما كما أن العالم يرى الجهل تخلفا وذما وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه

ومنزلة السفيه من الفقيه * كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد فى قرب هذا * وهذا فيه أزهد منه فيه
اذا غلب الشقاء على سفيه * تقطع فى مخالفة الفقيه

وقال يحيى بن خالد لابنه عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدو ما جهل وأنا أكره أن تكون عدو شىء من العلم وأنشد

تفنن وخذ من كل علم فانما * يفوق امرؤ فى كل فن له علم
فانت عدو للذى أنت جاهل * به ولعلم أنت تتقنه سلم

واذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها أمن تعيير الموالى وتنقيص المعادى وجمع الى فضيلة العلم جميل الصيانة وعز النزاهة فصار بالمنزلة التى يستحقها بفضائله . وروى أبو الدرداء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال العلماء ورثة الانبياء لان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم . وروى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للانبياء على العلماء فضل درجتين وللعلماء على الشهداء فضل درجة . وقال بعض البلغاء ان من الشريعة ان تجل أهل الشريعة ومن الصنيعة أن ترب حسن الصنيعة فينبغى لمن استدل بفطرته على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل أن ينفى عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم وغفلة الاهمال باستيقاظ المعاناة ويرغب فى العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجده ولا نفوذ أمر وعلو منزلة فان من نفذ أمره فهو الى العلم أحوج ومن علت منزلته فهو بالعلم أحق . وروى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك . وقد قال بعض الادباء كل عز لا يوطده علم مذله وكل علم لا يؤيده عقل مضله . وقال

﴿ شوق النفس الى أفعالها الخاصة بها ﴾

أما شوقها الى أفعالها الخاصة بها أعنى العلوم والمعارف مع هربها من أفعال الجسم الخاصة به فهو فضيلتها وبحسب طلب الانسان لهذه الفضيلة وحرصه عليها يكون فضله وهذا الفضل يتزايد بحسب عناية الانسان بنفسه وانصرافه عن الامور العائقة له عن هذا المعنى بجهده وطاقته وقد وضح مما تقدم ما الاشياء العائقة لنا عن الفضائل أعنى الاشياء البدنية والحواس وما يتصل بها . فاما الفضائل أنفسها فليست تحصل لنا الا بعد أن تطهر نفوسنا من الرذائل التى هى اضدادها أعنى شهواتها الرديئة الجسمانية ونزواتها الفاحشة البهيمية . فان

بعض

بعض علماء السلف اذا أراد الله بالناس خيرا جعل العلم فى ملوكهم والملك فى علمائهم .
وقال بعض البلغاء العلم عصمة الملوك لانه يمنعهم من الظلم ويردهم الى الحلم ويصدهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويستبطنوا أهله فأما المال فظل زائل وعارية مسترجعة وليس فى كثرته فضيلة ولو كانت فيه فضيلة لخص الله به من اصطفاه لرسالته واجتباه لنبوته وقد كان أكثر أنبياء الله تعالى مع ما خصهم الله به من كرامته وفضلهم على سائر خلقه فقراء لا يجدون بلغة ولا يقدرون على شئ حتى صاروا فى الفقر مثلا . قال البحترى

فقر كفقر الانبياء وغربة * وصبابة ليس البلاء بواحد

ولعدم الفضيلة فى المال منحه الله الكافر وحرمه المؤمن . قال الشاعر

كم كافر بالله أمواله * تزداد أضعافا على كفره
ومؤمن ليس له درهم * يزداد ايمانا على فقره
بالائم الدهر وأفعاله * مشتغلا يزرى على دهره
الدهر مأمور له آمر * ينصرف الدهر على أمره

وقد بين على بن أبى طالب رضى الله عنه فضل ما بين العلم والمال فقال العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال العلم حاكم والمال محكوم عليه مات خزان الاموال وبقى خزان العلم أعيانهم مفقوده وأشخاصهم فى القلوب موجوده . وسئل بعض العلماء أيما أفضل المال أم العلم فقال الجواب عن هذا أيما أفضل المال أم العقل . وقال صالح ابن عبد القدوس

لا خير فيمن كان خير ثنائه * فى الناس قولهم غنى واجد

وربما امتنع الانسان من طلب العلم لكبر سنه واستحيائه من تقصيره فى صغره أن يتعلم فى كبره فرضي بالجهل أن يكون موسوما به وآثره على العلم أن يصير مبتدئا به وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل لان العلم اذا كان فضيلة فرغبة ذوى الاسنان فيه أولى والابتداء بالفضيلة فضيلة ولأن يكون شيخا متعلما أولى من أن يكون شيخا جاهلا . حكى أن بعض الحكماء رأى شيخا كبيرا يحب النظر فى العلم ويستحى فقال له ياهذا أتستحى أن تكون فى آخر عمرك أفضل مما كنت فى أوله . وذكر أن ابراهيم بن المهدى دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون فى الفقه فقال ياعم ما عندك فيما يقول هؤلاء فقال يا أمير المؤمنين شغلونا فى الصغر واشتغلنا فى الكبر فقال لم لا تتعلمه اليوم قال أو يحسن بمثلى طلب العلم قال نعم والله لان تموت طالبا للعلم خير من أن تعيش قانعا بالجهل قال والى متى يحسن بى طلب العلم قال ما حسنت بك الحياة لان الصغير أعذر وان لم يكن فى الجهل عذر لانه لم تطل به مدة التفريط ولا استمرت عليه أيام الاهمال . وقد قيل فى منثور الحكم جهل الصغير معذور وعلمه محقور فاما الكبير فالجهل به أقبح ونقصه عليه أفضح لان علو السن اذا لم يكسبه فضلا ولم يفده علما وكانت أيامه فى الجهل ماضية ومن الفضل خالية كان الصغير أفضل منه لان الرجاء له أكثر والامل فيه أظهر وحسبك نقصا فى رجل يكون الصغير المساوى

الانسان اذا علم أن هذه الاشياء ليست فضائل بل هى رذائل تجنبها وكره ان يوصف بها واذا ظن انها فضائل لزمها وصارت له عادة وبحسب التباسه وتدنسه بها يكون بعده من قبول الفضائل وقد يظهر للانسان ان هذه الاشياء التى يشتاقها البدن بالحواس ويميل اليها الجمهور أعنى المآكل والمشارب والمناكح هى رذائل وليست فضائل وانه اذا عقلها فى الحيوانات الأخر وجد كثيرا منها أقدر على الاستكثار منها وأحرص عليها كالخنزير والكلب وأصناف كثيرة من حيوان الماء وسباع الوحش والطير فانها أقوى وأحرص من الانسان على هذه الاشياء وأكثر احتمالا لها وليست تكون بها أفضل من الانسان وأيضا

له في الجهل أفضل منه . وأنشدت لبعض أهل الادب

اذا لم يكن مر السنين مترجما * عن الفضل في الانسان سميته طفلا
وما تنفع الايام حين يعدها * ولم يستفد فيهن علما ولا فضلا
أرى الدهر من سوء التصرف مائلا * الى كل ذي جهل كأن به جهلا

وربما امتنع من طلب العلم لتعذر المادة وشغله اكتسابها عن التماس العلم وهذا وان كان أعذر من غيره مع أنه قلما يكون ذلك الا عند ذي شره وعيب وشهوة مستعبدة فينبغي أن يصرف الى العلم حظا من زمانه فليس كل الزمان زمان اكتساب ولابد للمكتسب من أوقات استراحة وأيام عطلة ومن صرف كل نفسه الى الكسب حتى لم يترك لها فراغا الى غيره فهو من عبيد الدنيا واسراء الحرص . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شئ فترة فمن كانت فترته الى العلم فقد نجا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كونوا علماء صالحين فان لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء واسمعوا علما يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى . وقال بعض العلماء من أحب العلم أحاطت به فضائله . وقال بعض الحكماء من صاحب العلماء وقر ومن جالس السفهاء حقر وربما منعه من طلب العلم ما يظنه من صعوبته وبعد غايته ويخشى من قلة ذهنه وبعد فطنته وهذا الظن اعتذار ذوي النقص وخيفة أهل العجز لان الاخبار قبل الاختبار جهل والخشية قبل الابتلاء عجز وقد قال الشاعر

لا تكونن للامور هيوبا * فالى خيبة يصير الهيوب

وقال رجل لابي هريرة رضي الله عنه أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال كفى بترك العلم إضاعة وليس وان تفاضلت الاذهان وتفاوتت الفطن ينبغي لمن قل منها حظه أن ييأس من نيل القليل وادراك اليسير الذي يخرج به من حد الجهالة الى أدنى مراتب التخصيص فان الماء مع لينه يؤثر في صم الصخور فكيف لا يؤثر العلم الزكي في نفس راغب شهي وطالب خلي لاسيما وطالب العلم معان . قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب وربما منع ذا السفاهة من طلب العلم أن يصور في نفسه حرفة أهله وتضايق الامور مع الاشتغال به حتى يسمهم بالادبار ويتوسمهم بالحرمان فان رأى محبرة تطير منها وان رأى كتابا أعرض عنه وان رأى متقلبا بالعلم هرب منه كأنه لم ير عالما مقبلا وجاهلا مدبرا ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوي منازل وأحوال كنت أخفي عنهم ما يصحبني من محبرة وكتاب لئلا أكون عندهم مستثقلا وان كان البعد عنهم مؤنسا ومصلحا والقرب منهم موحشا ومفسدا . فقد قال بزرجمهر الجهل في القلب كالنز في الارض يفسد ما حوله لكن اتبعت فيهم الحديث المروي عن أبي الاشعث عن أبي عثمان عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خالطوا الناس بأخلاقهم وخالفوهم في أعمالهم . ولذلك قال بعض البلغاء رب جهل وقيت به علما وسفه حميت به حلما وهذه الطبقة ممن لا يرجى لها صلاح ولا يؤمل لها فلاح لان من اعتقد أن العلم شين وأن تركه زين وأن للجهل اقبالا مجديا وللعلم ادبارا مكديا كان ضلاله

فان الانسان اذا اكتفى من طعامه وشرابه وسائر لذاته البدنية اذا عرض عليه الاستزادة منها كما يستزاد من الفضائل أبى ذلك وعافه وتبين له قبح صورة من يتعاطاها لاسيما مع الاستغناء عنها والاكتفاء منها بل يتجاوز ذلك الى مقته وذمه بل الى تقريعه وتأديبه فينبغي الآن أن نقدم امام ما نطلبه من سعادة النفس وفضائلها كلاما يسهل به فهم ما نريده فنقول

كل موجود من حيوان ونبات وجماد وكذلك بسائطها أعني النار والهواء والارض والماء وكذلك الاجرام العلوية له قوى وملكات وأفعال بها يصير ذلك الموجود هو ما هو وبها يتميز عن كل ما سواه وله أيضا قوى وملكات وأفعال بها يشارك ما سواه ولما كان الانسان من بين الموجودات كلها هو

مستحكما ورشاده مستبعدا وكان هو الخامس الهالك الذى قال فيه على بن أبى طالب رضى الله عنه اغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك • وقد رواه خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن النبى صلى الله عليه وسلم مسندا وليس لمن هذه حاله فى العذل نفع ولا فى الاصلاح مطمع • وقد قيل لبزرجمهر مالكم لا تعاتبون الجهال فقال إنا لا نكلف العمى أن يبصروا ولا الصم أن يسمعوا وهذه الطائفة التى تنفر من العلم هذا النفور وتعاند أهله هذا العناد ترى العقل بهذه المثابة وتنفر من العقلاء هذا النفور وتعتقد أن العاقل محارف وأن الاحمق محظوظ وناهيك بضلال من هذا اعتقاده فى العقل والعلم هل يكون لخير أهلا أو لفضيلة موضعا • وقد قال بعض البلغاء أخبث الناس المساوى بين المحاسن والمساوى وعلة هذا أنهم رأوا عالما وعاقلا غير محظوظ وعالما غير مرزوق فظنوا أن العلم والعقل هما السبب فى قلة حظه ورزقه وقد انصرفت عيونهم عن حرمان أكثر النوكى وادبار أكثر الجهال لان فى العقلاء والعلماء قلة وعليهم من فضلهم سمة ولذلك قيل العلماء غرباء لكثرة الجهال فاذا ظهرت سمة فضلهم وصادف ذلك قلة حظ بعضهم تنوهوا بالتميز واشتهروا بالتعيين فصاروا مقصودين باشارة المتعنتين ملحوظين بايماء الشامتين والجهال والحمقى لما كثروا ولم يتخصصوا انصرفت عنهم النفوس فلم يلحظ المحروم منهم بطرف شامت ولا قصد المجدود منهم باشارة عائب فلذلك ظن الجاهل المرزوق أن الفقر والضيق مختصان بالعلم والعقل دون الجهل والحمق ولو فتشت أحوال العلماء والعقلاء مع قلتهم لوجدت الاقبال فى أكثرهم ولو اختبرت أمور الجهال والحمقى مع كثرتهم لوجدت الحرمان فى أكثرهم وانما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظا مشتهرا لان حظه عجيب واقباله مستغرب كما أن حرمان العاقل العالم غريب واقلاله عجيب ولم تزل الناس على سالف الدهور من ذلك متعجبين وبه معتبرين حتى قيل لبزرجمهر ما أعجب الاشياء فقال نجح الجاهل واكداء العاقل لكن الرزق بالحظ والجد لا بالعلم والعقل حكمة منه تعالى يدل بها على قدرته واجراء الامور على مشيئته • وقد قالت الحكماء لو جرت الاقسام على قدر العقول لم تعش البهائم فنظمه أبو تمام فقال

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل * ويكدى الفتى من دهره وهو عالم
ولو كانت الارزاق تجرى على الحجى * هلكن اذن من جهلهن البهائم

وقال كعب بن زهير بن أبى سلمى

لو كنت أعجب من شئ لاعجبنى * سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لامور ليس يدركها * والنفس واحدة والهم منتشر

على أن العلم والعقل سعادة واقبال وان قل معهما المال وضاقت معهما الحال والجهل والحمق حرمان وادبار وان كثر معهما المال واتسعت معهما الحال لان السعادة ليست بكثرة المال فكم من مكثر شقى ومقل سعيد وكيف يكون الجاهل الغنى سعيدا والجهل يضعه أم كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه • وقد قيل فى منثور الحكم كم من ذليل أعزه علمه ومن عزيز أذله جهله • وقال عبد الله بن المعتز الجاهل كروضة على مزبلة •

الذى يلتمس له الخلق المحمود والافعال المرضية وجب أن لا ننظر فى هذا الوقت فى قواه وملكاته وأفعاله التى بها يشارك سائر الموجودات اذ كان ذلك من حق صناعة أخرى وعلم آخر يسمى العلم الطبيعى وأما أفعاله وقواه وملكاته التى يختص بها من حيث هو انسان وبها تتم انسانيته وفضائله فهى الامور الارادية التى بها تتعلق قوة الفكر والتمييز والنظر فيها يسمى الفلسفة العملية والاشياء الارادية التى تنسب الى الانسان تنقسم الى الخيرات والشرور وذلك ان الغرض المقصود من وجود الانسان اذا توجه الواحد منا اليه حتى يحصل هو الذى يجب أن يسمى به خيرا أو سعيدا فاما من عاقه عنها عوائق أخر فهو الشرير الشقى فاذن

وقال بعض الحكماء كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد قبحا . وقال بعض العلماء لبنيه يابنى تعلموا العلم فان لم تنالوا به من الدنيا حظا فلأن يذم الزمان لكم أحب الىّ من أن يذم الزمان بكم . وقال بعض الادباء من لم يفد بالعلم مالا كسب به جمالا . وأنشد بعض أهل الادب لابن طباطبا

حسود مريض القلب يخفى أنينه * ويضحى كئيب البال عندى حزينه
يلوم على أن رحت للعلم طالبا * أجمع من عند الرواة فنونه
فأعرف أبكار الكلام وعونه * وأحفظ مما أستفيد عيونه
ويزعم أن العلم لايكسب الغنى * ويحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيالائمى دعنى أغالى بقيمتى * فقيمة كل الناس مايحسنونه

وأنا أستعيذ بالله من خدع الجهل المذلة وبوادر الحمق المضلة وأسأله السعادة بعقل رادع يستقيم به من زل وعلم نافع يستهدى به من ضل . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا استرذل الله عبدا حظر عليه العلم فينبغى لمن زهد فى العلم أن يكون فيه راغبا وان رغب فيه أن يكون له طالبا وان طلبه أن يكون منه مستكثرا ولمن استكثر منه أن يكون به عاملا ولا يطلب لتركه احتجاجا ولا للتقصير فيه عذرا . وقد قال الشاعر

فلا تعذرانى فى الاساءة انه * شرار الرجال من يسيء فيعذر

ولا يسوّف نفسه بالمواعيد الكاذبة ويمنيها بانقطاع الاشغال المتصلة فان لكل وقت شغلا ولكل زمان عذرا . وقال الشاعر

نروح ونغدو لحاجاتنا * وحاجة من عاش لاتنقضى
تموت مع المرء حاجاته * وتبقى له حاجة مابقى

ويقصد طلب العلم واثقا بتيسير الله قاصدا وجه الله تعالى بنية خالصة وعزيمة صادقة . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من تعلم علما لغير الله وأراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار . وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال تعلموا العلم قبل أن يرفع ورفعه ذهاب أهله فان أحدكم لايدرى متى يحتاج اليه أومتى يحتاج الى ماعنده وليحذر أن يطلبه لمراء أو رياء فان الممارى به مهجور لاينتفع والمرائى به محقور لايرتفع . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لاتعلموا العلم لتماروا به السفهاء ولا تعلموا العلم لتجادلوا به العلماء فمن فعل ذلك منكم فالنار مثواه وليس الممارى به هو المناظر فيه طالبا للصواب منه ولكنه القاصد لدفع مايرد عليه من فاسد أو صحيح وفيهم جاءت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لايجادل الامنافق أومرتاب وقال الاوزاعى اذا أراد الله بقوم شرا أعطاهم الجدل ومنعهم العمل . وأنشد الرياشى لمصعب بن عبد الله

أجادل كل معترض ظنين * وأجعل دينه غرضا لدينى
وأترك ماعلمت لرأى غيرى * وليس الرأى كالعلم اليقين
وما أنا والخصومة وهى لبس * يصرف فى الشمال وفى اليمين
فاما ماعلمت فقد كفانى * وأما ماجهلت فجنبونى

الخيرات هى الامور التى تحصل للانسان بارادته وسعيه فى الامور التى لها أوجد الانسان ومن أجلها خلق والشرور هى الامور التى تعوقه عن هذه الخيرات بارادته وسعيه أو كسله وانصرافه والخيرات قد قسمها الاوّلون الى أقسام كثيرة وذلك ان منها ماهى شريفة ومنها ماهى ممدوحة ومنها ماهى بالقوة كذلك ونعنى بالقوة التهيؤ والاستعداد ونحن نعددها فيما بعد ان شاء الله تعالى وقد قدمنا القول ان كل واحد من الموجودات له كمال خاص وفعل لايشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشئ أعنى انه لايجوز ان يكون موجود آخر سواه يصلح لذلك الفعل منه وهذا حكم مستمر فى الامور العلوية والسفلية كالشمس وسائر الكواكب وكأنواع الحيوان كلها كالفرس

وقد بين ذلك بعض العلماء فقال لصاحبه لا يمنعنك حذر المراء من حسن المناظرة فان المماري هو الذي لا يريد أن يتعلم منه أحد ولا يرجو أن يتعلم من أحد واعلم أن لكل مطلوب باعثا والباعث على المطلوب شيآن رغبة أو رهبة فليكن طالب العلم راغبا راهبا أما الرغبة ففي ثواب الله تعالى لطالبي مرضاته وحافظي مفترضاته وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركي أوامره ومهملي زواجره فاذا اجتمعت الرغبة والرهبة أدتا الى كنه العلم وحقيقة الزهد لان الرغبة أقوى الباعثين على العلم والرهبة أقوى السببين في الزهد . وقد قالت الحكماء أصل العلم الرغبة وثمرته السعادة وأصل الزهد الرهبة وثمرته العبادة فاذا اقترن الزهد والعلم فقد تمت السعادة وعمت الفضيلة وان افترقا فياويح مفترقين ما أضر افتراقهما وأقبح انفرادهما . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من ازداد في العلم رشدا فلم يزدد في الدنيا زهدا لم يزدد من الله الا بعدا . وقال مالك بن دينار من لم يؤت من العلم ما يقمعه فما أوتي منه لا ينفعه . وقال بعض الحكماء الفقيه بغير ورع كالسراج يضيء البيت ويحرق نفسه

﴿فصل﴾ واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي الى أواخرها ومداخل تفضي الى حقائقها فليبتدئ طالب العلم بأوائلها لينتهي الى أواخرها وبمداخلها لتفضي الى حقائقها ولا يطلب الآخر قبل الاول ولا الحقيقة قبل المدخل فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة لان البناء على غير أس لا يبنى والثمر من غير غرس لا يجنى ولذلك أسباب فاسدة ودواع واهية فمنها أن يكون في النفس أغراض تختص بنوع من العلم فيدعوه الغرض الى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته كرجل يؤثر القضاء ويتصدى للحكم فيقصد من علم الفقه أدب القاضي وما يتعلق به من الدعوى والبينات أو يحب الاتسام بالشهادة فيتعلم كتاب الشهادات لئلا يصير موسوما بجهل ما يعاني فاذا أدرك ذلك ظن أنه قد حاز من العلم جمهوره وأدرك منه مشهوره ولم ير ما بقي منه الا غامضا طلبه عناء وعويصا استخراجه فناء لقصور همته على ما أدرك وانصرافها عما ترك ولو نصح نفسه لعلم أن ما ترك أهم مما أدرك لان بعض العلم مرتبط ببعض ولكل باب منه تعلق بما قبله فلا تقوم الاواخر الا بأوائلها وقد يصح قيام الاوائل بأنفسها فيصير طلب الاواخر بترك الاوائل تركا للاوائل والاواخر فاذا ليس يعرى من لوم وان كان تارك الكل ألوم ومنها أن يحب الاشتهار بالعلم اما للتكسب أو للتجمل فيقصد من العلم ما اشتهر من مسائل الجدل وطريق النظر ويتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه ليناظر على الخلاف وهو لا يعرف الوفاق ويجادل الخصوم وهو لا يعرف مذهبا مخصوصا ولقد رأيت من هذه الطبقة عددا قد تحققوا بالعلم تحقق المتكلمين واشتهروا به اشتهار المتبحرين اذا أخذوا في مناظرة الخصوم ظهر كلامهم واذا سئلوا عن واضح مذهبهم ضلت أفهامهم حتى انهم ليخبطون في الجواب خبط عشواء فلا يظهر لهم صواب ولا يتقرر لهم جواب ثم لا يرون ذلك نقصا اذا عقوا في المجالس كلاما مرصوفا ولفقوا على المخالف حجاجا مألوفا وقد جهلوا من المذاهب ما يعلم المبتدي ويتداوله الناشي فهم دائما في لغط مضل أو غلط مذل

والبازي وكأنواع النبات والمعادن وكالعناصر البسائط التي متى تصفحت أحوالها تبين للمتمعن جميعها صحة ما قلناه وحكمناه فاذن الانسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص به لا يشاركه فيه غيره وهو ما صدر عن قوته المميزة المروية فكل من كان تمييزه أصح ورويته أصدق واختياره أفضل كان أكمل في انسانيته وكما ان السيف والمنشار وان صدر عن كل واحد منهما فعله الخاص بصورته الذي من أجله عمل فافضل السيوف ما كان أمضى وأنضر وما كفاه يسير من الاعماء في بلوغ كماله الذي أعدله وكذلك الحال في الفرس والبازي وسائر الحيوانات فان أفضل الافراس ما كان أسرع حركة وأشد تيقظا لما يريده

سورأ.قومامنهم يرون الاشتغال بالمذاهب تكلفا والاستكثار منه تخلفا وحاجني بعضهم عليه فقال لان علم حافظ المذاهب مستور والعلم المناظر عليه مشهور فقلت فكيف يكون علم حافظ المذاهب مستورا وهو سريع الجواب كثير الصواب فقال لانه ان لم يسئل سكت فلم يعرف والمناظر ان لم يسئل سأل فعرف فقلت أليس اذا سئل الحافظ فاصاب بان فضله قال نعم قلت أفليس اذا سئل المناظر فأخطأ بان نقصه وقد قيل عند الامتحان يكرم المرء أو يهان فامسك عن جوابي لانه ان أنكر كابر المعقول ولو اعترف لزمته الحجة والامساك اذعان والسكوت رضى وأن يتمادى الى الحق أولى من أن يستفزه الباطل وهذه طريقة من يقول اعرفوني وهو غير عروف ولا معروف وبعيد ممن لا يعرف العلم أن يعرفه . وقد قال زهير

ومهما تكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم

ومن أسباب التقصير أيضا أن يغفل عن التعلم فى الصغر ثم يشتغل به فى الكبر فيستحى أن يبتدئ بما يبتدئ الصغير ويستنكف أن يساويه الحدث الغرير فيبدأ بأواخر العلوم وأطرافها ويهتم بحواشيها وأكنافها ليتقدم على الصغير المبتدى ويساوى الكبير المنتهى وهذا ممن رضى بخداع نفسه وقنع بمداهنة حسه لان معقوله ان أحس ومعقول كل ذى حس يشهد بفساد هذا التصور وينطق باختلال هذا التخيل لانه شئ لا يقوم فى وهم ولجهل ما يبتدئ به المتعلم أقبح من جهل ما ينتهى اليه العالم . وقد قال الشاعر

ترق الى صغير الامر حتى * يرقيك الصغير الى الكبير
فتعرف بالتفكر فى صغير * كبيرا بعد معرفة الصغير

ولهذا المعنى وأشباهه كان المتعلم فى الصغر أحمد . روى مروان بن سالم عن اسمعيل بن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذى يتعلم فى صغره كالنقش على الحجر والذى يتعلم فى كبره كالذى يكتب على الماء . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه قلب الحدث كالاراضى الخالية ما ألقى فيها من شئ قبلته وانما كان كذلك لان الصغير أفرغ قلبا وأقل شغلا وأيسر تبذلا وأكثر تواضعا . وقد قيل فى منثور الحكم المتواضع من طلاب العلم أكثرهم علما كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء فأما أن يكون الصغير أضبط من الكبير اذا عرى من هذه الموانع وأوعى منه اذا خلا من هذه القواطع فلا . حكى أن الاحنف بن قيس سمع رجلا يقول التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر فقال الاحنف الكبير أكثر عقلا ولكنه أشغل قلبا ولعمرى لقد فحص الاحنف عن المعنى ونبه على العلة لان قواطع الكبير كثيرة فمنها ما ذكرنا من الاستحياء . وقد قيل فى منثور الحكم من رق وجهه رق علمه . وقال الخليل بن أحمد يرتع الجهل بين الحياء والكبر فى العلم ومنها وفور شهواته وتقسم أفكاره . وقال الشاعر

صرف الهوى عن ذى الهوى عزيز * ان الهوى ليس له تمييز

وقال بعض البلغاء ان القلب اذا علق كالرهن اذا غلق ومنها الطوارق المزعجة والهموم

الفارس منه فى طاعة اللجام وحسن القبول فى الحركات وخفة العدو والنشاط فكذلك الناس أفضلهم من كان أقدر على افعاله الخاصة به وأشد تمسكا بشرائط جوهره الذى تميز به عن الموجودات

﴿الحرص على الخيرات﴾

فاذن الواجب الذى لا مرية فيه أن نحرص على الخيرات التى هى كمالنا والتى من أجلها خلقنا ونجتهد فى الوصول الى الانتهاء اليها ونتجنب الشرور التى تعوقنا عنها وتنقص حظنا منها فان الفرس اذا قصر عن كماله ولم تظهر أفعاله الخاصة به على أفضل أحوالها حط عن مرتبة الفرسية واستعمل بالاكاف كما تستعمل الحمير وكذلك حال السيف وسائر الآلات متى قصرت

المذهلة • وقد قيل فى منثور الحكم الهم قيد الحواس • وقال بعض البلغاء من بلغ أشده لاقى من العيش أشده ومنها كثرة اشتغاله وترادف حالاته حتى انها تستوعب زمانه وتستنفذ أيامه فاذا كان ذا رئاسة ألهته وان كان ذا معيشة قطعته ولذلك قيل تفقهوا قبل أن تسودوا • وقال بزرجمهر الشغل مجهده والفراغ مفسده فينبغى لطالب العلم أن لا يني فى طلبه وينتهز الفرصة به فربما شح الزمان بما سمح وضن بما منح ويبتدئ من العلم باوله ويأتيه من مدخله ولا يتشاغل بطلب ما لا يضر جهله فيمنعه ذلك من ادراك ما لا يسعه جهله فان لكل علم فصولا مذهلة وشذورا مشغلة ان صرف اليها نفسه قطعته عما هو أهم منها • وقال ابن عباس رضى الله عنهما العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شئ أحسنه • وقال المأمون ما لم يكن العلم بارعا فبطون الصحف أولى به من قلوب الرجال • وقال بعض الحكماء بترك ما لا يعنيك تدرك ما يغنيك ولا ينبغى أن يدعوه ذلك الى ترك ما استصعب عليه اشعارا لنفسه ان ذلك من فضول علمه واعذارا لها فى ترك الاشتغال به فان ذلك مطية النوكى وعذر المقصرين ومن أخذ من العلم ما تسهل وترك منه ما تعذر كان كالقناص اذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع الا خائبا اذ ليس يرى الصيد الا ممتنعا كذلك العلم كله صعب على من جهله سهل على من علمه لان معانيه التى يتوصل اليها مستودعة فى كلام مترجم عنها وكل كلام مستعمل فهو يجمع لفظا مسموعا ومعنى مفهوما فاللفظ كلام يعقل بالسمع والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب ‖ وقد قال بعض الحكماء العلوم مطالعها من ثلاثة أوجه قلب مفكر ولسان معبر وبيان مصور فاذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه واذا فهم المعانى سقط عنه كلفة استخراجها وبقى عليه معاناة حفظها واستقرارها لان المعانى شوارد تضل بالاغفال والعلوم وحشية تنفر بالارسال فاذا حفظها بعد الفهم أنست واذا ذكرها بعد الانس رست وقال بعض العلماء من أكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما علم واستفاد ما لم يعلم وقال الشاعر

اذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه * ولم يستفد علما نسى ما تعلما

فكم جامع للكتب فى كل مذهب * يزيد مع الايام فى جمعه عمى

وان لم يفهم معانى ما سمع كشف عن السبب المانع منها ليعلم العلة فى تعذر فهمها فان بمعرفة أسباب الاشياء وعللها يصل الى تلافى ما شذ وصلاح ما فسد وليس يخلو السبب المانع من ذلك من ثلاثة أقسام إما أن يكون لعلة فى الكلام المترجم عنها وإما أن يكون لعلة فى المعنى المستودع فيها وإما أن يكون لعلة فى السامع المستخرج فان كان السبب المانع من فهمها العلة فى الكلام المترجم عنها لم يخل ذلك من ثلاثة أحوال أحدها أن يكون لتقصير اللفظ عن المعنى فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنى سببا مانعا من فهم ذلك المعنى وهذا يكون من أحد وجهين إما من حصر المتكلم وعيه وإما من بلادته وقلة فهمه الحال الثانى أن يكون لزيادة اللفظ على المعنى فتصير الزيادة علة مانعة من فهم المقصود منه وهذا قد يكون من أحد وجهين اما من هذر المتكلم واكثاره واما لسوء ظنه بفهم سامعه والحال الثالث أن يكون لمواضعة يقصدها المتكلم بكلامه فاذا لم يعرفها السامع لم يفهم معانيها

ونقصت أفعاله الخاصة بها حطت عن مراتبها واستعملت استعمال ما دونها والانسان اذا نقصت أفعاله وقصرت عما خلق له أعنى أن تكون أفعاله التى تصدر عنه وعن رويته غير كاملة أحرى بان يحط عن مرتبة الانسانية الى مرتبة البهيمة هذا ان صدرت أفعاله الانسانية عنه ناقصة غير تامة فاذا صدرت عنه الافعال بضد ما أعد له أعنى الشرور التى تكون بالروية الناقصة والعدول بها عن جهتها لاجل الشهوة التى يشارك فيها البهيمة أولا والاغترار بالأمور الحسية التى تشغله عما عرض له من تزكية نفسه التى ينتهى بها الى الملك الرفيع والسرور الحقيقى وتوصله الى قرة العين التى قال الله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين

وأما تقصير اللفظ وزيادته فمن الاسباب الخاصة دون العامة لانك لست تجد ذلك عاما فى كل الكلام وانما تجده فى بعضه فان عدلت عن الكلام المقصر الى الكلام المستوفى وعن الزائد الى الكافى أرحت نفسك من تكلف ما يكد خاطرك وان أقمت على استخراجه اما لضرورة دعتك اليه عند اعواز غيره أو لحمية داخلتك عند تعذر فهمه فانظر فى سبب الزيادة والتقصير فان كان التقصير لحصر والزيادة لهذر سهل عليك استخراج المعنى منه لان ماله من الكلام محصول لا يجوز أن يكون الخلل منه أكثر من الصحيح وفى الاكثر على الاقل دليل وان كانت زيادة اللفظ على المعنى دليلا لسوء ظن المتكلم بفهم السامع كان استخراجه أسهل وان كان تقصير اللفظ عن المعنى لسوء فهم المتكلم فهو أصعب الامور حالا وأبعدها استخراجا لان ما لم يفهمه متكلمك فأنت من فهمه أبعد الا أن يكون بفرط ذكائك وجودة خاطرك تتنبه باشارته على استنباط ما عجز عنه واستخراج ما قصر فيه فتكون فضيلة الاستيفاء لك وحق التقدم له وأما المواضعة فضربان عامة وخاصة أما العامة فهى مواضعة العلماء فيما جعلوه ألقابا لمعان لا يستغنى المتعلم عنها ولا يقف على معنى كلامهم الا بها كما جعل المتكلمون الجواهر والاعراض والاجسام ألقابا تواضعوها لمعان اتفقوا عليها ولست تجد من العلوم علما يخلو من هذا وهذه المواضعة العامة تسمى عرفا وأما الخاصة فمواضعة الواحد يقصد بباطن كلامه غير ظاهره فاذا كانت فى الكلام كانت رمزا وان كانت فى الشعر كانت لغزا فاما الرمز فلست تجده فى علم معنوى ولا كلام لغوى وانما يختص غالبا بأحد شيئين اما بمذهب شنيع يخفيه معتقده ويجعل الرمز سببا لتطلع النفوس اليه واحتمال التأويل فيه سببا لدفع التهمة عنه واما لما يدعى أربابه انه علم معوز وان ادراكه بديع معجز كالصنعة التى وضعها أربابها اسما لعلم الكيمياء فرمزوا بأوصافه وأخفوا معانيه ليوهموا الشح به والاسف عليه خديعة للعقول الواهية والآراء الفاسدة . وقد قال الشاعر

منعت شيأ فأكثرت الولوع به * أحب شئ الى الانسان ما منعا

ثم ليكونوا برآء من عهدة ما قالوه اذا جرب ولو كان ما تضمن هذين النوعين وأشباههما من الرموز معنى صحيحا وعلما مستفادا لخرج من الرمز الخفى الى العلم الجلى فان أغراض الناس مع اختلاف أهوائهم لا تتفق على ستر سليم واخفاء مفيد . وقد قال زهير

الستر دون الفاحشات ولا * يلقاك دون الخير من ستر

وربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعانى وتعظيمه من الالفاظ ليكون أحلى فى القلوب موقعا وأجل فى النفوس موضعا فيصير بالرمز سائرا وفى الصحف مخلدا كالذى حكى عن فيثاغورس فى وصاياه المرموزة أنه قال احفظ ميزانك من البذى وأوزانك من الصدى يريد بحفظ الميزان من البذى حفظ اللسان من الخنا وحفظ الاوزان من الصدى حفظ العقل من الهوى فصار بهذا الرمز مستحسنا ومدونا ولو قاله باللفظ الصريح والمعنى الصحيح لما سار عنه ولا استحسن منه وعلة ذلك ان المحجوب عن الافهام كالمحجوب عن الابصار فيما يحصل له فى النفوس من التعظيم وفى القلوب

من

وتبلغه الى رب العالمين فى النعيم المقيم واللذات التى لم ترها عين ولا سمعتها أذن ولا خطرت على قلب بشر وانخدع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة بتلك الخساسات التى لا ثبات لها فهو حقيق بالمقت من خالقه عز وجل خليق بتعجيل العقوبة له واراحة العباد والبلاد منه واذ تبين ان سعادة كل موجود انما هى صدور أفعاله التى تخص صورته عنه تامة كاملة وان سعادة الانسان تكون فى صدور أفعاله الانسانية عنه بحسب تمييزه ورويته وان لهذه السعادة مراتب كثيرة بحسب الروية والمروى فيه ولذلك قيل أفضل الروية ما كان فى أفضل مروى ثم ينزل رتبة فرتبة الى أن ينتهى الى النظر فى الامور الممكنة من العالم الحسى فيكون الناظر فى

من التفخيم وما ظهر منها ولم يحتجب هان واسترذل وهذا انما يصح استعلاؤه فيما قل وهو باللفظ الصريح مستقل فأما العلوم المنتشرة التي تتطلع النفوس اليها فقد استغنت بقوة الباعث عليها وشدة الداعي اليها عن الاستدعاء اليها برمز مستحلى ولفظ مستغرب بل ذلك منفر عنها لما في التشاغل باستخراج رموزها من الابطاء عن دركها فهذا حال الرمز وأما اللغز فهو تحري أهل الفراغ وشغل ذوي البطالة ليتنافسوا في تباين قرائحهم ويتفاخروا في سرعة خواطرهم فيستكدوا خواطر قد منحوا صحتها فيما لا يجدي نفعا ولا يفيد علما كأهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة أجسامهم الى صراع كدود يصرع عقولهم ويهد أجسامهم ولا يكسبهم حمدا ولا يجدي عليهم نفعا انظر الى قول الشاعر

رجل مات وخلف رجلا * ابن أم ابن أبي أخت أبيه
معه أم بني أولاده * وأبا أخت بني عم أخيه

أخبرني عن هذين البيتين وقد وعلك صعوبة ما تضمنهما من السؤال اذا استكددت الفكر في استخراجه فعلمت أنه أراد ميتا خلف أبا وزوجة وعما ما الذي أفادك من العلم ونفى عنك من الجهل ألست بعد علمه تجهل ما كنت جاهلا من قبله ولو أن السائل قلب لك السؤال فأخر ما قدم وقدم ما أخر لكنت في الجهل به قبل استخراجه كما كنت في الجهل الاول وقد كددت نفسك وأتعبت خاطرك ثم لا تعدم أن يرد عليك مثل هذا مما تجهله فتكون فيه كما كنت قبله فاصرف نفسك تولى الله رشدك عن علوم النوكى وتكلف البطالين . فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . ثم اجعل ما منّ الله به عليك من صحة القريحة وسرعة الخاطر مصروفا الى علم ما يكون انفاق خاطرك فيه مذخورا وكد فكرك فيه مشكورا . وقد روى سعيد بن أبي هند عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ ونحن نستعيذ بالله من أن نغبن بفضل نعمته علينا ونجهل نفع احسانه الينا . وقد قيل في منثور الحكم من الفراغ تكون الصبوة . وقال بعض البلغاء من أمضى يومه في غير حق قضاه أو فرض أداه أو مجد أثله أو حمد حصله أو خير أسسه أو علم اقتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه . وقال بعض الشعراء

لقد هاج الفراغ عليك شغلا * وأسباب البلاء من الفراغ

فهذا تعليل ما في الكلام من الاسباب المانعة من فهم معانيه حتى خرج بنا الاستيفاء والكشف الى الاغماض . وأما القسم الثاني وهو أن يكون السبب المانع من فهم السامع لعلة في المعنى المستودع فلا يخلو حال المعنى من ثلاثة أقسام اما أن يكون مستقلا بنفسه او يكون مقدمة لغيره أو يكون نتيجة من غيره فأما المستقل بنفسه فضربان جلي وخفي فأما الجلي فهو يسبق الى فهم متصوره من أول وهلة وليس هو من أقسام ما يشكل على من تصوره وأما الخفي فيحتاج في ادراكه الى زيادة تأمل وفضل معاناة لينجلي عما أخفى وينكشف عما أغمض وباستعماله الفكر فيه يكون الارتياض به وبالارتياض به يسهل منه ما استصعب ويقرب منه ما بعد فان للرياضة جراءة وللدراية تأثيرا وأما ما كان مقدمة

هذه الاشياء قد استعمل رويته والصورة الخاصة به التي صار من أجلها سعيدا معرضا للملك الابدي والنعيم السرمدي في أشياء دنيئة لا وجود لها بالحقيقة فقد تبين أيضا أجناس من السعادات بالجملة واضدادها من الشقاوات وأجناسها وان الخيرات والشرور في الافعال الارادية هي اما باختيار الافضل والعمل به واما باختيار الادون والميل اليه ولما كانت هذه الخيرات الانسانية وملكاتها التي في النفس كثيرة ولم يكن في طاقة الانسان الواحد القيام بجميعها وجب أن يقوم بجميعها جماعة كثيرة منهم ولذلك وجب أن تكون أشخاص كثيرة وان يجتمعوا في زمان واحد على تحصيل هذه السعادات المشتركة لتكميل كل

لغيره فضربان أحدهما أن تقوم المقدمة بنفسها وان تعدت الى غيرها فتكون كالمستقل بنفسه فى تصوره وفهمه مستدعيا النتيجة والثانى أن يكون مفتقرا الى نتيجته فيتعذر فهم المقدمة الا بما يتبعهما من النتيجة لانها تكون بعضا وتبعيض المعنى أشكل له وبعضه لا يغنى عن كله وأما ما كان نتيجة لغيره فهو لا يدرك الا بأوله ولا يتصور على حقيقته الا بعقد متنه والاشتغال به قبل المقدمة عناء واتعاب الفكر فى استنباطه قبل قاعدته أذى فهذا يوضح تعليل ما فى المعانى من الاسباب المانعة من فهمها وأما القسم الثالث وهو أن يكون السبب المانع لعلة فى المستمع فذلك ضربان أحدهما من ذاته والثانى من طارئ عليه فأما ما كان من ذاته فيتنوع نوعين أحدهما ما كان مانعا من تصور المعنى والثانى ما كان مانعا من حفظه بعد تصوره وفهمه فأما ما كان مانعا من تصور المعنى وفهمه فهو البلادة وقلة الفطنة وهو الداء العياء . وقد قال بعض الحكماء اذا فقد العالم الذهن قل على الاضداد احتجاجه وكثر الى الكتب احتياجه وليس لمن بلى به الا الصبر والاقلال لانه على القليل أقدر وبالصبر أحرى أن ينال ويظفر . وقد قال بعض الحكماء قدم لحاجتك بعض لجاجتك وليس يقدر على الصبر من هذا حاله الا أن يكون غالب الشهوة بعيد الهمة فيشعر قلبه الصبر لقوة شهوته وجسده احتمال التعب لبعد همته فاذا تلوح له المعنى بمساعدة الشهوة أعقبه ذلك إلحاح الآملين ونشاط المدركين فقل عنده كل كثير وسهل عليه كل عسير . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تنالون ما تحبون الا بالصبر على ما تكرهون ولا تبلغون ما تهوون الا بترك ما تشتهون . وقيل فى منثور الحكم أتعب قدمك فان تعب قدمك . وقال بعض البلغاء اذا اشتد الكلف هانت الكلف . وأنشد بعض أهل الادب لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه

لا تعجزن ولا تدخلك مضجرة * فالنجح يهلك بين العجز والضجر

وأما المانع من حفظه بعد تصوره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير واهمال التوانى فينبغى لمن بلى به أن يستدرك تقصيره بكثرة الدرس ويوقظ غفلته بادامة النظر فقد قيل لا يدرك العلم من لا يطيل درسه ويكد نفسه وكثرة الدرس كدود لا يصبر عليه الا من يرى العلم مغنما والجهالة مغرما فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم وينفى عنه معرة الجهل فان نيل العظيم بأمر عظيم وعلى قدر الرغبة تكون المطالب وبحسب الراحة يكون التعب وقد قيل طلب الراحة قلة الاستراحة . وقال بعض الحكماء أكمل الراحة ما كانت عن كد التعب وأعز العلم ما كان عن ذل الطلب وربما استثقل المتعلم الدرس والحفظ واتكل بعد فهم المعانى على الرجوع الى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة فلا يكون الا كمن أطلق ما صاده ثقة بالقدرة عليه بعد الامتناع منه فلا تعقبه الثقة الا خجلا والتفريط الا ندما وهذه حال قد يدعو اليها أحد ثلاثة أشياء اما الضجر من معاناة الحفظ ومراعاته وطول الامل فى التوفر عليه عند نشاطه وفساد الرأى فى عزيمته وليس يعلم أن الضجور خائب وأن الطويل الامل مغرور وأن الفاسد الرأى مصاب والعرب تقول فى أمثالها حرف فى قلبك خير من ألف فى كتبك وقالوا لا خير فى علم لا يعبر معك الوادى ولا يعمر بك

واحد منهم بمعاونة الباقين له فتكون الخيرات مشتركة والسعادة مفروضة بينهم فيتوزعونها حتى يقوم كل واحد منهم بجزء منها ويتم للجميع بمعاونة الجميع الكمال الانسى وتحصل لهم السعادات الثلاث التى شرحناها فى كتاب الترتيب ولاجل ذلك وجب على الناس أن يحب بعضهم بعضا لان كل واحد يرى كماله عند الآخر ولولا ذلك لما تمت للفرد سعادته فيكون اذن كل واحد بمنزلة عضو من أعضاء البدن وقوام الانسان بتمام أعضاء بدنه

وقد تبين للناظر فى أمر هذه النفس وقواها انها تنقسم الى ثلاثة أعنى القوة التى بها يكون الفكر والتمييز والنظر فى حقائق الامور والقوة التى بها يكون الغضب والنجدة والاقدام

النادى وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه

علمى معى حيثما يممت ينفعنى * قلبى وعاء له لا بطن صندوق

ان كنت فى البيت كان العلم فيه معى * أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق

وربما اعتنى المتعلم بالحفظ من غير تصور ولا فهم حتى يصير حافظا لالفاظ المعانى قيما بتلاوتها وهو لا يتصورها ولا يفهم ما تضمنها يروى بغير روية ويخبر عن غير خبرة فهو كالكتاب الذى لا يدفع شبهة ولا يؤيد حجة . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال همة السفهاء الرواية وهمة العلماء الرعاية . وقال ابن مسعود رضى الله عنه كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة فقد يرعوى من لا يروى ويروى من لا يرعوى . وحدث الحسن البصرى بحديث فقال له رجل يا أبا سعيد عمن قال ما تصنع بعمن أما أنت فقد نالتك عظته وقامت عليك حجته . وربما اعتمد على حفظه وتصوره وأغفل تقييد العلم فى كتبه ثقة بما استقر فى ذهنه وهذا خطأ منه لان الشك معترض والنسيان طارئ . وقد روى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال قيدوا العلم بالكتاب . وروى أن رجلا شكى الى النبى صلى الله عليه وسلم النسيان فقال له استعمل يدك أى اكتب حتى ترجع اذا نسيت الى ما كتبت . وقال الخليل ابن أحمد اجعل ما فى الكتب رأس المال وما فى القلب النفقة . وقال مهبود لولا ما عقدته الكتب من تجارب الاولين لانحل مع النسيان عقود الآخرين . وقال بعض البلغاء ان هذه الآداب نوافر تند عن عقل الاذهان فاجعلوا الكتب عنها حماة والاقلام لها رعاة . وأما الطوارئ فنوعان أحدهما شبهة تعترض المعنى فتمنع عن نفس تصوره وتدفع عن ادراك حقيقته فينبغى أن يزيل تلك الشبهة عن نفسه بالسؤال والنظر ليصل الى تصور المعنى وادراك حقيقته . ولذلك قال بعض العلماء لا تخل قلبك من المذاكرة فتعود عقيما ولا تعف طبعك من المناظرة فيعود سقيما . وقال بشار بن برد

شفاء العمى طول السؤال وانما * دوام العمى طول السكوت على الجهل

فكن سائلا عما عناك فانما * دعيت أخا عقل لتبحث بالعقل

والثانى أفكار تعارض الخاطر فيذهل عن تصور المعنى وهذا سبب قل ما يعرى منه أحد لاسيما فيمن انبسطت آماله واتسعت أمانيه وقد يقل فيمن لم يكن له فى غير العلم أرب ولا فيما سواه همة فان طرأت على الانسان لم يقدر على مكابرة نفسه على الفهم وغلبة قلبه على التصور لان القلب مع الاكراه أشد نفورا وأبعد قبولا وقد جاء الاثر بان القلب اذا أكره عمى ولكن يعمل فى دفع ما طرأ عليه من هم مذهل أو فكر قاطع ليستجيب له القلب مطيعا وقد قال الشاعر

وليس بمغن فى المودة شافع * اذا لم يكن بين الضلوع شفيع

وقال بعض الحكماء ان لهذه القلوب تنافرا كتنافر الوحش فتألفوها بالاقتصاد فى التعليم والتوسط فى التقديم لتحسن طاعتها ويدوم نشاطها . فهذا تعليل ما فى المستمع من الاسباب المانعة من فهم المعانى . وههنا قسم رابع يمنع من معرفة الكلام وفهم معانيه ولكنه قد يعرى من بعض الكلام فلذلك لم يدخل فى جملة أقسامه ولم نستجز الاخلال بذكره لان من

على الاهوال والشوق الى التسلط والترفع وضروب الكرامات والقوة التى بها تكون الشهوة وطلب الغذاء والشوق الى الملاذ التى فى المآكل والمشارب والمناكح وضروب اللذات الحسية وهذه الثلاث متباينة ويعلم من ذلك ان بعضها اذا قوى أضر بالآخر وربما أبطل أحدهما فعل الآخر وربما جعلت نفوسا وربما جعلت قوى لنفس واحدة والنظر فى ذلك ليس يليق بهذا الموضع وأنت تكتفى فى تعلم الاخلاق بانها قوى ثلاث متباينة تقوى احداها وتضعف بحسب المزاج أو العادة أو التأديب فالقوة الناطقة هى التى تسمى الملكية وآلتها التى تستعملها من البدن الدماغ * والقوة الشهوية هى التى تسمى بالبهيمية وآلتها التى

الكلام ما كان مسموعا لا يحتاج فى فهمه الى تأمل الخط به والمانع من فهمه هو على ما ذكرنا من أقسامه ومنه ما كان مستودعا بالخط محفوظا بالكتابة مأخوذا بالاستخراج فكان الخط حافظا له ومعبرا عنه • وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى أو أثارة من علم قال يعنى الخط • وروى عن مجاهد فى قوله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء يعنى الخط ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا يعنى الخط والعرب تقول الخط أحد اللسانين وحسنه أحد الفصاحتين • وقال جعفر بن يحيى الخط سمط الحكمة به يفصل شذورها وينظم منثورها • وقال ابن المقفع اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم على الشاهد والغائب وهو للغابر الكائن مثله للقائم الدائم • وقال حكيم الروم الخط هندسة روحانية وان ظهرت بآلة جسمانية • وقال حكيم العرب الخط أصل فى الروح وان ظهر بحواس الجسد واختلف فى أول من كتب الخط فذكر كعب الاحبار أن أول من كتب آدم عليه السلام كتب سائر الكتب قبل موته بثلاثمائة سنة فى طين ثم طبخه فلما اغرقت الارض فى أيام نوح على نبينا وعليه السلام بقيت الكتابة فاصاب كل قوم كتابهم وبقى الكتاب العربى الى أن خص الله تعالى به اسماعيل فاصابه وتعلمها • وحكى ابن قتيبة أن أول من كتب ادريس على نبينا وعليه السلام وكانت العرب تعظم قدر الخط وتعده من أجل نافع حتى قال عكرمة بلغ فداء أهل بدر أربعة آلاف حتى ان الرجل ليفادى على أنه يعلم الخط لما هو مستقر فى نفوسهم من عظم خطره وجلالة قدره وظهور نفعه وأثره • وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم فوصف نفسه بالكرم وعد ذلك من نعمه العظام ومن آياته الجسام حتى أقسم به فى كتابه فقال سبحانه وتعالى ن والقلم وما يسطرون فاقسم بالقلم وما يخط بالقلم واختلف فى أول من كتب بالعربية • فذكر كعب الاحبار أن أول من كتب به آدم عليه السلام ثم وجدها بعد الطوفان اسماعيل على نبينا وعليه السلام • وحكى ابن عباس رضى الله عنه أن أول من كتب بها ووضعها اسماعيل عليه السلام على لفظه ومنطقه • وحكى عروة بن الزبير رضى الله عنه أن أول من كتب بها قوم من الاوائل أسماؤهم أبجد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت وكانوا ملوك مدين • وحكى ابن قتيبة فى المعارف أن أول من كتب بالعربى مرامر بن مرة من أهل الانبار ومن الانبار انتشرت • وحكى المدائنى أن أول من كتب بها مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن حدرة فمرامر وضع الصور وأسلم فصل ووصل وعامر وضع الاعجام ولما كان الخط بهذا الحال وجب على من أراد حفظ العلم أن يعبأ بأمرين أحدهما تقويم الحروف على أشكالها الموضوعة لها والثانى ضبط ما اشتبه منها بالنقط والاشكال المميزة لها ثم مازاد على هذين من تحسين الخط وملاحة نظمه فانما هو زيادة حذق بصنعته وليس بشرط فى صحته • وقد قال على بن عبيدة حسن الخط لسان اليد وبهجة الضمير وقال أبو العباس المبرد رداءة الخط زمانة الادب • وقال عبد الحميد البيان فى اللسان والخط فى البنان وأنشدنى بعض أهل العلم لاحد شعراء البصرة

اعذر أخاك على نذالة خطه * واغفر نذالته لجودة ضبطه

تستعملها من البدن الكبد *

والقوة الغضبية هى التى تسمى السبعية وآلتها التى تستعملها من البدن القلب فلذلك وجب أن يكون عدد الفضائل بحسب أعداد هذه القوى وكذلك أضدادها التى هى رذائل فمتى كانت حركة النفس الناطقة معتدلة وغير خارجة عن ذاتها وكان شوقها الى المعارف الصحيحة (لا المظنونة معارف وهى بالحقيقة جهالات) حدثت عنها فضيلة العلم وتبعها الحكمة ومتى كانت حركة النفس البهيمية معتدلة منقادة للنفس العاقلة غير متأبية عليها فيما تقسطه لها ولا منهمكة فى اتباع هواها حدثت عنها فضيلة العفة وتبعها فضيلة السخاء ومتى كانت حركة النفس

فاذا أبان عن المعانى لم يكن * تحسينــه الا زيادة شرطه
واعلم بان الخط ليس يرادمن * تركيبــه الا تبيين سمطه

ومحل مازاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف وحسن الصورة محل مازاد على الكلام المفهوم من فصاحة الالفاظ وصحة الاعراب ولذلك قالت العرب حسن الخط أحد الفصاحتين وكما أنه لا يعذر من أراد التقدم فى الكلام أن يطرح الفصاحة والاعراب وان فهم وأفهم كذلك لا يعذر من أراد التقدم فى الخط أن يطرح تصحيح الحروف وتحسين الصورة وان فهم وأفهم وربما تقدم بالخط من كان الخط من أجل فضائله وأشرف خصائله حتى صار عالما مشهورا وسيدا مذكورا غير أن العلماء اطرحوا صرف الهمة الى تحسين الخط لانه يشغلهم عن العلم ويقطعهم عن التوفر عليه ولذلك تجد خطوط العلماء فى الاغلب رديئة لا يخط الا من أسعده القضاء • وقد قال الفضل بن سهل من سعادة المرء أن يكون ردىء الخط لان الزمان الذى تفنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر وليست رداءة الخط هى السعادة وانما السعادة أن لا يكون له صارف عن العلم وعادة ذى الخط الحسن أن يتشاغل بتحسين خطه عن العلم فمن هذا الوجه صار برداءة خطه سعيدا وان لم تكن رداءة الخط سعادة واذا كان ذلك كذلك فقد يعرض للخط أسباب تمنع من قراءته ومعرفته كما يعرض للكلام أسباب تمنع من فهمه وصحته والاسباب المانعة من قراءة الخط وفهم ما تضمنه قد تكون من ثمانية أوجه (الوجه الاول) اسقاطه ألفاظا من أثناء الكلام يصير الباقى بها مبتورا لا يعرف استخراجه ولا يفهم معناه وهذا يكون اما من سهو الكاتب أو من فساد نقله وهذا يسهل استنباطه على من كان مرتاضا بذلك النوع فيستدل بحواشى الكلام وما سلم منه على ما سقط أو فسد لاسيما اذا قل لان الكلمة تستدعى ما يليها ومعرفة المعنى توضح عن الكلام المترجم عنه فاما من كان قليل الارتياض بذلك النوع فانه يصعب عليه استنباط المعنى منه لاسيما اذا كان كثيرا لانه يحتاج فى فهم المعانى الى الفكرة والروية فيما قد استخرجه بالكتابة فاذا هو لم يعرف تمام الكلام المترجم عن المعنى قصر فهمه عن ادراكه وضل فكره من استنباطه (والوجه الثانى) زيادة ألفاظ فى أثناء الكلام يشكل بها معرفة الصحيح غير الزائد من معرفة السقيم الزائد فيصير الكل مشكلا وهذا لا يكاد يوجد كثيرا الا ان يقصد الكاتب تعمية كلامه فيدخل فى أثنائه ما يمنع من فهمه فيصير ذلك رمزا يعرف بالمواضعة فاما وقوعه سهوا فقد يكون بالكلمة والكلمتين وذلك لا يمنع من فهمه على المرتاض وغيره (والوجه الثالث) اسقاط حروف من أثناء الكلمة تمنع من استخراجها على الصحة وقد يكون هذا تارة من السهو فيقل وتارة من ضعف الهجاء فيكثر والقول فيه كالقول فى الوجه الاول (والوجه الرابع) زيادة حروف فى أثناء الكلمة يشكل بها معرفة الصحيح ويكون تارة لتعمية ومواضعة يقصد بها الكاتب اخفاء غرضه فيكثر كالتراجم ويكون القول فيه كالقول فى الوجه الثانى (والوجه الخامس) وصل الحروف المفصولة وفصل الحروف الموصولة فيدعو ذلك الى الاشكال لان الكلمة ينبه عليها وصل حروفها ويمنع فصلها من مشاركة غيرها فان كان ذلك من سهو قل فسهل استخراجه وان كان ذلك من قلة

الغضبية معتدلة تطيع العاقلة فيما تسقطه لها فلا تهيج فى غير حينها ولا تحمى أكثر مما ينبغى لها حدثت منها فضيلة الحلم وتتبعها فضيلة الشجاعة ثم يحدث عن هذه الفضائل الثلاث باعتدالها ونسبة بعضها الى بعض فضيلة هى كمالها وتمامها وهى فضيلة العدالة فلذلك أجمع الحكماء على أن أجناس الفضائل اربع وهى الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ولهذا لا يفتخر أحد ولا يتباهى الا بهذه الفضائل فقط • فاما من افتخر بآبائه وأسلافه فلانهم كانوا على بعض هذه الفضائل أو عليها كلها وكل واحدة من هذه الفضائل اذا تعدت صاحبها الى غيره تسمى صاحبها بها ومدح عليها واذا اقتصرت على نفسه

معرفتنا الخط أو مشقا تسبق به اليد كثيرا فصعب استخراجه الا على المرتاض به • ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه شر الكتابة المشق كما ان شر القراءة الهذرمة وان كان للتعمية والرمز لا يعرف الا بالمواضعة (والوجه السادس) تغيير الحروف عن أشكالها وابدالها باغيارها حتى يكتب الحاء على شكل الباء والصاد على شكل الراء وهذا يكون في رموز التراجم ولا يوقف عليه الا بالمواضعة الا لمن قد زاد فيه الذكاء فقدر على استخراج المعنى (والوجه السابع) ضعف الخط عن تقويم الحروف على الاشكال الصحيحة واثباتها على الاوصاف الحقيقية حتى لا تكاد الحروف تمتاز عن أغيارها حتى تصير العين الموصولة كالفاء والمفصولة كالحاء وهذا يكون من رداءة الخط وضعف اليد واستخراج ذلك ممكن بفضل المعاناة وشدة التأمل وربما أضجر قارئه وأوهى معانيه • ولذلك قيل ان الخط الحسن ليزيد الحق وضوحا (والوجه الثامن) اغفال النقط والاشكال التي تتميز بها الحروف المشتبهة وهذا أيسر أمرا وأخف حالا لأن من كان متميزا بصحة الاستخراج ومعرفة الخط لم تخف عليه معرفة الخط وفهم ما تضمنه مع اغفال النقط والاشكال بل استقبح الكتاب ذلك في المكاتبات ورأوه من تقصير الكاتب أو سوء ظنه بفهم المكاتب وكان استقباحهم له في مكاتبة الرؤساء أكثر • حكى قدامة بن جعفر أن بعض كتاب الدواوين حاسب عاملا فشكى العامل منه الى عبيد الله بن سليمان وكتب رقعة يذكر فيها احتجاجا لصحة دعواه ووضوح شكواه فوقع فيها عبيد الله بن سليمان هذا هذا فأخذها العامل وقرأها فظن أن عبيد الله أراد بهذا هذا اثباتا لصحة دعواه وصدق قوله كما يقال في اثبات الشيء هو هو فحمل الرقعة الى كاتب الديوان وأراه خط عبيد الله وقال له ان عبيد الله قد صدق قولي وصحح ما ذكرت فخفي على الكاتب ذلك وأطيف به على كتاب الدواوين فلم يقفوا على مراد عبيد الله وردا اليه ليسأله عن مراده به فشدد عبيد الله الكلمة الثانية وكتب تحتها والله المستعان استعظاما منه لتقصيرهم في استخراج مراده حتى احتاج الى ابانته بالشكل فهذه حال الكتاب في استقباحهم اعجام المكاتبات بالنقط والاشكال فاما غير المكاتبات من سائر العلوم فلم يروه قبيحا بل استحسنوه لا سيما في كتب الادب التي يقصد بها معرفة صيغة الالفاظ وكيفية مخارجها مثل كتب النحو واللغة والشعر الغريب فان الحاجة الى ضبطها بالشكل والاعجام أكثر وهي فيما سواه من العلوم أيسر وقد قال الثوري الخطوط المعجمة كالبرود المعلمة • وقال بعض البلغاء اعجام الخط يمنع من استعجامه وشكله يؤمن من إشكاله • وقال بعض الادباء رب علم لم تعجم فصوله فاستعجم محصوله وكما استقبح الكتاب الشكل والاعجام في المكاتبات وان كان في كتب العلوم مستحسنا فكذلك استحسنوا مشق الخط في المكاتبات وان كان في كتب العلوم مستقبحا وسبب ذلك انهم لفرط ادلالهم في الصنعة وتقدمهم في الكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء شروط الابانة تقصيرا ولفضل ما يعتقدونه من التقدم بهذا الحال رأوا ما نبه عليه من سواد المداد أثرا جميلا وعلى الفضل والتخصيص دليلا • حكى أن عبيد الله بن سليمان رأى على بعض ثيابه أثر صفرة

لم يسم بها بل غيرت هذه الاسماء • أما الجود فانه اذا لم يتعد صاحبه سمي صاحبه منفاقا • وأما الشجاعة فان صاحبها يسمى أنفا • وأما العلم فان صاحبه يسمى مستبصرا ثم ان صاحب الجود والشجاعة اذا عم غيره بفضيلتيه وتعداه رجي باحداهما واحتشم وهيب بالاخرى وذلك في الدنيا فقط لانهما فضيلتان حيوانيتان • أما العلم اذا تعدى صاحبه فانه يرجى ويحتشم في الدنيا والآخرة لانه فضيلة انسانية ملكية واضداد هذه الفضائل الاربع أربع أيضا وهي الجهل والشره والجبن والجور وتحت كل واحد من هذه الاجناس أنواع كثيرة سنذكر منها ما يمكن ذكره فاما أشخاص الانواع فهي بلا نهاية وهي

= calligraphie ?

فأخذ

فأخذ من مداد الدواة فطلاه به ثم قال المداد بنا أحسن من الزعفران وأنشد

انما الزعفران عطر العذارى * ومداد الدوى عطر الرجال

فهذه جملة كافية فى الابانة عن الاسباب المانعة من فهم الكلام ومعرفة معانيه لفظا كان أو خطا والله ولى التوفيق فينبغى لطالب العلم أن يكشف عن الاسباب المانعة من فهم المعنى ليسهل عليه الوصول اليه ثم يكون من بعد ذلك سائسا النفسه مدبرا لها فى حال تعلمه فان للنفس نفورا يفضى الى تقصير ووفورا يؤول الى سرف وقيادها عسر ولها أحوال ثلاث فحال عدل وانصاف وحال غلو واسراف وحال تقصير واجحاف فاما حال العدل والانصاف بلا تقصير فهى أن تختلف قوى النفس من جهتين متقابلتين طاعة مسعدة وشفقة كافة فطاعتها تمنع وشفقتها ترد على السرف والتبذير وهذه أحمد الاحوال لان ما منع من التقصير نماء وما صد عن السرف مستديم والنمو اذا استدام فاخلق به أن يستكمل . وقال بعض الحكماء اياك ومفارقة الاعتدال فان المسرف مثل المقصر فى الخروج عن الحد وأما حال الغلو على الطاعة والاسراف فهى ان تختص النفس بقوى الطاعة وتعدم قوى الشفقة فيبعثها اختصاص افراغ الجهد ويفضيها افراغ الجهد الى عجز الكلال فيؤديها عجز الكلال الى الترك والاهمال فتصير الزيادة نقصانا والربح خسرانا . وقد قالت الحكماء طالب العلم وعامل البر كآكل الطعام ان أخذ منه قوتا عصمه وان أسرف فيه أبشمه وربما كان فيه منيته كآخذ الادوية التى فيها شفاء ومجاوزة القصد فيها السم المميت وأما حال التقصير والاجحاف فهى أن تختص النفس بقوى الشفقة وتعدم قوى الطاعة فيدعوها الاشفاق الى المعصية وتمنعها المعصية من الاجابة فلا تطلب شاردا ولا تقبل عائدا ولا تحفظ مستودعا ومن لم يطلب الشارد ويقبل العائد ويحفظ المستودع فقد الموجود ولم يجد المفقود ومن فقد ما وجد فهو مصاب محزون ومن لم يجد ما فقد فهو خائب مغبون . وقد قال بعض الحكماء العجز مع الوانى والفوت مع التوانى وقد يكون للنفس مع الاحوال الثلاث حالتان مشتركتان بغلبة احدى القوتين فيكون للنفس طاعة واشفاق واحداهما أغلب من الاخرى فان كانت الطاعة أغلب كانت الى الوفور أميل وان كان الاشفاق أغلب كانت الى التقصير أقرب فاذا عرف من نفسه قدر طاعتها وخبر منها كنه إشفاقها راض نفسه لتثبت على أحمد حالاتها وقد أشار الى ما وصفنا من حال النفس الفرزدق فى قوله

لكل امرء نفسان نفس كريمة * وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها

ونفسك من نفسيك تشفع للندى * اذا قل من احرارهن شفيعها

وان أهمل سياستها فاغفل رياضتها ورام أن يأخذها بالعنف ويقهرها بالعسف استشاطت نافرة ولجت معاندة فلم تنقد الى طاعة ولم تنكف عن معصية . وقال سابق البربرى

اذا زجرت لجوجا زدته علقا * ولجت النفس منه فى تماديها

فعد عليه اذا ما نفسه جمحت * باللين منك فان اللين يثنيها

فاذا استصعب عليه قياد نفسه ودام منه نفور قلبه مع سياستها ومعاناة رياضتها تركها ترك راحه ثم عاودها بعد الاستراحه فان اجابتها تسرع وطاعتها ترجع . وقد روى

أمراض نفسانية تحدث منها أمراض كثيرة كالخوف والحزن والغضب وأنواع العشق الشهوانى وضروب من سوء الخلق وسنذكرها ونذكر علاجاتها فيما بعد ان شاء الله تعالى والذى يجب علينا الآن هو تحديد هذه الاشياء أعنى الاجناس الاربعة التى تحتوى على جمل الفضائل فنقول أما الحكمة فهى فضيلة النفس الناطقة المميزة وهى أن تعلم الموجودات كلها من حيث هى موجودة وان شئت فقل أن تعلم الامور الالهية والامور الانسانية ويثمر علمها بذلك أن تعرف المعقولات أيها يجب أن يفعل وأيها يجب أن يغفل * وأما العفة فهى فضيلة الحس الشهوانى وظهور هذه الفضيلة فى الانسان يكون بان يصرف

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان القلب يموت ويحيي ولو بعد حين • وقال ابن مسعود للقلوب شهوة واقبال وفترة وادبار فأتوها من قبل شهوتها ولا تأتوها من قبل فترتها •

وقال الشاعر وما سمى الانسان الا لانسه * ولا القلب الا انه يتقلب

فاما الشروط التى يتوفر بها علم الطالب وينتهى معها كمال الراغب مع ما يلاحظ به من التوفيق ويمد به من المعونة فتسعة شروط (الأول) العقل الذى يدرك به حقائق الأمور (والثانى) الفطنة التى يتصور بها غوامض العلوم (والثالث) الذكاء الذى يستقر به حفظ ما تصوره وفهم ما علمه (والرابع) الشهوة التى يدوم بها الطلب ولا يسرع اليه الملل (والخامس) الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلف الطلب (والسادس) الفراغ الذى يكون معه التوفر ويحصل به الاستكثار (والسابع) عدم القواطع المذهلة من هموم وأمراض (والثامن) طول العمر واتساع المدة لينتهى بالاستكثار الى مراتب الكمال (والتاسع) الظفر بعالم سمح بعلمه متأن فى تعليمه فاذا استكمل هذه الشروط التسعة فهو أسعد طالب وأنجح متعلم • وقد قال الاسكندر يحتاج طالب العلم الى أربع مدة وجدة وقريحة وشهوة وتمامها فى الخامسة معلم ناصح

﴿فصل﴾ وسأذكر طرفا مما يتأدب به المتعلم ويكون عليه العالم اعلم أن للتعلم تملقا وتذللا فان استعملهما غنم وان تركهما حرم لان التملق للعالم يظهر مكنون علمه والتذلل له سبب لادامة صبره وباظهار مكنونه تكون الفائدة وباستدامة صبره يكون الاكثار • وقد روى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس من أخلاق المؤمن الملق الا فى طلب العلم • وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ذللت طالبا فعززت مطلوبا • وقال بعض الحكماء من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقى فى ذل الجهل أبدا • وقال بعض حكماء الفرس اذا قعدت وأنت صغير حيث تحب قعدت وأنت كبير حيث لا تحب ثم ليعرف له فضل علمه وليشكر له جميل فعله • فقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من وقر عالما فقد وقر ربه • وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لا يعرف فضل أهل العلم الا أهل الفضل • وقال بعض الشعراء

ان المعلم والطبيب كلاهما * لا ينصحان اذا هما لم يكرما

فاصبر لدائك ان أهنت طبيبه * واصبر لجهلك ان جفوت معلما

ولا يمنعه علو منزلته ان كانت له وان كان العالم خاملا فان العلماء بعلمهم قد استحقوا التعظيم لا بالقدرة والمال * وأنشدنى أهل الادب لابى بكر بن دريد

لا تحقرن عالما وان خلقت * أثوابه فى عيون رامقه

وانظر اليه بعين ذى أدب * مهذب الرأى فى طرائقه

فالمسك بينا تراه ممتهنا * بفهر عطاره وساحقه

حتى تراه فى عارضى ملك * وموضع التاج من مفارقه

وليكن مقتديا بهم فى أخلاقهم متشبها بهم فى جميع أفعالهم ليصير لها آلفا وعليها ناشئا ولما خالفها مجانبا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم خيار شبانكم المتشبهون بشيوخكم وشرار

شهواته بحسب الرأى أعنى أن يوافق التمييز الصحيح حتى لا يتقاد لها ويصير بذلك حرا غير متعبد لشئ من شهواته • وأما الشجاعة فهى فضيلة النفس الغضبية وتظهر فى الانسان بحسب انقيادها للنفس الناطقة المميزة واستعمال ما يوجبه الرأى فى الامور الهائلة أعنى أن لا يخاف من الامور المفزعة اذا كان فعلها جميلا والصبر عليها محمودا •

فاما العدالة فهى فضيلة للنفس تحدث لها من اجتماع هذه الفضائل الثلاث التى عددناها وذلك عند مسالمة هذه القوى بعضها للبعض واستسلامها للقوة المميزة حتى لا تتغالب ولا تتحرك لنحو مطلوباتها على سوم طبائعها وتحدث للانسان بها سمة يختار بها أبدا الانصاف من نفسه

شيوخكم المتشبهون بشبانكم • وروى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من تشبه بقوم فهو منهم • وأنشدني بعض أهل الادب لابي بكر بن دريد

العالم العاقل ابن نفسه * أغناه جنس علمه عن جنسه
كن ابن من شئت وكن مؤدبا * فانما المرء بفضل كيسه
وليس من تكرمه لغيره * مثل الذي تكرمه لنفسه

ولا يعذر المتعلم البسط على من يعلمه وان آنسه والادلال عليه وان تقدمت صحبته • قيل لبعض الحكماء من أذل الناس فقال عالم يجرى عليه حكم جاهل وكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم جارية من السبي فقال لها من أنت فقالت بنت الرجل الجواد حاتم فقال صلى الله عليه وسلم ارحموا عزيز قوم ذل ارحموا غنيا افتقر ارحموا عالما ضاع بين الجهال • ولا يظهر له الاستكفاء منه والاستغناء عنه فان في ذلك كفرا النعمته واستخفافا بحقه وربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه لجودة ذكائه وحدة خاطره فقصد من يعلمه بالاعنات له والاعتراض عليه ازراء به وتبكيتا له فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لابي البطحاء

أعلمه الرماية كل يوم * فلما استد ساعده رماني

وهذه من مصائب العلماء وانعكاس حظوظهم أن يصير واعند من يعلمونه مستجهلين وعند من قدموه مسترذلين • وقال صالح بن عبد القدوس

وان عناء أن تعلم جاهلا * فيحسب جهلا أنه منك أعلم
متى يبلغ البنيان يوما تمامه * اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
متى ينتهي عن سيء من أتى به * اذا لم يكن منه عليه تندم

وقد رجح كثير من الحكماء حق العالم على حق الوالد حتى قال بعضهم

يا فاخر السفاه بالسلف * وتاركا للعلاء والشرف
آباء أجسادنا هم سبب * لان جعلنا عرائض التلف
من علم الناس كان خير أب * ذاك أبو الروح لا أبو النطف

ولا ينبغي أن يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبهة منه ولا يدعوه ترك الاعنات له على التقليد فيما أخذ عنه فانه ربما غالى بعض الاتباع في عالمهم حتى يروا أن قوله دليل وان لم يستدل وأن اعتقاده حجة وان لم يحتج فيفضي بهم الامر الى التسليم له فيما أخذ منه فلا يبعد أن تبطل تلك المقالة ان انفردت أو يخرج أهلها من عداد العلماء فيما شاركت لانه قد لا يرى لهم من يأخذ عنهم ما كانوا يرونه لمن أخذوا عنه فيطالبهم بما قصروا فيه فيضعفوا عن ابانته ويعجزوا عن نصرته فيذهبوا ضائعين ويصيروا عجزة مضعوفين ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلا يناظر في مجلس حفل وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها أن قال ان هذه دلالة فاسدة ووجه فسادها أن شيخي لم يذكرها وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه فامسك عنه المستدل تعجبا ولان شيخه كان محتشما وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل ما رأى هذا الجاهل ثم أقبل المستدل علي وقال لي والله لقد أفحمني بجهله وصار سائر الناس المبرئين من هذه الجهالة ما بين مستهزئ متعجب ومستعيذ بالله من جهل مغرب فهل رأيت

على نفسه اولا ثم الانصاف والانتصاف من غيره وله وسنتكلم على كل واحدة من هذه الفضائل بكلام أوسع من هذا اذا ذكرنا الفضائل التي تحت كل جنس من هذه الاربع اذ كان غرضنا في هذا الموضع الاشارة اليها بالرسوم الوجيزة ليتصورها المتعلم والذي ينبغي الآن أن نتبع ما قدمنا بذكر أنواع هذه الاجناس وما تحت كل واحد منها فنقول (الاقسام التي تحت الحكمة) الذكاء الذكر * التعقل سرعة الفهم وقوته صفاء الذهن سهولة التعلم وبهذه الاشياء يكون حسن الاستعداد للحكمة * فاما الوقوف على جواهر هذه الاقسام فيكون من حدودها * وذلك أن العلم بالحدود يفهم جواهر الاشياء المطلوبة الموجودة دائما

كذلك عالما أوغل فى الجهل وأدل على قلة العقل واذا كان المتعلم معتدل الرأى فيمن يأخذ عنه متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه حتى لا يحمله الاعنات على اعتراض المبكتين ولا يبعثه الغلو على تسليم المقلدين برئ المتعلم من المذمتين وسلم العالم من الجهتين وليس كثرة السؤال فيما التبس اعناتا ولا قبول ما صح فى النفس تقليدا • وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال العلم خزائن ومفتاحه السؤال فاسألوا رحمكم الله فانما يؤجر فى العلم ثلاثة القائل والمستمع والآخذ • وقال عليه الصلاة والسلام هلا سألوا اذا لم يعلموا فانما شفاء العى السؤال فأمر بالسؤال وحث عليه ونهى آخرين عن السؤال وزجر عنه فقال صلى الله عليه وسلم أنهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال وقال عليه الصلاة والسلام اياكم وكثرة السؤال فانما هلك من قبلكم بكثرة السؤال وليس هذا مخالفا للاول وانما أمر بالسؤال من قصد به علم ما جهل ونهى عنه من قصد به اعنات ما سمع واذا كان السؤال فى موضعه أزال الشكوك ونفى الشبهة • وقد قيل لابن عباس رضى الله عنهما بم نلت هذا العلم قال بلسان سؤول وقلب عقول وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حسن السؤال نصف العلم • وأنشد المبرد عن أبى سليمان الغنوى

فسل الفقيه تكن فقيها مثله * لا خير فى علم بغير تدبر
واذا تعسرت الامور فأرجها * وعليك بالامر الذى لم يعسر

وليأخذ المتعلم حظه ممن وجد طلبته عنده من نبيه وخامل ولا يطلب الصيت وحسن الذكر باتباع أهل المنازل من العلماء اذا كان النفع بغيرهم أعم الا أن يستوى النفعان فيكون الأخذ عمن اشتهر ذكره وارتفع قدره أولى لأن الانتساب اليه أجمل والاخذ عنه أشهر • وقد قال الشاعر

اذا أنت لم يشهرك علمك لم تجد * لعلمك مخلوقا من الناس يقبله
وان صانك العلم الذى قد حملته * أتاك له من يجتنيه ويحمله

واذا قرب منك العلم فلا تطلب ما بعد واذا سهل من وجه فلا تطلب ما صعب واذا حمدت من خبرته فلا تطلب من لم تخبره فان العدول عن القريب الى البعيد عناء وترك الاسهل بالأصعب بلاء والانتقال من المخبور الى غيره خطر • وقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه عقبى الأخرق مضره والمتعسف لا تدوم له مسره • وقال بعض الحكماء القصد أسهل من التعسف والكف أودع من التكلف وربما تتبع نفس الانسان من بعد عنه استهانة بمن قرب منه وطلب ما صعب احتقارا لما سهل عليه وانتقل الى من لم يخبره مللا لمن خبره فلا يدرك محبوبا ولا يظفر بطائل • وقد قالت العرب فى أمثالها العالم كالكعبة يأتيها البعداء ويزهد فيها القرباء وأنشد بعض شيوخنا لمسيح بن حاتم

لا ترى عالما يحل بقوم * فيحلو غير دار الهوان
قلما توجد السلامة والصحة مجموعتين فى انسان
فاذا حلتا مكانا سحيقا * فهما فى النفوس معشوقتان
هذه مكة المنيعة بيت الله يسعى لحجها الثقلان

على حال واحد وهو العلم البرهانى الذى لا يتغير ولا يدخله الشك بوجه من الوجوه * والفضائل التى هى بذاتها فضائل لا تكون فى حال من الاحوال غير فضائل فكذلك العلوم بها أما الذكاء فهو سرعة انقداح النتائج وسهولتها على النفس * أما الذكر فهو ثبات صورة ما يخلصه العقل أو الوهم من الامور وأما التعقل فهو موافقة بحث النفس عن الأشياء الموضوعة بقدر ما هى عليه وأما صفاء الذهن فهو استعداد النفس لاستخراج المطلوب • وأما جودة الذهن وقوته فهو تأمل النفس لما قد لزم من المقدم * وأما سهولة التعلم فهى قوة للنفس وحدة فى الفهم بها تدرك الأمور النظرية

ويرى أزهد البرية فى الحج لها أهلها القرب المكان

﴿فصل﴾ فاما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الاخلاق التى بهم أليق ولهم ألزم فالتواضع ومجانبة العجب لان التواضع عطوف والعجب منفر وهو بكل أحد قبيح وبالعلماء أقبح لان الناس بهم يقتدون وكثيرا ما يداخلهم الاعجاب لتوحدهم بفضيلة العلم ولو أنهم نظروا حق النظر وعملوا بموجب العلم لكان التواضع بهم أولى ومجانبة العجب بهم أحرى لان العجب نقص ينافى الفضل لاسيما مع قول النبى صلى الله عليه وسلم ان العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب فلا يفى ما أدركوه من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص العجب . وقد روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قليل العلم خير من كثير العبادة وكفى بالمرء علما اذا عبد الله عز وجل وكفى بالمرء جهلا اذا أعجب برأيه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تعلمون وليتواضع لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم . وقال بعض السلف من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ومن تواضع بعلمه رفعه به وعلة اعجابهم انصراف نظرهم الى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء فانه ليس متناه فى العلم الا وسيجد من هو أعلم منه اذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر . قال الله تعالى نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم . قال أهل التأويل فوق كل ذى علم من هو أعلم منه حتى ينتهى ذلك الى الله تعالى وقيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلم قال كل الناس . وقال الشعبى ما رأيت مثلى وما أشاء أن ألقى رجلا أعلم منى الا لقيته لم يذكر الشعبى هذا القول تفضيلا لنفسه فيستقبح منه وانما ذكره تعظيما للعلم عن أن يحاط به فينبغى لمن علم أن ينظر الى نفسه بتقصير ما قصر فيه ليسلم من عجب ما أدرك منه . وقد قيل فى منثور الحكم اذا علمت فلا تفكر فى كثرة من دونك من الجهال ولكن انظر الى من فوقك من العلماء . وأنشدت لابن العميد

من شاء عيشا هنيئا يستفيد به * فى دينه ثم فى دنياه اقبالا
فلينظرن الى من فوقه أدبا * ولينظرن الى من دونه مالا

وقلما تجد بالعلم معجبا وبما أدرك مفتخرا الا من كان فيه مقلا ومقصرا لانه قد يجهل قدره ويحسب أنه نال بالدخول فيه أكثره فاما من كان فيه متوجها ومنه مستكثرا فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن ادراك نهايته ما يصده عن العجب به . وقد قال الشعبى العلم ثلاثة أشبار فمن نال منه شبرا شمخ بأنفه وظن أنه ناله ومن نال الشبر الثانى صغرت اليه نفسه وعلم أنه لم ينله وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبدا ومما أنذرك به من حالى أننى صنفت فى البيوع كتابا جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس وأجهدت فيه نفسى وكددت فيه خاطرى حتى اذا تهذب واستكمل وكدت أعجب به وتصورت أننى أشد الناس اضطلاعا بعلمه حضرنى وأنا فى مجلسى اعرابيان فسألانى عن بيع عقداه فى البادية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منهن جوابا فاطرقت مفكرا وبحالى وحالهما معتبرا فقالا ما عندك فيما سألناك جواب وأنت زعيم هذه الجماعة فقلت لا فقالا

﴿الفضائل التى تحت﴾
﴿العفة﴾

الحياء * الدعة * الصبر * السخاء * الحرية * القناعة * الدماثة * الانتظام حسن الهدى * المسالمة * الوقار الورع * أما الحياء فهو انحصار النفس خوف اتيان القبائح والحذر من الذم والسب الصادق * وأما الدعة فهى سكون النفس عند حركة الشهوات وأما الصبر فهو مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد لقبائح اللذات وأما السخاء فهو التوسط فى الاعطاء وهو أن ينفق الأموال فيما ينبغى على مقدار ما ينبغى وعلى ما ينبغى وتحت السخاء خاصة أنواع كثيرة نحصيها فيما بعد لكثرة الحاجة اليها وأما الحرية فهى فضيلة للنفس بها يكتسب المال من وجهه ويعطى فى وجهه ويمنع من اكتسابه

واهالك وانصرفا ثم أتيا من يتقدمه فى العلم كثير من أصحابى فسألاه فاجابهما مسرعا بما أقنعهما وانصرفا عنه راضيين بجوابه حامدين لعلمه فبقيت مرتبكا وبحالهما وحالى معتبرا وانى لعلى ما كنت عليه من المسائل الى وقتى فكان ذلك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلل بها قياد النفس وانخفض لها جناح العجب توفيقا منحته ورشدا أوتيته وحق على من ترك العجب بما يحسن أن يدع التكلف لما لا يحسن فقد عما نهى الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما ومن أوضح ذلك بيانا استعاذة الجاحظ فى كتاب البيان حيث يقول اللهم انا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ونعوذ بك من شر السلاطة والهذر كما نعوذ بك من شر العى والحصر ونحن نستعيذ بالله تعالى من مثل ما استعاذ فليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهى اليها ولا حد يقف عنده ومن كان تكلفه غير محدود فأخلق به أن يضل ويضل . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل . وقال بعض الحكماء من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم فحسبك جهلا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم ولقد أحسن زيادة بن زيد حيث يقول

اذا ما انتهى علمى تناهيت عنده * أطال فأملى أو تناهى فاقصرا
ويخبرنى عن غائب المرء فعله * كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

فاذا لم يكن الى الاحاطة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه واذا لم يكن فى جهل بعضه عار لم يقبح به أن يقول لا أعلم فيما ليس يعلم . وروى أن رجلا قال يا رسول الله أى البقاع خير وأى البقاع شر فقال لا أدرى حتى أسأل جبريل . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه وما أبردها على القلب اذا سئل أحدكم فيما لا يعلم أن يقول الله أعلم وان العالم من عرف أن ما يعلم فيما لا يعلم قليل . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما اذا ترك العالم قول لا أدرى أصيبت مقاتله . وقال بعض العلماء هلك من ترك لا أدرى . وقال بعض الحكماء ليس لى من فضيلة العلم الا علمى بانى لست أعلم . وقال بعض البلغاء من قال لا أدرى علم فدرى ومن انتحل ما لا يدرى أهمل فهوى ولا ينبغى للرجل وان صار فى طبقة العلماء الافاضل أن يستنكف من تعلم ما ليس عنده ليسلم من التكلف . وقد قال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام يا صاحب العلم تعلم من العلم ما جهلت وعلم الجهال ما علمت . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه خمس خذوهن عنى فلو ركبتم الفلك ما وجدتموهن الا عندى ألا لا يرجون أحد الا ربه ولا يخافن الا ذنبه ولا يستنكف العالم أن يتعلم ما ليس عنده واذا سئل أحدكم عما لا يعلم فليقل لا أعلم ومنزلة الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما لو كان أحد يكتفى من العلم لا كتفى منه موسى على نبينا وعليه السلام ولما قال هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا وقيل للخليل بن أحمد بم أدركت هذا العلم قال كنت اذا لقيت عالما أخذت منه وأعطيته وقال بزرجمهر من العلم أن لا تحقر شيأ من العلم ومن العلم تفضيل جميع العلم . وقال المنصور لشريك أنى لك هذا العلم قال لم أرغب عن قليل أستفيده ولم أبخل بكثير أفيده على ان العلم يقتضى ما بقى منه ويستدعى ما تأخر عنه

من غير وجهه * وأما القناعة فهى التساهل فى المآكل والمشارب والزينة وأما الدماثة فهى حسن انقياد النفس لما يجمل وتسرعها الى الجميل * وأما الانتظام فهو حال للنفس تقودها الى حسن تقدير الامور وترتيبها كما ينبغى وأما حسن الهدى فهو محبة تكميل النفس بالزينة الحسنة * وأما المسالمة فهى موادعة تحصل للنفس عن ملكة لا اضطرار فيها * وأما الوقار فهو سكون النفس وثباتها عند الحركات التى تكون فى المطالب * وأما الورع فهو لزوم الأعمال الجميلة التى فيها كمال النفس *

﴿الفضائل التى تحت الشجاعة﴾

كبر النفس * النجدة * عظم الهمة * الثبات * الصبر * الحلم * عدم الطيش *

وليس للراغب فيه قناعة ببعضه . وروى عون بن عبد الله عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا أما طالب العلم فانه يزداد للرحمن رضا ثم قرأ انما يخشى الله من عباده العلماء وأما طالب الدنيا فانه يزداد طغيانا ثم قرأ كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى وليكن مستقلا الفضيلة منه ليزداد منها ومستكثرا للنقيصة فيه لينتهي عنها ولا يقنع من العلم بما أدرك لان القناعة فيه زهد والزهد فيه ترك والترك له جهل . وقد قال بعض الحكماء عليك بالعلم والاكثار منه فان قليله أشبه شئ بقليل الخير وكثيره أشبه شئ بكثيره ولن يعيب الخير الا القلة فاما كثرته فانها أمنية . وقال بعض البلغاء من فضل علمك استقلالك لعلمك ومن كمال عقلك استظهارك على عقلك ولا ينبغي أن يجهل من نفسه مبلغ علمها ولا يتجاوز بها قدر حقها ولأن يكون بها مقصرا فيذعن بالانقياد أولى من أن يكون بها مجاوزا فيكف عن الازدياد لان من جهل حال نفسه كان لغيرها أجهل وقد قالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف نفسه وقد قسم الخليل بن أحمد أحوال الناس فيما علموه أو جهلوه أربعة أقسام متقابلة لا يخلو الانسان منها فقال الرجال أربعة رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاسألوه ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك ناس فذكروه ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فارشدوه ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه وأنشد أبو القاسم الآمدي

اذا كنت لا تدري ولم تك بالذي * يسائل من يدري فكيف اذا تدري
جهلت ولم تعلم بانك جاهل * فمن لي بان تدري بانك لا تدري
اذا كنت من كل الامور معميا * فكن هكذا أرضا يطاك الذي يدري
ومن أعجب الاشياء أنك لا تدري * وأنك لا تدري بانك لا تدري

وليكن من شيمته العمل بعلمه وحث النفس على أن تأتمر بما يأمر به ولا يكن ممن قال الله تعالى فيهم مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . فقد قال قتادة في قوله تعالى وانه لذو علم لما علمناه يعني أنه عامل بما علم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ويل لجماع القول ويل للمصرين يريد الذين يستمعون القول ولا يعملون به . وروى عبد الله بن وهب عن سفيان أن الخضر على نبينا وعليه السلام قال لموسى عليه السلام يا ابن عمران تعلم العلم لتعمل به ولا تتعلمه لتحدث به فيكون عليك بوره ولغيرك نوره . وقال علي بن أبي طالب انما زهد الناس في طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم وقال أبو الدرداء أخوف ما أخاف اذا وقفت بين يدي الله أن يقول قد علمت فماذا عملت اذ علمت وكان يقال خير من القول فاعله وخير من الصواب قائله وخير من العلم حامله . وقيل في منثور الحكم لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به . وقال بعض العلماء ثمرة العلم أن يعمل به وثمرة العمل أن يؤجر عليه . وقال بعض الصلحاء العلم يهتف بالعمل فان أجابه أقام والا ارتحل . وقال بعض العلماء خير العلم ما نفع وخير القول ما ردع * وقال بعض الادباء ثمرة العلوم العمل بالمعلوم * وقال بعض البلغاء من تمام العلم استعماله ومن تمام العمل استقلاله فمن

الشهامة * احتمال الكد والفرق بين هذا الصبر والصبر الذي في العفة ان هذا يكون في الامور الهائلة وذلك يكون في الشهوات الهائجة * أما كبر النفس فهو الاستهانة باليسير والاقتدار على حمل الكرائه فصاحبه أبدا يؤهل نفسه للامور العظام مع استخفافه لها * وأما النجدة فهي ثقة النفس عند المخاوف حتى لا يخامرها جزع * وأما عظم الهمة فهي فضيلة للنفس تحتمل بها سعادة الجد وضدها حتى الشدائد التي تكون عند الموت * وأما الثبات فهو فضيلة للنفس تقوى بها على احتمال الآلام ومقاومتها في الاهوال خاصة * وأما الحلم فهو فضيلة للنفس تكسبها الطمأنينة فلا تكون شغبة ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة *

استعمل علمه لم يخل من رشاد ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد * وقال حاتم الطائى

ولم يحمدوا من عالم غير عامل * خلافا ولا من عامل غير عالم
رأوا طرقات المجد عوجا قطيعة * وأفظع عجز عندهم عجز حازم

لانه لما كان عمله حجة على من أخذ عنه واقتبسه منه حتى يلزمه العمل به والمصير اليه كان عليه أحج وله ألزم لان مرتبة العلم قبل مرتبة القول كما أن مرتبة العلم قبل مرتبة العمل * وقد قال أبو العتاهية رحمه الله

اسمع الى الاحكام تحملها الرواة اليك عنكا
واعلم هديت بانها * حجج تكون عليك منكا

ثم ليجتنب أن يقول مالا يفعل وأن يأمر بما لا يأتمر به وأن يسر غير ما يظهر ولا يجعل قول الشاعر هذا

اعمل بقولى وان قصرت فى عملى * ينفعك قولى ولا يضررك تقصيرى

عذرا له فى تقصير يضره وان لم يضر غيره فان اضرار النفس يغر بها ويحسن لها مساويها فان من قال مالا يفعل فقد مكر ومن أمر بما لا يأتمر فقد خدع ومن أسر غير ما يظهر فقد نافق * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال المكر والخديعة وصاحباهما فى النار على أن أمره بما لا يأتمر مطرح وانكاره ما لا ينكره من نفسه مستقبح بل ربما كان ذلك سببا لاغراء المأمور بترك ما أمره به عنادا وارتكاب ما نهى عنه كيادا * وحكى أن اعرابيا أتى ابن أبى ذئب فسأله عن مسألة طلاق فافتاه بطلاق امرأته فقال انظر حسنا قال نظرت وقد بانت فولى الاعرابى وهو يقول

أتيت ابن ذئب أبتغى الفقه عنده * فطلق حبى البت تبت أنامله
اطلق فى فتوى ابن ذئب حليلتى * وعند ابن ذئب أهله وحلائله

فظن بجهله أنه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق فما ظنك بقول يجب فيه اشتراك الآمر والمأمور كيف يكون مقبولا منه وهو غير عامل به ولا قابل له كلا * وقال أحمد ابن يوسف

وعامل بالفجور يأمر بالبر كهاد يخوض فى الظلم
أو كطبيب قد شفه سقم * وهو يداوى من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متعظ * ثوبك طهر أولا فلا تلم

(وقال آخر)

عوّد لسانك قلة اللفظ * واحفظ كلامك أيما حفظ
اياك أن تعظ الرجال وقد * أصبحت محتاجا الى الوعظ

وأما الانقطاع عن العلم الى العمل والانقطاع عن العمل الى العلم اذا عمل بموجب العلم فقد حكى عن الزهرى فيه ما يغنى عن تكلف غيره وهو أنه قال العلم أفضل من العمل لمن جهل والعمل أفضل من العلم لمن علم وأما فضل ما بين العلم والعبادة اذا لم يخل بواجب ولم يقصر فى فرض . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يبعث العالم والعابد فيقال للعابد أدخل الجنة ويقال للعالم اشفع حتى تشفع للناس ومن آداب العلماء أن لا يبخلوا

وأما السكون الذى نعنى به عدم الطيش فهو اما عند الخصومات واما فى الحروب التى يذب بها عن الحريم أو عن الشريعة * وهو قوة للنفس تقسر حركتها فى هذه الأحوال لشدتها * وأما الشهامة فهى الحرص على الأعمال العظام توقعا للاحدوثة الجميلة * وأما احتمال الكد فهو قوة للنفس بها تستعمل آلات البدن فى الأمور الحسية بالتمرين وحسن العادة

﴿الفضائل التى تحت السخاء﴾

الكرم * الايثار * النبل * المواساة * السماحة * المسامحة * أما الكرم فهو انفاق المال الكثير بسهولة من النفس فى الأمور الجليلة القدر الكثيرة النفع كما ينبغى وباقى شرائط السخاء التى ذكرناها * وأما الايثار فهو فضيلة للنفس بها يكف

بتعليم ما يحسنون ولا يمتنعوا من افادة ما يعلمون فان البخل به لؤم وظلم والمنع منه حسد واثم وكيف يسوغ لهم البخل بما منحوه جودا من غير بخل وأوتوه عفوا من غير بذل أم كيف يجوز لهم الشح بما ان بذلوه زاد ونما وان كتموه تناقص ووهى ولو استن بذلك من تقدمهم لما وصل العلم اليهم ولانقرض عنهم بانقراضهم واصاروا على مر الأيام جهالا وبتقلب الأحوال وتناقصها أرذالا . وقد قال الله تعالى واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تمنعوا العلم أهله فان في ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم ثم قرأ ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من كتم علما يحسنه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار . وروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ العهد على أهل العلم أن يعلموا . وقال بعض الحكماء اذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل فأحرى أن يكون من قواعدها بذل ما يزيده البذل . وقال بعض العلماء كما أن الاستفادة نافلة للمتعلم كذلك الافادة فريضة على المعلم . وقد قيل في منثور الحكم من كتم علما فكأنه جاهل . وقال خالد بن صفوان اني لأفرح بافادتي المتعلم أكثر من فرحي باستفادتي من العلم . ثم لبا التعليم نفعان أحدهما ما يرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة فقال تصدقوا على أخيكم بعلم يرشده ورأي يسدده . وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تعلموا وعلموا فان أجر العالم والمتعلم سواء قيل وما أجرهما قال مائة مغفرة ومائة درجة في الجنة والنفع الثاني زيادة العلم واتقان الحفظ فقد قال الخليل بن أحمد اجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ما ليس عندك . وقال ابن المعتز في منثور الحكم النار لا ينقصها ما أخذ منها ولكن يخمدها أن لا تجد حطبا كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه فاياك والبخل بما تعلم . وقال بعض العلماء علم علمك وتعلم علم غيرك فاذا علمت ما جهلت وحفظت ما علمت فاعلم أن المتعلمين ضربان مستدعي وطالب فأما المستدعي الى العلم فهو من استدعاه العالم الى التعليم لما ظهر له من جودة ذكائه وبان له من قوة خاطره فاذا وافق استدعاء العالم شهوة المتعلم كانت نتيجتها درك النجباء وظفر السعداء لان العالم باستدعائه متوفر والمتعلم بشهوته مستكثر وأما طالب العلم لداع يدعوه وباعث يحدوه فان كان الداعي دينيا وكان المتعلم فطنا ذكيا وجب على العالم أن يكون عليه مقبلا وعلى تعليمه متوفرا لا يخفي عليه مكنونا ولا يطوي عنه مخزونا وان كان بليدا بعيد الفطنة فينبغي أن لا يمنع من اليسير فيحرم ولا يحمل عليه بالكثير فيظلم ولا يجعل بلادته ذريعة لحرمانه فان الشهوة باعثة والصبر مؤثر * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تمنعوا العلم أهله فتظلموا ولا تضعوه في غير أهله فتأثموا * وقال بعض الحكماء لا تمنعوا العلم أحدا فان العلم أمنع لجانبه فأما ان لم يكن الداعي دينيا انظر فيه فان كان مباحا كرجل دعاه الى طلب العلم حب النباهة

الانسان عن بعض حاجاته التي تخصه حتى يبذله لمن يستحقه * وأما النبل فهو سرور النفس بالأفعال العظام وابتهاجها بلزوم هذه السيرة * وأما المواساة فهي معاونة الأصدقاء والمستحقين ومشاركتهم في الأموال والأقوات * وأما السماحة فهي بذل بعض ما لا يجب * وأما المسامحة فهي ترك بعض ما يجب والجميع يكون بالارادة والاختيار

﴿ الفضائل التي تحت العدالة ﴾

الصداقة * الألفة * صلة الرحم * المكافأة * حسن الشركة * حسن القضاء * التودد * العبادة * ترك الحقد * مكافأة الشر بالخير استعمال اللطف * ركوب المروءة في جميع الأحوال ترك المعاداة * ترك الحكاية عمن ليس بعدل

وطلب الرئاسة فالقول فيه يقارب القول الأول في تعليم من قبل لان العلم يعطفه الى الدين في ثاني حال وان لم يكن مبتدئا به في أول حال * وقد حكي عن سفيان الثوري أنه قال تعلمنا العلم لغير الله تعالى فأبى أن يكون الا لله . وقال عبد الله بن المبارك طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا وان كان الداعي محظورا كرجل دعاه الى طلب العلم شر كامن ومكر باطن يريد أن يستعملهما في شبه دينيه وحيل فقهيه لا تجد أهل السلامة منها مخلصا ولا عنها مدفعا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أهلك أمتي رجلان عالم فاجر وجاهل متعبد * وقيل يا رسول الله أي الناس شر قال العلماء اذا فسدوا فينبغي للعالم اذا رأى من هذه حاله أن يمنعه عن طلبته ويصرفه عن بغيته فلا يعينه على امضاء مكره واعمال شره فقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال واضع العلم في غير أهله كمقلد الخنازير اللؤلؤ والجوهر والذهب . وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام لا تلقوا الجوهر للخنزير فالعلم أفضل من اللؤلؤ ومن لا يستحقه شر من الخنزير * وحكي أن تلميذا سأل عالما عن بعض العلوم فلم يفده فقيل له لم منعته فقال لكل تربة غرس ولكل بناء أس * وقال بعض البلغاء لكل ثوب لابس ولكل علم قابس * وقال بعض الادباء ارث لروضة توسطها خنزير وابك لعلم حواه شرير وينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يحتمله بذكائه أو يضعف عنه ببلادته فانه أروح للعالم وأنجح للمتعلم * وقد روى ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم * وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا أنا لم أعلم مالم أر فلا علمت ما رأيت وقال عبد الله بن الزبير لا عاش بخير من لم ير برأيه مالم ير بعينيه *

وقال ابن الرومي

الألمعي يرى بأول رأي * آخر الامر من وراء المغيب
لوذعي له فؤاد ذكي * ماله في ذكائه من ضريب
لا يروي ولا يقلب طرفا * واكف الرجال في تقليب

واذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه الصفة وكان بقدر استحقاقهم خبيرا لم يضع له عناء ولم يخب على يديه صاحب وان لم يتوسمهم وخفيت عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا واياه في عناء مكد وتعب غير مجد لانه لا يعدم أن يكون فيهم ذكي محتاج الى الزيادة وبليد يكتفي بالقليل فيضجر الذكي منه ويعجز البليد عنه ومن يردد أصحابه بين عجز وضجر ملوه وملهم . وقد حكى عبد الله بن وهب أن سفيان بن عبد الله قال قال الخضر لموسى عليهما السلام يا طالب العلم ان القائل أقل ملالة من المستمع فلا تمل جلساءك اذا حدثتهم يا موسى واعلم ان قلبك وعاء فانظر ما تحشو في وعائك . وقال بعض الحكماء خير العلماء من لا يقل ولا يمل . وقال بعض العلماء كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى وانما ينفع سمع الآذان اذا قوي فهم القلوب في الابدان وربما كان لبعض السلاطين رغبة في العلم لفضيلة نفسه وكرم طبعه فلا يجعل ذلك ذريعة في الانبساط عنده والادلال عليه بل يعطي ما يستحقه بسلطانه وعلو يده فان للسلطان حق الطاعة والاعظام وللعالم حق القبول والاكرام ثم لا ينبغي أن يبتدئه الا بعد الاستدعاء ولا يزيده على قدر الاكتفاء فربما

مرضي * البحث عن سيرة من يحكي عنه * العدل * ترك لفظة واحدة لا خير فيها المسلم فضلا عن حكاية توجب حدا أو قذفا أو قتلا أو قطعا * ترك السكون الى قول سفلة الناس وسقطهم * ترك قول من يكدي بين الناس ظاهرا باطنا أو يلحف في مسألة أو يلح بالسؤال * فان هؤلاء يرضيهم الشيء اليسير فيقولون لأجله حسنا ويسخطهم اذا منعوا اليسير فيقولون لأجله قبيحا * ترك الشره في كسب الحلال وترك ركوب الدناءة في الكسب لأجل العيال * الرجوع الى الله والى عهده وميثاقه عند كل قول يتلفظ به أو لحظ بلحظه أو خطرة في أعدائه وأصدقائه * ترك اليمين بالله وبشيء من أسمائه وصفاته رأسا * وليس بعدل

أحب بعض العلماء اظهار علمه للسلطان فاكثره فصار ذلك ذريعة الى ملله ومفضيا الى بعده فان السلطان متقسم الافكار مستوعب الزمان فليس له فى العلم فراغ المنقطعين اليه ولا صبر المنفردين به • وقد حكى الاصمعى رحمه الله قال قال لى الرشيد يا عبد الملك أنت أعلم منا ونحن أعقل منك لا تعلمنا فى ملا ولا تسرع الى تذكيرنا فى خلا واترکنا حتى نبتدئك بالسؤال فاذا بلغت من الجواب حد الاستحقاق فلا تزد الا أن يستدعى ذلك منك وانظر الى ما هو ألطف فى التأديب وأنصف فى التعليم وبلغ بأوجز لفظ غاية التقويم وليخرج تعليمه مخرج المذاكرة والمحاضرة لا مخرج التعليم والافادة لان لتأخير التعلم خجلة تقصير يجل السلطان عنها فان ظهر منه خطأ أو زلل فى قول أو عمل لم يجاهره بالرد وعرض باستدراك زلله واصلاح خلله • وحكى ان عبد الملك بن مروان قال للشعبى كم عطاءك قال الفين قال لحنت قال لما ترك أمير المؤمنين الاعراب كرهت أن أعرب كلامى عليه ثم ليحذر أتباعه فيما يجانب الدين ويضاد الحق موافقة لرأيه ومتابعة لهواه فربما زلت أقدام العلماء فى ذلك رغبة أو رهبة فضلوا وأضلوا مع سوء العاقبة وقبح الآثار * وقد روى الحسن البصرى رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال هذه الامة تحت يد الله وفى كنفه ما لم يمار قراؤها أمراءها ولم يزك صلحاؤها فجارها ولم يمار أخيارها أشرارها فاذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب وضربهم بالفاقة والفقر وملأ قلوبهم رعبا * ومن آدابهم نزاهة النفس عن شبه المكاسب والقناعة بالميسور عن كد المطالب فان شبهة المكسب اثم وكد الطلب ذل والاجر أجدر به من الاثم والعز أليق به من الذل * وأنشدنى بعض أهل الادب لعلى بن عبد العزيز القاضى رحمه الله تعالى

يقولون لى فيك انقباض وانما * رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم * ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم ان كان كلما * بدا طمع صيرته لى سلما
وما كل برق لاح لى يستفزنى * ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
اذا قيل هذا منهل قلت قد أرى * ولكن نفس الحر تحتمل الظما
انهنهها عن بعض ما لا يشينها * مخافة أقوال العدا فيم أولما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى * لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة * اذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم * ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا * محياه بالاطماع حتى تجهما

على أن العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة فيما يجد بدا منه * وقال بعض البلغاء من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوة ومن آنسه قراءة القرآن لم توحشه مفارقة الاخوان * وقال بعض العلماء لا سمير كالعلم ولا ظهير كالحلم * ومن آدابهم أن يقصدوا وجه الله بتعليم من علموا ويطلبوا ثوابه بارشاد من أرشدوا من غير أن يعتاضوا عليه عوضا ولا يلتمسوا عليه رزقا *

من لم يكرم زوجته وأهلها المتصلين بها وأهل المعرفة الباطنة به • وخير الناس خيرهم لأهله وعشيرته والمتصلين به من أخ أو ولد أو متصل بأخ أو ولد أو قريب أو نسيب أو شريك أو جار أو صديق أو حبيب • ومن أحب المال حبا مفرطا لم يؤهل لهذه المرتبة • فان حرصه على جمع المال يصده عن استعمال الرأفة وامتطاء الحق وبذل ما يجب ويضطره الى الخيانة والكذب والاختلاق والزور ومنع الواجب والاستقصاء واستجلاب الدانق والحبة والذرة لبيع الدين والمروءة • وربما أنفق أموالا جمة محبة منه للمحمدة وحسن الثناء ولا يريد بذلك وجه الله وما عنده • بل يتخذها مصيدة ويجعل ذلك مكسبة ولا يعلم أن ذلك

قال الله تعالى ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا * قال أبو العالية لا تأخذوا عليه أجرا وهو مكتوب عندهم في الكتاب الاول يا ابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا * و روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أجر المعلم كأجر الصائم القائم وحسب من هذا أجره أن يلتمس عليه أجرا * ومن آدابهم نصح من علموه والرفق بهم وتسهيل السبيل عليهم و بذل المجهود في رفدهم ومعونتهم فان ذلك أعظم لاجرهم وأسنى لذكرهم وأنشر لعلومهم وأرسخ لمعلومهم * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى كرم الله وجهه يا على لأن يهدى الله بك رجلا خير مما طلعت عليه الشمس * ومن آدابهم أن لا يعنفوا متعلما ولا يحقروا ناشئا ولا يستصغروا مبتدئا فان ذلك أدعى اليهم وأعطف عليهم وأحث على الرغبة فيما لديهم * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال علموا ولا تعنفوا فان المعلم خير من المعنف * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وقروا من تتعلمون منه ووقروا من تعلمونه * ومن آدابهم أن لا يمنعوا طالبا ولا يؤيسوا متعلما لما في ذلك من قطع الرغبة فيهم والزهد فيما لديهم واستمرار ذلك مفض الى انقراض العلم بانقراضهم • فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى يارسول الله قال من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤيسهم من روح الله ولا يدع القرآن رغبة الى ما سواه ألا لاخير في عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها تدبر فهذه جملة كافية والله ولى التوفيق

باب ادب الدين

اعلم أن الله سبحانه وتعالى انما كلف الخلق متعبداته وألزمهم مفترضاته وبعث اليهم رسله وشرع لهم دينه لغير حاجة دعته الى تكليفهم ولا ضرورة قادته الى تعبدهم وانما قصد نفعهم تفضلا منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عدا من نعمه بل النعمة فيما تعبدهم به أعظم لان نفع ماسوى المتعبدات مختص بالدنيا العاجلة ونفع المتعبدات يشتمل على نفع الدنيا والآخرة وما جمع نفع الدنيا والآخرة كان أعظم نعمة وأكثر تفضلا وجعل ما تعبدهم به مأخوذا من عقل متبوع وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل لان الشرع لا يرد بما يمنع منه العقل والعقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع فلذلك توجه التكليف الى من كمل عقله فارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فبلغهم رسالته وألزمهم حجته وبين لهم شريعته وتلا عليهم كتابه فيما أحله وحرمه وأباحه وحظره واستحبه وكرهه وأمر به ونهى عنه وما وعد به من الثواب لمن أطاعه وأوعد به من العقاب لمن عصاه فكان وعده ترغيبا ووعيده ترهيبا لان الرغبة تبعث على الطاعة والرهبة تكف عن المعصية والتكليف يجمع أمرا بطاعة ونهيا عن معصية ولذلك كان

عليه سيئة وسيئة * اما الصداقة فهي محبة صادقة يهتم معها بجميع أسباب الصديق وايثار فعل الخيرات التي يمكن فعلها به • وأما الألفة فهي اتفاق الآراء والاعتقادات • وتحدث عن التواصل فيعتقد معها التضافر على تدبير العيش * وأما صلة الرحم فهي مشاركة ذوى اللحمة في الخيرات التي تكون في الدنيا • وأما المكافأة فهي مقابلة الاحسان بمثله أو بزيادة عليه • واما حسن الشركة فهو الأخذ والاعطاء في المعاملات على الاعتدال الموافق للجميع * واما حسن القضاء فهو مجازاة بعدل بغير ندم ولا من * وأما التودد فهو طلب مودات الاكفاء واهل الفضل بحسن

التكليف مقرونا بالرغبة والرهبة وكان ما تخلل كتابه من قصص الانبياء السالفة وأخبار القرون الخالية عظة واعتبارا تقوى معهما الرغبة وتزداد بهما الرهبة وكان ذلك من لطفه بنا وتفضله علينا فالحمد لله الذى نعمه لا تحصى وشكره لا يؤدى ثم جعل الى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان مجملا وتفسير ما كان مشكلا وتحقيق ما كان محتملا ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة التفويض اليه . قال الله تعالى وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ثم جعل الى العلماء استنباط ما نبه على معانيه وأشار الى أصوله بالاجتهاد فيه الى علم المراد فيمتاز وا بذلك عن غيرهم ويختصوا بثواب اجتهادهم قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات وقال الله تعالى وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم فصار الكتاب أصلا والسنة فرعا واستنباط العلماء ايضاحا وكشفا . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال القرآن أصل علم الشريعة نصه ودليله والحكمة بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمة المجتمعة حجة على من شذ عنها وكان من رأفته بخلقه وتفضله على عباده أن أقدرهم على ما كلفهم ورفع الحرج عنهم فيما تعبدهم ليكونوا مع ما قد أعده لهم ناهضين بفعل الطاعات ومجانبة المعاصى . قال الله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها وقال وما جعل عليكم فى الدين من حرج . وجعل ما كلفهم به ثلاثة أقسام قسما أمرهم باعتقاده وقسما أمرهم بفعله وقسما أمرهم بالكف عنه ليكون اختلاف جهات التكليف أبعث على قبوله وأعون على فعله حكمة منه ولطفا وجعل ما أمرهم باعتقاده قسمين قسما اثباتا وقسما نفيا فاما الاثبات فاثبات توحيده وصفاته واثبات بعثه رسله وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به وأما النفى فنفى الصاحبة والولد والحاجة والقبائح أجمع وهذان القسمان أول ما كلفه العاقل وجعل ما أمرهم بفعله ثلاثة أقسام قسما على أبدانهم كالصلاة والصيام وقسما فى أموالهم كالزكاة والكفارة وقسما على أموالهم وأبدانهم كالحج والجهاد ليسهل عليهم فعله ويخف عنهم أداؤه نظرا منه تعالى لهم وتفضلا منه عليهم وجعل ما أمرهم بالكف عنه ثلاثة أقسام قسما لاحياء نفوسهم وصلاح أبدانهم كنهيه عن القتل وأكل الخبائث والسموم وشرب الخمور المؤدية الى فساد العقل وزواله وقسما لائتلافهم واصلاح ذات بينهم كنهيه عن الغضب والغلبة والظلم والسرف المفضى الى القطيعة والبغضاء وقسما لحفظ أنسابهم وتعظيم محارمهم كنهيه عن الزنا ونكاح ذوات المحارم فكانت نعمته فيما حظره علينا كنعمته فيما أباحه لنا وتفضله فيما كفنا عنه كتفضله فيما أمرنا به فهل يجد العاقل فى رؤيته مساغا أن يقصر فيما أمر به وهو نعمة عليه أو يرى فسحة فى ارتكاب ما نهى عنه وهو تفضل منه عليه وهل يكون من أنعم عليه بنعمة فاهملها مع شدة فاقته اليها الا مذموما فى العقل مع ما جاء من وعيد الشرع ثم من لطفه بخلقه وتفضله على عباده أن جعل لهم من جنس كل فريضة نفلا وجعل له من الثواب قسطا وندبهم اليه ندبا وجعل لهم بالحسنة عشرا ليضاعف ثواب فاعله ويضع العقاب عن تاركه ومن لطيف حكمته أن جعل لكل عبادة حالتين حالة

اللقاء وبالأعمال التى تستدعى المحبة منهم * واما العبادة فهى تعظيم الله تعالى وتمجيده وطاعته واكرام أوليائه من الملائكة والانبياء والأئمة والعمل بما توجبه الشريعة وتقوى الله تعالى تتمم هذه الاشياء وتكملها * واذ قد تقصينا الفضائل الأولى وأقسامها وذكرنا أنواعها وأجزاءها فقد عرفنا الرذائل التى تضاد الفضائل لانه يفهم من كل واحدة من تلك الفضائل كلها ما يقابلها لان العلم بالاضداد واحد * ولما كانت هذه الفضائل أوساطا بين أطراف وتلك الاطراف هى الرذائل وجب أن تفهم منها وان اتسع لنا الزمان ذكرناها لان وجود أسمائها فى هذا الوقت متعذر وينبغى ان تفهم من قولنا ان كل فضيلة فهى وسط بين

كمال وحالة جواز رفقا منه بخلقه لما سبق فى علمه أن فيهم العجل المبادر والبطىء المتثاقل ومن لا صبر له على أداء الاكمل ليكون ما أخل به من هيئات عبادته غير قادح فى فرض ولا مانع من أجر فكان ذلك من نعمه علينا وحسن نظره الينا وكان أول ما فرض بعد تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم عبادات الابدان وقدمها على ما يتعلق بالاموال لان النفوس على الاموال أشح وبما يتعلق بالابدان أسمح وذلك الصلاة والصيام فقدم الصلاة على الصيام لان الصلاة أسهل فعلا وأيسر عملا وجعلها مشتملة على خضوع له وابتهال اليه فالخضوع له رهبة منه والابتهال اليه رغبة فيه ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم اذا قام أحدكم الى صلاته فانما يناجى ربه فلينظر بم يناجيه وروى عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه انه كان كلما دخل عليه وقت صلاة اصفر لونه مرة واحمر أخرى فقيل له فى ذلك فقال أتتنى الامانة التى عرضت على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها أنا فلا أدرى أؤدى فيها أم أحسن ثم جعل لها شروطا لازمة من رفع حدث وازالة نجس ليستديم النظافة للقاء ربه والطهارة لاداء فرضه ثم ضمنها تلاوة كتابه المنزل ليتدبر ما فيه من أوامره ونواهيه ويعتبر اعجاز ألفاظه ومعانيه ثم علقها باوقات راتبة وأزمان مترادفة ليكون ترادف أزمانها وتتابع أوقاتها سببا لاستدامة الخضوع له والابتهال اليه فلا تنقطع الرهبة منه ولا الرغبة فيه واذا لم تنقطع الرغبة والرهبة استدام صلاح الخلق وبحسب قوة الرغبة والرهبة يكون استيفاؤها حال الكمال أو التقصير فيها حال الجواز * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة مكيال فمن وفى وفى له ومن طفف فقد علمتم ما قال الله فى المطففين * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من هانت عليه صلاته كانت على الله تعالى عز وجل أهون * وأنشدت لبعض الفصحاء فى ذلك

أقبل على صلواتك الخمس * كم مصبح وعساه لا يمسى
واستقبل اليوم الجديد بتوبة * تمحو ذنوب صبيحة الامس
فليفعلن بوجهك الغض البلى * فعل الظلام بصورة الشمس

ثم فرض الله تعالى الصيام وقدمه على زكاة الاموال لتعلق الصيام بالابدان وكان فى ايجابه حث على رحمة الفقراء واطعامهم وسد جوعاتهم لما عاينوه من شدة المجاعة فى صومهم وقد قيل ليوسف على نبينا وعليه السلام أتجوع وأنت على خزائن الارض فقال أخاف أن أشبع فانسى الجائع ثم لما فى الصوم من قهر النفس واذلالها وكسر الشهوة المستولية عليها واشعار النفس ما هى عليه من الحاجة الى يسير الطعام والشراب والمحتاج الى الشئ ذليل به وبهذا احتج الله تعالى على من اتخذ عيسى على نبينا وعليه السلام وأمه إلهين من دونه فقال ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام فجعل احتياجهما الى الطعام نقصا فيهما عن أن يكونا إلهين وقد وصف الحسن البصرى رحمه الله تعالى نقص الانسان بالطعام والشراب فقال مسكين ابن آدم محتوم الاجل مكتوم الامل مستور العلل يتكلم بلحم وينظر بشحم ويسمع بعظم أسير

رذائل ما أنا واصفه * ان الارض لما كانت فى غاية البعد من السماء قيل انها وسط وبالجملة المركز من الدائرة هو على غاية البعد من المحيط واذا كان الشئ على غاية البعد من شئ آخر فهو من هذه الجهة على القطر * فعلى هذا الوجه ينبغى ان يفهم معنى الوسط من الفضيلة اذا كانت بين رذائل بعدها منها أقصى البعد ولهذا اذا انحرفت الفضيلة عن موضعها الخاص بها أدنى انحراف قربت من رذيلة أخرى ولم تسلم من العيب بحسب قربها من تلك الرذيلة التى تميل اليها ولهذا صعب جدا وجود هذا الوسط ثم التمسك به بعد وجوده أصعب * لذلك قالت الحكماء اصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها ولزوم الصواب بعد

جوعه صريع شبعه تؤذيه البقة وتنتنه العرقة وتقتله الشرقة لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فانظر الى لطفه بنا فيما أوجبه من الصيام علينا كيف أيقظ العقول له وقد كانت عنه غافلة أو متغافلة ونفع النفوس به ولم تكن منتفعة ولا نافعة ثم فرض زكاة الاموال وقدمها على فرض الحج لان في الحج مع انفاق المال سفرا شاقا فكانت النفس الى الزكاة أسرع اجابة منها الى الحج فكان في ايجابها مواساة للفقراء ومعونة لذوي الحاجات تكفهم من البغضاء وتمنعهم من التقاطع وتبعثهم على التواصل لان الآمل وصول والراجي هائب واذا زال الامل وانقطع الرجاء واشتدت الحاجة وقعت البغضاء واشتد الحسد فحدث التقاطع بين أرباب الاموال والفقراء ووقعت العداوة بين ذوي الحاجات والاغنياء حتى تفضي الى التغالب على الاموال والتغرير بالنفوس هذا مع ما في أداء الزكاة من تمرين النفس على السماحة المحمودة ومجانبة الشح المذموم لان السماحة تبعث على اداء الحقوق والشح يصد عنها وما يبعث على أداء الحقوق فأجدر به حمدا وما صد عنها فأخلق به ذما . وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال شر ما أعطي العبد شح هالع * وجبن خالع * فسبحان من دبر بلطيف حكمته وأخفى عن فطنتنا جزيل نعمته حتى استوجب من الشكر بإخفائها أعظم مما استوجبه بابدائها * ثم فرض الحج فكان آخر فروضه لانه يجمع عملا على بدن وحقا في مال فجعل فرضه بعد استقرار فروض الابدان وفروض الاموال ليكون استئناسهم بكل واحد من النوعين ذريعة الى تسهيل ما جمع بين النوعين فكان في ايجابه تذكير ليوم الحشر بمفارقة المال والاهل وخضوع العزيز والذليل في الوقوف بين يديه واجتماع المطيع والعاصي الرهبة منه والرغبة اليه واقلاع أهل المعاصي عما اجترحوه وندم المذنبين على ما أسلفوه فقل من حج الا وأحدث توبة من ذنب واقلاعا من معصية ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من علامة الحجة المبرورة أن يكون صاحبها بعدها خيرا منه قبلها وهذا صحيح لان الندم على الذنوب مانع من الاقدام عليها والتوبة مكفرة لما سلف منها فاذا كف عما كان يقدم عليه أنبأ عن صحة توبته وصحة التوبة تقتضي قبول حجته ثم نبه بما يعاني فيه من مشاق السفر المؤدي اليه على موضع النعمة برفاهة الاقامة وأنسة الاوطان ليحنوا على من سلب هذه النعمة من أبناء السبيل ثم أعلم بمشاهدة حرمه الذي أنشأ منه دينه وبعث فيه رسوله صلى الله عليه وسلم ثم بمشاهدة دار الهجرة التي أعز الله بها أهل طاعته وأذل بنصرة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام أهل معصيته حتى خضع له عظماء المتجبرين وتذلل له زعماء المتكبرين أنه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع ولا قوي بعد الضعف المبين حتى طبق الارض شرقا وغربا الا بمعجزة ظاهرة ونصر عزيز فاعتبر أيها الملك الشكر ووفقك للتقوى انعامه عليك فيما كلفك واحسانه اليك فيما تعبدك فقد وكلك الى فطنتك وأحالك على بصيرتك بعد أن كنت لك رائدا صدوقا وناصحا شفوقا هل تحسن نهوضا بشكره اذا فعلت ما أمرك وتقبلت ما كلفك كلا انه لا يوليك نعمة توجب الشكر الا وصلها قبل شكر ما سلف بنعمة توجب الشكر في المؤتنف . وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما نعم الله أكثر من أن

ذلك حتى لا يخطئها أعسر وأصعب * وذلك ان الاطراف التي تسمى رذائل من الافعال والاحوال والازمان وسائر الجهات كثيرة جدا * ولذلك كانت دواعي الشر أكثر من دواعي الخير ويجب ان تطلب أوساط تلك الاطراف بحسب كل فرد فرد * فاما ما يجب على المؤلف فهو ان يذكر جمل هذه الاوساط وقوانينها بحسب ما يليق بالصناعة لا على ما يجب على كل شخص شخص فان هذا غير ممكن فان النجار والصائغ وجميع أرباب الصناعات انما يحصل في نفوسهم قوانين وأصول فيعرف النجار صورة الباب والسرير والصائغ صورة الخاتم والتاج على الاطلاق فاما أشخاص ما قام في نفسه

تشكر الا ما أعان عليه وذنوب ابن آدم أكثر من أن تغفر الا ما عفى عنه * وأنشدت
لمنصور بن اسماعيل الفقيه المصري رحمه الله تعالى

شكر الاله نعمة * موجبة لشكره
فكيف شكري بره * وشكره من بره

واذا كنت عن شكر نعمه عاجزا فكيف بك اذا قصرت فيما أمرك أو فرطت فيما كلفك ونعمه أعود عليك لو فعلته هل تكون لسوابغ نعمه الا كفورا وببداية العقول الا مزجورا وقد قال الله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها . قال مجاهد أي يعرفون ما عدد الله عليهم من نعمه وينكرونها بقولهم انهم ورثوها عن آبائهم واكتسبوها بافعالهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله يا ابن آدم ما أنصفتني أتحبب اليك بالنعم وتمقت الي بالمعاصي خيري اليك نازل وشرك الي صاعد كم من ملك كريم يصعد الي منك بعمل قبيح . وقال بعض صلحاء السلف قد أصبح بنا من نعم الله تعالى ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه فلا ندري أيهما نشكر أجميل ما ينشر أم قبيح ما يستر فحق على من عرف موضع النعمة أن يقبلها ممتثلا لما كلف منها وقبولها يكون باداثها ثم يشكر الله تعالى على ما أنعم من اسدائها فان بنا من الحاجة الى نعمه أكثر مما كلفنا من شكر نعمه فان نحن أدينا حق النعمة في التكليف تفضل باسداء النعمة من غير جهة التكليف فلزمت النعمتان ومن لزمته النعمتان فقد أوتي حظ الدنيا والآخرة وهذا هو السعيد بالاطلاق وان قصرنا في أداء ما كلفنا من شكره قصر عنا ما لا تكليف فيه من نعمه فنفرت النعمتان ومن نفرت عنه النعمتان فقد سلب حظ الدنيا والآخرة فلم يكن له في الحياة حظ ولا في الموت راحة وهذا هو الشقي بالاستحقاق وليس يختار الشقوة على السعادة ذو لب صحيح ولا عقل سليم * وقد قال الله تعالى ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوأ يجز به . وروى الأعمش عن سليم قال قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه يا رسول الله ما أشد هذه الآية من يعمل سوأ يجز به فقال يا أبا بكر ان المصيبة في الدنيا جزاء واختلف المفسرون في تأويل قوله تعالى سنعذبهم مرتين فقال بعضهم أحد العذابين الفضيحة في الدنيا والثاني عذاب القبر . وقال عبد الرحمن بن زيد أحد العذابين مصائبهم في الدنيا في أموالهم وأولادهم والثاني عذاب الآخرة في النار وليس وان نال أهل المعاصي لذة من عيش أو أدركوا امنية من دنيا كانت عليهم نعمة بل قد يكون ذلك استدراجا ونقمة . وروى ابن لهيعة عن عقبة ابن مسلم بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيت الله تعالى يعطي العباد ما يشاؤن على معاصيهم اياه فانما ذلك استدراج منه لهم ثم تلا فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون . فاما المحرمات التي يمنع الشرع منها واستقر التكليف عقلا أو شرعا بالنهي عنها فتنقسم قسمين منها ما تكون النفوس داعية اليها والشهوات باعثة عليها كالسفاح وشرب الخمر فقد جز الله عنها القوة الباعث عليها وشدة الميل اليها بنوعين من الزجر أحدهما حد عاجل يرتدع به الجرىء والثاني وعيد آجل يزدجر به التقي ومنها ما تكون النفوس نافرة منها

والشهوات

فانما يستخرجها بتلك القوانين ولا يمكنه تعرف الاشخاص لانها بلا نهاية * وذلك ان كل باب وخاتم انما يعمل بمقدار ما ينبغي وعلى قدر الحاجة وبحسب المادة * والصناعة لا تضمن الا معرفة الاصول فقط * واذ قد ذكرنا معنى الوسط في الاخلاق وما ينبغي أن يفهم منه فلنذكر هذه الاوساط لتفهم منها الاطراف التي هي رذائل وشرور فنقول وبالله التوفيق

(أما الحكمة) فهي وسط بين السفه والبله وأعني بالسفه ههنا استعمال القوة الفكرية فيما لا ينبغي وكما لا ينبغي * وسماه القوم الجربزة وأعني بالبله تعطيل هذه القوة واطراحها وليس ينبغي أن يفهم أن البله ههنا نقصان الخلقة بل ما ذكرته من تعطيل القوة الفكرية

والشهوات مصروفة عنها كأكل الخبائث والمستقذرات وشرب السموم المتلفات فاقتصر الله في الزجر عنها بالوعيد وحده دون الحد لأن النفوس مستعدة في الزجر عنها ومصروفة عن ركوب المحظور منها ثم أكد الله زواجره بانكار المنكرين لها فأوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليكون الأمر بالمعروف تأكيد الأوامره والنهي عن المنكر تأييدا لزواجره لأن النفوس الأشرة قد ألهتها الصبوة عن اتباع الأوامر وأذهلتها الشهوة عن تذكار الزواجر وكان انكار المجانسين أزجر لها وتوبيخ المخاطبين أبلغ فيها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما أقر قوم المنكر بين أظهرهم الا عمهم الله بعذاب محتضر • واذا كان ذلك فلا يخلو حال فاعلي المنكر من أحد الأمرين أحدهما أن يكونوا آحادا متفرقين وأفرادا متبددين لم يتحزبوا فيه ولم يتظافروا عليه وهم رعية مقهورون وأشذاذ مستضعفون فلا خلاف بين الناس أن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع المكنة وظهور القدرة واجب على من شاهد ذلك من فاعليه أو سمعه من قائليه وانما اختلفوا في وجوب ذلك على منكريه هل وجب عليهم بالعقل أو بالشرع فذهب بعض المتكلمين الى وجوب ذلك بالعقل لأنه لما وجب بالعقل أن يمتنع من القبيح وجب أيضا بالعقل أن يمنع غيره منه لأن ذلك أدعى الى مجانبته وأبلغ في مفارقته • وقد روى عبد الله بن المبارك رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قوما ركبوا سفينة فاقتسموا فأخذ كل واحد منهم موضعا فنقر رجل منهم موضعه بفاس فقالوا ما تصنع فقال هو مكاني أصنع فيه ما شئت فلم يأخذوا على يديه فهلك وهلكوا وذهب آخرون الى وجوب ذلك بالشرع دون العقل لان العقل لو أوجب النهي عن المنكر ومنع غيره من القبيح لوجب مثله على الله تعالى ولما جاز ورود الشرع باقرار أهل الذمة على الكفر وترك النكير عليهم لأن واجبات العقول لا يجوز ابطالها بالشرع وفي ورود الشرع بذلك دليل على أن العقل غير موجب لانكاره فأما اذا كان في ترك انكاره مضرة لاحقة بمنكره وجب انكاره بالعقل على القولين معا وأما ان لحق المنكر مضرة من انكاره ولم تلحقه من كفه واقراره لم يجب عليه الانكار بالعقل ولا بالشرع أما العقل فلانه يمنع من اجتلاب المضار التي لا يوازيها نفع وأما الشرع فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أنكر المنكر بيدك فان لم تستطع فبلسانك فان لم تستطع فبقلبك وذلك أضعف الايمان • فان أراد الاقدام على الانكار مع لحوق المضرة به نظر فان لم يكن اظهار النكير مما يتعلق باعزاز دين الله ولا اظهار كلمة الحق لم يجب عليه النكير اذا خشي بغالب الظن تلفا أو ضررا ولم يخش منه النكير أيضا وان كان في اظهار النكير اعزاز دين الله تعالى واظهار كلمة الحق حسن منه النكير مع خشية الاضرار والتلف وان لم يجب عليه اذا كان الغرض قد يحصل له بالنكير وان انتصر أو قتل وعلى هذا الوجه قال النبي صلى الله عليه وسلم ان من أفضل الأعمال كلمة حق عند سلطان جائر • فاما اذا كان يقتل قبل حصول الغرض قبح في العقل أن يتعرض لانكاره وكذلك لو كان الانكار يزيد المنهي اغراء بفعل المنكر ولجاجا في الاكثار منه قبح في العقل انكاره والحال الثانية أن يكون

بالارادة * وأما الذكاء فهو وسط بين الخبث والبلادة فان أحد طرفي كل وسط افراط والآخر تفريط أعني الزيادة عليه والنقصان منه فالخبث والدهاء والحيل الرديئة هي كلها الى جانب الزيادة فيما ينبغي أن يكون الذكاء فيه * وأما البلادة والبله والعجز عن ادراك المعارف فهي كلها الى جانب النقصان من الذكاء * وأما الذكر فهو وسط بين النسيان الذي يكون باهمال ما ينبغي ان يحفظ وبين العناية بما لا ينبغي أن يحفظ * وأما التعقل وهو حسن التصور فهو وسط بين الذهاب بالنظر في الشيء الموضوع الى أكثر مما هو عليه * وبين القصور بالنظر فيه عما هو عليه وأما سرعة الفهم فهي وسط بين اختطاف خيال الشيء من غير احكام لفهمه

فعل المنكر من جماعة قد تظافروا عليه وعصبة قد تحزبت ودعت اليه وقد اختلف الناس في وجوب انكاره على مذاهب شتى فقالت طائفة من أصحاب الحديث وأهل الآثار لا يجب انكاره والاولى بالانسان أن يكون كافا ممسكا وملازما لبيته وادعا غير منكر ولا مستفز وقالت طائفة أخرى ممن يقول بظهور المنتظر لا يجب انكاره ولا التعرض لازالته الا أن يظهر المنتظر فيتولى انكاره بنفسه ويكونوا أعوانه وقالت طائفة أخرى منهم الاصم لا يجوز للناس انكاره الا أن يجتمعوا على امام عدل فيجب عليهم الانكار معه وقال جمهور المتكلمين انكار ذلك واجب والدفع عنه لازم على شروطه من وجود أعوان يصلحون له فاما مع فقد الاعوان فعلى الانسان الكف لان الواحد قد يقتل قبل بلوغ الغرض وذلك قبيح في العقل أن يتعرض له فهذا اما أكد الله تعالى به أوامره وأيد به زواجره من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يختلف من أحوال الآمرين به والناهين عنه ثم ليس يخلو حال الناس فيما أمر وابه ونهوا عنه من فعل الطاعات واجتناب المعاصي من أربعة أحوال فمنهم من يستجيب الى فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصي وهذا أكمل أحوال أهل الدين وأفضل صفات المتقين فهذا يستحق جزاء العاملين وثواب المطيعين * روى محمد بن عبد الملك المدائني عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذنب لا ينسى والبر لا يبلى والديان لا يموت فكن كما شئت وكما تدين تدان * وقد قيل كل يحصد ما يزرع ويجزى بما يصنع بل قالوا ازرع يومك حصاد غدك ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي وهي أخبث أحوال المكلفين فهذا يستحق عذاب اللاهي عن فعل ما أمر به من طاعته وعذاب المجترئ على ما أقدم عليه من معاصيه وقد قال ابن شبرمة عجبت لمن يحتمي من الطيبات مخافة الداء كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة النار فاخذ ذلك بعض الشعراء فقال

جسمك قد أفنيته بالحمى * دهرا من البارد والحار
وكان أولى بك أن تحتمي * من المعاصي حذر النار

وقال ابن صاوة انا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله تعالى أهون من الصبر على عذاب الله تعالى وقال آخر اصبر وا عباد الله على عمل لا غنى لكم عن ثوابه واصبر وا عن عمل لا صبر لكم على عقابه وقيل للفضيل بن عياض رضي الله عنه رضي الله عنك فقال كيف يرضى عني ولم أرضه ومنهم من يستجيب الى فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عذاب المجترئ لانه تورط بغلبة الشهوة على الاقدام على المعصية وان سلم من التقصير في فعل الطاعة ٠ وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اقلعوا عن المعاصي قبل أن يأخذكم الله فيدعكم دعا ينتا الحت الكسر والبت القطع ٠ ولذلك قال بعض العلماء أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ولم تنزك الشبهة يقينه ٠ وقال حماد بن زيد عجبت لمن يحتمي من الاطعمة لمضراتها كيف لا يحتمي من الذنوب لمعراتها * وقال بعض الصلحاء أهل الذنوب مرضى القلوب ٠ وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله ما أعجب الاشياء فقال قلب عرف الله عز وجل ثم عصاه ٠ وقال بعض الابناء يدل بالطاعة العاصي و ينسى عظيم

وبين الابطاء عن فهم حقيقته ٠ واما صفاء الذهن فهو وسط بين ظلمة النفس عن استخراج المطلوب وبين التهاب يعرض فيها فيمنعها من استخراج المطلوب وأما جودة الذهن وقوته فهو وسط بين الافراط في التأمل لما لازم من المقدم حتى يخرج منه الى غيره وبين التفريط فيه حتى يقصر عنه وأما سهولة التعليم فهي وسط بين المبادرة اليه بسلاسة تثبت معها صورة العلم وبين التعصب عليه وتعذره (وأما العفة) فهي وسط بين رذيلتين وهما الشره وخمود الشهوة وأعني بالشره الانهماك في اللذات والخروج فيها عما ينبغي وأعني بخمود الشهوة السكون عن الحركة التي تسلك نحو اللذة الجميلة

المعاصي . وقال رجل لابن عباس رضي الله عنهما أيما أحب اليك رجل قليل الذنوب قليل العمل أو رجل كثير الذنوب كثير العمل فقال ابن عباس رضي الله عنهما لا أعدل بالسلامة شيأ * وقيل لبعض الزهاد ما تقول في صلاة الليل فقال خف الله بالنهار ونم بالليل وسمع بعض الزهاد رجلا يقول لقوم أهلككم النوم فقال بل أهلكتكم اليقظة * وقيل لأبي هريرة رضي الله عنه ما التقوى فقال أجزت في أرض فيها شوك فقال نعم فقال كيف كنت تصنع فقال كنت أتوقى قال فتوق الخطايا * وقال عبد الله بن المبارك

أيضمن لي فتى ترك المعاصي * وأرهنه الكفالة بالخلاص
أطاع الله قوم واستراحوا * ولم يتجرعوا غصص المعاصي

ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عذاب اللاهي عن دينه المنذر بقلة يقينه * وروى أبو ادريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كانت صحف موسى (على نبينا وعليه السلام) كلها عبرا عجبت لمن أيقن بالنار ثم يضحك وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم ينصب وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن اليها وعجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اجتهدوا في العمل فان قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصي وهذا واضح المعنى لان الكف عن المعاصي ترك وهو أسهل وعمل الطاعات فعل وهو أثقل ولذلك لم يبح الله تعالى ارتكاب المعصية بعذر ولا بغير عذر لانه ترك والترك لا يعجز المعذور عنه وانما أباح ترك الاعمال بالاعذار لان العمل قد يعجز المعذور عنه * وقال بكر بن عبد الله رحم الله امرأ كان قويا فاعمل قوته في طاعة الله تعالى أو كان ضعيفا فكف عن معصية الله تعالى * وقال عبد الأعلى بن عبد الله الشامي رحمه الله تعالى

العمر ينقص والذنوب تزيد * وتقال عثرات الفتى فيعود
هل يستطيع جحود ذنب واحد * رجل جوارحه عليه شهود
والمرء يسأل عن سنيه فيشتهي * تقليلها وعن الممات يحيد

واعلم أن لاعمال الطاعات ومجانبة المعاصي آفتين احداهما تكسب الوزر والأخرى توهن الاجر فأما المكسبة للوزر فالاعجاب بما سلف من عمله وقدم من طاعته لان الاعجاب به يفضي الى حالتين مذمومتين إحداهما أن المعجب بعمله ممتن به والممتن على الله تعالى جاحد لنعمه * قال ابن عباس رضي الله عنهما أوحى الله تعالى الى نبي من أنبيائه أما زهدك في الدنيا فقد استعجلت به الراحة وأما انقطاعك الي فهو عز لك فهذان لك وبقيت أنا والثانية أن المعجب بعمله مدل به والمدل بعمله مجتريء والمجتريء على الله عاص * وقال مورق العجلي خير من العجب بالطاعة أن لا يأتي بطاعة * وقال بعض السلف ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه وباك نادم على ذنبه خير من ضاحك معترف بلهوه * وأما الموهنة للاجر فالثقة بما أسلف والركون الى ما قدم لان الثقة تؤول الى أمرين شنيعين أحدهما يحدث اتكالا على ما مضى وتقصيرا فيما يستقبل ومن قصر واتكل لم يرج أجرا ولم يؤد شكرا

التي يحتاج اليها البدن في ضرورته وهي ما رخص فيه صاحب الشريعة والعقل

وأما الفضائل التي تحت العفة فان الحياء وسط بين رذيلتين * احداهما الوقاحة والأخرى الخرق * وأنت تقدر على أن تلحظ أطراف الفضائل الأخرى التي هي رذائل وربما وجدت لها أسماء بحسب اللغة وربما وجدت لها اسما وليس يعسر عليك فهم معانيها والسلوك فيها على السبيل التي سلكناها

(وأما الشجاعة) فهي وسط بين رذيلتين احداهما الجبن والأخرى التهور * أما الجبن فهو الخوف مما لا ينبغي أن يخاف منه * وأما التهور فهو الاقدام على ما لا ينبغي أن يقدم عليه

(وأما السخاء) فهو وسط بين رذيلتين احداهما

والثانى أن الواثق آمن والآمن من الله تعالى غير خائف ومن لم يخف الله تعالى هانت عليه أوامره وسهلت عليه زواجره * وقال الفضيل بن عياض رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله تعالى * وقال مورق العجلى لأن أبيت نائما * وأصبح نادما أحب الى من أن أبيت قائما وأصبح نادما * وقال الحكماء ما بينك وبين أن لا يكون فيك خير الا أن ترى أن فيك خيرا * وقيل لرابعة العدوية رحمها الله هل عملت عملا قط ترين أنه يقبل منك قالت ان كان شئ تخوفنى أن يرد على عملى * وقال ابن السماك رحمة الله عليه انا لله فيما مضى ما أعظم فيه الخطر وانا لله فيما بقى ما أقل فيه الحذر * وحكى أن بعض الزهاد وقف على جمع فنادى بأعلى صوته يامعشر الاغنياء لكم أقول استكثروا من الحسنات فان ذنوبكم كثيرة ويامعشر الفقراء لكم أقول أقلوا من الذنوب فان حسناتكم قليلة * فينبغى أحسن الله إليك بالتوفيق أن لا تضيع صحة جسمك وفراغ وقتك بالتقصير فى طاعة ربك والثقة بسالف عملك بل اجعل الاجتهاد غنيمة صحتك والعمل فرصة فراغك فليس كل الزمان مستعدا ولا ما فات مستدركا وللفراغ زيغ أو ندم وللخلوة ميل أو أسف * وقال عمر بن الخطاب الراحة للرجال غفلة وللنساء غلمة * وقال بزرجمهر ان يكن الشغل مجهدة فالفراغ مفسدة * وقال بعض الحكماء إياكم والخلوات فانها تفسد العقول وتعقد المحلول * وقال بعض البلغاء لا تمض يومك فى غير منفعة ولا تضع مالك فى غير صنيعة فالعمر أقصر من أن ينفد فى غير المنافع والمال أقل من أن يصرف فى غير الصنائع والعاقل أجل من أن يفنى أيامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره وينفق أيامه فيما لا يحصل له ثوابه وأجره وأبلغ من ذلك قول عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام البر ثلاثة المنطق والنظر والصمت فمن كان منطقه فى غير ذكر فقد لغا ومن كان نظره فى غير اعتبار فقد سها ومن كان صمته فى غير فكر فقد لها واعلم أن للانسان فيما كلف من عباداته ثلاث أحوال إحداها أن يستوفيها من غير تقصير فيها ولا زيادة عليها والثانية أن يقصر فيها والثالثة أن يزيد عليها فأما الحال الاولى فهى أن يأتى بها على حال الكمال من غير زيادة فيها ولا زيادة تطوع على راتبها فهى أوسط الأحوال وأعدلها لانه لم يكن منه تقصير فيذم ولا تكثير فيعجز * وقد روى سعيد بن أبى سعيد رضى الله عنه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال سددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة * وقال الشاعر

عليك بأوساط الأمور فانها * نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

وأما الحال الثانية وهو أن يقصر فيها فلا يخلو حال تقصيره من أربعة أحوال احداهن أن يكون لعذر أعجزه عنه أو مرض أضعفه عن أداء ما كلف به فهذا يخرج عن حكم المقصرين ويلحق بأحوال العاملين لاستقرار الشرع على سقوط ما دخل تحت العجز * وقد جاء الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من عامل كان يعمل عملا فيقطعه عنه مرض الا وكل الله تعالى به من يكتب له ثواب عمله * والحال الثانية أن يكون تقصيره فيه اغترارا بالمسامحة فيه ورجاء العفو عنه فهذا مخدوع العقل مغرور بالجهل فقد

السرف والتبذير والاخرى البخل والتقتير * أما التبذير فهو بذل ما لا ينبغى لمن لا يستحق وأما التقتير فهو منع ما ينبغى عمن يستحق (وأما العدالة) فهى وسط بين الظلم والانظلام * أما الظلم فهو التوصل الى كثرة المقتنيات من حيث لا ينبغى كما لا ينبغى * وأما الانظلام فهو الاستخذاء والاستخانة فى المقتنيات لمن لا ينبغى وكما لا ينبغى * ولذلك يكون للجائر أموال كثيرة لانه يتوصل اليها من حيث لا يجب ووجوه التوصل اليها كثيرة * وأما المنظلم فقنياته وأمواله يسيرة جدا لانه يتركها من حيث لا يجب * وأما العادل فهو فى الوسط لانه يقتنى الاموال من حيث يجب ويتركها من حيث لا يجب * فالعدالة فضيلة يتصف بها الانسان من نفسه ومن

جعل الظن ذخرا والرجاء عدة فهو كمن قطع سفرا بغير زاد ظنا بانه سيجده بالمفاوز الجدبة فيفضى به الظن الى الهلكة ولهذا كان الحذر أغلب عليه وقد ندب الله تعالى اليه • وحكى أن اسرائيل بن محمد القاضى قال لقينى مجنون كان فى الخرابات فقال يا اسرائيل خف الله خوفا يشغلك عن الرجاء فان الرجاء يشغلك عن الخوف وفر الى الله ولا تفر منه • وقيل لمحمد ابن واسع رحمه الله ألا تبكى فقال تلك حلية الآمنين • وحكى أن أبا حازم الأعرج أخبر سليمان بن عبد الملك بوعيد الله للمذنبين فقال سليمان أين رحمة الله قال قريب من المحسنين • وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ما انتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل كتاب كتبه الى على بن أبى طالب كرم الله وجهه أما بعد فان الانسان ليسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فلا تكن بما نلته من دنياك فرحا ولا لما فاتك منها ترحا ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة بطول الأمل فكأن قد والسلام • وقال محمود الوراق رحمه الله

أخاف على المحسن المتقى * وأرجو لذى الهفوات المسى
فذلك خوفى على محسن * فكيف على الظالم المعتدى
على أن ذا الزيغ قد يستفيق * ويستأنف الزيغ قلب التقى

والحال الثالثة أن يكون تقصيره فيه ليستوفى ما أخل به من بعد فيبدأ بالسيئة فى التقصير قبل الحسنة فى الاستيفاء اغترارا بالأمل فى امهاله ورجاء لتلافى ما أسلف من تقصيره واخلاله فلا ينتهى به الأمل الى غايه ولا يفضى به الى نهايه لان الأمل هو فى ثانى حال كهو فى أول حال * فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من يؤمل أن يعيش غدا فانه يؤمل أن يعيش أبدا ولعمرى ان هذا صحيح لان لكل يوم غدا فاذا يفضى به الأمل الى الفوت من غير درك ويؤديه الرجاء الى الاهمال من غير تلاف فيصير الأمل خيبة والرجاء ايأسا * وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال أول صلاح هذه الأمة بالزهد واليقين وفسادها بالبخل والأمل * وقال الحسن البصرى رحمه الله ما أطال عبد الأمل الا أساء العمل وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة ألك حاجة ببغداد قال ما أحب أن أبسط أملى الى أن تذهب الى بغداد وتجىء • وقال بعض الحكماء الجاهل يعتمد على أمله والعاقل يعتمد على عمله • وقال بعض البلغاء الأمل كالسراب غر من رآه وخاب من رجاه • وقال محمد بن يزدان دخلت على المأمون وكنت يومئذ وزيره فرأيته قائما وبيده رقعة فقال يا محمد أقرأت ما فيها فقلت هى فى يد أمير المؤمنين فرمى بها الى فاذا فيها مكتوب

انك فى دار لها مدة * يقبل فيها عمل العامل
أما ترى الموت محيطا بها * يقطع فيها أمل الآمل
تعجل بالذنب لما تشتهى * وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتى بعد ذا بغتة * ما ذاك فعل الحازم العاقل

فلما قرأتها قال المأمون رحمه الله تعالى هذا من أحكم شعر قرأته • وقال أبو حازم الأعرج

غيره من غير أن يعطى نفسه من النافع أكثر وغيره أقل * وأما فى الضارة فبالعكس وهو أن لا يعطى نفسه أقل وغيره أكثر لكن يستعمل المساواة التى هى تناسب ما بين الاشياء ومن هذا المعنى اشتق اسمه أعنى العدل * وأما الجائر فانه يطلب لنفسه الزيادة من المنافع ولغيره النقصان منها وأما فى الاشياء الضارة فانه يطلب لنفسه النقصان ولغيره الزيادة منها * فقد ذكرنا الاخلاق التى هى خيرات وفضائل وأطرافها التى هى شرور ورذائل على طريق الايجاز وحددنا ما يحد منها ورسمنا ما يرسم وسنشرح كل واحد منها على سبيل الاستقصاء فيما بعد ان شاء الله تعالى * وينبغى أن نلخص فى هذا

نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت . وقال بعض البلغاء زائد الاهمال رائد الامهال * والحال الرابعة أن يكون تقصيره فيه استثقالا للاستيفاء وزهدا في التمام واقتصارا على ما سنح وقلة اكتراث بما بقى فهذا على ثلاثة أضرب أحدها أن يكون ما أخل به وتصرف فيه غير قادح في فرض ولا مانع من عبادة كمن اقتصر في العبادة على فعل واجباتها وعمل مفترضاتها وأخل بمسنوناتها وهيآتها فهذا مسىء فيما ترك اساءة من لا يستحق وعيدا ولا يستوجب عتابا لان أداء الواجب يسقط عنه العقاب واخلاله بالمسنون يمنع من اكمال الثواب * وقد قال بعض الحكماء من تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان * وقال الشاعر

ويصون ثوبه ويترك غير ذلك لا يصونه
وأحق ما صان الفتى * ورعا أمانته ودينه

والضرب الثاني أن يكون ما أخل به من مفروض عبادته لكن لا يقدح ترك ما بقى فيما مضى كمن أكمل عبادات وأخل بغيرها فهذا أسوأ حالا ممن تقدم لما استحقه من الوعيد واستوجبه من العتاب والضرب الثالث أن يكون ما أخل به من مفروض عبادته وهو قادح فيما عمل منها كالعبادة التي يرتبط بعضها ببعض فيكون المقصر في بعضها تاركا لجميعها فلا يحتسب له ما عمل لاخلاله بما بقى فهذا أسوأ أحوال المقصرين وحاله لاحقة بأحوال التاركين بل قد تكلف ما لا يسقط فرضا ولا يؤدي حقا فتساوى التاركين في استحقاق الوعيد وزاد عليهم في تكلف ما لا يفيد فصار من الاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم لعله لا يفطن لشأنه ولا يشعر بخسرانه وقد خسر الدنيا والآخرة ويفطن لليسير من ماله ان وهى واختل * وأنشدني بعض أهل العلم

أبني ان من الرجال بهيمة * في صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة في ماله * واذا يصاب بدينه لم يشعر

وأما الحال الثالثة وهو أن يزيد فيما كلف فهذا على ثلاثة أقسام أحدها أن تكون الزيادة رياء للناظرين وتصنعا للمخلوقين حتى يستعطف به القلوب النافرة ويخدع به العقول الواهية فيتبهرج بالصلحاء وليس منهم ويتدلس في الاخيار وهو ضدهم * وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرائي بعمله مثلا فقال المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور يريد بالمتشبع بما لا يملك المتزين بما ليس فيه وقوله كلابس ثوبي زور وهو الذي يلبس ثياب الصلحاء فهو بريائه محروم الاجر مذموم الذكر لانه لم يقصد وجه الله تعالى فيؤجر عليه ولا يخفى رياؤه على الناس فيحمد به قال الله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا قال جميع أهل التأويل معنى قوله ولا يشرك بعبادة ربه أحدا أي لا يرائي بعمله أحدا فجعل الرياء شركا لانه جعل ما يقصد به وجه الله تعالى مقصودا به غير الله تعالى * وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى في قوله تعالى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قال لا تجهر بها رياء ولا تخافت بها حياء وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى يتأول قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى

عن

الموضع شكا ربما الحق طالب هذه الفضائل فنقول * انا قد بينا فيما تقدم ان الانسان من بين جميع الحيوان لا يكتفي بنفسه في تكميل ذاته * ولا بد له من معاونة قوم كثيري العدد حتى يتم به حياته طيبة ويجري أمره على السداد * ولهذا قال الحكماء ان الانسان مدني بالطبع أي هو محتاج الى مدينة فيها خلق كثير لتتم له السعادة الانسانية فكل بالطبع وبالضرورة يحتاج الى غيره فهو لذلك مضطر الى مصاحبة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة ومحبتهم المحبة الصادقة لانهم يكملون ذاته ويتممون انسانيته وهو أيضا يفعل بهم مثل ذلك فاذا كان كذلك بالطبع وبالضرورة فكيف يؤثر الانسان العاقل العارف

عن الفحشاء والمنكر والبغي أن العدل استواء السريرة والعلانية في العمل لله تعالى والاحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته وكان غيره يقول العدل شهادة أن لا اله الا الله والاحسان الصبر على أمره ونهيه وطاعة الله في سره وجهره وايتاء ذي القربى صلة الارحام وينهى عن الفحشاء يعني الزنا والمنكر القبائح والبغي الكبر والظلم وليس يخرج الرياء بالاعمال من هذا التأويل أيضا لانه من جملة القبائح * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أخوف ما أخاف على أمتي الرياء الظاهر والشهوة الخفية * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أشد الناس عذابا يوم القيامة من يرى أن فيه خيرا ولا خير فيه * وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لا تعمل شيأ من الخير رياء ولا تتركه حياء * وقال بعض العلماء كل حسنة لم يرد بها وجه الله تعالى فعلتها قبح الرياء وثمرتها سوء الجزاء وقد يفضي الرياء بصاحبه الى استهزاء الناس به كما حكى أن طاهر بن الحسين قال لابي عبد الله المروزي منذ كم صرت الى العراق يا أبا عبد الله قال دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم فقال يا أبا عبد الله سألتك عن مسألة فاجبت عن مسألتين * وحكى الأصمعي رحمه الله أن أعرابيا صلى فاطال والى جانبه قوم فقالوا ما أحسن صلاتك فقال وأنا مع ذلك صائم

صلى فاعجبني وصام فرابني * نح القلوص عن المصلي الصائم

فانظر الى هذا الرياء مع قبحه ما أدله على ضعف عقل صاحبه وربما اعد الناس مع ظهور ريائه على الاستهزاء بنفسه كالذي حكى أن زاهدا نظر الى رجل في وجهه سجادة كبيرة واتقاء على باب السلطان فقال مثل هذا الدرهم بين عينيك وأنت واقف ههنا فقال انه ضرب على غير السكة وهذا من أجوبة الخلاعة التي يدفع بها تهجين المذمة وانما استحسن الناس من الاشعث بن قيس قوله وقد خفف صلاته مرة فقال بعض أهل المسجد خففت صلاتك جدا فقال انه لم يخالطها رياء فتخلص من تنقيصهم بنفي الرياء عن نفسه ورفع التصنع في صلاته وقد كان الانكار لولا ذلك متوجها عليه واللوم لاحقا به ومر أبو أمامة ببعض المساجد فاذا رجل يصلي وهو يبكي فقال له أنت أنت لو كان هذا في بيتك فلم ير ذلك منه حسنا لانه اتهمه بالرياء ولعله كان بريئا منه فكيف بمن صار الرياء أغلب صفاته وأشهر سماته مع انه آثم فيما عمل أنم من هبوب النسيم عاجل ولذلك قال عبد الله بن المبارك أفضل الزهد اخفاء الزهد وربما أحس ذو الفضل من نفسه ميلا الى المراآة فبعثه الفضل على هتك ما نازعته النفس من المراآة فكان ذلك أبلغ في فضله كالذي حكى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أحس على المنبر بريح خرجت منه فقال أيها الناس انى قد مثلت بين أن أخافكم في الله تعالى وبين أن أخاف الله فيكم فكان أن أخاف الله فيكم أحب الي ألا واني قد فسوت وها أنا نازل أعيد الوضوء فكان ذلك منه زجرا لنفسه لتكف عن نزاعها الى مثله * وقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي عظني فقال لا أرضى نفسي لك واعظا لاني أجلس بين الغني والفقير فأميل على الفقير وأوسع للغني ولان طاعة الله تعالى في العمل لوجهه لا لغيره * وحكى أن قوما أرادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا الى

بنفسه التفرد والتخلي ولا يتعاطى ما يرى الفضيلة في غيره * فاذا القوم الذين رأوا الفضيلة في الزهد وترك مخالطة الناس وتفردوا عنهم اما بملازمة المغارات في الجبال واما ببناء الصوامع في المفاوز واما بالسياحة في البلدان لا يحصل لهم شئ من الفضائل الانسانية التي عددناها * ذلك أن من لم يخالط الناس ولم يساكنهم في المدن لا تظهر فيه العفة ولا النجدة ولا السخاء ولا العدالة بل تصير قواه وملكاته التي ركبت فيه باطلة لانها لا تتوجه لا الى خير ولا الى شر فاذا بطلت ولم تظهر أفعالها الخاصة بها صاروا بمنزلة الجمادات والموتى من الناس ولذلك يظنون ويظن بهم انهم أعفاء وليسوا بأعفاء وانهم عدول وليسوا بعدول

راهب فقالوا قد ضللنا فكيف الطريق فقال ههنا وأومأ بيده الى السماء * والقسم الثانى أن يفعل الزيادة اقتداء بغيره وهذا قد تثمره مجالسة الاخيار الافاضل وتحدثه مكاثرة الاتقياء الاماثل * ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل * فاذا كاثرهم المجالس وطاولهم المؤانس أحب أن يقتدى بهم فى أفعالهم ويتأسى بهم فى أعمالهم ولا يرضى لنفسه أن يقصر عنهم ولا أن يكون فى الخير دونهم فتبعثه المنافسة على مساواتهم وربما دعته الحمية الى الزيادة عليهم والمكاثرة لهم فيصيروا سببا لسعادته وباعثا على استزادته والعرب تقول لولا الوئام لهلك الانام أى لولا ان الناس يرى بعضهم بعضا فيقتدى بهم فى الخير لهلكوا * ولذلك قال بعض البلغاء من خير الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار مودة الاشرار وهذا صحيح لان للمصاحبة تأثيرا فى اكتساب الاخلاق فتصلح أخلاق المرء بمصاحبة أهل الصلاح وتفسد بمصاحبة أهل الفساد * ولذلك قال الشاعر

رأيت صلاح المرء يصلح أهله * ويعديهم عند الفساد اذا فسد
يعظم فى الدنيا بفضل صلاحه * ويحفظ بعد الموت فى الاهل والولد

وأنشدنى بعض أهل الادب لابى بكر الخوارزمى

لا تصحب الكسلان فى حالاته * كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

والقسم الثالث أن يفعل الزيادة ابتداء من نفسه التماسا لثوابها ورغبة فى الزلفة بها فهذا من نتائج النفس الزاكية ودواعى الرغبة الوافية الدالين على خلوص الدين وصحة اليقين وذلك أفضل أحوال العاملين وأعلى منازل العابدين وقد قيل الناس فى الخير أربعة منهم من يفعله ابتداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم من يتركه استحسانا ومنهم من يتركه حرمانا فمن فعله ابتداء فهو كريم ومن فعله اقتداء فهو حكيم ومن تركه استحسانا فهو ردى ومن تركه حرمانا فهو شقى ثم لما يفعله من الزيادة حالتان احداهما أن يكون مقتصدا فيها وقادرا على الدوام عليها فهى أفضل الحالتين وأعلى المنزلتين عليها انقرض أخيار السلف وتبعهم فيها فضلاء الخلف . وقد روت عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال أيها الناس افعلوا من الاعمال ما تطيقون فان الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ما ديم عليه والعرب تقول القصد والدوام وأنت السابق الجواد ولأن من كان صحيح الرغبة فى ثواب الله تعالى لم يكن له مسرة الا فى طاعته . وقال عبد الله بن المبارك قلت لراهب متى عيدكم قال كل يوم لا أعصى الله فيه فهو يوم عيد أنظر الى هذا القول منه وان لم يكن من مقاصد الطاعة ما أبلغه فى حب الطاعة وأحثه على بذل الاستطاعة * وخرج بعض الزهاد فى يوم عيد فى هيئة رثة فقيل لم تخرج فى مثل هذا اليوم فى مثل هذه الهيئة والناس متزينون فقال ما يتزين لله تعالى بمثل طاعته والحالة الثانية أن يستكثر منها استكثار من لا ينهض بدوامها ولا يقدر على اتصالها فهذا ربما كان بالمقصر أشبه لأن الاستكثار من الزيادة اما أن يمنع من أداء اللازم فلا يكون الا تقصيرا

لانه

وكذلك فى سائر الفضائل أعنى انه اذا لم يظهر منهم اضداد هذه التى هى شرور ظن بهم الناس أنهم أفاضل وليست الفضائل أعداما بل هى أفعال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم وفى المعاملات وضروب الاجتماعات ونحن انما نعلم ونتعلم الفضائل الانسانية التى نساكن بها الناس ونخالطهم ونصبر على اذاهم لنصل منها وبها الى سعادات أخر اذا صرنا الى حال اخرى * وتلك الحال غير موجودة لنا الآن

﴿المقالة الثانية﴾
(الخلق)

الخلق حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية * وهذه الحال تنقسم الى قسمين * منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالانسان الذى

لأنه تطوع بزيادة أحدثت نقصا وبنفل منع فرضا وأما أن يعجز عن استدامة الزيادة ويمنع من ملازمة الاستكثار من غير اخلال بلازم ولا تقصير في فرض فهي اذا قصيرة المدى قليلة اللبث ولقليل العمل في طويل الزمان أفضل عند الله عز وجل من كثير العمل في قصير الزمان لأن المستكثر من العمل في الزمان القصير قد يعمل زمانا ويترك زمانا فربما صار في زمان تركه لاهيا أو ساهيا والمقل في الزمان الطويل مستيقظ الافكار مستديم التذكار * وقد روى أبو صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان للاسلام شرة وللشرة فترة فمن سدد وقارب فارجوه ومن أشير اليه بالأصابع فلا تعدوه * فجعل للاسلام شرة وهي الايغال في الاكثار وجعل للشرة فترة وهي الاهمال بعد الاستكثار فلم يخل بما أثبت من أن تكون هذه الزيادة تقصيرا أو اخلالا ولا خير في واحد منهما واعلم جعل الله الخير حاكما لك وعليك والحق قائدا لك واليك ان الدنيا اذا وصلت فتبعات موبقة واذا فارقت ففجيعات محرقة وليس لوصلها دوام ولا من فراقها بد فرض نفسك على قطيعتها لتسلم من تبعاتها وعلى فراقها لتأمن فجعاتها فقد قيل المرء مقترض من عمره المنقرض مع أن العمر وان طال قصير والفراغ وان تم يسير وأنشدت لعلي بن محمد رحمه الله تعالى

اذا كملت للمرء ستون حجة * فلم يحظ من ستين الا بسدسها
ألم تر أن النصف بالليل حاصل * وتذهب أوقات المقيل بخمسها
فتأخذ أوقات الهموم بحصة * وأوقات أوجاع تميت بمسها
فحاصل ما يبقى له سدس عمره * اذا صدقته النفس عن علم حدسها

ورياضة نفسك لذلك تترتب على أحوال ثلاث وكل حالة منها تتشعب وهي لتسهيل ما يليها سبب فالحالة الاولى أن تصرف حب الدنيا عن قلبك فانها تلهيك عن آخرتك ولا تجعل سعيك لها فتمنعك حظك منها وتوق الركون اليها ولا تكن آمالها • فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أشرب قلبه حب الدنيا وركن اليها التاط منها بشغل لا يفرغ عناه وأمل لا يبلغ منتهاه وحرص لا يدرك مداه • وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام الدنيا لابليس مزرعة وأهلها له حراث • وقال علي بن أبي طالب مثل الدنيا مثل الحية لين مسها قاتل سمها فاعرض عما أعجبك منها لقلة ما يصحبك منها وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها وكن أحذر ما تكون لها وأنت آنس ما تكون بها فان صاحبها كلما اطمأن منها الى سرور أشخصه عنها مكروه وان سكن منها الى ايناس أزاله عنها ايحاش * وقال بعض البلغاء الدنيا لا تصفو لشارب ولا تبقى لصاحب ولا تخلو من فتنة ولا تخلى من محنة فاعرض عنها قبل أن تعرض عنك واستبدل بها قبل أن تستبدل بك فان نعيمها يتنقل وأحوالها تتبدل ولذاتها تفنى وتبعاتها تبقى • وقال بعض الحكماء انظر الى الدنيا نظر الزاهد المفارق لها ولا تتأملها تأمل العاشق الوامق بها • وقال بعض الشعراء

ألا انما الدنيا كأحلام نائم * وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل اذا ما نلت بالأمس لذة * فأفنيتها هل أنت الا كحالم

يحركه أدنى شيء نحو غضب ويهيج من أقل سبب وكالانسان الذي يجبن من أيسر شيء كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه وكالذي يضحك ضحكا مفرطا من أدنى شيء يعجبه وكالذي يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله * ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرب وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا * ولهذا اختلف القدماء في الخلق فقال بعضهم الخلق خاص بالنفس غير الناطقة وقال بعضهم قد يكون للنفس الناطقة فيه حظ * ثم اختلف الناس أيضا اختلافا ثانيا فقال بعضهم من كان له خلق طبيعي لم ينتقل عنه * وقال آخرون

فكم غافل عنه وليس بغافل * وكم نائم عنه وليس بنائم

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من هوان الدنيا على الله أن لا يعصى الا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها . وروى سفيان أن الخضر قال لموسى عليهما السلام ياموسى أعرض عن الدنيا وانبذها وراءك فانها ليست لك بدار ولا فيها محل قرار وانما جعلت الدنيا للعباد ليتزودوا منها للمعاد * وقال عيسى بن مريم عليه السلام الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها * وقال علي كرم الله وجهه يصف الدنيا أولها عناء وآخرها فناء حلالها حساب وحرامها عقاب من صح فيها أمن ومن مرض فيها ندم ومن استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فاتته ومن قعد عنها أتته ومن نظر اليها أعمته ومن نظر بها بصرته . وقال بعض البلغاء ان الدنيا تقبل اقبال الطالب وتدبر ادبار الهارب وتصل وصال الملول وتفارق فراق العجول فخيرها يسير وعيشها قصير واقبالها خديعة وادبارها فجيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية فاغتنم غفوة الزمان وانتهز فرصة الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك * وقال وهب بن منبه مثل الدنيا والآخرة مثل ضرتين ان أرضيت احداهما أسخطت الأخرى * وقال عبد الحميد الدنيا منازل فراحل ونازل * وقال بعض الحكماء الدنيا اما نقمة نازلة واما نعمة زائلة * وقيل في منثور الحكم من الدنيا على الدنيا دليل وقال الشاعر

تمتع من الايام ان كنت حازما * فانك منها بين ناه وآمر
اذا أبقت الدنيا على المرء دينه * فما فاته منها فليس بضائر
فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة * ولا وزن ذر من جناح لطائر
فما رضي الدنيا ثوابا لمؤمن * ولا رضي الدنيا جزاء لكافر

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الدنيا يومين يوم فرح ويوم هم وكلاهما زائل عنك فدعوا ما يزول وأتعبوا نفوسكم في العمل لما لا يزول . وقال عيسى بن مريم عليه السلام لا تنازعوا أهل الدنيا في دنياهم فينازعوكم في دينكم فلا دنياهم أصبتم ولا دينكم أبقيتم . وقال علي بن أبي طالب لا تكن ممن يقول في الدنيا بقول الزاهدين و يعمل فيها عمل الراغبين فان أعطي منها لم يشبع وان منع منها لم يقنع يعجز عن شكر ما أوتي و يبتغي الزيادة فيما بقي و ينهى الناس ولا ينتهي و يأمر بما لا يأتي يحب الصالحين ولا يعمل بعملهم و يبغض الطالحين وهو منهم . وقال الحسن البصري الدنيا كلها غم فما كان منها من سرور فهو ربح . وقال بعض العلماء ان الدنيا كثيرة التغيير سريعة التنكير شديدة المكر دائمة الغدر فاقطع أسباب الهوى عن قلبك واجعل أبعد أملك بقية يومك وكن كأنك ترى ثواب أعمالك . وقال بعض الحكماء الدنيا اما مصيبة موجعة واما منية مفجعة . وقال الشاعر

خل دنياك انها * يعقب الخير شرها * هي أم تعق من
نسلها من يبرها * كل نفس فانها * تبتغي ما يسرها
والمنايا تسوقها * والاماني تغرها * فاذا استحلت الجنى

ليس شئ من الاخلاق طبيعيا للانسان ولا نقول انه غير طبيعي * وذلك انا مطبوعون على قبول الخلق بل ننتقل بالتأديب والمواعظ اما سريعا أو بطيئا * وهذا الرأي الأخير هو الذي نختاره لانا نشاهده عيانا ولان الراى الاول يؤدي الى ابطال قوة التمييز والعقل والى رفض السياسات كلها وترك الناس همجا مهملين والى ترك الاحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم وهذا ظاهر الشناعة جدا وأما الرواقيون فظنوا أن الناس كلهم يخلقون أخيارا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشرارا بمجالسة أهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التي لا تقمع بالتأديب فينهمك فيها ثم يتوصل اليها من

أعقب الحلو مرها * يستوى فى ضريحه * عبد أرض وحرها

فاذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها بثلاث خلال احداهن أن تكفى اشفاق المحب وحذر الوامق فليس لمشفق ثقة ولا لحاذر راحة والثانية أن تامن الاغترار بملاهيها فتسلم من عادية دواهيها فان الملاهى بها مغرور والمغتر بها مغرور والثالثة أن تستريح من تعب السعى لها ووصب الكد فيها فان من أحب شيأ طلبه ومن طلب شيأ كد له والمكدود فيها شقى ان ظفر ومحروم ان خاب * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لكعب يا كعب الناس غاديان فغاد بنفسه فمعتقها ومو بق نفسه فموثقها * وقال عيسى بن مريم عليهما السلام تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها الا بعمل * وقال بعض البلغاء من نكد الدنيا أن لا تبقى على حاله ولا تخلو من استحالة تصلح جانبا بافساد جانب وتسر صاحبا بمساءة صاحب فالكون فيها خطر والثقة بها غرور * وقال بعض الحكماء الدنيا مرتجعة الهبة والدهر حسود لا يأتى على شئ الا غيره ولمن عاش حاجة لا تنقضى ولما بلغ مزدك من الدنيا أفضل ما سمت اليه نفسه نبذها وقال هذا سرور لولا أنه غرور ونعيم لولا أنه عديم وملك لولا أنه هلك وغناء لولا أنه فناء وجسيم لولا أنه ذميم ومحمود لولا أنه مفقود وغنى لولا أنه منى وارتفاع لولا أنه اتضاع وعلاء لولا أنه بلاء وحسن لولا أنه حزن وهو يوم لو وثق له بغد * وقال بعض الحكماء قد ملك الدنيا غير واحد من راغب وزاهد فلا الراغب فيها استبقت ولا عن الزاهد فيها كفت * وقال أبو العتاهية

هى الدار دار الاذى والقذى * ودار الفناء ودار الغير
فلو نلتها بحذا فيرها * لمت ولم تقض منها الوطر
أيا من يؤمل طول الخلود * وطول الخلود عليه ضرر
اذا ما كبرت وبان الشباب * فلا خير فى العيش بعد الكبر

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع هل يتوقع أحدكم الا غنى مطغيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هرما مقيدا أو الدجال فهو شر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر . وحكى أن الله تعالى أوحى الى عيسى بن مريم عليه السلام أن هب لى من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينك الدموع فانى قريب . وقال عيسى بن مريم عليه السلام أوحى الله الى الدنيا من خدمنى فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه وقال بعض البلغاء زد من طول أملك فى قصير عملك فان الدنيا ظل الغمام وحلم النيام فمن عرفها ثم طلبها فقد أخطأ الطريق وحرم التوفيق . وقال بعض الحكماء لا يؤمننك اقبال الدنيا عليك من ادبارها عنك ولا من دولة لك من ادالة منك . وقال آخر ما مضى من الدنيا كأن لم يكن وما بقى منها كما قد مضى وقيل لزاهد قد خلعت الدنيا فكيف سخت نفسك عنها فقال أيقنت أنى أخرج منها كارها فرأيت أن أخرج منها طائعا . وقيل لحرقة بنت النعمان مالك تبكين فقالت رأيت لأهلى غضارة ولن تمتلئ دار فرحا الا امتلأت ترحا . وقال ابن السماك من جرعته

كل وجه ولا يفكر فى الحسن منها والقبيح * وقوم آخرون كانوا قبل هؤلاء ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهى كدر العالم فهم لاجل ذلك أشرار بالطبع * وانما يصيرون أخيارا بالتأديب والتعليم الا أن فيهم من هو فى غاية الشر لا يصلحه التأديب وفيهم من ليس فى غاية الشر فيمكن أن ينتقل من الشر الى الخير بالتأديب من الصبا ثم بمجالسة الاخيار وأهل الفضل * فأما جالينوس فانه رأى أن الناس فيهم من هو خير بالطبع وفيهم من هو شرير بالطبع وفيهم من هو متوسط بين هذين . ثم أفسد المذهبين الاولين اللذين ذكرناهما * أما الاول فبأن قال ان كان كل الناس أخيارا بالطبع وانما ينتقلون الى الشر

الدنيا حلاوتها عيله اليها جرعته الآخرة مرارتها لتجافيه عنها • وقال صاحب كليلة ودمنة طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الابيات

نهارك يا مغرور سهو وغفلة * وليلك نوم والأسى لك لازم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى * كما سر باللذات فى النوم حالم
وشغلك فيما سوف تكره غبه * كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

وسمع رجل رجلا يقول لصاحبه لا أراك الله مكروها فقال كأنك دعوت على صاحبك بالموت ان صاحبك ما صاحب الدنيا فلا بد أن يرى مكروها * وقال أبو العتاهية

ان الزمان ولو يليـ * ـن لاهله لمخاشن
خطواته المتحركا * ت كأنهن سواكن

والحال الثانية من أحوال رياضتك لها ان تصدق نفسك فيما منحتك من رغائبها وأنالتك من غرائبها فتعلم ان العطية فيها مرتجعة والمنحة فيها مستردة بعد أن تبقى عليك ما احتقنت من أوزار وصولها اليك وخسران خروجها عنك * فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تزول قدما ابن آدم حتى يسئل عن ثلاث شبابه فيم أبلاه وعمره فيم أفناه وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه * وروى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال فى المال ثلاث خصال قالوا وما هن يا روح الله قال يكسبه من غير حله قالوا فان كسبه من حله قال يضعه فى غير حقه قالوا فان وضعه فى حقه قال يشغله عن عبادة ربه ودخل أبو حازم على بشر بن مروان فقال يا أبا حازم ما المخرج مما نحن فيه قال تنظر ما عندك فلا تضعه الا فى حقه وما ليس عندك فلا تأخذه الا بحقه قال ومن يطيق هذا يا أبا حازم قال فمن أجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس أجمعين * وعيرت اليهود عيسى بن مريم عليه السلام بالفقر فقال من الغنى دهيتم ودخل قوم منزل عابد فلم يجدوا شيأ يقعدون عليه فقال لو كانت الدنيا دار مقام لاتخذنا لها أثاثا * وقيل لبعض الزهاد ألا توصى قال بماذا أوصى والله ما لنا شئ ولا لنا عند أحد شئ ولا لأحد عندنا شئ أنظر الى هذه الراحة كيف تجيئها والى السلامة كيف صار اليها ولذلك قيل الفقر ملك ليس فيه محاسبة * وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام ألا تتزوج فقال انما نحب التكاثر فى دار البقاء وقيل لو دعوت الله تعالى أن يرزقك حمارا فقال أنا أكرم على الله من أن يجعلنى خادم حمار * وقيل لأبى حازم رضى الله عنه ما مالك قال شيئان الرضا عن الله والغنى عن الناس وقيل له انك لمسكين فقال كيف أكون مسكينا ومولاى له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى • وقال بعض الحكماء رب مغبوط بمسرة هى داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه * وقال بعض الأدباء الناس أشتات ولكل جمع شتات * وقال بعض البلغاء الزهد بصحة اليقين وصحة اليقين بنور الدين فمن صح يقينه زهد فى الثراء ومن قوى دينه أيقن بالجزاء فلا تغرنك صحة نفسك وسلامة أمسك فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة * وقال بعض الشعراء

رب مغروس يعاش به * عدمته عين مغترسه

وكذلك

بالتعليم فبالضرورة اما أن يكون تعلمهم الشرور من أنفسهم واما من غيرهم فان تعلموا من غيرهم فان المعلمين الذين علموهم الشر أشرار بالطبع * فليس الناس اذا كلهم أخيارا بالطبع * وان كانوا تعلموه من أنفسهم فاما أن يكون فيهم قوة يشتاقون بها الى الشر فقط فهم اذا أشرار بالطبع واما أن يكون فيهم مع هذه القوة التى تشتاق الى الشر قوة أخرى تشتاق الى الخير الا ان القوة التى تشتاق الى الشر غالبة قاهرة للتى تشتاق الى الخير وعلى هذا أيضا يكونون أشرارا بالطبع وأما الرأى الثانى فانه أفسده بمثل هذه الحجة • وذلك انه قال ان كان كل الناس أشرارا بالطبع فاما أن يكونوا تعلموا الخير من غيرهم أو من أنفسهم ونعيد الكلام الاول بعينه

وكذاك الدهر مأتمه * أقرب الأشياء من عرسه

فاذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال إحداهن دعة نفسك وقد استسلمت اليك والنظر لها وقد اعتمدت عليك فان ناش نفسه مغبون والمنحرف عنها مأفون والثانية الزهد فيما ليس لك لتكفى تكلف طلبه وتسلم من تبعات كسبه والثالثة انتهاز الفرصة فى مالك أن تضعه فى حقه وأن تؤتيه مستحقه ليكون لك ذخرا ولا يكون عليك وزرا • فقد روى أن رجلا قال يا رسول الله إنى أكره الموت قال ألك مال قال نعم قال قدم مالك فان قلب المؤمن عند ماله • وقالت عائشة رضى الله عنها ذبحنا شاة فتصدقنا بها فقلت يا رسول الله ما بقى الا كتفها قال كلها بقى الا كتفها • وحكى أن عبد الله بن عبيد الله بن عتبة بن مسعود باع دارا بثمانين ألف درهم فقيل له اتخذ لولدك من هذا المال ذخرا فقال أنا أجعل هذا المال ذخرا لى عند الله عز وجل وأجعل الله ذخرا لولدى وتصدق بها وعوتب سهل بن عبد الله المروزى فى كثرة الصدقة فقال لو أن رجلا أراد أن ينتقل من دار الى دار أكان يبقى فى الأولى شيأ • وقال سليمان بن عبد الملك لأبى حازم ما لنا نكره الموت قال لانكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم أن تنتقلوا من العمران الى الخراب • وقيل لعبد الله بن عمر ترك زيد بن خارجة مائة ألف درهم فقال لكنها لا تتركه • وقال الحسن البصرى رحمه الله ما أنعم الله على عبد نعمة الا وعليه فيها تبعة الا سليمان بن داود عليه السلام فان الله تعالى قال له هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وقال أبو حازم ان عوفينا من شر ما أعطينا لم يضرنا فقد ما زوى عنا * وقال بعض السلف قدموا كلا ليكون لكم ولا تخلفوا كلا فيكون عليكم • وقال ابراهيم نعم القوم السؤال يدقون أبوابكم يقولون أتوجهون للآخرة شيأ * وقال سعيد بن المسيب مر بى صلة ابن أشيم فما تمالكت ان نهضت إليه فقلت يا أبا الصهباء ادع لى فقال رغبك الله فيما يبقى وزهدك فيما يفنى ووهب لك اليقين الذى لا تسكن النفس الا إليه ولا يعوّل فى الدين إلا عليه ولما ثقل عبد الملك بن مروان رأى غسالا يلوى بيده ثوبا فقال وددت انى كنت غسالا لا أعيش الا بما أكتسبه يوما فيوما فبلغ ذلك أبا حازم فقال الحمد لله الذى جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى نحن عنده ما هم فيه • وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك يا ابن آدم من مالك الا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو أعطيت فأمضيت • وقال خالد بن صفوان بت ليلتى أتمنى فكبست البحر الأخضر والذهب الأحمر فاذا يكفينى من ذلك رغيفان وكوزان وطمران * وقال مورق العجلى يا ابن آدم تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن وينقص عمرك وأنت لا تحزن تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك * وقال أبو حازم إنما بيننا وبين الملوك يوم واحد أما أمس فقد مضى فلا يجدون لذته وانا وهم من غد على وجل وانما هو اليوم فما عسى أن يكون * وقال بعض السلف تعز عن الشئ اذا منعته لقلة ما يصحبك اذا أعطيته * وقال بعض الحكماء من ترك نصيبه من الدنيا استوفى حظه من الآخرة * وقال آخر ترك التلبس بالدنيا قبل التشبث بها أهون من رفضها بعد ملابستها * وقال آخر لكن طلبك للدنيا

* ولما أفسد هذين المذهبين صحح رأى نفسه من الأمور البينة الظاهرة * وذلك انه ظاهر جدا أن من الناس من هو خير بالطبع وهم قليلون وليس ينتقل هؤلاء الى الشر ومنهم من هو شرير بالطبع وهم كثيرون وليس ينتقل هؤلاء الى الخير * ومنهم من هو متوسط بين هذين وهؤلاء قد ينتقلون بصاحبة الاخيار ومواعظهم الى الخير وقد ينتقلون بمقاربة أهل الشر واغوائهم الى الشر

وأما ارسطوطاليس فقد بين فى كتاب الاخلاق وفى كتاب المقولات أيضا أن الشرير قد ينتقل بالتأديب الى الخير * ولكن ليس على الاطلاق لانه يرى أن تكرير المواعظ والتأديب وأخذ الناس بالسياسات الجيدة

اضطرارا وتذكرك فى الأمور اعتبارا وسعيك لمعادك ابتدارا * وقال آخر الزاهد لا يطلب المفقود حتى يفقد الموجود وقال آخر من آمن بالآخرة لم يحرص على الدنيا ومن أيقن بالمجازاة لم يؤثر على الحسنى وقال آخر من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر * وقال أبو العتاهية

أرى الدنيا لمن هى فى يديه * عذابا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر * وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شئ فدعه * وخذ ما أنت محتاج اليه

وحكى الاصمعى رحمه الله قال دخلت على الرشيد رحمة الله عليه يوما وهو ينظر فى كتاب ودموعه تسيل على خده فلما أبصرنى قال أرأيت ما كان منى قلت نعم يا أمير المؤمنين فقال أما إنه لو كان لأمر الدنيا ما كان هذا ثم رمى الىّ بالقرطاس فاذا فيه شعر أبى العتاهية رحمه الله تعالى

هل أنت معتبر بمن خربت * منه غداة قضى دساكره
وبمن أذل الدهر مصرعه * فتبرأت منه عساكره
وبمن خلت منه أسرته * وتعطلت منه منابره
أين الملوك وأين عزهم * صاروا مصيرا أنت صائره
يا مؤثر الدنيا للذته * والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدا لك أن تنال من الـ * ـدنيا فان الموت آخره

فقال الرشيد رحمة الله عليه والله لكأنى أخاطب بهذا الشعر دون الناس فلم يلبث بعد ذلك الا يسيرا حتى مات رحمه الله ثم الحالة الثالثة من أحوال رياضتك لها أن تكشف لنفسك حال أجلك وتصرفها عن غرور أملك حتى لا يطيل لك الأمل أجلا قصيرا ولا ينسيك موتا ولا نشورا * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى بعض خطبه أيها الناس ان الأيام تطوى والأعمار تفنى والأبدان تبلى وان الليل والنهار يترا كضان كترا كض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفى ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب فى الباقيات الصالحات * وقال مسعر كم من مستقبل يوما وليس يستكمله ومنتظر غدا وليس من أجله ولو رأيتم الأجل ومسيره لابغضتم الأمل وغروره * وقال رجل من الانصار للنبى صلى الله عليه وسلم من أكيس الناس قال أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة * وقال عيسى بن مريم عليه السلام كما تنامون كذلك تموتون وكما تستيقظون كذلك تبعثون * وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه أيها الناس اتقوا الله الذى ان قلتم سمع وان أضمرتم علم وبادروا الموت الذى ان هربتم أدرككم وان أقمتم أخذكم * وقال العلاء بن المسيب ليس قبل الموت شئ الا والموت أشد منه وليس بعد الموت شئ الا والموت أيسر منه * وقال بعض الحكماء ان للباقى بالماضى معتبرا وللآخر بالأول مزدجرا والسعيد لا يركن الى الخدع ولا يغتر بالطمع * وقال بعض الصلحاء ان بقاءك الى فناء وفناءك الى بقاء فخذ من فنائك الذى لا يبقى لبقائك الذى لا يفنى * وقال بعض العلماء أى عيش يطيب وليس للموت

الفاضلة لابد أن يؤثر ضروب التأثير فى ضروب الناس فمنهم من يقبل التأديب ويتحرك الى الفضيلة بسرعة ومنهم من يقبله ويتحرك الى الفضيلة بابطاء * ونحن نؤلف من ذلك قياسا وهو هذا * كل خلق يمكن تغيره * ولا شئ مما يمكن تغيره هو بالطبع * فاذا لا خلق ولا واحد منه بالطبع * والمقدمتان صحيحتان والقياس منتج فى الضرب الثانى من الشكل الأول * اما تصحيح المقدمة الاولى * وهى ان كل خلق يمكن تغيره فقد تكلمنا عليه وأوضحناه وهو بين من العيان ومما استدللنا به من وجوب التأديب ونفعه وتأثيره فى الاحداث والصبيان ومن الشرائع الصادقة التى هى سياسة

طبيب * وقال بعض البلغاء كل امرئ يجرى من عمره الى غاية تنتهى اليها مدة أجله وتنطوى عليها صحيفة عمله فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بامسك وكف عن سيئاتك وزد فى حسناتك قبل ان تستوفى مدة الأجل وتقصر عن الزيادة فى السعى والعمل * وقيل فى منثور الحكم من لم يتعرض للنوائب تعرضت له * وقال أبو العتاهية

ما للمقابر لا تجيـ * ـب اذا دعاهن الكئيب
حفر مسقفة عليـ * ـهن الجنادل والكثيب
فيهن ولدان وأطـ * ـفال وشبان وشيب
كم من حبيب لم تكن * نفسى بفرقته تطيب
غادرته فى بعضهـ * ـن مجندلا وهو الحبيب
وسلوت عنه وانما * عهدى برؤيته قريب

ووعظ النبى صلى الله عليه وسلم رجلا فقال أقلل من الدنيا تعش حرا وأقلل من الذنوب يهن عليك الموت وانظر حيث تضع ولدك فان العرق دساس وقال الرشيد لابن السماك رحمهما الله تعالى عظنى وأوجز فقال اعلم أنك أول خليفة يموت . وعزى اعرابى رجلا عن ابن صغير له فقال الحمد لله الذى نجاه مما هيهنا من الكدر وخلصه مما بين يديه من الخطر . وقال بعض السلف من عمل للآخرة أحرزها والدنيا ومن آثر الدنيا حرمها والآخرة . وقال بعض الصلحاء استغنم تنفس الأجل وامكان العمل واقطع ذكر المعاذير والعلل فانك فى أجل محدود ونفس معدود وعمر غير ممدود وقال بعض الحكماء الطبيب معذور اذا لم يقدر على دفع المحذور وقال بعض البلغاء اعمل عمل المرتحل فان حادى الموت يحدوك ليوم ليس يعدوك وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

غرجهول أمله * يموت من جا أجله ومن دنا من حتفه * لم تغن عنه حيله
وما بقاء آخر * قد غاب عنه أوله والمرء لا يصحبه * فى القبر الا عمله

(وقال أبو العتاهية)

لا تأمن الموت فى لحظ ولا نفس * وان تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بان سهام الموت قاصدة * لكل مدرع منها ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لا تجرى على اليبس

فاذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال احداهن أن تكفى تسويف أمل يرديك وتسويل محال يؤذيك فان تسويف الأمر غرار وتسويل المحال ضرار والثانية أن تستيقظ لعمل آخرتك وتغتنم بقية أجلك بخير عملك فان من قصر أمله واستقل أجله حسن عمله والثالثة أن يهون عليك نزول ما ليس عنه محيص ويسهل عليك حلول ما ليس الى دفعه سبيل فان من تحقق أمرا توطأ لحلوله فهان عليه عند نزوله وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لأبى ذر نبه بالتفكر قلبك وجاف عن النوم جنبك واتق الله ربك وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لابى ذر رضى الله عنه عظنى فقال ارض بالقوت وخف من الفوت واجعل صومك الدنيا وفطرك الموت وقال عمر بن

الله خلقه * وأما تصحيح المقدمة الثانية وهى انه لا شئ مما يمكن تغييره هو بالطبع فهو ظاهر أيضا * وذلك انا لا نروم تغيير شئ مما هو بالطبع أبدا * فان أى أحد لا يروم أن يغير حركة النار التى الى فوق بان يعودها الحركة الى أسفل ولا أن يعود الحجر حركة العلو ولو يروم بذلك ان يغير حركة الطبيعة التى الى أسفل * ولو رامه ما صح له تغيير شئ من هذا ولا ما يجرى مجراه أعنى الأمور التى هى بالطبع فقد صحت المقدمتان وصح التأليف فى الشكل الأول وهو الضرب الثانى منه وصار برهانا * فأما مراتب الناس فى قبول هذه الآداب التى سميناها خلقا والمسارعة الى تعلمها والحرص عليها فانها كثيرة وهى تشاهد وتعاين فيهم

عبد العزيز رضى الله عنه ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من يقين نحن فيه فلئن كنا مقرين انا لحمقى ولئن كنا جاحدين انا لهلكى وقال الحسن البصرى رحمة الله عليه نهارك ضيفك فاحسن اليه فانك ان أحسنت اليه ارتحل بحمدك وان أسأت اليه ارتحل بذمك وكذلك ليلك وقال الجاحظ فى كتاب البيان وجد مكتوبا فى حجر يا ابن آدم لو رأيت يسير ما بقى من أجلك لزهدت فى طويل ما ترجو من أملك ولرغبت فى الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب ولما حضر بشر بن منصور الموت فرح فقيل له أتفرح بالموت فقال أتجعلون قدومى على خالق أرجوه كمقامى مع مخلوق أخافه وقيل لأبى بكر الصديق رضى الله عنه فى مرضه الذى مات فيه لو أرسلت الى الطبيب فقال قد رآنى قالوا فما قال لك قال قال انى فعال لما أريد وقيل للربيع بن خيثم وقد اعتل ندعو لك بالطبيب قال قد أردت ذلك فذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وعلمت أنه كان فيهم الداء والمداوى فهلكوا جميعا وسئل أنوشروان متى يكون عيش الدنيا ألذ قال اذا كان الذى ينبغى أن يعمله فى حياته معمولا وقال بعض الحكماء من ذكر المنية نسى الامنية وقال بعض الادباء عن الموت تسل وهو كريشة تسل وقال بعض البلغاء الامل حجاب الاجل وأنشد بعض أهل الادب ما ذكر أنه لعلى رضى الله عنه

ولو أنا اذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كل حى
ولكنا اذا متنا بعثنا * ونسئل بعد ذا عن كل شئ

(وقال بعض الشعراء)

ألا انما الدنيا مقيل لراكب * قضى وطرا من منزل ثم هجرا
وراح ولا يدرى علام قدومه * ألا كل ما قدمت تلقى موفرا

وروى سعيد بن مسعود رضى الله عنه أن أبا الدرداء رضى الله عنه قال يا رسول الله أوصنى فقال صلى الله عليه وسلم اكسب طيبا واعمل صالحا واسأل الله تعالى رزق يوم بيوم واعدد نفسك من الموتى وكتب الربيع بن خيثم الى أخ له قدم جهازك وافرغ من زادك وكن وصى نفسك والسلام وقال بعض السلف أصاب الدنيا من حذرها وأصابت الدنيا من أمنها ومر محمد بن واسع رحمة الله عليه بقوم فقيل هؤلاء زهاد فقال ما قدر الدنيا حتى يحمد من زهد فيها وقال بعض الحكماء السعيد من اعتبر بأمسه واستظهر لنفسه والشقى من جمع لغيره وبخل على نفسه وقال بعض البلغاء لا تبت عن غير وصية وان كنت من جسمك فى صحة ومن عمرك فى فسحة فان الدهر خائن وكل ما هو كائن كائن وقال بعض الشعراء

من كان يعلم أن الموت مدركه * والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وأنه بين جنات ستبهجه * يوم القيامة أو نار ستنضجه
فكل شئ سوى التقوى به سمج * وما أقام عليه منه أسمجه
ترى الذى اتخذ الدنيا له وطنا * لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

وروى جعفر بن محمد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه

وخاصة فى الاطفال فان اخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذى انتهى فى نشئه وكماله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيخفيه بضروب من الحيل والافعال المضادة لما فى طبعه وأنت تتأمل من اخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الادب أو نفورهم عنه أو ما يظهر فى بعضهم من القحة وفى بعضهم من الحياء وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ومن الاحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الانسان فى قبول الاخلاق الفاضلة وتعلم معه انهم ليسوا على رتبة واحدة وان فيهم المتوانى والممتنع والسهل السلس والفظ العسر والخير

قال فى بعض خطبه أيها الناس ان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم وان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وان المؤمن بين مخافتين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الحياة قبل الموت فان الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة والذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة أو النار • وقال الحسن البصرى رحمة الله عليه أمس أجل واليوم عمل وغدا أمل * فاخذ أبو العتاهية هذا المعنى فنظمه شعرا

ليس فيما مضى ولا فى الذى يأ * تيك من لذة لمستحليها
انما أنت طول عمرك ما عمـ * ـرت فى الساعة التى أنت فيها
عال النفس بالكفاف والا * طلبت منك فوق ما يكفيها

وقيل لزاهد مالك تمشى على العصا ولست بكبير ولا مريض فقال انى أعلم أنى مسافر وأنها دار بلغة وأن العصا من آلة السفر * فاخذه بعض الشعراء فقال

حملت العصا لا الضعف أوجب حملها * علىّ ولا أنى تحنيت من كبر
ولكننى ألزمت نفسى حملها * لاعلمها أنى مقيم على سفر

وقال بعض المتصوفة الدنيا ساعة فاجعلها طاعة * وقال ذو القرنين عليه السلام رتعنا فى الدنيا جاهلين وعشنا فيها غافلين وأخرجنا منها كارهين * وقال عبد الحميد المرء أسير عمر يسير * وقيل فى بعض المواعظ عجبا لمن يخاف العقاب كيف لا يكف عن المعاصى وعجبا لمن يرجو الثواب كيف لا يعمل * وقال بعض الحكماء المسىء ميت وان كان فى دار الحياة والمحسن حى وان كان فى دار الاموات وكل بالاثر يومه أو غده * وقال بعض السلف الله المستعان على ألسنة تصف وقلوب تعرف وأعمال تخالف * وقال آخر الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما * وقال آخر اعملوا لآخرتكم فى هذه الايام التى تسير كأنها تطير * وقال آخر الموت قصاراك فخذ من دنياك لاخراك * وقال آخر عباد الله الحذر الحذر فوالله لقد ستر حتى كأنه قد غفر ولقد أمهل حتى كأنه قد أهمل * وقال آخر الايام صحائف أعمالكم فخلدوها أجمل أفعالكم * وقيل فى منثور الحكم اقبل نصح المشيب وان عجل وقيل ما طلعت شمس الا وعظت بأمس * وقال محمد بن بشير رحمه الله

مضى أمسك الادنى شهيدا معدلا * ويومك هذا بالفعال شهيد
فان تك بالامس اقترفت اساءة * فثن باحسان وأنت حميد
ولا ترج فعل الخير منك الى غد * لعل غدا يأتى وأنت فقيد

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما رأيت مثل الجنة نام طالبها وما رأيت مثل النار نام هاربها • وقال عيسى بن مريم عليه السلام الا ان أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها والى آجل الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها فاماتوا منها ما خشوا أن يميت قلوبهم وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم • وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الناس طالبان يطلبان فطالب يطلب الدنيا فارفضوها فى نحره فانه ربما أدرك الذى يطلبه منها

والشرير • والمتوسطون بين هذه الاطراف فى مراتب لا تحصى كثرة واذا اهملت الطباع ولم ترض بالتأديب والتقويم نشأ كل انسان على سوم طباعه وبقى عمره كله على الحال التى كان عليها فى الطفولية وتبع ما وافقه فى الطبع اما الغضب واما اللذة واما الزراعة واما الشره واما غير ذلك من الطباع المذمومة

﴿ الشريعة ﴾

والشريعة هى التى تقوم الاحداث وتعودهم الافعال المرضية وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل والبلوغ الى السعادة الانسية بالفكر الصحيح والقياس المستقيم وعلى الوالدين أخذهم بها وبسائر الآداب الجميلة بضروب السياسات من الضرب اذا دعت

فهلك بما أصاب منها وطالب يطلب الآخرة فاذا رأيتم طالبا يطلب الآخرة فنافسوه فيها ودخل أبو الدرداء رضى الله عنه الشام فقال يا أهل الشام اسمعوا قول أخ ناصح فاجتمعوا عليه فقال مالى أراكم تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون ان الذين كانوا قبلكم بنوا مشيدا وأملوا بعيدا وجمعوا كثيرا فأصبح أملهم غرورا وجمعهم ثبورا ومساكنهم قبورا وقال أبو حازم ان الدنيا غرت أقواما فعملوا فيها بغير الحق فعاجلهم الموت فخلفوا مالهم لمن لا يحمدهم وصار والمن لا يعذرهم وقد خلفنا بعدهم فينبغى أن ننظر الذى كرهناه منهم فنجتنبه والذى غبطناهم به فنستعمله * ومر بعض الزهاد بباب ملك فقال باب جديد وموت عتيد وسفر بعيد * ومر بعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس فقال ما هذا قالوا مسكين سرق منه رجل جبة ومر به آخر فأعطاه جبة فقال صدق الله ان سعيكم لشتى * وقال بعض الحكماء ما أنصف من نفسه من أيقن بالحشر والحساب وزهد فى الاجر والثواب * وقال آخر بطول الامل تقسو القلوب وباخلاص النية تقل الذنوب * وقال آخر إياك والمنى فانها من بضائع النوكى وتثبط عن الآخرة والاولى * وقال آخر قصر أملك فان العمر قصير واحسن سيرتك فالبر يسير * وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله

نسير الى الآجال فى كل ساعة * وأيامنا تطوى وهن رواحل
ولم نر مثل الموت حقا كأنه * اذا ما تخطته الامانى باطل
وما أقبح التفريط فى زمن الصبا * فكيف به والشيب فى الرأس نازل
ترحل عن الدنيا بزاد من التقى * فعمرك أيام تعد قلائل

وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين

فاعمل على مهل فانك ميت * واكدح لنفسك أيها الانسان
فكأن ما قد كان لم يك اذ مضى * وكأن ما هو كائن قد كان

ونظر سليمان بن عبد الملك فى المرآة فقال أنا الملك الشاب فقالت له جارية له

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى * غير أن لا بقاء للانسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب * كان فى الناس غير انك فانى

وروى عبد العزيز بن عبد الصمد عن أبان عن أنس قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته الجدعاء فقال أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب وكأن الحق فيها على غيرنا وجب وكأن الذين نشيع من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون نبوئهم أجداثهم ونأكل تراثهم كأنا مخلدون بعدهم قد نسينا كل واعظة وأمنا كل جائحة طوبى لمن شغله عيبه عن عيب غيره وأنفق من مال كسبه من غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة طوبى لمن أذل نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته طوبى لمن عمل بعلم وأنفق من فضل وأمسك من قوله ووسعته السنة ولم يعدها الى بدعة * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال زوروا القبور تذكروا بها الآخرة وغسلوا الموتى فان معالجة الاجساد الخاوية موعظة بليغة * وحفر الربيع ابن خيثم فى داره قبرا فكان اذا وجد فى قلبه قسوة جاء فاضطجع فى القبر فمكث ما شاء الله

اليها الحاجة أو التوبيخات ان صدتهم أو الاطماع فى الكرامات أو غيرها مما يميلون اليه من الراحات أو يحذرونه من العقوبات حتى اذا تعودوا ذلك واستمروا عليه مدة من الزمان كثيرة أمكن فيهم حينئذ أن يعلموا براهين ما أخذوه تقليدا أو ينبهوا على طرق الفضائل واكتسابها والبلوغ الى غاياتها بهذه الصناعة التى نحن بصددها والله الموافق

وللانسان فى ترتيب هذه الآداب وسياقتها أولا فأولا الى الكمال الاخير طريق طبيعى يتشبه فيها بفعل الطبيعة * وهو أن ينظر الى هذه القوى التى تحدث فينا أيها أسبق الينا وجودا فيبدأ بتقويمها ثم بما يليها على النظام الطبيعى وهو بين ظاهر * وذلك ان أول

ثم تقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ثم يرد على نفسه فيقول قد أرجعتك فخذى فكن كذلك ماشاء الله . وقال أبو محمد الطفاوى كفتك القبور مواعظ الامم السالفة * وقيل لبعض الزهاد ما أبلغ العظات قال النظر الى محلة الاموات فأخذه أبو العتاهية فقال

وعظتك أجداث صمت * ونعتك أزمنة خفت
وتكلمت عن أوجه * تبلى وعن صور سبت
وأرتك قبرك فى الحيا * ة وأنت حى لم تمت
ياشامتا بمنيتى * ان المنية لم تفت
فلربما انقلب الشما * ت فحل بالقوم الشمت

ووجد على قبر مكتوبا قهرنا من قهرنا فصرنا للناظرين عبرة . وعلى آخر من أمل البقاء وقد رأى مصارعنا فهو مغرور . وقيل فى منثور الحكم ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه . وقال بعض الحكماء من لم يمت لم يفت . وقال بعض الصلحاء لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة بماله . وقال بعض العلماء من لم يتعظ بموت ولد لم يتعظ بقول أحد . وقال بعض البلغاء ما نقصت ساعة من أمسك الا ببضعة من نفسك فأخذه أبو العتاهية فقال

ان مع الدهر فاعلمن غدا * فانظر بما ينقضى مجىء غده
ما ارتد طرف امرئ بلذته * الا وشئ يموت من جسده

ولما مات الاسكندر قال بعض الحكماء كان الملك أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال

كفى حزنا بدفنك ثم انى * نفضت تراب قبرك عن يديا
وكانت فى حياتك لى عظات * وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وقال بعض الحكماء لو كان للخطايا ريح لافتضح الناس ولم يتجالسوا فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال

أحسن الله بنا ان الخطايا لا تفوح
فاذا المستور منا * بين ثوبيه فضوح

وهذا جميعه مأخوذ من قول النبى صلى الله عليه وسلم لو تكاشفتم ما تدافنتم . وكتب رجل الى أبى العتاهية رحمه الله

يا أبا اسحق انى * واثق منك بودك
فأعنى بأبى أنـ * ـت على غيى برشدك

(فأجابه بقوله)

أطع الله بجهدك * راغبا أو دون جهدك
أعط مولاك الذى تطـ * ـلب من طاعة عبدك

وقال بعض الحكماء من سره بنوه ساءته نفسه فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال

ابن ذى الابن كلما زاد منه * مشرع زاد فى فناء أبيه

ما يحدث فينا هو الشئ العام للحيوان والنبات كله ثم لا يزال يختص بشئ شئ يتميز به عن نوع نوع الى أن يصير الى الانسانية فلذلك يجب أن نبدأ بالشوق الذى يحصل فينا للغذاء فنقومه ثم بالشوق الذى يحصل فينا الى الغضب ومحبة الكرامة فنقومه ثم بآخره وهو الشوق الذى يحصل فينا الى المعارف والعلوم فنقومه * وهذا الترتيب الذى قلنا انه طبيعى انما حكمنا فيه بذلك لما نظهر فينا منذ أول نشوئنا أعنى انا نكون أولا أجنة ثم أطفالا ثم أناسا كاملين وتحدث فينا هذه القوى مرتبة فأما أن هذه الصناعة هى أفضل الصناعات كلها أعنى صناعة الاخلاق التى تعنى بتجويد أفعال الانسان

ما بقاء الاب الملح عليه * بدبيب البلا شباب بنيه

وفى معناه ما حكى عن زر بن حبيش انه عاش مائة وعشرين سنة فلما حضرته الوفاة أنشد يقول

اذا الرجال ولدت أولادها * وارتعشت من كبر أجسادها
وجعلت أسقامها تعتادها * تلك زروع قد دنا حصادها

﴿ وكتب رجل الى صالح بن عبد القدوس ﴾

الموت باب وكل الناس داخله * فليت شعرى بعد الباب ما الدار

﴿ فأجابه بقوله ﴾

الدار جنات عدن ان عملت بما * يرضى الاله وان خالفت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما * فانظر لنفسك ماذا أنت مختار

باب ادب الدنيا

اعلم أن الله تعالى لنافذ قدرته وبالغ حكمته خلق الخلق بتدبيره وفطرهم بتقديره فكان من لطيف ما دبره وبديع ما قدره أنه خلقهم محتاجين وفطرهم عاجزين ليكون بالغنى منفردا وبالقدرة مختصا حتى يشعرنا بقدرته أنه خالق ويعلمنا بغناه أنه رازق فنذعن بطاعته رغبة ورهبة ونقر بنقائصنا عجزا وحاجة ثم جعل الانسان أكثر حاجة من جميع الحيوان لان من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه واستعانته صفة لازمة لطبعه وخلقة قائمة فى جوهره ولذلك قال الله سبحانه وتعالى وخلق الانسان ضعيفا يعنى عن الصبر عما هو اليه مفتقر واحتمال ما هو عنه عاجز ولما كان الانسان أكثر حاجة من جميع الحيوان كان أظهر عجزا لان الحاجة الى الشئ افتقار اليه والمفتقر الى الشئ عاجز به . وقال بعض الحكماء المتقدمين استغناؤك عن الشئ خير من استغنائك به وانما خص الله تعالى الانسان بكثرة الحاجة وظهور العجز نعمة عليه ولطفا به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز يمنعانه من طغيان الغنى وبغى القدرة لان الطغيان مركوز فى طبعه اذا استغنى والبغى مستول عليه اذا قدر وقد أنبأ الله تعالى بذلك عنه فقال كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى ثم ليكون أقوى الامور شاهدا على نقصه وأوضحها دليلا على عجزه . وأنشدنى بعض أهل الادب لابن الرومى رحمه الله

أعيرتنى بالنقص والنقص شامل * ومن ذا الذى يعطى الكمال فيكمل
وأشهد أنى ناقص غير أننى * اذا قيس بى قوم كثير تقللوا
تفاضل هذا الخلق بالفضل والحجا * ففى أيما هذين أنت مفضل
ولو منح الله الكمال ابن آدم * لخلده والله ما شاء يفعل

ولما خلق الله الانسان ماس الحاجة ظاهر العجز جعل لنيل حاجته أسبابا ولدفع عجزه حيلة دله عليها بالعقل وأرشده اليها بالفطنة . قال الله تعالى والذى قدر فهدى . قال مجاهد

بحسب ما هو انسان فيتبين مما أقول

﴿ الانسان ﴾

لما كان للجوهر الانسانى فعل خاص لا يشاركه فيه شئ من موجودات العالم كما بيناه فيما تقدم وكان الانسان أشرف موجودات العالم ثم لم تصدر عنه أفعاله بحسب جوهره وشبهناه بالفرس الذى اذا لم تصدر عنه أفعال الفرس على التمام استعمل مكان الحمار بالاكاف وكان وجوده أروح له من عدمه * وجب أن تكون الصناعة التى تعنى بتجويد أفعال الانسان حتى تصدر عنه أفعاله كلها تامة كاملة بحسب جوهره ورفعه عن رتبة الاخس التى يستحق بها المقت من الله والقرار فى العذاب الاليم

قدر أحوال خلقه فهدى الى سبيل الخير والشر . وقال ابن مسعود فى قوله تعالى وهديناه النجدين يعنى الطريقين طريق الخير وطريق الشر ثم لما كان العقل دالا على أسباب ماتدعو اليه الحاجة جعل الله تعالى الادراك والظفر موقوفا على ماقسم وقدر كيلا يعتمدوا فى الارزاق على عقولهم وفى العجز على فطنهم لتدوم له الرغبة والرهبة ويظهر منه الغنى والقدرة وربما عزب هذا المعنى على من ساء ظنه بخالقه حتى صار سببا لضلاله كما قال الشاعر

سبحان من أنزل الايام منزلها * وصير الناس مرفوضا ومرموقا

فعاقل فطن أعيت مذاهبه * وجاهل خرق تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الالباب حائرة * وصير العاقل النحرير زنديقا

ولو حسن ظن العاقل فى صحة نظره لعلم من علل المصالح ماصار به صديقا لا زنديقا لان من علل المصالح ماهو ظاهر ومنها ماهو غامض ومنها ماهو مغيب حكمة استأثر بها * ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم حسن الظن بالله من عبادة الله ثم ان الله تعالى جعل أسباب حاجاته وحيل عجزه فى الدنيا التى جعلها دار تكليف وعمل كما جعل الآخرة دار قرار وجزاء فلزم لذلك أن يصرف الانسان الى دنياه حظا من عنايته لانه لاغنى له عن التزود منها لآخرته ولا له بد من سد الخلة فيها عند حاجته وليس فى هذا القول نقض لما ذكرنا بل من ترك فضولها وزجر النفس عن الرغبة فيها بل الراغب فيها ملوم وطالب فضولها مذموم والرغبة انما تختص بما جاوز قدر الحاجة والفضول انما ينطلق على مازاد على قدر الكفاية . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب . قال أهل التأويل فاذا فرغت من أمور دنياك فانصب فى عبادة ربك وليس هذا القول منه ترغيبا لنبيه صلى الله عليه وسلم فيها ولكن ندبه الى أخذ البلغة منها وعلى هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة . وذم رجل الدنيا عند على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال رضى الله عنه الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها * وحكى مقاتل أن ابراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام قال يارب حتى متى أتردد فى طلب الدنيا فقيل له أمسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا . وقال سفيان الثورى رحمة الله عليه مكتوب فى التوراة اذا كان فى البيت بر فتعبد واذا لم يكن فاطلب يا ابن آدم حرك يدك يسبب لك رزقك . وقال بعض الحكماء ليس من الرغبة اكتساب ما يصونك العرض فيها . وقال بعض الادباء ليس من الحرص اجتلاب ما يقوت البدن . وقال محمود الوراق

لاتتبع الدنيا وأيامها * ذما وان دارت بك الدائره

من شرف الدنيا ومن فضلها * أن بها تستدرك الآخره

فاذا قد لزم بما بيناه النظر فى أمور الدنيا فواجب سبر أحوالها والكشف عن جهة انتظامها واختلالها لنعلم أسباب صلاحها وفسادها ومواد عمرانها وخرابها لتنتفى عن أهلها شبه

أشرف الصناعات كلها وأكرمها * وأما سائر الصناعات الاخر فرأتبها من الشرف بحسب مراتب جوهر الشئ الذى تستصلحه وهذا ظاهر جدا من تصفح الصناعات لان فيها الدباغة التى تعنى باستصلاح جلود البهائم الميتة وفيها صناعة الطب والعلاج التى تهتم باستصلاح الجواهر الشريفة الكريمة وهكذا الهمم المتفاوتة التى ينصرف بعضها الى العلوم الدنيئة وبعضها الى العلوم الشريفة * واذا كانت جواهر الموجودات متفاوتة فى الشرف فى الجماد والنبات والحيوان * أما فى الحيوان فكجوهر الديدان والحشرات اذا قيس الى جوهر الانسان * وأما فى جوهر الموجودات

الخيره وتنجلى لهم أسباب الخيره فيقصدوا الامور من أبوابها ويعتمدوا صلاح قواعدها وأسبابها . واعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين أولهما ما ينتظم به أمور جملتها والثانى ما يصلح به حال كل واحد من أهلها فهما شيآن لا صلاح لأحدهما الا بصاحبه لان من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها لن يعدم أن يتعدى اليه فسادها ويقدح فيه اختلالها لان منها يستمد ولها يستعد ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها أثرا لان الانسان دنيا نفسه فليس يرى الصلاح الا اذا صلحت له ولا يجد الفساد الا اذا فسدت عليه لان نفسه أخص وحاله أمس فصار نظره الى ما يخصه مصروفا وفكره على ما يمسه موقوفا واعلم أن الدنيا لم تكن قط لجميع أهلها مسعدة ولا عن كافة ذويها معرضة لأن اعراضها عن جميعهم عطب واسعادها الكافتهم فساد لائتلافهم بالاختلاف والتباين واتفاقهم بالمساعدة والتعاون فاذا تساوى جميعهم لم يجد أحدهم الى الاستعانة بغيره سبيلا وبهم من الحاجة والعجز ما وصفنا فيذهبوا ضيعة ويهلكوا عجزا واذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعونة متواصلين بالحاجة لان ذا الحاجة وصول والمحتاج اليه موصول . وقد قال الله تعالى ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم . قال الحسن مختلفين فى الرزق فهذا غنى وهذا فقير ولذلك خلقهم يعنى للاختلاف بالغنى والفقر . وقال الله تعالى والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق غير أن الدنيا اذا صلحت كان اسعادها موفورا واعراضها ميسورا الا انها اذا مضت هنأت وأودعت واذا استردت رفقت وأبقت واذا فسدت الدنيا كان اسعادها مكرا واعراضها غدرا لانها اذا صلحت كدت وأتعبت واذا استردت استأصلت وأجحفت ومع هذا فصلاح الدنيا مصلح لسائر أهلها لوفور أماناتهم وظهور دياناتهم وفسادها مفسد لسائر أهلها لقلة أماناتهم وضعف دياناتهم وقد وجد ذلك فى مشاهد الحال تجربة وعرفا كما يقتضيه دليل الحال تعليلا وكشفا فلا شئ أنفع من صلاحها كما لا شئ أضر من فسادها لان ما تقوى به ديانات الناس وتتوفر أماناتهم فلا شئ أحق به نفعا كما أن ما به تضعف دياناتهم وتذهب أماناتهم فلا شئ أجدر به ضررا * وأنشدت لابى بكر بن دريد

الناس مثل زمانهم * قد الحذاء على مثاله
ورجال دهرك مثل دهـ * ـرك فى تقلبه وحاله
وكذا اذا فسد الزمان * جرى الفساد على رجاله

واذ قد بلغ بنا القول الى ذلك فسنبدأ بذكر ما يصلح الدنيا ثم نتلوه بوصف ما يصلح به حال الانسان فيها . اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها ملتئمة ستة أشياء هى قواعدها وان تفرعت وهى دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وأمن عام وخصب دائم وأمل فسيح * فأما القاعدة الاولى فهى الدين المتبع فلانه يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب عن اراداتها حتى يصير قاهرا للسرائر زاجرا للضمائر رقيبا على النفوس فى خلواتها نصوحا لها فى ملماتها وهذه الامور لا يوصل بغير الدين

الآخر فظاهر لمن أراد أن يحصيها فالصناعة والهمة التى تصرف الى أشرافها أشرف من الصناعة والهمة التى تصرف الى الادون منها * ويجب أن يعلم ان اسم الانسان وان كان يقع على أفضلهم وعلى أدونهم فان بين هذين الطرفين أكثر مما بين كل متضادين من البعد * وان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال * ليس شئ خيرا من ألف مثله الا الانسان * وقال عليه الصلاة والسلام الناس كابل مائة لا تجد فيها راحلة واحدة * وقال الناس كاسنان المشط وفى بعضها كاسنان الحمار وانما يتفاضلون بالعقل ولا خير فى صحبة من لا يعرف لك من الفضل ما تعرف له وفى نظائر هذه أشياء كثيرة تدل على هذا المعنى وان

اليها

اليها ولا يصلح الناس الا عليها فكان الدين أقوى قاعدة فى صلاح الدنيا واستقامتها وأجدى الامور نفعا فى انتظامها وسلامتها ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه مذ فطرهم عقلاء من تكليف شرعى واعتقاد دينى ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء ويستسلمون لامره فلا تتصرف بهم الاهواء وانما اختلف العلماء رضى الله عنهم فى العقل والشرع هل جاآ مجيئا واحدا أم سبق العقل ثم تبعه الشرع فقالت طائفة جاء العقل والشرع معا مجيئا واحدا لم يسبق أحدهما صاحبه * وقالت طائفة أخرى سبق العقل ثم تبعه الشرع لان بكمال العقل يستدل على صحة الشرع . وقد قال الله تعالى أيحسب الانسان أن يترك سدى وذلك لا يوجد منه الا عند كمال عقله فثبت أن الدين من أقوى القواعد فى صلاح الدنيا وهو الفرد الاوحد فى صلاح الآخرة وما كان به صلاح الدنيا والآخرة فحقيق بالعقل أن يكون به متمسكا وعليه محافظا * وقال بعض الحكماء الادب أدبان أدب شريعة وأدب سياسة فادب الشريعة ما أدى الفرض وأدب السياسة ما عمر الارض وكلاهما يرجع الى العدل الذى به سلامة السلطان وعمارة البلدان لان من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الارض فقد ظلم غيره * وقال سعد بن حميد ما صحة أبدا بنافعة حتى يصح الدين والخلق * وأما القاعدة الثانية فهى سلطان قاهر تتألف من رهبته الاهواء المختلفة وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الايدى المتغالبة وتمتنع من خوفه النفوس العادية لان فى طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفون عنه الا بمانع قوى ورادع ملى * وقد أفصح المتنبى بذلك فى قوله

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى * حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد * ذا عفة فلعلة لا يظلم

وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من أحد أربعة أشياء اما عقل زاجر أو دين حاجز أو سلطان رادع أو عجز صاد فاذا تأملتها لم تجد خامسا يقترن بها ورهبة السلطان أبلغها لان العقل والدين ربما كانا مضعوفين أو بدواعى الهوى مغلوبين فتكون رهبة السلطان أشد زجرا وأقوى ردعا * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال السلطان ظل الله فى الارض يأوى اليه كل مظلوم * وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان لله حراسا فى السماء وحراسا فى الارض فحراسه فى السماء الملائكة وحراسه فى الارض الذين يقبضون أرزاقهم يذبون عن الناس * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الامام الجائر خير من الفتنة وكل لا خير فيه وفى بعض الشر خير * وقال أبو هريرة رضى الله عنه سبت العجم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى عن ذلك وقال لا تسبوها فانها عمرت بلاد الله تعالى فعاش فيها عباد الله تعالى * وقال بعض البلغاء السلطان فى نفسه امام متبوع وفى سيرته دين مشروع فان ظلم لم يعدل أحد فى حكم وان عدل لم يجسر أحد على ظلم * وقال بعض الادباء ان أقرب الدعوات من الاجابة دعوة السلطان الصالح وأولى الحسنات بالاجر والثواب أمره ونهيه فى وجوه المصالح فهذه آثار السلطان فى أحوال الدنيا

الشاعر الذى قال
ولم أر أمثال الرجال تفاوتا
الى المجد حتى عد ألف بواحد
وان كان عنده انه قد بالغ
فانه قد قصر والخبر المروى
عن النبى عليه الصلاة
والسلام انى وزنت بامتى
فرجحتهم أصدق
وأوضح * وليس هذا فى
الانسان وحده بل فى كثير
من الجواهر الاخر * وان
كان فى الانسان أكثر
وأشد تفاوتا فان بين السيف
المعروف بالصمصام وبين
السيف المعروف بالكهام
تفاوتا عظيما * وكذلك
الحال فى التفاوت الذى
بين الفرس الكريم وبين
البرذون المقرف فمن أمكنه
ان يرقى بالصناعة أدون
هذه الجواهر مرتبة الى
أعلاها فاشرف به
وبصناعته ما أكرمه
وأكرمها * فاما الانسان

وما ينتظم به أمورها ثم لما فى السلطان من حراسة الدين والدنيا والذب عنهما ودفع الاهواء منه وحراسة التبديل فيه وزجر من شذ عنه بارتداد أو بغى فيه بعناد أو سعى فيه بفساد وهذه أمور ان لم تحسم عن الدين بسلطان قوى ورعاية وافية أسرع فيه تبديل ذوى الاهواء وتحريف ذوى الآراء فليس دين زال سلطانه الا بدلت أحكامه وطمست اعلامه وكان لكل زعيم فيه بدعة ولكل عصر فيه وهاية أثر كما ان السلطان ان لم يكن على دين تجتمع به القلوب حتى يرى أهل الطاعة فيه فرضا والتناصر عليه حتما لم يكن للسلطان لبث ولا لايامه صفو وكان سلطان قهر ومفسدة دهر ومن هذين الوجهين وجب اقامة امام يكون سلطان الوقت وزعيم الامة ليكون الدين محروسا بسلطانه والسلطان جاريا على سنن الدين وأحكامه * قال عبد الله بن المعتز الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى واختلف الناس هل وجب بالعقل أو بالشرع فقالت طائفة وجب بالعقل لانه معلوم من حال العقلاء على اختلافهم الفزع الى زعيم مندوب للنظر فى مصالحهم وذهب آخرون الى وجوبه بالشرع لان المقصود بالامام القيام بامور شرعية كاقامة الحدود واستيفاء الحقوق وقد كان يجوز الاستغناء عنها بان لا يراد التعبد بها فبأن يجوز الاستغناء عما لا يراد الا لها أولى وعلى هذا اختلفوا فى وجوب بعثة الانبياء فمن قال بوجوب ذلك بالعقل قال بوجوب بعثة الانبياء ومن قال بوجوب ذلك بالشرع منع من وجوب بعثة الانبياء لانه لما كان المقصود ببعثتهم تعريف المصالح الشرعية وكان يجوز من المكلفين أن لا تكون هذه الامور مصلحة لهم لم يجب بعثة الانبياء اليهم فاما اقامة امامين أو ثلاثة فى عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز اجماعا فاما فى بلدان شتى وأمصار متباعدة فقد ذهبت طائفة شاذة الى جواز ذلك لان الامام مندوب للمصالح واذا كان اثنان فى بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما فى يديه وأضبط لما يليه ولانه لما جاز بعثة نبيين فى عصر واحد ولم يؤد ذلك الى ابطال النبوة كانت الامامة أولى ولا يؤدى ذلك الى ابطال الامامة وذهب الجمهور الى أن اقامة امامين فى عصر واحد لا يجوز شرعا لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا بويع أميران فاقتلوا أحدهما * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا وليتم أبا بكر تجدوه قويا فى دين الله عز وجل ضعيفا فى بدنه واذا وليتم عمر تجدوه قويا فى دين الله عز وجل قويا فى بدنه وان وليتم عليا تجدوه هاديا مهديا فبين بظاهر هذا الكلام أن اقامة جميعهم فى عصر واحد لا يصح ولو صح لاشار اليه ولنبه عليه والذى يلزم سلطان الامة من أمورها سبعة أشياء أحدها حفظ الدين من تبديل فيه والحث على العمل به من غير اهمال له والثانى حراسة البيضة والذب عن الامة من عدو فى الدين أو باغى نفس أو مال والثالث عمارة البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها والرابع تقدير ما يتولاه من الاموال بسنن الدين من غير تحريف فى أخذها واعطائها والخامس معاناة المظالم والاحكام بالتسوية بين أهلها واعتماد النصفة فى فصلها والسادسة اقامة الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها والسابع اختيار خلفائه فى الامور أن يكونوا من أهل الكفاية فيها والامانة عليها فاذا فعل من أفضى اليه

من بين هذه الجواهر فهو مستعد لضروب من الاستعدادات لضروب من المقامات * وليس ينبغى أن يكون الطمع فى استصلاحه على مرتبة واحدة وهذا شئ يتبين فيما بعد بمشيئة الله وعونه الآن الذى ينبغى ان نعلم الآن ان وجود الجوهر الانسانى متعلق بقدرة فاعله وخالقه تبارك وتقدس اسمه وتعالى فاما تجويد جوهره ففوض الى الانسان وهو معلق بارادته * فاعرف هذه الجملة الى أن نلخص فى موضعها ان شاء الله تعالى وقد قدمنا فى صدر هذا الكتاب أن قلنا ينبغى ان نعرف نفوسنا ما هى ولاى شئ هى ثم قلنا ان

سلطان الامة ماذكرنا من هذه الاشياء السبعة كان مؤديا لحق الله تعالى فيهم مستوجبا لطاعتهم ومناصحتهم مستحقا لصدق ميلهم ومحبتهم وان قصر عنها ولم يقم بحقها وواجبها كان بها مؤاخذا ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت يتربصون الفرص لاظهارهما ويتوقعون الدوائر لاعلانهما * وقد قال الله تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا * وفى قوله تعالى عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم تأويلان أحدهما أن العذاب الذى هو من فوقهم امراء السوء والذى من تحت أرجلهم عبيد السوء وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما والثانى ان العذاب الذى هو من فوقهم الرجم والذى من تحت أرجلهم الخسف وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير وفى قوله تعالى أو يلبسكم شيعا تأويلان أحدهما أنه الاهواء المختلفة وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما والثانى انه الفتن والاختلاط وهذا قول مجاهد * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من أمير على عشرة الا وهو يجىء يوم القيامة مغلولة يداه الى عنقه حتى يكون عمله هو الذى يطلقه أو يوبقه * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم وهذا صحيح لانه اذا كان ذا خير أحبهم وأحبوه واذا كان ذا شر أبغضهم وأبغضوه * وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ان الله تعالى اذا أحب عبدا حببه الى خلقه فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس واعلم أن مالك عند الله مثل ما لله عندك فكان هذا موضحا لمعنى ماذكرنا وأصل هذا أن خشية الله تبعث على طاعته فى خلقه وطاعته فى خلقه تبعث على محبته فلذلك كانت محبتهم دليلا على خيره وخشيته وبغضهم دليلا على شره وقلة مراقبته * وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لبعض خلفائه أوصيك أن تخشى الله فى الناس ولا تخشى الناس فى الله * وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه انى أخاف الله فيما تقلدت فقال له لست أخاف عليك أن تخاف الله وانما أخاف عليك أن لا تخاف الله وهذا واضح لان الخائف من الله تعالى مأمون * كالذى روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لابن مريم السلولى وكان هو الذى قتل أخاه زيدا والله انى لا أحبك حتى تحب الارض الدم قال أفيمنعنى ذلك حقا قال لا قال فلا ضير انما يأسى على الحب النساء * وروى عبد الرحمن بن محمد قال أصدق طلحة بن عبد الله أم كلثوم بنت أبى بكر مائة ألف درهم وهو أول من أصدق هذا القدر فمر بالباب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال ما هذا قالوا صداق أم كلثوم ابنة أبى بكر فقال أدخلوه بيت المال فاخبر بذلك طلحة وقيل له كلمه فى ذلك فقال ما أنا بفاعل لئن كان عمر يرى له فيه حقا لا يرده لكلامى وان كان لا يرى فيه حقا لم يرده فقال فلما أصبح عمر أمر بالمال فدفع الى أم كلثوم * وحكى أن الرشيد حبس أبا العتاهية فكتب على حائط الحبس

أما والله ان الظلم شؤم * وما زال المسىء هو الظلوم

الى ديان يوم الدين نمضى * وعند الله تجتمع الخصوم

لكل جوهر موجود كمالا خاصا به وفعلا لا يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشئ وقد بيناذلك فى غاية البيان فى الرسالة المسعدة واذا كان ذلك محفوظا فنحن مضطرون الى أن نعرف الكمال الخاص بالانسان والفعل الذى لا يشاركه فيه غيره من حيث هو انسان لنحرص على طلبه وتحصيله ونجتهد فى البلوغ الى غايته ونهايته * ولما كان الانسان مركبا لم يجز أن يكون كماله وفعله الخاص به كمال بسائطه وأفعالها الخاصة بها والا كان وجود المركب باطلا كالحال فى الخاتم والسرير . فاذا له فعل خاص به من حيث هو مركب وانسان

سـتعلم فى المعاد اذا التقينا * غدا عند المليك من الظلوم

فاخبر الرشـيد بذلك فبكى بكاء شـديدا ودعا بابى العتاهيـة فاسـتحله ووهب له ألف دينار وأطلقه وأما القاعدة الثالثة فهى عدل شامل يدعو الى الالفة ويبعث على الطاعة وتتعمر به البلاد وتنمو به الاموال ويكثر معه النسـل ويأمن به السلطان فقـد قال الهرمزان لعمر حين رآه وقد نام متبذلا عدلت فأمنت فنمت وليس شئ أسرع فى خراب الارض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور لانه ليس يقف على حـد ولا ينتهى الى غاية ولكل جزء منه قسط من الفسـاد حتى يسـتكمل * وقد روى عن النبى صـلى الله عليـه وسـلم أنه قال بئس الزاد الى المعاد العدوان على العبـاد * وقال صـلى الله عليه وسـلم ثلاث منجيـات وثلاث مهلكات فاما المنجيات فالعـدل فى الغضب والرضى وخشـية الله فى السر والعلانية والقصـد فى الغنى والفـقر وأما المهلكات فشح مطاع وهوى متبـع واعجاب المرء بنفسـه * وحكى أن الاسـكندر قال لحكماء الهنـد وقد رأى قلة الشرائع بها لم صارت سـنن بلادكم قليـلة قالوا لاعطائنا الحق من أنفسـنا ولعدل ملوكنا فينا فقـال لهم أيما أفضـل العدل أو الشجاعة قالوا اذا استعمل العدل أغنى عن الشجاعة * وقال بعض الحـكماء بالعـدل والانصـاف تـكون مدة الائتلاف * وقال بعض البلغاء ان العدل ميزان الله الذى وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخـالفه فى ميزانه ولا تعارضه فى سلطانه واسـتعن على العدل بخلتين قلة الطمع وكثرة الورع فاذا كان العـدل من احدى قواعد الدنيا التى لا انتظام لهـا الا به ولا صـلاح فيهـا الا معه وجـب أن يبدأ بعدل الانسان فى نفسه ثم بعدله فى غيره فاما عدله فى نفسـه فيكون بحملها على المصالح وكفها عن القبائح ثم بالوقوف فى أحوالها على أعدل الامرين من تجاوز أو تقصير فان التجاوز فيهـا جور والتقصـير فيهـا ظلم ومن ظلم نفسـه فهو لغيره أظلم ومن جار عليهـا فهو على غيره أجور * وقد قال بعض الحكماء من توانى فى نفسه ضاع وأما عدله فى غيره فقد ينقسم حال الانسـان مع غيره على ثلاثة أقسام فالقسم الاول عـدل الانسان فيمن دونه كالسلطان فى رعيتـه والرئيس مع صحابته فعدله فيهـم يكون باربعة أشياء باتبـاع الميسـور وحذف المعسـور وترك التسلط بالقوة وابتغـاء الحق فى الميسور فان اتباع الميسور أدوم وحذف المعسور أسلم وترك التسلط أعطف على المحبة وابتغـاء الحق أبعث على النصرة وهـذه أمور ان لم تسـلم للزعيم المدبر كان الفسـاد بنظره أكثر والاختلاف بتدبيره أظهر * روى عن النبى صلى الله عليه وسـلم أنه قال أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه فجار فى حكمه * وقال بعض الحـكماء الملك يبقى على الـكفر ولا يبـقى على الظلم * وقال بعض الادباء ليس للجائر جار ولا تعمر له دار * وقال بعض البلغـاء أقرب الاشـياء صرعـة الظلوم وأنفـذ السـهام دعوة المظلوم * وقال بعض حكماء الملوك العجـب من ملك استفسد رعيتـه وهو يعـلم أن عزه بطاعتهـم * وقال أزدشـير بن بابك اذا رغـب الملك عن العدل رغبت الرعية عن طاعته * وعوتب أنوشروان على ترك عقاب المذنبين فقال لهم المرضى ونحن الاطباء فاذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم * والقسم الثانى عدل الانسان مع من فوقه كالرعيـة مع سلطانها والصحابة مع رئيسـها فقـد يكون

بثلاثة

لا يشاركه فيه شئ من الموجـــودات الاخر . فأفضل الناس أقدرهم على اظهار فعله الخاص والزمهم له من غير تلون فيه ولا اخلال به فى وقت دون وقت . واذا عرف الافضـــل فقد عرف الانقص على اعتبار الضد * فالكمال الخاص بالانسان كمالان وذلك ان له قوتين احداهما العالمة والاخرى العاملة فلذلك يشتاق باحدى القوتين الى المعارف والعـــلوم وبالاخرى الى نظم الامور وترتيبها وهذان الكمالان هما اللذان نص عليهما الفلاسفة فقالوا

﴿ الفلسفة ﴾

تنقسم الى قسمين الى الجزء النظرى والجزء العملى

بثلاثة أشياء باخلاص الطاعة وبذل النصرة وصدق الولاء فان اخلاص الطاعة أجمع للشمل وبذل النصرة أدفع للوهن وصدق الولاء أنفى لسوء الظن وهذه أمور ان لم تجتمع فى المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه واضطر الى اتقاء من يتقى به كما قال البحترى

متى أحوجت ذا كرم تخطى * إليك ببعض أخلاق اللئام

وفى استمرار هذا حل نظام جامع وفساد صلاح شامل وقال أبرويس أطع من فوقك يطعك من دونك * وقال بعض الحكماء الظلم مسلبة النعم والبغى مجلبة النقم * وقال بعض الحكماء ان الله تعالى لا يرضى عن خلقه الا بتأدية حقه وحقه شكر النعمة ونصح الامة وحسن الصنيعة ولزوم الشريعة * والقسم الثالث عدل الانسان مع اكفائه ويكون بثلاثة أشياء بترك الاستطالة ومجانبة الادلال وكف الاذى لان ترك الاستطالة آلف ومجانبة الادلال أعطف وكف الاذى أنصف وهذه أمور ان لم تخلص فى الاكفاء أسرع فيهم تقاطع الاعداء ففسدوا وأفسدوا * وقد روى عمر بن عبد العزيز عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أنبئكم بشرار الناس قالوا بلى يا رسول الله قال من أكل وحده ومنع رفده وجلد عبده (وفى نسخة بدل هذا من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره) ثم قال ألا أنبئكم بشر من ذلك قالوا بلى يا رسول الله قال من يبغض الناس ويبغضونه * وروى أن عيسى بن مريم عليهما السلام قام خطيبا فى بنى اسرائيل فقال يا بنى اسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ولا تكافئوا ظالما فيبطل فضلكم يا بنى اسرائيل الأمور ثلاثة أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه وأمر اختلفتم فيه فردوه الى الله تعالى وهذا الحديث جامع لآداب العدل فى الاحوال كلها * وقال بعض الحكماء كل عقل لا يدارى به الكل فليس بعقل تم * وقال بعض الشعراء

مادمت حيا فدار الناس كلهم * فانما أنت فى دار المداراة

من يدر دارى ومن لم يدر سوف يرى * عما قليل نديما للندامات

وقد يتعلق بهذه الطبقات أمور خاصة يكون عدلهم فيها بالتوسط فى حالتى التقصير والسرف لان العدل مأخوذ من الاعتدال فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل * وقد قالت الحكماء الفضائل هيآت بين خلتين ناقصتين وأفعال الخير تتوسط بين رذيلتين (فالحكمة) واسطة بين الشر والجهالة (والشجاعة) واسطة بين التهجم والجبن (والعفة) واسطة بين الشره وضعف الشهوة (والسكينة) واسطة بين السخط وضعف الغضب (والغيرة) واسطة بين الحسد وسوء العادة (والظرف) واسطة بين الخلاعة والعرامة (والتواضع) واسطة بين الكبر ودناءة النفس (والسخاء) واسطة بين التبذير والتقتير (والحلم) واسطة بين افراط الغضب وعدمه (والمودة) واسطة بين الخلابة وحسن الخلق (والحياء) واسطة بين القحة والحقد (والوقار) واسطة بين الهزء والسخافة واذا كان ما خرج عن الاعتدال الى ما ليس باعتدال خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل فالاولى

فاذا كمل الانسان بالجزء العملى والجزء النظرى فقد سعد السعادة التامة * أما كماله الاول باحدى قوتيه أعنى العالمة وهى التى يشتاق بها الى العلوم فهو أن يصير فى العلم بحيث يصدق نظره وتصح بصيرته وتستقيم رويته فلا يغلط فى اعتقاد ولا يشك فى حقيقة وينتهى فى العلم بامور الموجودات على الترتيب الى العلم الالهى الذى هو آخر مرتبة العلوم ويثق به ويسكن اليه وتطمئن قلبه وتذهب حيرته ويتجلى له المطلوب الاخير حتى يتحد به وهذا الكمال قد بينا الطريق اليه وأوضحنا سبله فى كتب أخر * وأما الكمال الثانى الذى يكون بالقوة الأخرى أعنى القوة العاملة فهو الذى نقصده فى كتابنا هذا وهو الكمال الخلقى

اجتنابه والوقوف مع الاوسط اقتداء بالحديث * وقال بعض البلغاء البلد السوء يجمع السفل ويورث العلل والولد السوء يشين السلف ويهدم الشرف والجار السوء يفشي السر ويهتك الستر فجعل هذه الاشياء مخرجها عن الاولى الى ماليس بالاولى خروجا عن العدل الى ماليس بعدل ولست تجد فسادا الا وسبب نتيجته الخروج فيه من حال العدل الى ماليس بعدل من حالتي الزيادة والنقصان فاذا لاشئ أنفع من العدل كما لاشئ أضر مما ليس بعدل * وأما القاعدة الرابعة فهي أمن عام تطمئن إليه النفوس وتنتشر فيه الهمم ويسكن إليه البرىء ويأنس به الضعيف فليس لخائف راحة ولا لحاذر طمأنينة * وقد قال بعض الحكماء الامن أهنأ عيش والعدل أقوى جيش لان الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم وانتظام جملتهم لان الأمن من نتائج العدل والجور من نتائج ماليس بعدل وقد يكون الجور تارة بمقاصد الآدميين الخارجة عن العدل وتارة يكون بأسباب حادثة من غير مقاصد الآدميين فلا تكون خارجة عن حال العدل فمن أجل ذلك لم يكن ما سبق من حال العدل مقنعا عن أن يكون الامن في انتظام الدنيا قاعدة كالعدل فاذا كان ذلك كذلك فالامن المطلق ما عم والخوف قد يتنوع تارة ويعم فتنوعه بأن يكون تارة على النفس وتارة على الاهل وتارة على المال وعمومه أن يستوجب جميع الأحوال ولكل واحد من أنواعه حظ من الوهن ونصيب من الحزن وقد يختلف باختلاف أسبابه ويتفاضل بتباين جهاته ويكون بحسب اختلاف الرغبة فيما خيف عليه فمن أجل ذلك لم يجز أن يوصف حال كل واحد من أنواعه بمقدار من الوهن ونصيب من الحزن لاسيما والخائف على الشئ مختص الهم به منصرف الفكر عن غيره فهو يظن أن لاخوف له الا إياه فيغفل عن قدر النعمة بالامن فيما سواه فصار كالمريض الذي هو بمرضه متشاغل وعما سواه غافل ولعل ما صرف عنه أعظم مما ابتلي به

على انها تعفو الكلوم وانما * نوكل بالادنى وان جل ما يمضي

وحكي أن رجلا قال واعرابي حاضر ما أشد وجع الضرس فقال الاعرابي كل داء أشد داء وكذلك من عمه الأمن كمن استولت عليه العافية فهو لا يعرف قدر النعمة بأمنه حتى يخاف كما لا يعرف المعافى قدر النعمة حتى يصاب * وقال بعض الحكماء انما يعرف قدر النعمة بمقاساة ضدها فأخذ ذلك أبو تمام الطائي فقال

والحادثات وان أصابك بؤسها * فهو الذي أنباك كيف نعيمها

فالاولى بالعاقل أن يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما سوى ذلك من عافيته وأمنه وما انصرف عنه مما هو أشد من مرضه وخوفه فيستبدل بالشكوى شكرا وبالجزع صبرا فيكون فرحا مسرورا * حكي أن يعقوب قال ليوسف عليهما السلام حين لقيه أي شئ كان خبرك بعدي قال لا تسأل عما فعله بي اخوتي سلني عما صنعه بي ربي * وقال الشاعر

لا تنس في الصحة أيام السقم * فان عقبى تارك الحزم ندم

ومبدؤه من ترتيب قواه وأفعاله الخاصة بها حتى لا تتغالب وحتى تتسالم هذه القوى فيه وتصدر أفعاله كلها بحسب قوته المميزة منتظمة مرتبة كما ينبغي وينتهي الى التدبير المدني الذي يرتب الافعال والقوى بين الناس حتى تنتظم ذلك الانتظام ويسعدوا سعادة مشتركة كما كان ذلك في الشخص الواحد * فاذا الكمال الاول النظري منزلته منزلة الصورة والكمال الثاني العملي منزلته منزلة المادة وليس يتم أحدهما الا بالآخر لان العلم مبدأ والعمل تمام والمبدأ بلا تمام يكون ضائعا والتمام بلا مبدا يكون مستحيلا وهذا الكمال هو الذي سميناه غرضا وذلك أن الغرض والكمال بالذات هما شئ

وأما القاعدة الخامسة فهي خصب دار تتسع النفوس به في الاحوال وتشترك فيه ذوو الاكثار والاقلال فيقل في الناس الحسد وينتفي عنهم تباغض العدم وتتسع النفوس في التوسع وتكثر المواساة والتواصل وذلك من أقوى الدواعي لصلاح الدنيا وانتظام أحوالها ولان الخصب يؤول الى الغنى والغنى يورث الامانة والسخاء وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى أبي موسى الاشعري لاتستقضين الاذا حسب ومال فان ذا الحسب يخاف العواقب وذا المال لايرغب في مال غيره • وقال بعض السلف انى وجدت خير الدنيا والآخرة في التقى والغنى وشر الدنيا والآخرة في الفجور والفقر • وقال بعض الشعراء

ولم أر بعد الدين خيرا من الغنى * ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر

وبحسب الغنى يكون إقلال البخيل واعطاؤه واكثار الجواد وسخاؤه كما قال دعبل

لئن كنت لاتولى ندى دون إمرة * فلست بمول نائلا آخر الدهر
وأى إناء لم يفض عند ملئه * وأى بخيل لم ينل ساعة الوفر

واذا كان الخصب يحدث من أسباب الصلاح ماوصفت كان الجدب يحدث من أسباب الفساد ماضادها وكما أن صلاح الخصب عام فكذلك فساد الجدب عام وماعم به الصلاح ان وجد وماعم به الفساد ان فقد فاحرى أن يكون من قواعد الصلاح ودواعي الاستقامة والخصب يكون من وجهين خصب في المكاسب وخصب في المواد فاما خصب المكاسب فقد يتفرع من خصب المواد وهو من نتائج الامن المقترن بها وأما خصب المواد فقد يتفرع عن أسباب الهية وهو من نتائج العدل المقترن بها • وأما القاعدة السادسة فهي أمل فسيح يبعث على اقتناء مايقصر العمر عن استيعابه ويبعث على اقتناء ماليس يؤمل في دركه بحياة أربابه ولولا أن الثاني يرتفق بما أنشأه الاول حتى يصير به مستغنيا لافتقر أهل كل عصر الى إنشاء مايحتاجون إليه من منازل السكنى وأراضي الحرث وفي ذلك من الاعواز وتعذر الامكان مالاخفاء به فلذلك ما أرفق الله تعالى خلقه باتساع الآمال الاحتى عمر به الدنيا فعم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها الى قرن بعد قرن فيتم الثاني ما أبقاه الاول من عمارتها ويرم الثالث ما أحدثه الثاني من شعثها لتكون أحوالها على الاعصار ملتئمة وأمورها على ممر الدهور منتظمة ولو قصرت الآمال ماتجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى ضرورة وقته ولكانت تنتقل الى من بعده خرابا لايجد فيها بلغة ولا يدرك منها حاجة ثم تنتقل الى من بعد بأسوأ من ذلك حالا حتى لاينمي بها نبت ولا يمكن فيها لبث * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الأمل رحمة من الله لامتى ولولاه لما غرس غارس شجرا ولا أرضعت أم ولدا • وقال الشاعر

وللنفوس وان كانت على وجل * من المنية آمال تقويها
فالمرء يبسطها والدهر يقبضها * والنفس تنشرها والموت يطويها

وأما حال الامل في أمر الآخرة فهو من أقوى الاسباب في الغفلة عنها وقلة الاستعداد لها وقد أفصح لبيد مع إعرابيته بما تبين به حال الامل في الامرين فقال

واكذب النفس اذا حدثتها * أن صدق النفس يزرى بالامل

واحد وانما يختلفان بالاضافة فاذا نظر اليه وهو بعد في النفس ولم يخرج الى الفعل فهو غرض فاذا خرج الى الفعل وتم فهو كمال * وكذلك الحال في كل شئ لان البيت اذا كان متصورا للباني وكان عالما باجزائه وتركيبه وسائر أحواله كان غرضا * فاذا أخرجه الى الفعل وتممه كان كمالا * فقد صح من جميع ماقدمناه أن الانسان يصير الى كماله ويصدر عنه فعله الخاص به اذا علم الموجودات كلها أى يعلم كلياتها وحدودها التي هي ذواتها لا اعراضها وخواصها التي تصيرها بلانهاية . فانك اذا علمت كليات الموجودات فقد علمت جزئياتها بنحو ما * لان الجزئيات لاتخرج عن كلياتها فاذا كملت هذا الكمال فتممه بالفعل

غير أن لا تكذبنها بالتقى * واجزها بالبر لله الاجل

وفرق ما بين الآمال والامانى ان الآمال ما تقيدت بأسباب والامانى ما تجردت عنها فهذه القواعد الست التى تصلح بها أحوال الدنيا وتنتظم أمور جملتها فان كملت فيها كمل صلاحها وبعيد أن يكون أمر الدنيا تاما كاملا وأن يكون صلاحها عاما شاملا لانها موضوعة على التغيير والفناء منشأة على التصرم والانقضاء وسمع بعض الحكماء رجلا يقول قلب الله الدنيا قال فاذا تستوى لانها مقلوبة * وقال بعض الشعراء

ومن عادة الايام أن خطوبها * اذا سر منها جانب ساء جانب
وما أعرف الايام الا ذميمة * ولا الدهر الا وهو للثار طالب

وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها

﴿فصل﴾ وأما ما يصلح به حال الانسان فيها فثلاثة أشياء هى قواعد أمره ونظام حاله وهى نفس مطيعة الى رشدها منتهية عن غيها وألفة جامعة تعطف القلوب عليها وتندفع المكروه بها ومادة كافية تسكن نفس الانسان اليها ويستقيم أودها بها * فاما القاعدة الأولى التى هى نفس مطيعة فلانها إذا أطاعته ملكها واذا عصته ملكته ولم يملكها ومن لم يملك نفسه فهو بأن لا يملك غيرها أحرى ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها أولى * وقال بعض الحكماء لا ينبغى للعاقل أن يطلب طاعة غيره ونفسه ممتنعة عليه * وقد قال الشاعر

أتطمع أن يطيعك قلب سعدى * وتزعم أن قلبك قد عصاك

وطاعة نفسه تكون من وجهين أحدهما نصح والثانى انقياد فأما النصح فهو أن ينظر الى الامور بحقائقها فيرى الرشد رشدا ويستحسنه ويرى الغى غيا ويستقبحه وهذا يكون من صدق النفس إذا سلمت من دواعى الهوى ولذلك قيل من تفكر أبصر فاما الانقياد فهو أن تسرع الى الرشد إذا أمرها وتنتهى عن الغى اذا زجرها وهذا يكون من قبول النفس إذا كفيت منازعة الشهوات * قال الله تعالى ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما * وللنفس آداب هى تمام طاعتها وكمال مصلحتها وقد أفردنا لها من هذا الكتاب بابا واقتصرنا فى هذا الموضع على ما قد اقتضاه الترتيب واستدعاه التقريب * وأما القاعدة الثانية وهى الالفة الجامعة فلان الانسان مقصود بالأذية محسود بالنعمة فاذا لم يكن آلفا مألوفا تخطفته أيدى حاسديه وتحكمت فيه أهواء أعاديه فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مدة فاذا كان آلفا مألوفا انتصر بالالفة على أعاديه وامتنع من حاسديه فسلمت نعمته منهم وصفت مدته عنهم وان كان صفو الزمان عسرا وسلمه خطرا * وقد روى ابن جريج عن عطاء رحمهما الله عن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيأ وأن تعتصموا بحبله جميعا ولا تتفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الالفة والعرب تقول من قل ذل * وقال قيس بن عاصم

المنظوم ورتب القوى والملكات التى فيك ترتيبا عليا كما سبق علمك به * فاذا انتهيت الى هذه الرتب فقد صرت عالما وحدك واستحقيت أن تسمى عالما صغيرا لان صور الموجودات كلها قد حصلت فى ذاتك فصرت أنت هى بنحو ما. ثم نظمتها بأفعالك على نحو استطاعتك فصرت فيها خليفة لمولاك خالق الكل جلت عظمته فلم تخط فيها ولم تخرج عن نظامه الاول الحكمى فتصير حينئذ عالما تاما . والتام من الموجودات هو الدائم الوجود والدائم الوجود هو الباقى بقاء سرمديا فلا يفوتك حينئذ شئ من النعيم المقيم لانك بهذا الكمال مستعد لقبول الفيض من المولى دائما أبدا وقد قربت منه

ان

ان القداح اذا اجتمعن فرامها * بالكسر ذو حنق و بطش أيد
عزت فلم تكسر وان هي بددت * فالوهن والتكسير للمتبدد

واذا كانت الالفة بما أثبت تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضت الحال ذكر أسبابها وأسباب الالفة خمسة وهي الدين والنسب والمصاهرة والمودة والبر فأما الدين وهو الاول من أسباب الالفة فلانه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابر وبمثل ذلك وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه . فروى سفيان عن الزهري عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث . وهذا وان كان اجتماعهم في الدين يقتضيه فهو على وجه التحذير من تذكر تراث الجاهلية واحن الضلالة فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب أشد تقاطعا وتعاديا وأكثر اختلافا وتماديا حتى ان بني الاب الواحد يتفرقون أحزابا فتثير بينهم بالتحزب والافتراق أحقاد الاعداء واحن البعداء وكانت الانصار أشدهم تقاطعا وتعاديا وكان بين الاوس والخزرج من الاختلاف والتباين أكثر من غيرهم الى أن أسلموا فذهبت احنهم وانقطعت عداوتهم وصاروا بالاسلام اخوانا متواصلين وبالفة الدين أعوانا متناصرين . قال الله تعالى واذكروا اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا يعني أعداء في الجاهلية فألف بين قلوبكم بالاسلام . وقال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا يعني حبا وعلى حسب التألف على الدين تكون العداوة فيه اذا اختلف أهله فان الانسان قد يقطع في الدين من كان به برا وعليه مشفقا هذا أبو عبيدة بن الجراح وقد كانت له المنزلة العالية في الفضل والاثر المشهور في الاسلام قتل أباه يوم بدر وأتى برأسه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم حين بقي على ضلاله وانهمك في طغيانه فلم تعطفه عليه رحمة ولا كفه عنه شفقة وهو من أبر الابناء تغليبا للدين على النسب وطاعة الله تعالى على طاعة الاب . وفيه أنزل الله لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم . وقد يختلف أهل الدين على مذاهب شتى وآراء مختلفة فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين مثل ما يحدث بين المختلفين في الاديان وعلة ذلك أن الدين والاجتماع على العقد الواحد فيه لما كان أقوى أسباب الالفة كان الاختلاف فيه أقوى أسباب الفرقة واذا تكافأ أهل الاديان المختلفة والمذاهب المتباينة ولم يكن أحد الفريقين أعلى يدا وأكثر عددا كانت العداوة بينهم أقوى والاحن فيهم أعظم لانه ينضم الى عداوة الاختلاف تحاسد الاكفاء وتنافس النظراء . وأما النسب وهو الثاني من أسباب الالفة فلان تعاطف الارحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والالفة ويمنعان من التخاذل والفرقة أنفة من استعلاء الاباعد على الاقارب وتوقيا من تسلط الغرباء الاجانب . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الرحم اذا تماست تعاطفت ولذلك حفظت العرب أنسابها لما امتنعت عن سلطان يقهرها ويكف الاذى عنها لتكون به متظافرة على من

القرب الذي لا يجوز أن يحول بينك وبينه حجاب . وهذه هي الرتبة العليا والسعادة القصوى . ولولا أن الشخص الواحد من أشخاص الناس يمكنه تحصيل هذه المنزلة في ذاته وتكميل صورته بها واتمام نقصانه بالترقي اليها لكان سبيله سبيل أشخاص الحيوانات الاخر أو كسبيل أشخاص النبات في مصيرها الى الفناء والاستحالة التي تلحقها والنقصانات التي لا سبيل الى تمامها . ولا استحال فيه البقاء الابدي والنعيم السرمدي والمصير الى ربه ودخول جنته . ومن لا يتصور هذه الحالة ولا ينتهي الى علمها من المتوسطين في العلم يقع له شكوك . فيظن أن الانسان اذا انتقض تركيبه الجسماني

ناواها متناصرة على من شاقها وعاداها حتى بلغت بألفة الانساب تناصرها على القوى الايد وتحكمت به تحكم المتسلط المتشطط • وقد أعذر نبي الله لوط عليه السلام نفسه حين عدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث اليه لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد يعنى عشيرة مانعة • وروى أبو سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحم الله لوطا لقد كان يأوى الى ركن شديد يعنى الله عز وجل • وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بعث الله تعالى من بعده نبيا الا فى ثروة من قومه • وقال وهب لقد وردت الرسل على لوط وقالوا ان ركنك لشديد • وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يترك المرء مفرجا حتى يضمه الى قبيلة يكون فيها • قال الرياشى المفرج الذى لا ينتمى الى قبيلة يكون منها وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الالفة وكف عن الفرقة • ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من كثر سواد قوم فهو منهم واذا كان النسب بهذه المنزلة من الالفة فقد تعرض له عوارض تمنع منها وتبعث على الفرقة المنافية لها فاذن قد لزم أن نصف حال الانساب وما يعرض لها من الاسباب فجملة الانساب أنها تنقسم ثلاثة أقسام قسم والدون وقسم مولودون وقسم مناسبون ولكل قسم منهم منزلة من البر والصلة وعارض يطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة • فأما الوالدون فهم الآباء والامهات والاجداد والجدات وهم موسومون مع سلامة أحوالهم بخلقين أحدهما لازم بالطبع والثانى حادث باكتساب فأما ما كان لازما بالطبع فهو الحذر والاشفاق وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال • وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الولد مبخلة مجهلة مجبنة محزنة فأخبر أن الحذر عليه يكسب هذه الاوصاف ويحدث هذه الاخلاق وقد كره قوم طلب الولد كراهة لهذه الحالة التى لا يقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعا وحدوثها حتما • وقيل ليحيى بن زكريا عليهما السلام ما بالك تكره الولد فقال مالى وللولد ان عاش كدنى وان مات هدنى • وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام ألا تتزوج فقال انما يحب التكاثر فى دار البقاء وأما ما كان حادثا بالاكتساب فهى المحبة التى تنمى مع الاوقات وتتغير مع تغير الحالات • وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الولد أنوط يعنى أن حبه يلتصق بنياط القلب • وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شئ ثمرة وثمرة القلب الولد فان انصرف الوالد عن حب الولد فليس ذلك لبغض منه ولكن لسلوة حدثت من عقوق أو تقصير مع بقاء الحذر والاشفاق الذى لا يزول عنه ولا ينتقل منه • فقد قال محمد بن على رضى الله عنه ان الله تعالى رضى الآباء للابناء فحذرهم فتنتهم ولم يوصهم بهم ولم يرض الابناء للآباء فأوصاهم بهم وان شر الابناء من دعاه التقصير الى العقوق وشر الآباء من دعاه البر الى الافراط والامهات أكثر اشفاقا وأوفر حبا لما باشرن من الولادة وعانين من التربية فانهن أرق قلوبا وألين نفوسا وبحسب ذلك وجب أن يكون التعطف عليهن أوفر جزاء لفعلهن وكفاء لحقهن وان كان الله تعالى قد أشرك بينهما فى البر وجمع بينهما فى الوصية فقال تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا • وقد روى ان رجلا أتى الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان لى أما أنا مطيها أقعدها على ظهرى ولا أصرف عنها وجهى وأرد اليها كسبى

فهل

بعالم وتلاشى كالحال فى الحيوانات الاخر وفى النبات فحينئذ يستحق اسم الالحاد ويخرج عن سمة الحكمة وسنة الشريعة

كمال الانسان فى اللذات المعنوية

وقد ظن قوم ان كمال الانسان وغايته هما فى اللذات الحسية وانها هى الخير المطلوب والسعادة القصوى * وظنوا ان جميع قواه الأخر انما ركبت فيه من أجل هذه اللذات والتوصل اليها وان النفس الشريفة التى سميناها ناطقة انما وهبت له ليرتب بها الافعال ويميزها ثم يوجهها نحو هذه اللذات لتكون الغاية الاخيرة هى حصولها له على النهاية والغاية الجسمانية * وظنوا أيضا أن قوى النفس

فهل جزيتها قال لا ولا بزفرة واحدة قال ولم قال لانها كانت تخدمك وهي تحب حياتك وأنت تخدمها وتحب موتها . وقال الحسن البصري حق الوالد أعظم وبر الوالدة ألزم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أنهاكم عن عقوق الامهات ووأد البنات ومنع وهات . وروى خالد بن معدان عن المقدام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بالاقرب فالاقرب * وأما المولودون فهم الأولاد وأولاد الأولاد والعرب تسمي ولد الولد الصفوة وهم مختصون مع سلامة أحوالهم بخلقين أحدهما لازم والآخر منتقل فاما اللازم فهو الانفة للآباء من تهضم أو خمول والانفة في الابناء في مقابلة الاشفاق في الآباء وقد لحظ أبو تمام الطائي هذا المعنى في شعره فقال

فأصبحت يلقاني الزمان لاجله * باعظام مولود واشفاق والد

فاما المنتقل فهو الادلال وهو أول حال الولد والادلال في الابناء في مقابلة المحبة في الآباء لان المحبة بالآباء أخص والادلال بالابناء أمس * وقد روى عن عمر أنه قال قلت يا رسول الله ما بالنا نرق على أولادنا ولا يرقون علينا قال لانا ولدناهم ولم يلدونا ثم الادلال في الابناء قد ينتقل مع الكبر الى أحد أمرين إما الى البر والاعظام وإما الى الجفاء والعقوق فان كان الولد رشيدا أو كان الاب براعطوفا صار الادلال براواعظاما * وقد روى الزهري عن عامر بن شراحيل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجرير بن عبد الله ان حق الوالد على الولد أن يخشع له عند الغضب ويؤثره على نفسه عند النصب والسغب فان المكافئ ليس بالواصل ولكن الواصل من اذا قطعت رحمه وصلها وان كان الولد غاويا أو كان الوالد جافيا صار الادلال قطيعة وعقوقا * ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله امرأ أعان ولده على بره وبشر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمولود فقال ريحانة أشمها ثم هو عن قريب ولد بار أو عدو ضار * وقد قيل في منثور الحكم العقوق ثكل من لم يثكل * وقال بعض الحكماء ابنك ريحانك سبعا وخادمك سبعا ووزيرك سبعا ثم هو صديق أو عدو * وأما المناسبون فهم من عدا الآباء والابناء ممن يرجع بتعصيب أو رحم والذي يختصون به الحمية الباعثة على النصرة وهي أدنى رتبة الانفة لان الانفة تمنع من التهضم والخمول معا والحمية تمنع من التهضم وليس لها في كراهة الخمول نصيب الا أن يقترن بها ما يبعث على الالفة وحمية المناسبين انما تدعو الى النصرة على البعداء والاجانب وهي معرضة لحسد الاداني والاقارب موكولة الى منافسة الصاحب بالصاحب فان حرست بالتواصل والتلاطف تأكدت أسبابها واقترن بحمية النسب مصافاة المودة وذلك أوكد أسباب الالفة وقد قيل لبعض قريش أيما أحب اليك أخوك أو صديقك قال أخي اذا كان صديقا * وقال مسلمة بن عبد الملك العيش في ثلاث سعة المنزل وكثرة الخدم وموافقة الاهل * وقال بعض الحكماء البعيد قريب بمودته والقريب بعيد بعداوته وان أهملت الحال بين المتناسبين ثقة بلحمة النسب واعتمادا على حمية القرابة غلب عليها مقت الحسد ومنازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرابة بعدا * وقال الكندي في بعض رسائله الأب رب والولد كمد والاخ فخ والعم غم والخال وبال والاقارب عقارب *

الناطقة أعني الذكر والحفظ والروية كلها تراد لتلك الغاية قالوا وذلك ان الانسان اذا تذكر اللذات التي كانت حصلت له بالمطاعم والمشارب والمناكح اشتاق اليها وأحب معاودتها فقد صارت منفعة الذكر والحفظ انما هي اللذات وتحصيلها * ولاجل هذه الظنون التي وقعت لهم جعلوا النفس المميزة الشريفة كالعبد المهين وكالاجير المستعمل في خدمة النفس الشهوية لتخدمها في المآكل والمشارب والمناكح وترتبها لها وتعدها اعدادا كاملا موافقا * وهذا هو رأي الجمهور من العامة الرعاع وجهال الناس السقاط * والى هذه الخيرات التي جعلوها غاياتهم تشوقوا عند ذكر

وقال عبد الله بن المعتز   لحومهم لحمي وهم يأكلونه * وما داهيات المرء الا أقاربه
ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الارحام واثنى على واصلها فقال تعالى والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب قال المفسرون هي الرحم التي أمر الله بوصلها ويخشون ربهم في قطعها ويخافون سوء الحساب في المعاقبة عليها وروى عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل أنا الرحمن وهي الرحم اشتققت لها من اسمي اسما فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال صلة الرحم منماة للعدد مثراة للمال محبة في الاهل منسأة في الاجل * وقال بعض الحكماء بلوا أرحامكم بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق * وقال بعض البلغاء صلوا أرحامكم فانها لا تبلى عليها أصولكم ولا تهضم عليها فروعكم * وقال بعض الادباء من لم يصلح لاهله لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك * وقال بعض الفصحاء من وصل رحمه وصله الله ورحمه ومن أجار جاره أعانه الله وأجاره * وقال محمد بن عبد الله الازدي

وحسبك من ذل وسوء صنيعة * مناواة ذي القربى وان قيل قاطع
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه * لترجعه يوما الى الرواجع
ولا يستوي في الحكم عبدان واصل * وعبد لارحام القرابة قاطع

وأما المصاهرة وهي الثالث من أسباب الالفة فلانها استحداث مواصلة وتمازج مناسبة صدرا عن رغبة واختيار وانعقدا على خير وايثار فاجتمع فيها أسباب الالفة وموادّ المظاهرة قال الله تعالى ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة يعني بالمودة المحبة وبالرحمة الحنو والشفقة وهما من أوكد أسباب الالفة وفيها تأويل آخر قاله الحسن البصري رحمه الله ان المودة النكاح والرحمة الولد * وقال تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة اختلف المفسرون في الحفدة فقال عبد الله بن مسعود هم أختان الرجل على بناته وقال عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما هم ولد الرجل وولد ولده * وروى عنه أنهم بنو امرأة الرجل من غيره وسموا حفدة لحفدهم في الخدمة وسرعتهم في العمل ومنه قولهم في القنوت واليك نسعى ونحفد أي نسرع الى العمل بطاعتك ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتألف الاعداء بالمصاهرة حتى يرجع المنافر مؤانسا ويصير العدو مواليا وقد يصير للصهر بين الاثنين ألفة بين القبيلتين وموالاة بين العشيرتين * حكي عن خالد بن يزيد بن معاوية أنه قال كان أبغض خلق الله عز وجل الى آل الزبير حتى تزوجت منهم رملة فصاروا أحب خلق الله عز وجل الي * وفيها يقول

أحب بني العوام طرا لاجلها * ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا
فان تسلمي نسلم وان تتنصري * يخط رجال بين أعينهم صلبا

ولذلك قيل المرء على دين زوجته لما يستنزله الميل اليها من المتابعة ويجتذبه الحب لها من الموافقة فلا يجد الى المخالفة سبيلا ولا الى المباينة والمشاقة طريقا واذا كانت المصاهرة

الجنة والقرب من بارئهم عز وجل * وهي التي يسألونها ربهم تبارك وتعالى في دعواتهم وصلواتهم * واذا خلوا بالعبادات وتركوا الدنيا وزهدوا فيها فانما ذلك منهم على سبيل المتجر والمرابحة في هذه بعينها كأنهم تركوا قليلها ليصلوا الى كثيرها وأعرضوا عن الفانيات منها ليبلغوا الى الباقيات * الا انك تجدهم مع هذا الاعتقاد وهذه الافعال اذا ذكر عندهم الملائكة والخلق الاعلى الاشرف وما نزههم الله عنه من هذه القاذورات علموا بالجملة انهم أقرب الى الله تعالى وأعلى رتبة من الناس وانهم غير محتاجين الى شيء من حاجات البشر بل يعلمون ان خالقهم وخالق كل شيء الذي تولى ابداع

للنكاح بهذه المنزلة من الالفة فقد ينبغي لعقدها أحد خمسة أوجه وهي المال والجمال والدين والالفة والتعفف . وقد روى سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تنكح المرأة لاربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فعليك بذات الدين تربت يداك فان كان عقد النكاح لاجل المال وكان أقوى الدواعي اليه فالمال اذا هو المنكوح فان اقترن بذلك أحد الاسباب الباعثة على الائتلاف جاز أن يلبث العقد وتدوم الالفة فان تجرد عن غيره من الاسباب وعرا عما سواه من المواد فأخلق بالعقد أن ينحل وبالالفة أن تزول لاسيما اذا غلب الطمع وقل الوفاء لان المال ان وصل اليه فقد ينقضي سبب الالفة به فقد قيل من ودك لشئ تولى مع انقضائه وان أعوز الوصول اليه وتعذرت القدرة عليه أعقب ذلك استهانة الآيس بعد شدة الامل فحدثت منه عداوة الخائب بعد استحكام الطمع فصارت الوصلة فرقة والالفة عداوة وقد قيل من ودك طمعا فيك أبغضك اذا أيس منك . وقال عبد الحميد من عظمك لاكثارك استقلك عند اقلالك فان كان العقد رغبة في الجمال فذلك أدوم للالفة من المال لان الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة . ولذلك قيل حسن الصورة أول السعادة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أعظم النساء بركة أحسنهن وجها وأقلهن مهرا فان سلمت الحال من الادلال المفضي الى الملال استدامت الالفة واستحكمت الوصلة وقد كانوا يكرهون الجمال البارع اما لما يحدث عنه من شدة الادلال وقد قيل من بسطه الادلال قبضه الاذلال واما لما يخاف من محنة الرغبة وبلوى المنازعة . وقد حكى أن رجلا شاور حكيما في التزوج فقال له افعل واياك والجمال البارع فانه مرعى أنيق فقال الرجل وكيف ذلك قال كما قال الاول

ولن تصادف مرعى ممرعا أبدا * الا وجدت به آثار منتجع

واما لما يخافه اللبيب من شدة الصبوة ويتوقاه الحازم من سوء عواقب الفتنة . وقد قال بعض الحكماء اياك ومخالطة النساء فان لحظ المرأة سهم ولفظها سم . ورأى بعض الحكماء صيادا يكلم امرأة فقال يا صياد احذر أن تصاد . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه امش وراء الاسد ولا تمش وراء المرأة وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأة تقول هذا البيت

ان النساء رياحين خلقن لكم * وكلكم يشتهي شم الرياحين

فقال رضي الله عنه

ان النساء شياطين خلقن لنا * نعوذ بالله من شر الشياطين

وان كان العقد رغبة في الدين فهو أوثق العقود حالا وأدومها ألفة وأحمدها بدأ وعاقبة لان طالب الدين متبع له ومن اتبع الدين انقاد له فاستقامت له حاله وأمن زلله . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فاظفر (لعل هذه رواية أخرى فان التي تقدمت فعليك) بذات الدين تربت يداك وفيه تأويلان أحدهما تربت يداك ان لم تظفر بذات الدين والثاني أنها كلمة تذكر للمبالغة ولا يراد بها سوء كقولهم ما أشجعه قاتله الله وان كان العقد رغبة في الالفة فهذا يكون على أحد وجهين اما أن يقصد به المكاثرة باجتماع الفريقين والمظافرة بتناصر الفئتين واما أن يقصد به تألف أعداء متسلطين استكفاء لعاديتهم وتسكينا لصولتهم وهذان

الكل هو منزه عن هذه الاشياء متعال عنها غير موصوف باللذة والتمتع مع التمكن من ايجادها وان الناس يشاركون في هذه اللذات الخنافس والديدان وصغار الحشرات والهمج من الحيوان وانما يناسبون الملائكة بالعقل والتمييز ثم يجمعون بين هذا الاعتقاد والاعتقاد الاول وهذا هو العجب العجيب وذلك انهم يرون عيانا ضرورا تهم بالاذى الذى يلحقهم بالجوع والعرى وضروب النقص وحاجاتهم الى مداواتها بما يدفعها عنهم فاذا زالت آثارها وعادوا الى حال السلامة منها التذوا بذلك ووجدوا للراحة لذة ولا يشعرون انهم اذا اشتاقوا الى لذة المأكل فقد اشتاقوا أولا الى ألم الجوع وذلك انهم ان لم يؤلموا بالجوع لم يلتذوا

الوجهان قد يكونان فى الاماثل وأهل المنازل وداعى الوجه الاول هو الرغبة وداعى الوجه الثانى هو الرهبة وهما سيان فى غير المتناكحين فان استدام السبب دامت الالفة وان زال السبب بزوال الرغبة والرهبة خيف زوال الالفة الا أن ينضم اليها أحد الاسباب الباعثة عليها والمقربة لها وان كان العقد رغبة فى التعفف فهو الوجه الحقيقى المبتغى بعقد النكاح وما سوى ذلك فأسباب معلقة عليه ومضافة اليه . وروى أنه لما نزل قوله تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها قال النبى صلى الله عليه وسلم خلق الرجل من التراب فهمه فى التراب وخلقت المرأة من الرجل فهمها فى الرجل . وروى عطية بن بشر عن عكاف بن رفاعة الهلالى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له يا عكاف ألك زوجة قال لا قال فانت اذا من اخوان الشياطين ان كنت من رهبان النصارى فالحق بهم وان كنت منا فمن سنتنا النكاح فكان هذا القول منه حثا على ترك الفساد وباعثا على التكاثر بالاولاد . ولهذا المعنى كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول للقفال من غزوهم اذا أفضيتم الى نسائكم فالكيس الكيس يعنى فى طلب الولد فلزم حينئذ فى عقد التعفف تحكم الاختيار فيه والتماس الادوم من دواعيه وهى نوعان نوع يمكن حصر شروطه ونوع لا يمكن لاختلاف أسبابه وتغاير شروطه فاما الشروط المحصورة فيه فثلاثة شروط أحدها الدين المفضى الى الستر والعفاف والمؤدى الى القناعة والكفاف * قال أبو هريرة رضى الله عنه لا يعذل مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقا رضى منها خلقا وخطب رجل من عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يتيمة كانت عنده فقال لا أرضاها لك قال ولم وفى دارك نشأت قال انها تتشرف قال لا أبالى فقال الآن لا أرضاها لك وفى معنى هذا قول بعض العلماء من رضى بصحبة من لا خير فيه لم يرض بصحبته من فيه خير والشرط الثانى العقل الباعث على حسن التقدير فى الأمر بصواب التدبير فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال العقل حيث كان ألوف ومألوف * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بالودود الولود ولا تنكحوا الحمقاء فان صحبتها بلاء وولدها ضياع والشرط الثالث الاكفاء الذين ينتفى بهم العار ويحصل بهم الاستكثار فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تخيروا لنطفكم ولا تضعوها الا فى الاكفاء * وروى ان أكثم بن صيفى قال لولده يا بنى لا يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب فان المناكح الكريمة مدرجة للشرف * وقال أبو الأسود الدؤلى لبنيه قد أحسنت اليكم صغارا وكبارا وقبل أن تولدوا قالوا وكيف أحسنت الينا قبل أن نولد قال اخترت لكم من الامهات من لا تسبون بها وأنشد الرياشى

فأول احسانى اليكم تخيرى * لماجدة الاعراق باد عفافها

وقد تنضم الى هذه الشروط من صفات الذات وأحوال النفس ما يلزم التحرز منه لبعد الخير عنه وقلة الرشد فيه فان كوامن الاخلاق بادية فى الصور والاشكال كالذى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لزيد بن حارثة أتزوجت يا زيد قال لا قال تزوج تستعفف مع عفتك ولا تتزوج من النساء خمسا قال وما هن يا رسول الله قال لا تتزوج شهبرة ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هيذرة ولا لفوتا فقال يا رسول الله انى لا أعرف مما قلت شيأ قال أما الشهبرة فالزرقاء البذية

بالاكل وهكذا الحال فى سائر اللذات الأخر الا أن هذا الحال فى بعضها أظهر منها فى بعض * وسنتكلم على أن صورة الجميع واحدة وأن اللذات كلها انما تحصل بالتذ بعد آلام تلحقه لان اللذة هى راحة من ألم وأن كل لذة حسية انما هى خلاص من ألم أو أذى فى غير هذا الموضع * وسيظهر عند ذلك أن من رضى لنفسه بتحصيل اللذات البدنية وجعلها غايته وأقصى سعادته فقد رضى باخس العبودية لاخس الموالى لانه يصير نفسه الكريمة التى يناسب بها الملائكة عبدا للنفس الدنيئة التى يناسب بها الخنازير والخنافس والديدان وخسائس الحيوانات التى تشاركه فى هذا الحال

وقد تعجب جالينوس فى

وأما اللهبرة فالطويلة المهزولة وأما النهبرة فالعجوز المدبرة وأما الهبذرة فالقصيرة الدميمة وأما اللفوت فذات الولد من غيرك * وقال شيخ من بني سليم لابنه يابني إياك والرقوب الغضوب القطوب الرقوب التي تراقبه أن يموت فتأخذ ماله * وأوصى بعض الاعراب ابنه في التزوج فقال اياك والحنانة والمنانة والانانة فالحنانة التي تحن لزوج كان لها والمنانة التي تمن على زوجها بمالها والانانة التي تئن كسلا وتمارضا * وقال أوفى بن دلهم النساء أربع فمنهن معمع لها شيئها أجمع ومنهن ممنع تضر ولا تنفع ومنهن مصدع تفرق ولا تجمع ومنهن غيث وقع ببلد فامرع * وقال الشاعر

أرى صاحب النسوان يحسب انها * سواء وبون بينهن بعيد
فمنهن جنات يفيء ظلالها * ومنهن نيران لهن وقود

وأنشد أبو العيناء عن أبي زيد

ان النساء كأشجار نبتن معا * منهن مر وبعض المر مأكول
ان النساء ولو صورن من ذهب * فيهن من هفوات الجهل تخييل
ان النساء متى ينهين عن خلق * فانه واجب لابد مفعول
وما وعدنك من شر وفين به * وما وعدنك من خير فمطول

فاما النوع الآخر فانه لا يمكن حصر شروطه لانه قد يختلف باختلاف الاحوال وينتقل بتنقل الانسان والازمان فانه لا يستغني به عن موافقة النفس ومتابعة الشهوة ليكون أدوم لحال الالفة وأمد لاسباب الوصلة فان الرأي المعلول لا يبقى على حاله والميل المدخول لا يدوم على دخله فلابد أن ينتقل الى احدى حالتين اما الى الزيادة والكمال واما الى النقصان والزوال * حكي ان رجلا قال لعلي كرم الله وجهه اني أحبك وأحب معاوية فقال رضي الله عنه أما الآن فانت أعور فاما أن تبرأ واما أن تعمى فاذا كان كذلك فلابد من كشف السبب الباعث على هذا النوع فانه لا يخلو من ثلاثة أحوال (أحدها) أن يكون لطلب الولد والاحمد فيه التماس الحداثة والبكارة لانها أخص بالولادة * وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بالابكار فانهن أعذب أفواها وأنتق أرحاما وأرضى باليسير ومعنى قوله أنتق أرحاما أي أكثر أولادا * وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه عليكم بالابكار فانهن أكثر حبا وأقل خبا وهذه الحال هي أولى الاحوال الثلاث لان النكاح موضوع لها والشرع وارد بها * وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سوداء ولود خير من حسناء عاقر والعرب تقول من لا يلد لا ولد وقد كانوا يختارون لمثل هذه الحال انكاح البعداء الاجانب ويرون أن ذلك أنجب للولد وأبهى للخلقة ويجتنبون انكاح الاهل والاقارب ويرونه مضرا بخلق الولد بعيدا من نجابته * روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أغربوا لا تضووا * وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال يابني السائب قد ضويتم فانكحوا في الغرائب * وقال الشاعر

تجاوزت بنت العم وهي حبيبة * مخافة أن يضوى علي سليلي

وكانت حكماء المتقدمين يرون أن أنجب الاولاد خلقا وخلقا من كان سن أمه بين العشرين

كتابه الذي سماه باخلاق النفس من هذا الرأي وكثرا ستجهاله للقوم الذين هذه صفتهم من العقل الا أنه قال ان هولاء الخبثاء الذين سيرتهم أسوأ السير وأرداها اذا وجدوا انسانا هذا رأيه ومذهبه نصروه ونوهوا به ودعوا إليه ليوهموا بذلك أنهم غير منفردين بهذه الطريقة لانهم يظنون أنهم متى وصف أهل الفضل والنبل من الناس بمثل ما هم عليه كان ذلك عذرا لهم وتمويها على قوم آخرين في مثل طريقتهم وهؤلاء هم الذين يفسدون الاحداث بايهامهم ان الفضيلة هي ما تدعوهم اليه طبيعة البدن من الملاذ * وان تلك الفضائل الأخر الملكية اما أن تكون باطلة ليست بشيء البتة واما ان تكون غير

والثلاثين وسن أبيه ما بين الثلاثين والخمسين والعرب تقول ان ولد الغيرى لا ينجب وان أنجب النساء الفروك لان الرجل يغلبها على الشبه لزهدها فى الرجال وقالوا ان الرجل اذا أكره المرأة وهى مذعورة ثم أذكرت أنجبت (والحالة الثانية) أن يكون المقصود به القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل فهذا وان كان مختصا بمعاناة النساء فليس بألزم حالتى الزوجات لانه قد يجوز أن تعانيه غيرهن من النساء ولذلك قيل المرأة ريحانة وليست بقهرمانة وليس فى هذا القصد تأثير فى دين ولا قدح فى مروءة والاحمد فى مثل هذا التماس ذوات الاسنان والحنكة ممن قد خبرن تدبير المنازل وعرفن عادات الرجال فانهن أقوم بهذه الحال (والحالة الثالثة) أن يكون المقصود به الاستمتاع وهى أذم الاحوال الثلاث وأوهنها للمروءة لانه ينقاد فيه لاخلاقه البهيمية ويتابع شهوته الذميمة * وقد قال الحارث بن النضر الازدى شر النكاح نكاح الغلمة الا أن يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها بالاضعاف لها عند الغلبة أو تسكين النفس عند المنازعة حتى لا تطمح له عين لريبة ولا تنازعه نفس الى فجور ولا يلحقه فى ذلك ذم ولا يناله وصم وهو بالحمد أجدر وبالثناء أحق ولو تنزه فى مثل هذه الحال عن استبذال الحرائر الى الاماء كان أكمل لمروءته وأبلغ فى صيانته وهذه الحال تقف على شهوات النفوس لا يمكن أن يرجح فيها أولى الامور وهى أخطر الاحوال بالمنكوحة لان للشهوات غايات متناهية تزول بزوالها فما كان متعلقا بها فقصير الشهوة فى الابتداء كراهية فى الانتهاء ولذلك كرهت العرب البنات ووأدتهن اشفاقا عليهن وحمية لهن من أن يتبذلهن اللئام بهذه الحال وكان من تحوب من قتل البنات لرقة ومحبة كان موتهن أحب اليه وآثر عنده ولما خطب الى عقيل بن علقمة ابنته الجرباء قال انى وان سيق الى المهر ألف وعبدان وذود عشر أحب اصهارى الى القبر * وقال عبد الله بن طاهر

لكل أبى بنت يراعى شؤونها * ثلاثة أصهار اذا حمد الصهر
فبعل يراعيها وخدر يكنها * وقبر يواريها وأفضلها القبر

(فصل) وأما المؤاخاة بالمودة وهى الرابع من أسباب الالفة لانها تكسب بصادق الميل اخلاصا ومصافاة وتحدث بخلوص المصافاة وفاء ومحاماة وهذا أعلى مراتب الالفة ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه لتزيد ألفتهم ويقوى تظافرهم وتناصرهم * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم باخوان الصفاء فانهم زينة فى الرخاء وعصمة فى البلاء * وروى أبو الزبير عن سهل بن سعد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال المرء كثير باخيه ولا خير فى صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له * وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقاء الاخوان جلاء الاحزان * وقال خالد بن صفوان ان أعجز الناس من قصر فى طلب الاخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم * وقال على كرم الله وجهه لابنه الحسن يا بنى الغريب من ليس له حبيب * وقال ابن المعتز من اتخذ اخوانا كانوا له أعوانا * وقال بعض الادباء أفضل الذخائر أخ وفى * وقال بعض البلغاء صديق مساعد عضد وساعد * وقال بعض الشعراء

هموم رجال فى أمور كثيرة * وهمى من الدنيا صديق مساعد

ممكنة لاحد من الناس والناس مائلون بالطبع الجسدانى الى الشهوات فيكثر اتباعهم ويقل الفضلاء فيهم * واذا تنبه الواحد بعد الواحد منهم الى أن هذه اللذات انما هى لضرورة الجسد وان بدنه مركب من الطبائع المتضادة أعنى الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة وانه انما يعالج بالمأكل والمشرب أمراضا تحدث به عند الانحلال لحفظ تركيبه على حالة واحدة أبدا ما أمكن ذلك فيه * وان علاج المرض ليس بسعادة تامة والراحة من الالم ليست بغاية مطلوبة ولا خير محض وان السعيد التام هو من لا يعرض له مرض البتة * وعرف مع ذلك أن ثناء الملائكة الابرار الذين اصطفاهم الله

تكون كروح بين جسمين قسمت * فجسماهما جسمان والروح واحد

وقيل انما سمي الصديق صديقا لصدقه والعدو عدوا لعدوه عليك * وقال ثعلب انما سمي الخليل خليلا لان محبته تخلل القلب فلا تدع فيه خللا الا ملأته وأنشد الرياشي قول بشار

قد تخللت مسلك الروح مني * وبه سمي الخليل خليلا

والمؤاخاة في الناس قد تكون على وجهين أحدهما اخوة مكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار والثانية مكتسبة بالقصد والاختيار فاما المكتسبة بالاتفاق فهي أوكد حالا لانها تنعقد عن أسباب تعود اليها والمكتسبة بالقصد تعقدها أسباب تنقاد اليها وما كان جاريا بالطبع فهو ألزم مما هو حادث بالقصد ونحن نبدأ بالوجه الاول المكتسب بالاتفاق ثم نعقبه بالوجه الثاني المكتسب بالقصد أما المكتسب بالاتفاق فله أسباب نبتدئ بها ثم ننتقل في غاية أحواله المحدودة الى سبع مراتب ربما استكملتهن وربما وقفت على بعضهن ولكل مرتبة من ذلك حكم خاص وسبب موجب * قال الشاعر

ما هوى إلا له سبب * يبتدى منه وينشعب

فأول أسباب الاخاء التجانس في حال يجتمعان فيها ويأتلفان بها فان قوي التجانس قوي الائتلاف به وان ضعف كان ضعيفا ما لم تحدث علة أخرى يقوى بها الائتلاف وانما كان ذلك كذلك لان الائتلاف بالتشاكل والتشاكل بالتجانس فاذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من وجه ومع انتفاء التشاكل بعدم الائتلاف فثبت أن التجانس وان تنوع أصل الاخاء وقاعدة الائتلاف * وقد روى يحيى بن سعيد عن عمر عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وهذا واضح وهي بالتجانس متعارفة وبتقدمتنا كرة * وقيل في منثور الحكم الاضداد لا تتفق والاشكال لا تفترق * وقال بعض الحكماء يحسن تشاكل الاخوان يلبث التواصل * ولبعضهم

فلا تحتقر نفسي وأنت خليلها * فكل امرء يصبو الى من يشاكل

﴿ وقال آخر ﴾

فقلت أخي قالوا أخ من قرابة * فقلت لهم ان الشكول أقارب

نسيبي في رأيي وعزمي وهمتي * وان فرقتنا في الاصول المناسب

ثم يحدث بالتجانس المواصلة بين المتجانسين وهي المرتبة الثانية من مراتب الاخاء وسبب المواصلة بينهما وجود الاتفاق منهما فصارت المواصلة نتيجة التجانس والسبب فيه وجود الاتفاق لان عدم الاتفاق منفر * وقد قال الشاعر

الناس ان وافقتهم عذبوا * أو لا فان جناهم مر

كم من رياض لا أنيس بها * تركت لان طريقها وعر

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة وسببها الانبساط ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة وهي المصافاة وسببها خلوص النية ورتبة خامسة وهي المودة وسببها الثقة وهذه الرتبة هي أدنى

بقربه لا تلحقهم هذه الآلام فلا يحتاجون الى مدواتها بالاكل والشرب * وان الله تعالى منزه متعال عن هذه الاوصاف عارضوه بان بعض البشر أشرف من الملائكة وان الله تعالى أجل من أن يذكر مع الخلق * وشاغبوه وسفهوا رأيه وأوقعوا له شبها باطلة حتى يشك في صحة ما تنبه إليه وأرشده عقله إليه

والعجب الذي لا ينقضي هو أنهم مع رأيهم هذا اذا وجدوا واحدا من الناس قد ترك طريقتهم التي يميلون اليها واستهان باللذة والتمتع وصام وطوى واقتصر على ما أنبتت الارض عظموه وكثر تعجبهم منه واهلوه للمراتب العظيمة وزعموا انه ولي الله وصفيه وانه شبيه

الكمال فى أحوال الاخاء وما قبلها أسباب تعود إليها فان اقترن بها المعاضدة فهى الصداقة ثم يحدث عن المودة رتبة سادسة وهى المحبة وسببها الاستحسان فان كان الاستحسان لفضائل النفس حدثت رتبة سابعة وهى الاعظام وان كان الاستحسان للصورة والحركات حدثت رتبة ثامنة وهى العشق وسببه الطمع * وقد قال المأمون رحمه الله تعالى

أول العشق مزاح وولع * ثم يزداد إذا زاد الطمع
كل من يهوى وان عالت به * رتبة الملك لمن يهوى تبع

وهذه الرتبة آخر الرتب المحدودة وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ولا حالة محدودة لانها قد تؤدى إلى ممازجة النفوس وان تميزت ذواتها وتفضى إلى مخالطة الأرواح وان تفارقت أجسادها وهذه حالة لا يمكن حصر غاياتها ولا الوقوف عند نهاياتها وقد قال الكندى الصديق انسان هو أنت إلا أنه غيرك * ومثل هذا القول المروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين أقطع طلحة بن عبيد الله أرضا وكتب له بها كتابا وأشهد فيه ناسا منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتى طلحة بكتابه إلى عمر ليختمه فامتنع عليه فرجع طلحة مغضبا إلى أبى بكر رضى الله عنه وقال والله ما أدرى أنت الخليفة أم عمر فقال بل عمر لكنه أنا * وأما المكتسبة بالقصد فلا بد لها من داع يدعو اليها وباعث يبعث عليها وذلك من وجهين رغبة وفاقة فأما الرغبة فهى ان يظهر من الانسان فضائل تبعث على إخائه ويتوسم بجميل يدعو الى اصطفائه وهذه الحالة أقوى من التى بعدها لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها وانما يخاف عليها من الاغترار بالتصنع لها فليس كل من أظهر الخير كان من أهله ولا كل من تخلق بالحسنى كانت من طبعه والمتكلف للشئ مناف له الا أن يدوم عليه مستحسنا له فى العقل أو متدينا به فى الشرع فيصير متطبعا به لا مطبوعا عليه لانه قد تقدم من كلام الحكماء ليس فى الطبع أن يكون ما ليس فى التطبع ثم نقول من المتعذر أن تكون أخلاق الفاضل كاملة بالطبع وانما الأغلب أن يكون بعض فضائله بالطبع وبعضها بالتطبع الجارى بالعادة مجرى الطبع حتى يصير ما تطبع به فى العادة أغلب عليه مما كان مطبوعا عليه اذا خالف العادة ولذلك قيل العادة طبع ثان * وقال ابن الرومى رحمه الله

واعلم بان الناس من طينة * يصدق فى الثلب لها الثالب
لولا علاج الناس أخلاقهم * اذا لفاح الحمأ اللازب

وأما الفاقة فهى أن يفتقر الانسان لوحشة انفراده ومهانة وحدته الى اصطفاء من يأنس بمؤاخاته ويثق بنصرته وموالاته * وقد قالت الحكماء من لم يرغب فى ثلاث بلى بست من لم يرغب فى الاخوان بلى بالعداوة والخذلان ومن لم يرغب فى السلامة بلى بالشدائد والامتهان ومن لم يرغب فى المعروف بلى بالندامة والخسران ولعمرى ان اخوان الصدق من أنفس الذخائر وأفضل العدد لانهم سهماء النفوس وأولياء النوائب * وقد قالت الحكماء رب صديق أود من شقيق وقيل لمعاوية أيما أحب اليك قال صديق يحببنى الى الناس * وقال ابن المعتز القريب بعداوته بعيد والبعيد بمودته قريب وقال الشاعر

لمودة ممن يحبك مخلصا * خير من الرحم القريب الكاشح

وقال

بالملك وانه أرفع طبقة من البشر ويخضعون له ويذلون غاية الذل ويعدون أنفسهم اشقياء بالاضافة اليه

والسبب فى ذلك هوانهم وان كانوا من أفن الرأى وسفاهته على ما ترى فان فيهم من تلك القوة الاخرى الكريمة المميزة وان كانت ضعيفة ما يريهم فضيلة ذوى الفضائل فيضطرون الى اكرامهم وتعظيمهم

قوى النفس الثلاث

واذا كانت القوى ثلاثا كما قلنا مرارا فأدونها النفس البهيمية وأوسطها النفس السبعية وأشرفها النفس الناطقة والانسان انما صار انسانا بأفضل هذه النفوس أعنى الناطقة وبها شارك الملائكة وبها باين البهائم فأشرف الناس من كان حظه من هذه النفس أكثر وانصرافه اليها أتم

وقال آخر

يخونك ذو القربى مرارا وربما * وفى لك عند العهد من لا تناسبه

فاذا عزم على اصطفاء الاخوان سبر أحوالهم قبل اخائهم وكشف عن أخلاقهم قبل اصطفائهم لما تقدم من قول الحكماء أسبر تخبر ولا تبعثه الوحدة على الاقدام قبل الخبرة ولا حسن الظن على الاغترار بالتصنع فان الملق مصائد العقول والنفاق تدليس الفطن وهما سجية المتصنع وليس فيمن يكون النفاق والملق بعض سجاياه خير يرجى ولا صلاح يؤمل ولاجل ذلك قالت الحكماء اعرف الرجل من فعله لا من كلامه واعرف محبته من عينه لا من لسانه * وقال خالد بن صفوان انما أنفقت على اخوانى لانى لم أستعمل معهم النفاق ولا قصرت بهم عن الاستحقاق وقال حماد عجرد

كم من أخ لك ليس تنكره * مادمت فى دنياك فى يسر
متصنع لك فى مودته * يلقاك بالترحيب والبشر
فاذا عدا والدهر ذو غير * دهر عليك عدا مع الدهر
فارفض باجمال مودة من * يقلى المقل ويعشق المثرى
وعليك من حالاه واحدة * فى العسر اما كنت واليسر

على أن الانسان موسوم بسيماء من قارب ومنسوب اليه أفاعيل من صاحب * قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب * وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الصاحب مناسب * وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ما من شئ أدل على شئ ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب * وقال بعض الحكماء اعرف أخاك بأخيه قبلك * وقال بعض الأدباء يظن بالمرء ما يظن بقرينه * وقال عدى بن زيد

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى
اذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم * ولا تصحب الاردى فتردى مع الردى

فلزم من هذا الوجه أيضا ان يتحرز من دخلاء السوء ويجانب أهل الريب ليكون موفور العرض سليم الغيب فلا يلام بملام مغيره وهذا قبل التثبت والارتياء ومداومة الاختبار والابتلاء متعذر بل مفقود وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالماء فيمن حسن ظاهره وخبث باطنه فقال

ألم تر أن الماء يخبث طعمه * وان كان لون الماء أبيض صافيا

ونظر بعض الحكماء الى رجل سوء حسن الوجه فقال أما البيت فحسن وأما الساكن فردىء فأخذ جحظة هذا المعنى فقال

رب ما أبين التباين فيه * منزل عامر وعقل خراب

وأنشد فى بعض أهل العلم

لا تركنن الى ذى منظر حسن * فرب رائقة قد ساء مخبرها
ما كل أصفر دينار لصفرته * صفر العقارب أرداها وأنكرها

ثم قد تقدم من قول الحكماء من لم يقدم الامتحان قبل الثقة والثقة قبل الانس أثمرت مودته ندما * وقال بعض البلغاء مصارمة قبل اختيار أفضل من مؤاخاة على اغترار

وأوفر ومن غلبت عليه احدى النفسين الاخريين انحط عن مرتبة الانسانية بحسب غلبة تلك النفس عليه فانظر رحمك الله أين تضع نفسك وأين تحب أن تنزل من المنازل التى رتبها الله تعالى للموجودات فان هذا أمر موكول اليك ومردود الى اختيارك فان شئت فانزل فى منازل البهائم فانك تكون منهم وان شئت فانزل فى منازل السباع وان شئت فانزل فى منازل الملائكة وكن منهم وفى كل واحدة من هذه المراتب مقامات كثيرة فان بعض البهائم أشرف من بعض وذلك لقبول التأديب لان الفرس انما شرف على الحمار لقبوله الأدب وكذلك فى البازى فضيلة على الغراب واذا تأملت الحيوان كله وجدت القابل للتأديب الذى هو أوثر

* وقال بعض الادباء لا تثق بالصديق قبل الخبرة ولا تقع بالعدو قبل القدرة * وقال بعض الشعراء

لا تحمدن امرأ حتى تجربه * ولا تذمنه من غير تجريب
فحمدك المرء ما لم تبله خطأ * وذمه بعد حمد شر تكذيب

واذا قد لزم من هذين الوجهين سبر الاخوان قبل اخائهم وخبرة أخلاقهم قبل اصطفائهم فالخصال المعتبرة فى اخائهم بعد المجانسة التى هى أصل الاتفاق أربع خصال

(فالخصلة الأولى) عقل موفور يهدى الى مراشد الامور فان الحمق لا تثبت معه مودة ولا تدوم لصاحبه استقامة * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال البذاء لؤم وصحبة الاحمق شؤم * وقال بعض الحكماء عداوة العاقل أقل ضررا من مودة الاحمق لان الاحمق ربما ضر وهو يقدر أن ينفع والعاقل لا يتجاوز الحد فى مضرته فمضرته لها حد يقف عليه العقل ومضرة الجاهل ليست بذات حد والمحدود أقل ضررا مما هو غير محدود * وقال المنصور للمسيب بن زهير ما مادة العقل فقال مجالسة العقلاء * وقال بعض البلغاء من الجهل صحبة ذوى الجهل ومن المحال مجادلة ذوى المحال * وقال بعض الادباء من أشار عليك باصطناع جاهل أو عاجز لم يخل أن يكون صديقا جاهلا أو عدوا عاقلا لانه يشير بما يضرك ويحتال فيما يضع منك * وقال بعض الشعراء

اذا ما كنت متخذا خليلا * فلا تثقن بكل أخى إخاء
فان خيرت بينهم فألصق * بأهل العقل منهم والحياء
فان العقل ليس له اذا ما * تفاضلت الفضائل من كفاء

(والخصلة الثانية) الدين الواقف بصاحبه على الخيرات فان تارك الدين عدو لنفسه فكيف يرجى منه مودة غيره * وقال بعض الحكماء اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب والرأى والادب فانه ردء لك عند حاجتك ويد عند نائبتك وأنس عند وحشتك وزين عند عافيتك * وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه

أخلاء الرخاء هم كثير * ولكن فى البلاء هم قليل
فلا يغررك خلة من تواخى * فما لك عند نائبة خليل
وكل أخ يقول أنا وفى * ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى خل له حسب ودين * فذاك لما يقول هو الفعول

﴿وقال آخر﴾

من لم يكن فى الله خلته * فخليله منه على خطر

(والخصلة الثالثة) أن يكون محمود الاخلاق مرضى الافعال مؤثرا للخير آمرا به كارها للشر ناهيا عنه فان مودة الشرير تكسب الاعداء وتفسد الاخلاق ولا خير فى مودة تجلب عداوة وتورث مذمة فان المتبوع تابع لصاحبه * وقال عبد الله بن المعتز اخوان الشر كشجر النار يحرق بعضها بعضا وقال بعض الحكماء مخالطة الاشرار على خطر والصبر على صحبتهم كركوب البحر الذى من سلم منه ببدنه من التلف فيه لم يسلم بقلبه من الحذر منه وقال

النطق أعنى النفس الناطقة أفضل من سائره وهو يتدرج فى ذلك الى أن يصير الى الحيوان الذى هو فى أفق الانسان أعنى الذى هو أكمل البهائم وهو فى أخس مرتبة الانسانية وذلك ان أخس الناس هو من كان قليل العقل قريبا من البهيمية وهم القوم الذين فى أقاصى الارض المعمورة وسكان آخر ناحية الجنوب والشمال لا ينفصلون عن القرود الا بشئ قليل من التمييز وبذلك القدر يستحقون اسم الانسانية ثم يتميزون ويتزايدون فى هذا المعنى حتى يبلغوا الى وسط الاقاليم ويعتدل فيهم المزاج القابل لصورة العقل فيصير فيهم العاقل التام والمميز العالم ثم يتفاضلون فى هذا المعنى أيضا الى أن يصيروا الى

بعض البلغاء صحبة الاشرار تورث سوء الظن بالاخيار . وقال بعض البلغاء من خير الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار صحبة الاشرار . وقال بعض الشعراء

مجالسة السفيه سفاه رأى * ومن عقل مجالسة الحكيم
فانك والقرين معا سواء * كما قد الاديم من الاديم

(والخصلة الرابعة) أن يكون من كل واحد منهما ميل الى صاحبه ورغبة في مؤاخاته فان ذلك أوكد لحال المؤاخاة وأمد لاسباب المصافاة اذ ليس كل مطلوب اليه طالب ولا كل مرغوب اليه راغب ومن طلب مودة ممتنع عليه ورغب الى زاهد فيه كان معنى خائبا كما قال البحتري وطلبت منك مودة لم أعطها * ان المعنى طالب لا يظفر

وقال العباس بن الاحنف

فان كان لا يدنيك الا شفاعة * فلا خير في ود يكون بشافع
وأقسم ما تركي عتابك عن قلى * ولكن لعلمي انه غير نافع
واني اذا لم ألزم الصبر طائعا * فلا بد منه مكرها غير طائع

فاذا استكملت هذه الخصال في انسان وجب اخاؤه وتعين اصطفاؤه وبحسب وفورها فيه يجب أن يكون الميل اليه والثقة به وبحسب ما يرى من غلبة احداها عليه يجعل مستعملا في الخلق الغالب عليه فان الاخوان على طبقات مختلفة وأنحاء متشعبة ولكل واحد منهم حال يختص بها في المشاركة وثلمة يسدها في الموازرة والمظافرة وليس تتفق أحوال جميعهم على حد واحد لان التباين في الناس غالب واختلافهم في الشيم ظاهر . وقال بعض الحكماء الرجال كالشجر شرابه واحد وثمره مختلف فأخذ هذا المعنى منصور بن اسمعيل فقال

بنو آدم كالنبت * ونبت الارض ألوان
فمنهم شجر الصند * ل والكافور والبان
ومنهم شجر أفضـ * ـل ما يحمل قطران

ومن رام اخوانا تتفق أحوال جميعهم رام متعذرا بل لو اتفقوا لكان ربما وقع به خلل في نظامه اذ ليس الواحد من الاخوان يمكن الاستعانة به في كل حال ولا المجبولون على الخلق الواحد يمكن أن يتصرفوا في جميع الاعمال وانما بالاختلاف يكون الائتلاف . وقد قال بعض الحكماء ليس بلبيب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بدا . وقال المأمون الاخوان ثلاث طبقات * طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه * وطبقة كالدواء يحتاج اليه أحيانا * وطبقة كالداء لا يحتاج اليه أبدا ولعمري ان الناس على ما وصف فهم لا الاخوان منهم وليس من كان منهم كالداء من الاخوان المعدودين بل هم من الاعداء المحذورين وانما يداجون المودة استكفافا لشرهم وتحرزا من مكاشفتهم فدخلوا في عداد الاخوان بالمظاهرة والمساترة وفي الاعداء عند المكاشفة والمهاجرة . قال بعض الحكماء مثل العدو الضاحك اليك كالحنظلة الخضراء أوراقها القاتل مذاقها . وقد قيل في منثور الحكم لا تغترن بمقاربة العدو فانه كالماء وان أطيل اسخانه بالنار لم يمنع من اطفائها . وقال يزيد بن الحكم الثقفي

غاية ما يمكن للانسان أن يبلغ اليه من قبول قوة العقل والنطق . فيصير حينئذ في الافق الذي بين الانسان والملك ويصير فيهم القابل للوحي والمطيق لحمل الحكمة فتفيض عليه قوة العقل ويسنح اليه نور الحق ولا حالة للانسان أعلى من هذه ما دام انسانا * ثم ارجع القهقرى الى النظر في الرتبة الناقصة التي هي أدون مراتب الانسان فانك تجد القوم الذين تضعف فيهم القوة الناطقة وهم القوم الذين ذكرنا انهم في أفق البهائم تقوى فيهم النفس البهيمية فيميلون الى شهواتها المأخوذة بالحواس كالمأكول والمشروب والملبوس وسائر النزوات الشبيهة بها وهؤلاء هم الذين تجذبهم الشهوات القوية بقوة نفوسهم البهيمية حتى يرتكبوها ولا يرتدعوا عنها . وبقدر ما يكون فيهم من القوة العاقلة يستحيون منها حتى يستتروا بالبيوت ويتواروا بالظلمات اذا هموا بلذة تخصهم . وهذا الحياء منهم هو الدليل على قبحها فان الجميل بالاطلاق هو

تكاشرني ضحكا كأنك ناصح * وعينك تبدي ان صدرك لي دوى
لسانك معسول ونفسك علقم * وشرك مبسوط وخيرك ملتوى
فليت كفافا كان خيرك كله * وشرك عني ما ارتوى الماء مرتوى

فاذا خرج من كان كالداء من عداد الاخوان فالاخوان هم الصنفان الآخران اللذان من كان منهم كالغذاء وكالدواء لان الغذاء قوام للنفس وحياتها والدواء علاجها وصلاحها وأفضلهما من كان كالغذاء لان الحاجة اليه أعم واذا تميز الاخوان وجب أن ينزل كل منهم حيث نزلت به أحواله اليه واستقرت خصاله وخلاله عليه فمن قويت أسبابه قويت الثقة به وبحسب الثقة به يكون الركون اليه والتعويل عليه * وقال الشاعر

ما أنت بالسبب الضعيف وانما * نجح الامور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا اليك وانما * يدعى الطبيب لشدة الاوصاب

وقد اختلفت مذاهب الناس في اتخاذ الاخوان فنهم من يرى أن الاستكثار منهم أولى ليكونوا أقوى منعة ويدا وأوفر تحببا وتوددا وأكثر تعاونا وتفقدا . وقيل لبعض الحكماء ما العيش قال اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان * وقيل حلية المرء كثرة اخوانه ومنهم من يرى أن الاقلال منهم أولى لانه أخف اثقالا وكلفا وأقل تنازعا وخلفا * وقال الاسكندر المستكثر من الاخوان من غير اختيار كالمستوقر من الحجارة * والمقل من الاخوان المتخير لهم كالذى يتخير الجوهر * وقال عمرو بن العاص من كثر اخوانه كثر غرماؤه * وقال ابراهيم بن العباس مثل الاخوان كالنار قليلها متاع وكثيرها بوار * ولقد أحسن ابن الرومى فى هذا المعنى ونبه على العلة حيث يقول

عدوك من صديقك مستفاد * فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير * يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات * وتلقى الرى فى النطف العذاب

وقال بعض البلغاء ليكن غرضك فى اتخاذ الاخوان واصطناع الاصحاب تكثير العدة لا تكثير العدد وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع فواحد يحصل به المراد خير من ألف تكثر الاعداد واذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الاخوة وأسباب المودة كان وفور العقل وظهور الفضل يقتضى من حال صاحبه قلة اخوانه لانه يروم مثله ويطلب شكله وأمثاله من ذوى العقل والفضل أقل من أضداده من ذوى الحمق والنقص لان الخيار فى كل شئ هو الاقل فلذلك قل وفور العقل والفضل * وقد قال الله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * فقل بهذا التعليل اخوان أهل الفضل لقلتهم وكثر اخوان ذوى النقص والجهل لكثرتهم * وقد قال فى ذلك الشاعر

لكل امرئ شكل من الناس مثله * فأكثرهم شكلا أقلهم عقلا
وكل اناس آلفون لشكلهم * فأكثرهم عقلا أقلهم شكلا
لان كثير العقل لست براجد * له فى طريق حين يسلكه مثلا

وكل

الذى يتظاهر به ويستحب اخراجه واذاعته * وهذا القبح ليس بشئ أكثر من النقصانات اللازمة للبشر وهي التي يشتاقون الى ازالتها * وأخسها هو أنقصها * وأنقصها أحوجها الى الستر والدفن ولو سألت القوم الذين يعظمون أمر اللذة ويجعلونها الخير المطلوب والغاية الانسانية لم تكتمون الوصول الى أعظم الخيرات عندكم * وما بالكم تعدون موافقتها خيرا ثم تسترونها أترون سترها وكتمانها فضيلة ومروءة وانسانية والمجاهرة بها واظهارها بين أهل الفضل وفى مجامع الناس خساسة وقحة لظهر من انقطاعهم وتبلدهم فى الجواب ما تعلم به سوء مذهبهم وخبث سيرتهم * وأقلهم حظا من الانسانية اذا رأى انسانا فاضلا احتشمه ووقره وأحب أن يكون مثله * الا الشاذ منهم الذى يبلغ من خساسة الطبع ونزارة الانسانية ووقاحة الوجه الى أن يقيم على نصرة ما هو عليه من غير محبة لرتبة من هو أفضل منه

﴿الواجب على العاقل﴾

فاذا يجب على العاقل أن

وكل سفيه طائش ان نقدته * وجدت له فى كل ناحية عدلا

واذا كان الامر على ما وصفنا فقد تنقسم أحوال من دخل فى عدد الاخوان أربعة أقسام منهم من يعين ويستعين ومنهم من لا يعين ولا يستعين ومنهم من يستعين ولا يعين ومنهم من يعين ولا يستعين فاما المعين والمستعين فهو معارض منصف يؤدى ما عليه ويستوفى ماله فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء وهو مشكور فى معونته ومعذور فى استعانته فهذا أعدل الاخوان وأما من لا يعين ولا يستعين فهو متروك قد منع خيره وقمع شره فهو لا صديق يرجى ولا عدو يخشى * وقد قال المغيرة بن شعبة رضى الله عنه التارك للاخوان متروك واذا كان كذلك فهو كالصورة الممثلة يروقك حسنها ويخونك نفعها فلا هو مذموم لقمع شره ولا هو مشكور لمنع خيره وان كان باللوم أجدر * وقد قال الشاعر

وأسوأ أيام الفتى يوم لا يرى * له أحد يزرى عليه وينكر

غير أن فساد الوقت وتغير أهله يوجب شكر من كان شره مقطوعا وان كان خيره ممنوعا كما قال المتنبى

انا لفى زمن ترك القبيح به * من أكثر الناس احسان واجمال

وأما من يستعين ولا يعين فهو لئيم كل ومعين مستذل قد قطع عنه الرغبة وبسط فيه الرهبة فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن وحسبك مهانة من رجل مستثقل عند اقلاله ويستقل عند استقلاله فليس لمثله فى الاخاء حظ ولا فى الوداد نصيب وهو ممن جعله المأمون من داء الاخوان لا من دوائهم ومن سمهم لا من غذائهم * وقال بعض الحكماء شر ما فى الكريم أن يمنعك خيره وخير ما فى اللئيم أن يكف عنك شره * وقال ابن الرومى

عذرنا النخل فى ابداء شوك * يرد به الانامل عن جناه
فما للعوسج الملعون أبدى * لنا شوكا بلا ثمر نراه

وأما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع وقد حاز فضيلتى الابتداء والاكتفاء فلا يرى ثقيلا فى نائبة ولا يقعد عن نهضة فى معونة فهذا أشرف الاخوان نفسا وأكرمهم طبعا فينبغى لمن أوجد له الزمان مثله وقل أن يكون له مثل لانه البر الكريم والدر اليتيم أن يثنى عليه خنصره ويعض عليه ناجذه ويكون به أشد ضنا منه بنفائس أمواله وسنى ذخائره لان نفع الاخوان عام ونفع المال خاص ومن كان أعم نفعا فهو بالادخار أحق وقال الفرزدق

يمضى أخوك فلا تلقى له خلفا * والمال بعد ذهاب المال مكتسب

وقال آخر

لكل شئ عدمته عوض * وما لفقد الصديق من عوض

ثم لا ينبغى أن يزهد فيه لخلق أو خلقين ينكرهما منه اذا رضى سائر أخلاقه وحمد أكثر شيمه لان اليسير مغفور والكمال معوز * وقد قال الكندى كيف تريد من صديقك خلقا واحدا وهو ذو طبائع أربع مع ان نفس الانسان التى هى أخص النفوس به ومدبرة باختياره

يعرف ما ابتلى به الانسان من هذه النقائص التى فى جسمه وحاجاته الضرورية الى ازالتها وتكميلها * اما بالغذاء الذى يحفظ به اعتدال مزاجه وقوام حياته فينال منه قدر الضرورة فى كماله . ولا يطلب اللذة لعينها بل قوام الحياة التى تتبعها اللذة فان تجاوز ذلك قليلا فبقدر ما يحفظ رتبته فى مروءته * ولا ينسب الى الدناءة والبخل بحسب حاله ومرتبته بين الناس وأما باللباس فالذى يدفع به أذى الحر والبرد ويستر العورة * فان تجاوز ذلك فبقدر ما لا يستحقر ولا ينسب الى الشح على نفسه والى أن يسقط بين أقرانه وأهل طبقته * وأما بالجماع فالذى يحفظ نوعه وتبقى به صورته أعنى طلب النسل فان تجاوز ذلك فبقدر ما لا يخرج به عن السنة ولا يتعدى ما ملكه الى ما ملك غيره ثم يلتمس الفضيلة فى نفسه العاقلة التى بها صار انسانا وينظر الى النقائص التى فى هذه النفس خاصة فيروم تكميلها بطاقته وجهده * فان هذه الخيرات هى التى لا تستر واذا وصل اليها لا يمنع عنها

وارادته لا تعطيه قيادها فى كل ما يريد ولا تجيبه الى طاعته فى كل ما يحب فكيف بنفس غيره وحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره * وقد قال أبو الدرداء رضى الله عنه معاتبة الأخ خير من فقده ومن لك بأخيك كله فأخذ الشعراء هذا المعنى فقال أبو العتاهية

أأخى من لك من بنى الدنيا بكل أخيك من لك
فاستبق بعضك لا يملك كل من أعطيت كلك

وقال أبو تمام الطائى

ما غبن المغبون مثل عقله * من لك يوما بأخيك كله

وقال بعض الحكماء طلب الانصاف من قلة الانصاف * وقال بعض البلغاء لا يزهدنك فى رجل حمدت سيرته وارتضيت وتيرته وعرفت فضله وبطنت عقله عيب يحيط به كثرة فضائله أو ذنب صغير تستغفر له قوة وسائله فانك لن تجد ما بقيت مهذبا لا يكون فيه عيب ولا يقع منه ذنب فاعتبر نفسك بعد أن لا تراها بعين الرضا ولا تجرى فيها على حكم الهوى فان فى اعتبارك واختبارك لها ما يؤيسك مما تطلب ويعطفك على من يذنب * وقد قال الشاعر

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها * كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقال النابغة الذبيانى

ولست بمستبق أخا لا تلمه * على شعث أى الرجال المهذب

وليس ينقض هذا القول ما وصفنا من اختياره واختبار الخصال الاربع فيه لان ما أعوز فيه معفو عنه وهذا لا ينبغى أن توحشك فترة تجدها منه ولا أن تسىء الظن فى كبوة تكون منه ما لم تحقق تغيره وتتيقن تنكره وليصرف ذلك الى فترات النفوس واستراحات الخواطر فان الانسان قد يتغير عن مراعاة نفسه التى هى أخص النفوس به ولا يكون ذلك من عداوة لها ولا ملل منها * وقد قيل فى منثور الحكم لا يفسدنك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له * وقال جعفر بن محمد لابنه يا بنى من غضب من اخوانك ثلاث مرات فلم يقل فيك سوأ فاتخذه لنفسك خلا * وقال الحسن بن وهب من حقوق المودة أخذ عفو الاخوان والاغضاء عن تقصير ان كان * وقد روى على رضى الله عنه فى قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قال الرضا بغير عتاب * وقال ابن الرومى

هم الناس والدنيا ولا بد من قذى * يلم بعين أو يكدر مشربا
ومن قلة الانصاف أنك تبتغى الـ * ـمهذب فى الدنيا ولست المهذبا

وقال بعض الشعراء

تواصلنا على الأيام باق * ولكن هجرنا مطر الربيع
يروعك صوبه لكن تراه * على علاته دانى النزوع
معاذ الله ان نلقى غضابا * سوى دل المطاع على المطيع

وانشدنى الازدى

لا يؤيسنك من صديق نبوة * ينبو الفتى وهو الجواد الخضرم
فاذا نبا فاستبقه وتأنه * حتى تفىء به وطبعك أكرم

الحياء ولا يتوارى عنها بالحيطان والظلمات ويتظاهر بها أبدا بين الناس وفى المحافل * وهى التى يكون بها بعض الناس أفضل من بعض وبعضهم أكثر انسانية من بعض وبغذو هذه النفس بغذائها الموافق لها المتمم انقصانها كما يغذو تلك بأغذيتها الملائمة لها * فان غذاء هذه هو العلم والزيادة فى المعقولات والارتياض بالصدق فى الآراء وقبول الحق حيث كان ومع من كان والنفور من الكذب والباطل كيف كان ومن أين جاء * فمن اتفق له فى الصبا أن يربى على أدب الشريعة ويؤخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعود ثم ينظر بعد ذلك فى كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الآداب والمحاسن فى نفسه بالبراهين * ثم ينظر فى الحساب والهندسة حتى يتعود صدق القول وصحة البرهان فلا يسكن الا اليها ثم يتدرج (كما رسمناه فى كتابنا المرسوم بترتيب السعادات ومنازل العلوم) حتى يبلغ الى أقصى مرتبة الانسان فهو السعيد الكامل

وأما الملول وهو السريع التغير الوشيك التنكر فوداده خطر وإخاؤه غرر لانه لا يبقى حالة ولا يخلو من استحالة * وقد قال ابن الرومي

اذا أنت عاتبت الملول فانما * تخط على صحف من الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن * مودته طبعا فصارت تكلفا

وهم نوعان منهم من يكون ملله استراحة ثم يعود الى المعهود من اخائه فهذا أسلم المللين وأقرب الرجلين يسامح في وقت استراحته وحين فترته ليرجع الى الحسنى ويؤوب الى الاخاء وان تقدم المثل بما نظمه الشاعر حيث قال

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما * عفت منه آثار وجفت مشارعه
فقلت الى أن يرجع الماء عائدا * ويعشب شطاه تموت ضفادعه

لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا يسقط حرمته بالظنون * وقال الشاعر

اذا ما حال عهد أخيك يوما * وحاد عن الطريق المستقيم
فلا تعجل بلومك واستدمه * فان أخا الحفاظ المستديم
فان تك زلة منه والا * فلا تبعد عن الخلق الكريم

ومنهم من يكون ملله تركا واطراحا ولا يراجع اخاء ولا ودا ولا يتذكر حفاظا ولا عهدا كما قال أشجع بن عمرو السلمي

انى رأيت لها مواصلة * كالسم تفرغه على الشهد
فاذا أخذت بعهد ذمتها * لعب الصدود بذلك العهد

وهذا أذم الرجلين حالا لان مودته من وساوس الخطرات وعوارض الشهوات وليس الاستدراك الحال معه بالاقلاع قبل المخالطة وحسن المتاركة بعد الورطة كما قال العباس ابن الاحنف

تداركت نفسي فعزيتها * وبغضتها فيك آمالها
وما طابت النفس عن سلوة * ولكن حملت عليها لها

وما مثل من هذه حاله الا كما قد قال ابراهيم بن هرمة

فانك واطراحك وصل سلمى * لاحرى في مودتها نكوب
كثاقبة لحلى مستعار * لاذنيها فشانهما الثقوب
فأدت حلى جارتها اليها * وقد بقيت باذنيها ندوب

واذا وصفت له أخلاق من سبره وتمهدت عليه أحوال من خبره وأقدم على اصطفائه أخا وعلى اتخاذه خدنا لزمته حينئذ حقوقه ووجبت عليه حرماته * وقال عمر بن مسعدة العبودية عبودية الاخاء لا عبودية الرق * وقال بعض الحكماء من جاد لك بمودته فقد جعلك عديل نفسه فأول حقوقه اعتقاد مودته ثم ايناسه بالانبساط اليه في غير محرم ثم نصحه في السر والعلانية ثم تخفيف الاثقال عنه ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة أو يناله من نكبة فان مراقبته في الظاهر نفاق وتركه في الشدة لؤم * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خير أصحابك المعين لك على دهرك وشرهم من سعى لك بسوق ٧ يومه وقيل يا رسول الله أي الاصحاب خير قال الذي اذا ذكرت أعانك وواساك وخير منه من اذا

فليكثر حمد الله تعالى على الموهبة العظيمة والمنة الجسيمة * ومن لم يتفق له ذلك في مبدأ نشوءه ثم ابتلى بأن يربيه والده على رواية الشعر الفاحش وقبول أكاذيبه واستحسان ما يوجد فيه من ذكر القبائح ونيل اللذات كما يوجد في شعر امرئ القيس والنابغة واشباههما * ثم صار بعد ذلك الى رؤساء يقربونه على روايتها وقول مثلها ويجزلون له العطية * وامتحن باقران يساعدونه على تناول اللذات الجسمانية * ومال طبعه الى الاستكثار من المطاعم والملابس والمراكب والزينة وارتباط الخيل الفره والعبيد الروقة (كما اتفق لي مثل ذلك في بعض الاوقات) ثم انهمك فيها واشتغل بها عن السعادة التي أهل لها فليعد جميع ذلك شقاء لا نعيما وخسرانا لا ربحا وليجتهد على التدريج الى فطام نفسه منها * وما أصعب ذلك الا أنه على كل حال خير من التمادي في الباطل * وليعلم الناظر في هذا الكتاب اني خاصة تدرجت الى فطام نفسي

(٧ كذا بالاصل)

نسيت ذكرك * وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه خير اخوانك من واساك وخير منه من كفاك وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول اللهم انى أعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودتى الا بموافقة شهواتى وممن ساعدنى على سرورى ساعتى ولا يفكر فى حوادث غدى * وقال بعض البلغاء عقود الغادر محلولة وعهوده مدخولة * وقال بعض البلغاء ماودك من أهمل ودك ولا أحبك من أبغض حبك * وقال بعض الشعراء

وكل أخ عند الهوينا ملاطف * ولكنما الاخوان عند الشدائد

وقال صالح بن عبد القدوس شر الاخوان من كانت مودته مع الزمان اذا أقبل فاذا أدبر الزمان أدبر عنك فأخذ هذا المعنى الشاعر فقال

شر الاخلاء من كانت مودته * مع الزمان اذا ما خاف أو رغبا
اذا وترت امرأ فاحذر عداوته * من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
ان العدو وان أبدى مسالمة * اذا رأى منك يوما فرصة وثبا

وينبغى أن يتوقى الافراط فى محبته فان الافراط داع الى التقصير ولأن تكون الحال بينهما نامية أولى من أن تكون متناهية * وقد روى ابن سيرين عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وابغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما * وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا * وقال أبو الاسود الدؤلى

وكن معدنا للخير واصفح عن الاذى * فانك راء ما عملت وسامع
وأحبب اذا أحببت حبا مقاربا * فانك لا تدرى متى أنت نازع
وأبغض اذا أبغضت غير مباين * فانك لا تدرى متى أنت راجع

وقال عدى بن زيد

لا تأمنن من مبغض قرب داره * ولا من محب أن يمل فيبعدا

وانما يلزم من حق الاخاء بذل المجهود فى النصح والتناهى فى رعاية ما بينهما من الحق فليس فى ذلك افراط وان تناهى ولا مجاوزة حد وان أكثر وأوفى فتستوى حالتاهما فى الغيب والمشهد ولأن يكون مغيبهما أفضل عن مشهدهما أولى فان فضل المشهد على المغيب لؤم وفضل المغيب على المشهد كرم واستواؤهما حفاظ * وقال بعض الشعراء

على لاخوانى رقيب من الصفا * تبيد الليالى وهو ليس يبيد
يذكرنيهم فى مغيبى ومشهدى * فسيان منهم غائب وشهيد
وانى لأستحيى أخى أن أبره * قريبا وأن أجفوه وهو بعيد

وهكذا يقصد التوسط فى زيارته وغشيانه غير مقلل ولا مكثر فان تقليل الزيارة داعية الهجران وكثرتها سبب الملال * وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لابى هريرة رضى الله عنه يا أبا هريرة زر غبا تزدد حبا * وقال لبيد

توقف عن زيارة كل يوم * اذا أكثرت ملك من تزور

﴿ وقال آخر ﴾

بعد الكبر واستحكام العادة وجاهدتها جهادا عظيما * ورضيت لك أيها الفاحص عن الفضائل والطالب للادب الحقيق بما رضيت لنفسى بل بل تجاوزت لك فى النصيحة الى أن أشرت عليك بما فاتنى فى ابتداء أمرى لتدركه أنت * ودللتك على طريق النجاة قبل أن تتيه فى مفاوز الضلالة وقدمت لك السفينة قبل أن تغرق فى بحر المهالك * فالله الله فى نفوسكم معاشر الاخوان والاولاد إستسلموا للحق وتأدبوا بالادب الحقيق لا المزور وخذوا الحكمة البالغة وانتهجوا الصراط المستقيم وتصوروا حالات أنفسكم وتذكروا قواها * واعلموا ان أصح مثل ضرب لكم من نفوسكم الثلاث التى مر ذكرها فى المقالة الاولى مثل ثلاثة حيوانات مختلفة جمعت فى مكان واحد ملك وسبع وخنزير * فأيها غلب بقوته قوة الباقين كان الحكم له * وليعلم من تصور هذا المثال ان النفس لما كانت جوهرا غير جسم ولا شئ فيها من قوى الجسم واعراضه كما بينا ذلك فى صدر هذا الكتاب كان اتحادها

أقلل زيارتك الصديق ولا تطل * هجرانه فيلج فى هجرانه
ان الصديق يلج فى غشيانه * لصديقه فيمل من غشيانه
حتى تراه بعد طول سروره * بمكانه متثاقلا بمكانه
واذا توانى عن صيانة نفسه * رجل تنقص واستخف بشانه

وبحسب ذلك فليكن فى عتابه فان كثرة العتاب سبب للقطيعة واطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بامر الصديق وقد قيل علة المعاداة قلة المبالاة بل تتوسط حالتا تركه وعتابه فيسامح بالمتاركة ويستصلح بالمعاتبة فان المسامحة والاستصلاح اذا اجتمعا لم يلبث معهما نفور ولم يبق معهما وجد * وقد قال بعض الحكماء لا تكثرن معاتبة اخوانك فيهون عليهم سخطك * وقال منصور النمرى

أقلل عتاب من استربت بوده * ليست تنال مودة بعتاب

﴿ وقال بشار بن برد ﴾

اذا كنت فى كل الأمور معاتبا * صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
وان أنت لم تشرب مرارا على القذى * ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه
فعش واحدا أوصل أخاك فانه * مقارف ذنب مرة ومجانبه

ثم من حق الاخوان أن تغفر هفوتهم وتستر زلتهم لان من رام برياً من الهفوات سليما من الزلات رام أمرا معوزا واقترح وصفا معجزا * وقد قالت الحكماء أى عالم لا يهفو وأى صارم لا ينبو وأى جواد لا يكبو وقالوا من حاول صديقا يأمن زلته ويدوم اغتباطه به كان كضال الطريق الذى لا يزداد لنفسه اتعابا الا ازداد من غايته بعدا وقيل لخالد بن صفوان أى اخوانك أحب اليك قال من غفر زللى وقطع عللى وبلغنى أملى * وقال بعض الشعراء ما كدت أفحص عن أخى ثقة * الا ندمت عواقب الفحص

وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه

أحب من الاخوان كل موانى * وكل غضيض الطرف عن عثراتى
يوافقنى فى كل أمر أريده * ويحفظنى حيا وبعد وفاتى
فمن لى بهذا ليت أنى أصبته * فقاسمته مالى من الحسنات
تصفحت اخوانى وكان أقلهم * على كثرة الاخوان أهل ثقاتى

(وأنشد ثعلب)

اذا أنت لم تستقبل الامر لم تجد * بكفيك فى إدباره متعلقا
اذا أنت لم تترك أخاك وزلة * اذا زلها أوشكتما أن تفرقا

وحكى الاصمعى عن بعض الاعراب انه قال تناس مساوى الاخوان يدوم لك ودهم * ووصى بعض الادباء أخا له فقال كن للود حافظا وان لم تجد محافظا وللخل واصلا وان لم تجد مواصلا وقال رجل من إياد ليزيد بن المهلب

اذا لم تجاوز عن أخ عند زلة * فلست غدا عن عثرتى متجاوزا
وكيف يرجيك البعيد لنفعه * اذا كان عن مولاك خيرك عاجزا

واتصالها بخلاف اتحاد الاجسام واتصال بعضها ببعض

﴿ النفوس الثلاث ﴾

وذلك ان هذه الانفس الثلاث اذا اتصلت صارت شيأ واحدا ومع انها تكون شيأ واحدا فهى باقية التغاير وباقية القوى تثور الواحدة بعد الواحدة حتى كانها لم تتصل بالاخرى ولم تتحد بها وتستجدى أيضا الواحدة للاخرى حتى كأنها موجودة ولا قوة لها تنفرد بها وذلك أن اتحادها ليس بان تتصل نهايتها ولا بان تتلاقى سطوحها كما يكون ذلك فى الاجسام بل تصير فى بعض الاحوال شيأ واحدا وفى بعض الاحوال أشياء مختلفة بحسب ما تهيج قوة بعضها أو تسكن ولذلك قال قوم ان النفس واحدة ولها قوى كثيرة وقال آخرون بل هى واحدة بالذات كثيرة بالعرض وبالموضوع وهذا شئ يخرج الكلام فيه عن غرض الكتاب وسيمر بك فى موضعه وليس يضرك فى هذا الوقت أن تعتقد أى هذه الآراء شئت بعد ان تعلم ان بعض هذه كريمة أديبة بالطبع وبعضها مهينة عادمة للادب بالطبع وليس

ظلمت أخا كلفته فوق وسعه * وهل كانت الاخلاق الاغرائزا

وقال أبو مسعود كاتب الرضى كنا فى مجلس الرضى فشكى رجل من أخيه فأنشد الرضى

اعذر أخاك على ذنوبه * واستر وغط على عيوبه
واصبر على بهت السفيه * وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا * وكل الظلوم الى حسيبه
واعلم بان الحلم عند * الغيظ أحسن من ركوبه

وحكى عن بنت عبد الله بن مطيع أنها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى وكان أجود قريش فى زمانه ما رأيت قوما ألأم من اخوانك قال مه ولم ذلك قالت أراهم اذا أيسرت لزموك واذا أعسرت تركوك قال هذا والله من كرمهم يأتوننا فى حال القوة بنا عليهم ويتركوننا فى حال الضعف بنا عنهم فانظر كيف تأول بكرمه هذا التأويل حتى جعل قبيح فعلهم حسنا وظاهر غدرهم وفاء وهذا محض الكرم ولباب الفضل وبمثل هذا يلزم ذوى الفضل أن يتأولوا الهفوات من اخوانهم * وقد قال بعض الشعراء

اذا ما بدت من صاحب لك زلة * فكن أنت محتالا لزلته عذرا
أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه * كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسط أذى * ولا مانع خيرا ولا قائل هجرا

والداعى الى هذا التأويل شيئان التغافل الحادث عن الفطنة والتألف الصادر عن الوفاء * وقال بعض الحكماء وجدت أكثر أمور الدنيا لا تجوز الا بالتغافل * وقال أكثم بن صيفى من شدد نفر ومن تراخى تألف والشرف فى التغافل * وقال شبيب بن شيبة الاريب العاقل هو الفطن المتغافل * وقال الطائى

ليس الغبى بسيد فى قومه * لكن سيد قومه المتغابى

وقال أبو العتاهية

ان فى صحة الاخاء من النا * س وفى خلة الوفاء لقله
فالبس الناس ما استطعت على النقـ * ـص والا لم تستقم لك خله
عش وحيدا ان كنت لا تقبل العذ * ر وان كنت لا تجاوز زله
من أب واحد وأم خلقنا * غير أنا فى المال أولاد عله

ومما يتبع هذا الفصل تألف الاعداء بما يثنيهم عن البغضاء ويعطفهم على المحبة وذلك قد يكون بصنوف من البر ويختلف بسبب اختلاف الاحوال فان ذلك من سمات الفضل وشروط السودد فانه ما أحد يعدم عدوا ولا يفقد حاسدا وبحسب قدر النعمة تكثر الاعداء والحسدة كما قال البحترى

ولن تستبين الدهر موقع نعمة * اذا أنت لم تدلل عليها بحاسد

فان أغفل تألف الاعداء مع وفور النعمة وظهور الحسدة توالى عليه من مكر حليمهم وبادرة سفيههم ما تصير به النعمة غراما والزعامة ملاما وروى بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس العقل بعد الايمان بالله تعالى التودد الى الناس *

فيها استعداد لقبول الادب وبعضها عادمة للادب الا أنها تقبل التأديب وتنقاد له فهى أدبية أما الكريمة الادبية بالطبع فالنفس الناطقة واما العادمة للادب وهى مع ذلك غير قابلة له فهى النفس البهيمية وأما التى عدمت الادب ولكنها تقبله وتنقاد له فهى النفس الغضبية وانما وهب الله تعالى لنا هذه النفس خاصة لنستعين بها على تقويم البهيمية التى لا تقبل الادب * وقد شبه القدماء الانسان وحاله فى هذه الانفس الثلاث بانسان راكب دابة قوية يقود كلبا أو فهدا للقنص فان كان الانسان من بينهم هو الذى يروض دابته وكلبه يصرفهما ويطيعانه فى سيره وتصيده وسائر تصرفاته فلا شك فى رغد العيش المشترك بين الثلاثة وحسن أحواله لان الانسان يكون مرفها فى مطالبه يجرى فرسه حيث يحب وكما يحب ويطلق كلبه أيضا كذلك فاذا نزل واستراح أراحهما معه وأحسن القيام عليهما فى المطعم والمشرب وكفاية الاعداء وغير ذلك من مصالحهما واذا

وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه لا تستكثر أن يكون لك ألف صديق فالالف قليل ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد فالواحد كثير فنظم ابن الرومي هذا المعنى فقال

فكثر من الاخوان ما استطعت انهم * بطون اذا استنجدتهم وظهور
وليس كثيرا ألف خل وصاحب * وان عدوا واحدا لكثير

وقيل لعبد الملك بن مروان ما أفدت في ملكك هذا قال مودة الرجال * وقال بعض الحكماء من علامة الاقبال اصطناع الرجال * وقال بعض البلغاء من استصلح عدوه زاد في عدده ومن استفسد صديقه نقص من عدده * وقال بعض الادباء العجب ممن يطرح عاقلا كافيا لما يضمره من عداوته ويصطنع عاجزا جاهلا لما يظهره من محبته وهو قادر على استصلاح من يعاديه بحسن صنائعه وأياديه وأنشد عبد الله بن الزبير ثلاثة أبيات جامعة لكل ما قالته العرب وهي للافوه واسمه صلة بن عمرو حيث يقول

بلوت الناس قرنا بعد قرن * فلم أر غير ختال وقال
وذقت مرارة الاشياء جمعا * فما طعم أمر من السؤال
ولم أر في الخطوب أشد هولا * وأصعب من معاداة الرجال

وقال القاضي التنوخي

الق العدو بوجه لا قطوب به * يكاد يقطر من ماء البشاشات
فاحزم الناس من يلقى أعاديه * في جسم حقد وثوب من مودات
الرفق يمن وخير القول أصدقه * وكثرة المزح مفتاح العداوات

وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

لما عفوت ولم أحقد على أحد * أرحت نفسي من هم العداوات
اني أحيي عدوي عند رؤيته * لادفع الشر عني بالتحيات
وأظهر البشر للانسان أبغضه * كأنما قد حشى قلبي محبات
الناس داء دواء الناس قربهم * وفي اعتزالهم قطع المودات

وليس وان كان يتألف الاعداء مأمورا والى مقاربتهم مندوبا ينبغي أن يكون لهم راكنا وبهم واثقا بل يكون منهم على حذر ومن مكرهم على تحرز فان العداوة اذا استحكمت في الطباع صارت طبعا لا يستحيل وجبلة لا تزول وانما يستكفى بالتألف اظهارها ويستدفع به اضرارها كالنار يستدفع بالماء احراقها ويستفاد به انضاجها وان كانت محرقة بطبع لا يزول وجوهر لا يتغير * وقال الشاعر

واذا عجزت عن العدو فداره * وامزح له ان المزاح وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدها * تعطي النضاج وطبعها الاحراق

﴿فصل﴾ وأما البر وهو الخامس من أسباب الالفة فلأنه يوصل الى القلوب ألطافا ويثنيها محبة وانعطافا ولذلك ندب الله تعالى الى التعاون به وقرنه بالتقوى له فقال وتعاونوا على البر والتقوى لان في التقوى رضا الله تعالى وفي البر رضا الناس ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد عمت سعادته وعمت نعمته * وروى الاعمش عن خيثمة عن ابن مسعود

كانت البهيمة هي الغالبة ساءت حال الثلاثة وكان الانسان مضعوفا عندهما فلم تطع فارسها وغلبت فان رأت عشبا من بعيد عدت نحوه وتعسفت في عدوها وعدلت عن الطريق النهج فاعترضتها الاودية والوهاد والشوك والشجر فتقحمتها وتورطت فيها ولحق فارسها ما يلحق مثله في هذه الاحوال فيصيبهم جميعا من أنواع المكاره والاشراف على الهلكة ما لا خفاء فيه وكذلك ان قوي الكلب لم يطع صاحبه فان رأى من بعيد صيدا أو ما يظنه صيدا أخذ نحوه فجذب الفارس وفرسه ولحق الجميع من الضرر والضر أضعاف ما ذكرناه * وفي تصور هذا المثل الذي ضربه القدماء تنبيه على حال هذه النفوس ودلالة على ما وهبه الله عز وجل للانسان ومكنه منه وعرضه له وما يضيعه بعصيان خالقه تعالى فيه عند اهمال السياسة واتباعه أمر هاتين القوتين وتعبده لهما وهما اللذان ينبغي أن يتعبدهما بتأمره عليهما فمن أسوأ حالا ممن أهمل سياسة الله عز وجل وضيع نعمته عليه وترك هذه القوى فيه هائجة مضطربة تتغالب وصار الرئيس منها مرؤسا والملك منها مستعبدا يتقلب معها في المهالك معها أيضا حتى تتمزق ويتمزق معها هو أيضا * نعوذ بالله من

الانعكاس فى الخلق الذى سببه طاعة الشيطان واتباع الابالسة فليست الاشارة بها الى غير هذه القوى التى وصفناها ووصفنا أحوالها * نسأل الله عصمته ومعونته على تهذيب هذه النفوس حتى تنتهى فيها الى طاعة الله التى هى نهاية مصالحنا وبها نجاتنا وخلاصنا الى الفوز الأكبر والنعيم السرمدى

﴿سياسة النفس العاقلة﴾

وقد شبه الحكماء من أهمل سياسة نفسه العاقلة وترك سلطان الشهوة يستولى عليها برجل معه ياقوتة حمراء شريفة لاقيمة لها من الذهب والفضة جلالة ونفاسة * وكان بين يديه نار تضطرم فرماها فى جاحمها حتى صارت كلسا لامنفعة فيها فخسر نفيس ضروب منافعها * فقد علمنا الآن ان النفس العاقلة اذا عرفت شرف نفسها وأحست بمرتبتها من الله عز وجل أحسنت خلافته فى تربية هذه القوى وسياستها ونهضت بالقوة التى أعطاها الله تعالى الى محلها من كرامة الله تعالى ومنزلتها من العلو والشرف ولم تخضع للسبعية ولا البهيمية . بل تقوم النفس الغضبية التى سميناها سبعية وتقودها الى الادب بحملها على حسن طاعتها ثم تستنهضها فى أوقات هيجان هذه النفس البهيمية وحركتها الى الشهوات حتى يقمع بهذه سلطان تلك وتستخدمها

قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جبلت القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها * وحكى أن الله تعالى أوحى الى داود على نبينا وعليه السلام ذكر عبادى احسانى اليهم ليحبونى فانهم لايحبون الا من أحسن اليهم وأنشدنى أبو الحسن الهاشمى

الناس كلهم عيال * لله تحت ظلاله
فأحبهم طرا اليه * أبرهم لعياله

والبر نوعان صلة ومعروف فأما الصلة فهى التبرع ببذل المال فى الجهات المحمودة لغير عوض مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منه شحها واباؤها قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * وروى محمد بن ابراهيم التيمى عن عروة بن الزبير عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال السخى قريب من الله عز وجل قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله عز وجل بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار . وقال صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم رفع الله عن أبيك العذاب الشديد لسخائه وبلغه صلى الله عليه وسلم عن الزبير امساك فجذب عمامته اليه وقال يازبير أنا رسول الله اليك والى غيرك يقول أنفق أنفق عليك ولا توك فأوك عليك * وروى أبو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن يوم غربت فيه شمسه الا وملكان يناديان اللهم أعط منفقا خلفا وممسكا تلفا وأنزل فى ذلك القرآن فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى * قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى من أعطى فيما أمر واتقى فيما حظر وصدق بالحسنى يعنى بالخلف من عطائه فنعم هذا قال ابن عباس رضى الله عنهما لسادات الناس فى الدنيا الاسخياء وفى الآخرة الاتقياء وقيل فى منثور الحكم الجود عن موجود وقيل فى المثل سودد بلا جود كملك بلا جنود وقال بعض الحكماء الجود حارس الاعراض * وقال بعض الادباء من جاد ساد ومن اضعف ازداد * وقال بعض الفصحاء جود الرجل يحببه الى اضداده وبخله يبغضه الى أولاده وقال بعض الفصحاء خير الاموال ما استرق حرا وخير الاعمال ما استحق شكرا وقال صالح بن عبد القدوس

ويظهر عيب المرء فى الناس بخله * ويستره عنهم جميعا سخاؤه
تغط بأثواب السخاء فاننى * أرى كل عيب فالسخاء غطاؤه

وحد السخاء بذل مايحتاج اليه عند الحاجة وأن يوصل الى مستحقه بقدر الطاقة وتدبر ذلك مستصعب ولعل بعض من يحب أن ينسب الى الكرم ينكر هذا السخاء ويجعل تقدير العطية فيه نوعا من البخل وان الجود بذل الموجود وهذا تكلف يفضى الى الجهل بحدود الفضائل ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف موضع ولا للتبذير موقع وقد ورد الكتاب بذمهما وجاءت السنة بالنهى عنهما واذا كان السخاء محدودا فمن وقف على حده سمى كريما وكان للحمد مستحقا ومن قصر عنه كان بخيلا وكان للذم مستوجبا * وقد قال الله تعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أقسم الله تعالى بعزته لايجاوره بخيل

وروى

فى تأديبها وتستعين بقوة هذه على تأبى تلك * وذلك ان هذه النفس الغضبية قابلة للادب قوية على قمع الاخرى كما
قلنا * وتلك النفس البهيمية عادمة للادب غير قابلة له * وأما النفس الناطقة أعنى العاقلة فهى كما قال أفلاطون بهذه الالفاظ * اما هذه فبمنزلة الذهب فى اللين والانعطاف * وأما تلك فبمنزلة الحديد فى الصلابة والامتناع * فان أنت آثرت الفعل الجميل فى وقت وجاذبتك القوة الاخرى الى اللذة والى خلاف ما آثرت فاستعن بقوة الغضب التى تثير وتهيج بالانفة والحمية واقهر بها النفس البهيمية * فان غلبتك مع ذلك ثم ندمت وانفت فانت فى طريق الصلاح فتمم عزمتك واحذر ان تعاودك بالطمع فيك والغلبة لك * فان لم تفعل ذلك ولم تكن العقبى فى الغلبة لك كنت كما قال الحكيم الاول * انى أرى أكثر الناس يدعون محبة الافعال الجميلة ثم لا يحتملون المؤنة فيها على علمهم بفضلها فيغلبهم الترفه ومحبة البطالة * فلا يكون بينهم وبين من لا يحب الافعال الجميلة فرق اذا لم يحتملوا مؤونة الصبر ويصبروا الى تعلم تمام ما آثروه وعرفوا فضله * واذكر مثل البئر التى تردى فيها الاعمى والبصير فيكونان
فى الهلكة سواء الا أن الاعمى أعذر * ومن وصل من هذه الآداب الى مرتبة يعتد بها واكتسب بها الفضائل التى عددناها فقد

و روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يقول الشحيح أعذر من الظالم فقال لعن الله الشحيح ولعن الظالم * وقال بعض الحكماء البخل جلباب المسكنة * وقال بعض الادباء البخيل ليس له خليل * وقال بعض البلغاء البخيل حارس نعمته وخازن ورثته * وقال بعض الشعراء

اذا كنت جماعا للمال ممسكا * فأنت عليه خازن وأمين
تؤديه مذموما الى غير حامد * فيأكله عفوا وأنت دفين

وتظاهر بعض ذوى النباهة بحب الثناء مع امساك فيه فقال بعض الشعراء

أراك تؤمل حسن الثناء * ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسود أخو بطنه * يمن كثيرا ويعطى قليلا

وقد بينا حب الثناء وحب المال لان الثناء يبعث على البذل وحب المال يمنع منه فان ظهرا كان حب الثناء كاذبا * وقد قال بعض الشعراء

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما * تيه الملوك وأخلاق المماليك
أردت شكرا بلا بر ولا صلة * لقد سلكت طريقا غير مسلوك
ظننت عرضك لم يقرع بقارعة * وما أراك على حال بمتروك
لئن سبقت الى مال حظيت به * فما سبقت الى شئ سوى النوك

وقد يحدث عن البخل من الاخلاق المذمومة وان كان ذريعة الى كل مذمة أربعة أخلاق ناهيك بها ذما وهى الحرص والشره وسوء الظن ومنع الحقوق فأما الحرص فهو شدة الكدح والاسراف فى الطلب وأما الشره فهو استقلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة وهذا فرق ما بين الحرص والشره * وقد روى العلاء بن جرير عن أبيه عن سالم بن مسروق قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يجزيه من العيش ما يكفيه لم يجد ما عاش ما يغنيه * وقال بعض الحكماء الشره من غرائز اللؤم وأما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل فان كان بالخالق كان شكا يؤول الى ضلال وان كان بالمخلوق كان استخانة يصير بها مختانا وخوانا لان ظن الانسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه فان وجد فيها خيرا ظنه فى غيره وان رأى فيها سوأ اعتقده فى الناس * وقد قيل فى المثل كل اناء ينضح بما فيه فان قيل قد تقدم من قول الحكماء ان الحزم سوء الظن قيل تأويله قلة الاسترسال اليهم لا اعتقاد السوء فيهم وأما منع الحقوق فان نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد الى ترك مطلوبها فلا تذعن لحق ولا تجيب الى انصاف واذا آل البخيل الى ما وصفنا من هذه الاخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير مرجو ولا صلاح مأمول * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال للانصار من سيدكم قالوا الجد بن قيس على بخل فيه فقال صلى الله عليه وسلم وأى داء أدوأ من البخل قالوا وكيف ذلك يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم ان قوما نزلوا بساحل البحر فكرهوا لبخلهم نزول الاضياف بهم فقالوا ليبعد الرجال منا عن النساء حتى يعتذر الرجال الى الاضياف ببعد النساء وتعتذر النساء ببعد الرجال ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء * وأما السرف والتبذير فان من زاد على حد السخاء فهو مسرف ومبذر وهو بالذم جدير * وقد قال الله تعالى ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين * وروى عن النبى

صلى الله عليه وسلم أنه قال ما عال من اقتصد * وقد قال المأمون رحمه الله لا خير في السرف ولا سرف في الخير * وقال بعض الحكماء صديق الرجل قصده وسرفه عدوه * وقال بعض البلغاء لا كثير مع اسراف ولا قليل مع احتراف واعلم أن السرف والتبذير قد يفترق معناهما فالسرف هو الجهل بمقادير الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم وذم التبذير أعظم لان المسرف يخطئ في الزيادة والمبذر يخطئ في الجهل ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بماله واخطأها فهو كمن جهلها بفعاله فتعداها وكأنه بتبذيره قد يضع الشيء في غير موضعه فهكذا قد يعدل به عن موضعه لان المال أقل من أن يوضع في كل موضع من حق وغير حق * وقد قال معاوية رضي الله عنه كل سرف فبازائه حق مضيع * وقال بعض الحكماء الخطأ في اعطاء ما لا ينبغي ومنع ما ينبغي واحد * وقال سفيان الثوري رضي الله عنه الحلال لا يحتمل السرف وليس يتم السخاء ببذل ما في يده حتى تسخو نفسه عما بيد غيره فلا يميل الى طلب ولا يكف عن بذل * وقد حكى ان الله تعالى أوحى الى ابراهيم الخليل على نبينا وعليه السلام أتدري لما اتخذتك خليلا قال لا يا رب قال لاني رأيتك تحب أن تعطي ولا تحب أن تأخذ * وروى سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال أتى رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله مرني بعمل يحبني الله عليه ويحبني الناس فقال ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس وقال أيوب السختياني لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان العفة عن أموال الناس والتجاوز عنهم وقيل لسفيان ما الزهد في الدنيا قال الزهد في الناس وكتب كسرى الى ابنه هرمز يا بني استقل الكثير مما تعطي واستكثر القليل مما تأخذ فان قرة عيون الكرام في الاعطاء وسرور اللئام في الاخذ ولا تعد الشحيح أمينا ولا الكذاب حرا فانه لا عفة مع الشح ولا مروءة مع الكذب * وقال بعض الحكماء السخاء سخاآن أشرفهما سخاؤك عما بيد غيرك * وقال بعض البلغاء السخاء أن تكون بمالك متبرعا وعن مال غيرك متورعا * وقال بعض الصلحاء الجود غاية الزهد والزهد غاية الجود * وقال بعض الشعراء

اذا لم تكن نفس الشريف شريفة * وان كان ذا قدر فليس له شرف

والبذل على وجهين أحدهما ما ابتدأ به الانسان من غير سؤال والثاني ما كان عن طلب وسؤال فاما المبتدأ به فهو أطيبهما سخاء وأشرفهما عطاء وسئل علي كرم الله وجهه عن السخاء فقال ما كان منه ابتداء فاما ما كان عن مسألة فحياء * وقال بعض الحكماء أجل النوال ما وصل قبل السؤال * وقال بعض الشعراء

وفتى خلا من ماله * ومن المروءة غير خال
أعطاك قبل سؤاله * وكفاك مكروه السؤال

وهذا النوع من البذل قد يكون لتسعة أسباب

فالسبب الاول أن يرى خلة يقدر على سدها وفاقة يتمكن من ازالتها فلا يدعه الكرم والتدين الا أن يكون زعيم صلاحها وكفيل نجاحها رغبة في الاجر ان تدين وفي الشكر ان تكرم وقال أبو العتاهية

وجب عليه تأديب غيره وافاضة ما أعطاه الله على أبناء جنسه

﴿فصل﴾ في تأديب الاحداث والصبيان خاصة نقلت أكثره من كتاب بروسن) قد قلنا فيما تقدم ان أول قوة تظهر في الانسان وأول ما تكون هي القوة التي يشتاق بها الى الغذاء الذي هو سبب كونه حيا فيتحرك بالطبع الى اللبن يلتمسه من الثدي الذي هو معدنه من غير تعليم ولا توقيف أو يحدث له مع ذلك قوة على التماسه بالصوت الذي هو مادته ودليله الذي يدل به على اللذة والاذى * ثم تتزايد فيه هذه القوة ويتشوق بها أبدا الى الازدياد والتصرف بها في أنواع الشهوات * ثم تحدث فيه قوة على التحرك نحوها بالآلات التي تخلق له الشوق الى الافعال التي تحصل له هذه * ثم يحدث له من الحواس قوة على تخيل الامور ويرتسم في قوته الخيالية مثالات فيتشوق اليها ثم تظهر فيه قوة الغضب التي يشتاق بها الى دفع ما يؤذيه ومقاومة ما يمنعه من منافعه فان أطاق بنفسه ان ينتقم من موذياته انتقم منها والا التمس معونة غيره وانتصر بوالديه بالتصويت والبكاء ثم يحدث له الشوق الى تمييز الافعال الانسانية خاصة أولا أولا حتى يصير الى كماله في هذا التمييز فيسمى حينئذ عاقلا * وهذه القوى كثيرة وبعضها ضروري في وجود الاخرى الى أن ينتهي الى الغاية الاخيرة * وهي التي لا تراد ما

ما الناس الا آلة معتملة * للخير والشر جميعا فعله

والسبب الثانى أن يرى فى ماله فضلا عن حاجته وفى يده زيادة عن كفايته فيرى انتهاز الفرصة بها فيضعها حيث تكون له ذخرا معدا وغنما مستجدا * وقد قال الحسن البصرى رحمه الله ما أنصفك من كافك اجلاله ومنعك ماله وقيل لهند بنت الحسن من أعظم الناس فى عينك قالت من كان لى اليه حاجة * وقال الشاعر

وما ضاع مال ورث الحمد أهله * ولكن أموال البخيل تضيع

والسبب الثالث أن يكون لتعريض يتنبه عليه لفطنته واشارة يستدل عليها بكرمه فلا يدعه الكرم أن يغفل ولا الحياء أن يكف * وقد حكى أن رجلاساير بعض الولاة فقال ما أهزل برزونك فقال يده مع أيدينا فوصله اكتفاء بهذا التعريض الذى بلغ ما لا يبلغه صريح السؤال ولذلك قال أكثم بن صيفى السخاء حسن الفطنة واللؤم سوء التغافل * وحكى أن عبيد الله بن سليمان لما تقلد وزارة المعتضد كتب اليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

أبى دهرنا اسعافنا فى نفوسنا * وأسعفنا فيمن نحب ونكرم

فقلت له نعماك فيهم أتمها * ودع أمرنا ان المهم مقدم

فقال عبيد الله ما أحسن ما شكا أمره بين أضعاف مدحه وقضى حاجته * وقال بعض الشعراء

ومن لا يرى من نفسه مذكرا لها * رأى طلب المستجدين ثقيلا

والسبب الرابع أن يكون ذلك رعاية ليد أو جزاء على صنيعة فيرى تأدية الحق عليه طوعا اما أنفة واما شكرا ليكون من أسر الامتنان طليقا ومن رق الاحسان وعبوديته عتيقا قال بعض الحكماء الاحسان رق والمكافأة عتق * وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى

وليست أيادى الناس عندى غنيمة * ورب يد عندى أشد من الاسر

والسبب الخامس أن يؤثر الاذعان بتقدمه والاقرار بتعظيمه توطيدا لرئاسة هو لها محب وعلى طلبها مكب * وقد قال الشاعر

حب الرئاسة داء لا دواء له * وقل ما تجد الراضين بالقسم

فتستصعب عليه اجابة النفوس له طوعا الا بالاستعطاف واذعانها الا بالرغبة والاسعاف وقد قال بعض الادباء بالاحسان يرتبط الانسان وقال بعض البلغاء من بذل ماله أدرك آماله وقال بعض الشعراء

أترجو أن تسود بلا عناء * وكيف يسود ذو الدعة البخيل

والسبب السادس أن يدفع به سطوة أعدائه ويستكف به نفار خصمائه ليصير واله بعد الخصومة أعوانا وبعد العداوة اخوانا اما الصيانة عرض واما الحراسة مجد * وقد قال أبو تمام الطائى

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد * ولا المجد فى كف امرئ والدراهم

ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه * مغارم فى الاقوام وهى مغانم

وقال بعض الادباء من عظمت مرافقه أعظمه مرافقه

لغاية أخرى وهو الخير المطلق الذى يتشوقه الانسان من حيث هو انسان فأول ما يحدث فيه من هذه القوة الحياء وهو الخوف من ظهور شئ قبيح منه * ولذلك قلنا ان أول ما ينبغى أن يتفرس فى الصبى ويستدل به على عقله الحياء فانه يدل على أنه قد أحس بالقبيح ومع احساسه به هو يحذره ويتجنبه ويخاف أن يظهر منه أو فيه فاذا نظرت الى الصبى فوجدته مستحيا مطرقا بطرفه الى الارض غير وقاح الوجه ولا محدق اليك فهو أول دليل نجابته والشاهد لك على أن نفسه قد احست بالجميل والقبيح وان حياءه هو انحصار نفسه خوفا من قبيح يظهر منه وهذا ليس بشئ أكثر من ايثار الجميل والهرب من القبيح بالتمييز والعقل وهذه النفس مستعدة للتأديب صالحة للعناية لا يجب أن تهمل ولا تترك ومخالطة الاضداد الذين يفسدون بالمقارنة والمداخلة وان كانت بهذه الحال من الاستعداد لقبول الفضيلة فان نفس الصبى ساذجة لم تنتقش بعد بصورة وليس لها رأى ولا عزيمة تميلها من شئ الى شئ فاذا انتقشت بصورة وقبلتها انشأ عليها واعتادها فالاولى بمثل هذه النفس ان تنبه ابدا على حب الكرامة ولا سيما ما يحصل له منه بالدين دون المال وبلوازمه وسننه ووظائفه ثم يمدح الاخيار عنده ويمدح هو فى نفسه اذا ظهر شئ جميل منه ويخوف من المذمة على أدنى

والسبب السابع أن يرب به سالف صنيعة أولاها ويراعي به قديم نعمة أسداها كيلا ينسى ما أولاه ويضاع ما أسداه فان منقطوع البر ضائع ومهمل الاحسان ضال * وقد قال الشاعر

وسمت امرأ بالبر ثم اطرحته * ومن أفضل الاشياء رب الصنائع

وقال محمد بن داود الاصبهاني

بدأت بنعمى أوجبت لى حرمة * عليك فعد بالفضل فالعود أحمد

والسبب الثامن المحبة يؤثر بها المحبوب على ماله فلا يضن عليه بمرغوب ولا ينفس عليه بمطلوب للذة التى هى عنده أحظى والى نفسه أشهى لان النفس الى محبوبها أشوق والى ما يليه أسبق * وقد قال الشاعر

فما زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى * الى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل

وهذا وان دخل فى أقسام العطاء خارج عن حد السخاء وهكذا الخامس والسادس من هذه الاسباب وانما ذكرناها لدخولها تحت أقسام العطاء

والسبب التاسع وليس بسبب أن يفعل ذلك لغير ما سبب وانما هى سجية قد فطر عليها وشيمة قد طبع بها فلا يميز بين مستحق ومحروم ولا يفرق بين محمود ومذموم كما قال بشار

ليس يعطيك للرجاء ولا الـ * ـخوف لكن يلذ طعم العطاء

وقد اختلف الناس فى مثل هذا هل يكون منسوبا الى السخاء فيحمد أو خارجا عنه فيذم وقال قوم هذا هو السخى طبعا والجواد كرما وهو أحق من كان به ممدوحا واليه منسوبا وقال أبو تمام

من غير ما سبب يدنى كفى سببا * للحر أن يجتدى حرا بلا سبب

وقال الحسن بن سهل اذا لم أعط الا مستحقا فكأنى أعطيت غريما وقال الشرف فى السرف فقيل له لا خير فى السرف فقال ولا سرف فى الخير * وقال الفضل بن سهل العجب لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه * وقال بشار

وما الناس الا صاحباك فمنهم * سخى ومغلول اليدين من البخل

فسامح بدا ما أمكنتك فانها * تقل وتثرى والعواذل فى شغل

وقال آخرون هذا خارج من السخاء المحمود الى السرف والتبذير المذموم لان العطاء اذا كان لغير سبب كان المنع لغير سبب لان المال يقل عن الحقوق ويقصر عن الواجبات فاذا أعطى غير المستحق فقد منع مستحقا وما يناله من الذم بمنع المستحق أكثر مما يناله من الحمد لاعطاء غير المستحق وحسبك ذما بمن كانت أفعاله تصدر عن غير تمييز وتوجد لغير علة وقد قال الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا فنهى عن بسطها سرفا كما نهى عن قبضها بخلا فدل على استواء الامرين ذما وعلى اتفاقهما لوما * وقال الشاعر

وكان المال يأتينا فكنا * نبذره وليس لنا عقول

فلما أن تولى المال عنا * عقلنا حين ليس لنا فضول

قبح يظهر منه ويؤاخذ باشتهائه للمآكل والمشارب والملابس الفاخرة ويزين عنده خلق النفس والترفع عن الحرص فى المآكل خاصة وفى اللذات عامة * ويحبب اليه إيثار غيره على نفسه بالغذاء والاقتصار على الشئ المعتدل والاقتصاد فى التماسه

(الملابس)

ويعلم ان أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللاتى يتزين للرجال ثم العبيد والخول وان الاحسن باهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه حتى يتربى على ذلك ويسمعه من كل من يقرب منه ويتكرر عليه ولم يترك ومخالطة من يسمع منه ضد ماذكرته لاسيما من اترابه ومن كان فى مثل سنه ممن يعاشره ويلاعبه وذلك أن الصبي فى ابتداء نشوه يكون على الاكثر قبيح الافعال إما كلها وإما أكثرها فانه يكون كذوبا ويخبر ويحكى مالم يسمعه ولم يره ويكون حسودا سروقا نماما لجوجا ذا فضول أضر شئ بنفسه وبكل أمر يلابسه ثم لا تزال به التأديب والسنن والتجارب حتى ينتقل فى أحوال بعد أحوال فلذلك ينبغى أن يؤخذ ما دام طفلا بما ذكرناه ونذكره ثم يطالب بحفظ محاسن الاخبار والاشعار التى تجرى مجرى ما تعوده بالادب حتى يتأكد عنده بروايتها وحفظها والمذاكرة قالوا

قالوا ولان العطاء والمنع اذا كانا لغير علة أفضيا الى ذم الممنوع وقلة شكر المعط أما الممنوع فلانه قد فضل عليه من سواه وأما المعطى فانه وجد ذلك اتفاقا وربما أمل بالاتفاق اضعافا فصار ذلك مفضيا الى اجتلاب الذم واحباط الشكر وليس فيما أفضى الى واحد منهما خير يرجى وهو جدير أن يكون شرا يتقى ولمثل هذا كان منع الجميع ارضاء للجميع وعطاء يكون المنع أرضى منه خسران مبين فاما اذا كان البذل والعطاء عن سؤال فشروطه معتبرة من وجهين أحدهما في السائل والثانى في المسؤل فأما ما كان معتبرا في السائل فثلاثة شروط الشرط الاول أن يكون السؤال لسبب والطلب لموجب فان كان لضرورة ارتفع عنه الحرج وسقط عنه اللوم * وقد قال بعض الحكماء الضرورة توقح الصورة * وقال بعض الشعراء

ألا قبح الله الضرورة انها * تكلف أعلى الخلق أدنى الخلائق

ولله در الاتساع فانه * يبين فضل السبق من غير سابق

وقال الكميت اذا لم تكن الا الاسنة مركبا * فلا رأي للمضطر الا ركوبها

فان ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو أولى الامرين أن يكون وان جاز أن لا يكون فالنفس المسامحة تغلب الحاجة وتدمع في الطلب وتراعى ما استقام به الامر وان ناله ذل ولحقه وهن فيتأول صاحبها قول البحترى

وربما كان مكروه الامور الى * محبوبها سببا ما مثله سبب

والنفس الشريفة تطلب الصيانة وتراعى النزاهة وتحتمل من الضر ما احتملت ومن الشدة ما أطاقت فيبقى تحملها ويدوم تصونها فتكون كما قال الشاعر

قد يكتسى المرء خز الثياب * ومن دونها حالة مضنيه

كما يكتسى خده حمرة * وعلته ورم في الرئه

فلا يرى أن يتدنس بمطالب الشؤم ومطامع اللؤم فان البهائم الوحشية تأبى ذلك وتأنف منه قال الشاعر

وليس الليث من جوع بغاد * على جيف تطيف بها الكلاب

فكيف بالانسان الفاضل الذى هو أكرم الحيوان جنسا وأشرفه نفسا هل يحسن به أن يرى لوحش البهائم عليه فضلا * وقد قال الشاعر

على كل حال يأكل المرء زاده * على البؤس والضراء والحدثان

والفضل في مثل ما قيل لبعض الزهاد لو سألت جارك أعطاك فقال والله ما أسأل الدنيا من يملكها فكيف بمن لا يملكها ووصف بعض الشعراء قوما فقال

اذا افتقروا أغضوا على الفقر حسبة * وان أيسروا عادوا سراعا الى الفقر

فأما من يسأل من غير ضرورة مست ولا حاجة دعت فذلك صريح اللؤم ومحض الدناءة وقلما تجد مثله محظوظا أو ممولا محظوظا لان الحرمان قاده الى أضيق الارزاق واللؤم ساقه الى أخبث المطاعم فلم يبق لوجهه ماء الا أراقه ولا ذل الا ذاقه كما قال عبد الصمد بن المعذل لابى تمام الطائى

بها جميع ما قدمناه ويحذر النظر في الاشعار السخيفة وما فيها من ذكر العشق وأهله وما يوهمه أصحابها أنه ضرب من الظرف ورقة الطبع * فان هذا الباب مفسدة للاحداث جدا * ثم يمدح بكل ما يظهر منه من خلق جميل وفعل حسن ويكرم عليه فان خالف في بعض الاوقات ما ذكرته فالاولى أن لا يوبخ عليه ولا يكاشف بانه أقدم عليه بل يتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله انه قد تجاسر على مثله ولا هم به لاسيما ان ستره الصبي واجتهد في أن يخفي ما فعله عن الناس فان عاد فليوبخ عليه سرا وليعظم عنده ما أتاه * ويحذر من معاودته فانك ان عودته التوبيخ والمكاشفة حملته على الوقاحة وحرضته على معاودة ما كان استقبحه وهان عليه سماع الملامة في ركوب قبائح اللذات التي تدعو اليها نفسه وهذه اللذات كثيرة جدا

﴿ آداب المطاعم ﴾

والذى ينبغى أن يبدأ به في تقويمها آداب المطاعم فيفهم أولا انها انما تراد للصحة لا للذة * وان الاغذية كلها انما خلقت وأعدت لنا لتصح بها أبداننا وتصير مادة حياتنا فهى تجرى مجرى الادوية ليتداوى بها الجوع والالم الحادث منه * فكما أن الدواء لا يرام للذة ولا يستكثر منه للشهوة فكذلك الاطعمة لا ينبغى أن يتناول منها الا ما يحفظ صحة البدن ويدفع ألم

أنت بين اثنتين تبرز للنا * س وكلتاهما بوجه مذال
لست تنفك طالبا لوصال * من حبيب أو طالبا لنوال
أى ماء لحر وجهك يبقى * بين ذل الهوى وذل السؤال

ولو استقبح العار وأنف من الذل لوجد غير السؤال مكتسبا يعونه ولقدر على ما يصونه * وقد قال الشاعر

لا تطلبن معيشة بتذلل * فليأتينك رزقك المقدور
واعلم بانك آخذ كل الذى * لك فى الكتاب مقدر مسطور

والشرط الثانى من شروط السؤال ان يضيق الزمان عن ارجائه ويقصر الوقت عن ابطائه فلا يجد لنفسه فى التأخير فسحة ولا فى التمادى مهلة فيصير من المعذورين ورد اخلافى عداد المضطرين فأما اذا كان الوقت متسعا والزمان ممتدا فتعجيل السؤال لؤم وقنوط * وقال الشاعر

أبى لى إغضاء الجفون على القذى * يقينى أن لا عسر الا مفرج
ألا ربما ضاق القضاء بأهله * وأمكن من بين الاسنة مخرج

والشرط الثالث اختيار المسؤل أن يكون مرجو الاجابة مأمول النجح اما لحرمة السائل أو كرم المسؤل فان سأل لئيما لا يرعى حرمة ولا يولى مكرمة فهو فى اختياره ملوم وفى سؤاله محروم * وقد قال بعض البلغاء المخذول من كانت له الى اللئام حاجة * وقد قال بعض البلغاء أذل من اللئيم سائله * وأقل من البخيل نائله وقال بعض الشعراء

من كان يأمل أن يرى * من ساقط نيلا سنيا
فلقد رجى أن يجتنى * من عوسج رطبا جنيا

وأما الشروط المعتبرة فى المسؤل فثلاثة

الشرط الاول ان يكتفى بالتعريض ولا يلجئ الى السؤال الصريح ليصون السائل عن ذل الطلب فان الحال ناطقة والتعريض كاف * وقد قال الشاعر

أقول وستر الدجى مسبل * كما قال حين شكى الضفدع
كلامى ان قلته ضائع * وفى الصمت حتفى فما أصنع

وربما فهم المسؤل بالاشارة فالجأ الى التصريح بالعبارة تهجينا للسائل فيخجل ويستحى فيكف كما قال أبو تمام

من كان مفقودا لحياء فوجهه * من غير بواب له بواب

والشرط الثانى أن يلقى بالبشر والترحيب ويقابل بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورا ان أعطى ومعذورا ان منع * وقد قال بعض الحكماء الق صاحب الحاجة بالبشر فان عدمت شكره لم تعدم عذره * وقال ابن المدك ان أبا بكر بن دريد قصد بعض الوزراء فى حاجة فلم يقضها له وظهر له منه ضجر فقال

لا تدخلنك ضجرة من سائل * فلخير دهرك أن ترى مسؤلا

الجوع ويمنع من المرض فيحقر عنده قدر الطعام الذى يستعظمه أهل الشره ويقع عنده صورة من شره البهم ينال منه فوق حاجة بدنه او ما لا يوافقه حتى يقتصر على لون واحد * ولا يرغب فى الالوان الكثيرة واذا جلس مع غيره لا يبادر الى الطعام ولا يديم النظر الى ألوانه ولا يحدق اليه شديدا ويقتصر على ما يليه ولا يسرع فى الاكل ولا يوالى بين اللقم بسرعة ولا يعظم اللقمة ولا يبتلعها حتى يجيد مضغها ولا يلطخ يده ولا ثوبه ولا يلحظ من يواكله ولا يتبع بنظره مواقع يده من الطعام ويعود أن يؤثر غيره بما يليه ان كان أفضل ما عنده ثم يضبط شهوته حتى يقتصر على أدنى الطعام وادونه ويأكل الخبز القفار الذى لا ادم معه فى بعض الاوقات وهذه الآداب وان كانت جميلة بالفقراء فهى بالاغنياء أفضل وأجمل وينبغى أن يستوفى غذاءه بالعشى فان استوفاه بالنهار كسل واحتاج الى النوم وتبلد فهمه مع ذلك وان منع اللحم فى أكثر اوقاته كان أنفع له وقعا فى الحركة والتيقظ وقلة البلادة وبعثه على النشاط والخفة * وأما الحلواء والفاكهة فينبغى أن يمتنع منها البتة ان امكن والا فليتناول أقل ما يمكن فانها تستحيل فى بدنه فتكثر انحلاله وتعوده مع ذلك على الشره ومحبة الاستكثار من المآكل ويعودان لا يشرب فى خلال طعامه الماء فاما النبيذ وأصناف

لا تحجبن ببارد وجه مؤمل * فبقاء عزك أن ترى مأمولا
تلقى الكريم فتستدل ببشره * وترى العبوس على اللئيم دليلا
واعلم بأنك عن قليل صائر * خبرا فكن خبرا يروق جميلا

والشرط الثالث تصديق الأمل وتحقيق الظن به ثم اعتبار حاله وحال سائله فانها لا تخلو من أربع أحوال فالحال الاولى أن يكون السائل مستوجبا والمسؤل متمكنا فالاجابة ههنا تستحق كرما وتستلزم مروءة وليس للرد سبيل الا لمن استولى عليه البخل وهان عليه الذم فيكون كما قال عبد الرحمن بن حسان

انى رأيت من المكارم حسبكم * أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
فاذا تذوكرت المكارم مرة * فى مجلس أنتم به فتقنعوا

فنعوذ بالله ممن حرم ثروة ماله ومنع حسن حاله أن يكون مستودعا فى صنيع مشكور وبر مذخور وقد قيل لبخيل لم حبست مالك قال للنوائب فقيل له قد نزلت بك * وقال بعض الشعراء

مالك من مالك الا الذى * قدمت فابذل طائعا مالكا
تقول أعمالى ولوفتشوا * رأيت أعمالك أعمى لكا

وقد أسقط حق نفسه ورفع أسباب شكره فصار بان لاحق له مذموما كمشكور ومأثوما كمأجور * وقال أبو العتاهية

خزن البخيل على صالحه * اذ لم يثقل بره ظهرى
مافاتنى خير امرئ وضعت * عنى يداه مؤنة الشكر

فاذا لم يكن للرد فى مثل هذه الحال سبيل نظر فان كان التأخير مضرا عجل بذله وقطع مطله وكانت اجابته فعلا وقوله عملا * وقد قالت الحكماء من مروءة المطلوب منه أن لا يلجئ الى الحاح عليه * وقال محمد بن حازم

ومنتظر سؤالك بالعطايا * وأشرف من عطاياه السؤال
اذا لم يأتك المعروف طوعا * فدعه فالتنزه عنه مال

وان كان فى الوقت مهلة وفى التأخير فسحة فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه فذهب بعضهم الى أن الاولى تعجيل الوعد قولا ثم يعقبه الانجاز فعلا ليكون السائل مسرورا بتعجيل الوعد ثم بأجل الانجاز ويكون المسؤل موصوفا بالكرم محفوظا بالوفاء * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال العدة عطية * وقال الفضل بن سهل لرجل سأله حاجة أعدك اليوم وأحبوك غدا بالانجاز لتذوق حلاوة الامل وأتزين بثوب الوفاء و وعد يحيى بن خالد رجلا بحاجة سأله اياها فقيل له تعدو أنت قادر فقال ان الحاجة اذا لم يتقدمها وعد ينتظر صاحبه نجحها لم يجد سرورها الان الوعد طعم والانجاز طعام وليس من فاجأه الطعام كمن يجد ريحه ويطعمه فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع اليه * وقال بعض البلغاء اذا أحسنت القول فأحسن الفعل ليجتمع لك ثمرة اللسان وثمرة الاحسان ولا تقل مالا تفعل فانك لا تخلو فى ذلك من ذنب تكسبه أو عجز تلتزمه ومنهم من ذهب الى أن تعجيل

الاشربة المسكرة فاياه واياها فانها تضره فى بدنه ونفسه وتحمله على سرعة الغضب والتهور والاقدام على الشنائع والقحة وسائر الخلال المذمومة

﴿ آداب متنوعة ﴾

ولا ينبغى أن يحضر مجالس أهل الشراب الا أن يكون أهل المجلس أدباء فضلاء وأما غيرهم فلا لئلا يسمع الكلام القبيح والسخافات التى تجرى فيه * وينبغى أن لا يأكل حتى يفرغ من وظائف الادب التى يتعلمها ويتعب تعبا كافيا وينبغى أن يمنع من كل فعل يستره ويخفيه * فانه ليس يخفى شيأ الا وهو يظن أو يعلم أنه قبيح * ويمنع من النوم الكثير فانه يقبحه ويغلظ ذهنه ويميت خاطره * هذا بالليل فأما بالنهار فلا ينبغى أن يتعوده ألبتة * ويمنع أيضا من الفراش الوطىء وجميع أنواع الترفه حتى يصلب بدنه ويتعود الخشونة ولا يتعود الخيش والاسراب فى الصيف ولا الاوبار والنيران فى الشتاء للاسباب التى ذكرناها * ويعود المشى والحركة والركوب والرياضة حتى لا يتعود اضدادها * ويعود أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع فى المشى ولا يرخى يديه بل يضمهما الى صدره ولا يربى شعره ولا يتزين بملابس النساء ولا يلبس خاتما الا وقت حاجته اليه * ولا يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه من مأكله

البذل فعلا من غير وعد أولى وتقدمه من غير توقيت ولا انتظار أحرى وانما يقدم الوعد أحد رجلين اما معوز ينتظر وجده واما شحيح يروض نفسه توطئة وليس للوعد فى غير هاتين الحالتين وجه يصح ولا رأى يتضح مع ما يغيره الليل والنهار وتتقلب به الحال من يسار واعسار وقال بعض الشعراء

يا أيها الملك المقدم أمره شرقا وغربا
أمن بختم صحيفتى * مادام هذا الطين رطبا
واعلم بان جفافه * مما يعيد السهل صعبا

قالوا ولان فى الرجوع عنه من الانكسار وفى توقع الوعد من مرارة الانتظار وفى العود اليه من بذلة الاقتضاء وذلة الاجتداء ما يكدر بره ويوهن شكره * وقال الشاعر

ان الحوائج ربما أزرى بها * عند الذى تقضى له تطويلها
فاذا ضمنت لصاحب لك حاجة * فاعلم بان تمامها تعجيلها

والحال الثانية أن يكون السائل غير مستوجب والمسؤل غير متمكن ففى الرد فسحة وفى المنع عذر غير أنه يلين عند الرد لينا يقيه الذم و يظهر عذرا يدفع عنه اللوم فليس كل مقل يعرف ولا معذور ينصف * وقد قال أبو العتاهية يصف الناس

يا رب ان الناس لا ينصفوننى * فكيف وان أنصفتهم ظلمونى
فان كان لى شئ تصدوا لاخذه * وان جئت أبغى شيأهم منعونى
وان نالهم بذلى فلا شكر عندهم * وان أنا لم أبذل لهم شتمونى
وان طرقتنى نكبة فكهوا بها * وان صحبتنى نعمة حسدونى
سأمنع قلبى أن يحن اليهم * وأغمض عنهم ناظرى وجفونى
واقطع أيامى بيوم سهولة * أقضى بها عمرى ويوم حزون
ألا ان أصفى العيش ما طاب غبه * وما نلته فى لذة وسكون

والحال الثالثة أن يكون السائل مستوجبا والمسؤل غير متمكن فيأتى بالحمل على النفس ما أمكن من يسير يسد به خلة أو يدفع به مذمة أو يوضح من أعذار المعوز ويتوجع المتألمين ما يجعله فى المنع معذورا وبالتوجع مشكورا * وقد قال أبو النصر العتبى رحمه الله تعالى

الله يعلم أنى لست ذا بخل * ولست ملتمسا فى البخل لى عللا
لكن طاقة مثلى غير خافية * والنمل يعذر فى القدر الذى حملا

وربما تحسر بحدوث العجز بعد تقدم القدرة على فوت الصنيعة وزوال العادة حتى صار أضنى جسدا وأزيد كمدا كما قال الشاعر

وكنت كبازى السوء قص جناحه * يرى حسرات كلما طار طائر
يرى طائرات الجو تخفق حوله * فيذكر اذ ريش الجناحين وافر

والحال الرابعة أن يكون السائل غير مستوجب والمسؤل متمكنا وعلى البذل قادرا فينظر فان خاف بالرد قدح عرض أو قبح هجاء ممض كان البذل منه صيانة لا جودا * فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما وقى به المرء عرضه فهو له صدقة وان أمن من ذلك

وسلم

وملابسه وما يجرى مجراه ولا يشين بل يتواضع لكل أحد ويكرم كل من عاشره * ولا يتوصل بشرف ان كان له أو سلطان من أهله ان اتفق * الى غضب من هو دونه أو استهداء من لا يمكنه أن يرده عن هواه أو تطاوله عليه * كمن اتفق له ان كان خاله وزيرا أو عمه سلطانا فتطرق به الى هضيمة أقرانه وظلم اخوانه واستباحة أموال جيرانه ومعارفه * وينبغى أن يعود أن لا يبصق فى مجالسه ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره * ولا يضع رجلا على رجل ولا يضرب تحت ذقنه بساعده ولا يعمد رأسه بيده * فان هذا دليل الكسل وانه قد بلغ به التقبيح الى أن لا يحمل رأسه حتى يستعين بيده ويعود أن لا يكذب ولا يحلف ألبتة لا صادقا ولا كاذبا * فان هذا قبيح بالرجال مع الحاجة اليه فى بعض الأوقات فأما الصبى فلا حاجة به الى اليمين ويعود أيضا قلة الكلام فلا يتكلم الا جوابا * واذا حضر من هو أكبر منه اشتغل بالاستماع منه والصمت له ويمنع من خبيث الكلام وهجينه ومن السب واللعن ولغو القول * ويعود حسن الكلام وظريفه وجميل اللقاء وكريمه ولا يرخص له أن يستمع لاضدادها من غيره * ويعود خدمة نفسه ومعلمه وكل من كان أكبر منه * وأحوج الصبيان الى هذا الادب أولاد الاغنياء

وسلم منه فمن الناس من غلب المسألة وأمر بالبذل لئلا يقابل الرجاء بالخيبة والامل بالاياس ثم لما فيه من اعتياد الرد واستسهال المنع المفضي الى الشح وأنشد الاصمعي عن الكسائي

كانك في الكتاب وجدت لاء * محرمة عليك فلا تحل
فما تدري اذا أعطيت مالا * أيكثر من سماحك أم يقل
اذا حضر الشتاء فأنت شمس * وان حضر المصيف فأنت ظل

ومن الناس من اعتبر الاسباب وغلب حال السائل وندب الى المنع اذا كان العطاء في غير حق ليقوى على الحقوق اذا عرضت ولا يعجز عنها اذا لزمت وتعينت وقد قال بعض الشعراء

لا تجد بالعطاء في غير حق * ليس في منع غير ذي الحق بخل
انما الجود أن تجود على من * هو للجود والندى منك أهل

فاما من أجاب السؤال وعد بالبذل والنوال فقد صار بوعده مرهونا وصار وفاؤه بالوعد مقرونا فالاعتبار بحق السائل بعد الوعد ولا سبيل الى مراجعة نفسه في الرد يستوجب مع ذم المنع لوم البخل ومقت القادر وهجنة الكذوب ثم لا سبيل لمطله بعد الوعد لما في المطل من تكدير الصنيع وتحقيق الشكر والعرب تقول في أمثالها المطل أحد المنعين واليأس أحد النجحين * وقال بشار بن برد

أظلت علينا منك يوما غمامة * أضاءت لنا برقا وأبطا رشاشها
فلا غيمها يجلي فييأس طامع * ولا غيثها يأتي فيروى عطاشها

ثم اذا أنجز وعده وأوفى عهده لم يتبع نفسه ما أعطى ويسران كانت يده العليا فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى * وقال الشاعر

فانك لا تدري اذا جاء سائل * أأنت بما تعطيه أم هو أسعد
عسى سائل ذو حاجة ان منعته * من اليوم سؤلا أن يكون له غد

ولكن من سروره اذا كانت الارزاق مقدرة أن تكون على يده جارية ومن جهته واصلة لا تنتقل عنه بمنع ولا تحول عنه بأياس * وحكى أن رجلا شكى كثرة عياله الى بعض الزهاد فقال انظر من كان منهم ليس رزقه على الله عز وجل فحوله الى منزلي * وقال ابن سيرين ان رجل كان يأتيه على دابة ففقد الدابة فما فعل برذونك قال اشتدت على مؤنته فبعته قال أفتراه خلف رزقه عندك * وقال ابن الرومي رحمه الله

ان لله غير مرعاك مرعى * ترتعيه وغير مائك ماء
ان لله بالبرية لطفا * سبق الامهات والآباء

ثم ليكن غالب عطائه لله تعالى وأكثر قصده ابتغاء ما عند الله عز وجل كالذي حكاه أبو بكرة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اعرابيا أتاه فقال

يا عمر الخير جزيت الجنه * اكس بنياتي وأمهنه
وكن لنا من الزمان جنه * أقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر رضي الله عنه فان لم أفعل يكون ماذا فقال

* اذا أبا حفص لاذهبنه *

فقال فاذا ذهبت يكون ماذا فقال

والمترفين * وينبغي اذا ضربه المعلم ان لا يصرخ ولا يستشفع باحد فان هذا فعل المماليك ومن هو خوار ضعيف ولا يعير أحدا إلا بالقبيح والسيء من الادب ويعود ان لا يوحش الصبيان بل يبرهم ويكافئهم على الجميل باكثر منه لئلا يتعود الربح على الصبيان وعلى الصديق * ويبغض اليه الفضة والذهب ويحذر منهما أكثر من تحذير السباع والحيات والعقارب والأفاعي فان حب الفضة والذهب آفته أكثر من آفات السموم وينبغي أن يؤذن له في بعض الاوقات أن يلعب لعبا جميلا ليستريح اليه من تعب الادب ولا يكون في لعبه ألم ولا تعب شديد ويعود طاعة والديه ومعلمه ومؤدبيه وان ينظر اليهم بعين الجلالة والتعظيم ويهابهم وهذه الآداب النافعة للصبيان هي للكبار من الناس أيضا نافعة ولكنها للاحداث أنفع لانها تعودهم محبة الفضائل وينشأون عليها فلا يثقل عليهم تجنب الرذائل ويسهل عليهم بعد ذلك جميع ما ترسمه الحكمة وتحده الشريعة والسنة * ويعتادون ضبط النفس عما تدعوهم اليه من اللذات القبيحة وتكفهم عن الانهماك في شيء منها والفكر الكثير فيها وتسوقهم الى مرتبة الفلسفة العالية وترقيهم الى معالي الامور التي وصفناها في اول الكتاب من التقرب الى الله عز وجل ومجاورة الملائكة

يكون عن حالى لتسألنه * يوم تكون الاعطيات هنه
وموقف المسؤل بينهنه * إما الى نار واما جنه

فبكى عمر رضى الله عنه حتى اخضلت لحيته ثم قال ياغلام أعطه قميصى هذا لذلك اليوم لا لشعره أما والله لا أملك غيره واذا كان العطاء على هذا الوجه خلا من طلب جزاء وشكر وعرى عن امتنان ونشر فكان ذلك أشرف للباذل وأهنأ للقابل وأما المعطى اذا التمس بعطائه الجزاء وطلب به الشكر والثناء فهو خارج بعطائه عن حكم السخاء لانه ان طلب به الشكر والثناء كان صاحب سمعة ورياء وفى هذين من الذم ما ينافى السخاء وان طلب به الجزاء كان تاجرا متربحا لا يستحق حمدا ولا مدحا * وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تأويل قوله تعالى ولا تمنن تستكثر انه لا يعطى عطية يلتمس بها أفضل منها * وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول فى تأويل ذلك لا تمنن بعملك * تستكثر على ربك .
وقال أبو العتاهية

وليست بيد أوليتها بغنيمة * اذا كنت ترجو أن تعد لها شكرا
غنى المرء ما يكفيه من سد حاجة * فان زاد شيأ عاد ذاك الغنى فقرا

واعلم أن الكريم يجتدى بالكرامة واللطف واللئيم يجتدى بالمهانة والعنف فلا يجود الا خوفا ولا يجيب الا عنفا كما قد قال الشاعر

رأيتك مثل الجوز يمنع لبه * صحيحا ويعطى خيره حين يكسر

فاحذر أن تكون المهانة طريقا الى اجتداء نائلك والخوف سبيلا الى اعطائك فيجرى عليك سفه الطغام وامتهان اللئام وليكن جودك كرما ورغبة لا لؤما ورهبة كيلا يكون مع الوصمة كما قال العباس بن الاحنف

صرت كأنى ذبالة نصبت * تضىء للناس وهى تحترق

وأما النوع الثانى من البر فهو المعروف ويتنوع أيضا نوعين قولا وعملا فأما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول وهذا يبعث عليه حسن الخلق ورقة الطبع ويجب أن يكون محدودا كالسخاء فانه ان أسرف فيه كان ملقا مذموما وان توسط واقتصد فيه كان معروفا وبرا محمودا * وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تأويل قوله تعالى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا انها الكلام الطيب * وكان سعيد بن جبير يتأول أنها الصلوات الخمس * وروى سعيد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق * وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم أنشد عنده قول الاعرابى هذا

وحى ذوى الاضغان تسب قلوبهم * تحيتك الحسنى فقد يرقع النعل
فان دحسوا بالمكر فاعف تكرما * وان خنسوا عنك الحديث فلا تسل
فان الذى يؤذيك منه سماعه * وان الذى قالوا وراءك لم يقل

فقال النبى صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا وقيل للعتابى انك

مع حسن الحال فى الدنيا وطيب العيش وجميل الاحدوثة وقلة الاعداء وكثرة المداح والراغبين فى مودته من الفضلاء خاصة فاذا تجاوز هذه الرتبة وبلغ أيامه الى أن يفهم أغراض الناس وعواقب الامور فهم أن الغرض الاخير من هذه الاشياء التى يقصدها الناس ويحرصون عليها من الثروة واقتناء الضياع والعبيد والخيل والفرش وأشباه ذلك انما هو لترفيه البدن وحفظ صحته وأن يبقى على اعتدال مدة ما وأن لا يقع فى الاعراض ولا تفجأه المنية وان يهنأ بنعمة الله عليه ويستعد لدار البقاء والحياة السرمدية * وان اللذات كلها فى الحقيقة هى خلاص من آلام وراحات من تعب فاذا عرف ذلك وتحققه ثم تعوده بالسيرة الدائمة وعود الرياضات التى تحرك الحرارة الغريزية وتحفظ الصحة وتنفى الكسل وتطرد البلادة وتبعث النشاط وتذكى النفس فمن كان ممولا مترفا كانت هذه الاشياء التى رسمتها أصعب عليه لكثرة من يحتف به ويغويه ولموافقة طبيعة الانسان فى أول ما تنشأ هذه اللذات واجماع جمهور الناس على نيل ما أمكنهم منها وطلب ما تعذر عليهم بغاية جهدهم فاما الفقراء فالامر عليهم أسهل بل هم قريبون الى الفضائل قادرون عليها متمكنون من نيلها والاصابة منها وحال المتوسطين

تلقى العامة ببشر وتقريب قال دفع صنيعة بأيسر مؤنة واكتساب اخوان بأيسر مبذول وقيل فى منثور الحكم من قل حياؤه قل أحباؤه * وقال بعض الشعراء

بنى ان البر شئ هين * وجه طليق وكلام لين

وقال بعضهم

المرء لايعرف مقداره * مالم تبن للناس أفعاله
وكل من يمنعنى بشره * نقل ماينفعنى ماله

وأما العمل فهو بذل الجاه والاسعاد بالنفس والمعونة فى النائبة وهذا يبعث عليه حب الخير للناس وايثار الصلاح لهم وليس فى هذه الامور سرف ولا لغاياتها حد بخلاف النوع الاول لانها وان كثرت نهى أفعال خير تعود بنفعين نفع على فاعلها فى اكتساب الاجر وجميل الذكر ونفع على المعان بها فى التخفيف عنه والمساعدة له * وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال كل معروف صدقة * وقال النبى صلى الله عليه وسلم صنائع المعروف تقى مصارع السوء وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال المعروف كاسمه وأول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله * وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لايزهدنك فى المعروف كفر من كفره فقد يشكر الشاكر بأضعاف جحود الكافر * وقال الحطيئة

من يفعل الخير لايعدم جوائزه * لايذهب العرف بين الله والناس

وأنشد الرياشى

يد المعروف غنم حيث كانت * تحملها كفور أم شكور
فنى شكر الشكور لها جزاء * وعند الله ما كفر الكفور

فينبغى لمن يقدر على ابتداء المعروف أن يعجله حذر فواته ويبادر به خيفة عجزه وليعلم أنه من فرص زمانه وغنائم امكانه ولا يهمله ثقة بقدرته عليه فكم واثق بقدرة فاتت فأعقبت ندما ومعول على مكنة زالت فأورثت خجلا * وقد قال الشاعر

مازلت أسمع كم من واثق خجل * حتى ابتليت فكنت الواثق الخجلا

ولو فطن لنوائب دهره وتحفظ من عواقب مكره لكانت مغانمه مذخورة ومغارمه مجبورة فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شئ ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح * وقيل لانوشروان ما أعظم المصائب عندكم فقال ان تقدر على المعروف ولا تصطنعه حتى يفوت وقال عبد الحميد من أخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها * وقال بعض الشعراء

اذا هبت رياحك فاغتنمها * فان لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الاحسان فيها * فاتدرى السكون متى يكون
وان درت نياقك فاحتلبها * فاتدرى الفصيل لمن يكون

وروى أن بعض وزراء بنى العباس مطل راغبا اليه فى عمل يستكفيه اياه فكتب اليه بعد طول المطل به

من الناس متوسطة بين هاتين الحالتين * وقد كان ملوك الفرس الفضلاء لايربون أولادهم بين حشمهم وخواصهم خوفا عليهم من الاحوال التى ذكرناها ومن سماع ما حذرت منه * وكانوا ينفذونهم مع ثقاتهم الى النواحى البعيدة منهم * وكان يتولى تربيتهم أهل الجفاء وخشونة العيش ومن لايعرف التنعم ولا الترفه وأخبارهم فى ذلك مشهورة * وكثير من رؤسائهم فى زماننا هذا ينقلون أولادهم عندما ينشأون الى بلادهم ليتعودوا بها هذه الاخلاق ويبعدوا عن عادات أهل البلدان الرديئة * واذ قد عرفت هذه الطرق المحمودة فى تأديب الاحداث فقد عرفت اضدادها أعنى ان من نشأ على خلاف هذا المذهب من التأديب لم يرج فلاحه ولا ينبغى ان نشتغل بصلاحه وتقويمه فانه قد صار بمنزلة الخنزير الوحشى الذى لايطمع فى رياضته فان نفسه العاقلة تصير خادمة لنفسه البهيمية ولنفسه الغضبية فهى منهمكة فى مطالبهما من النزوات * وكما انه لاسبيل الى رياضة سباع البهائم الوحشية التى لاتقبل التأديب كذلك لاسبيل الى رياضة من نشأ على هذه الطريقة واعتادها وأمعن قليلا فى السن * اللهم الا أن يكون فى جميع أحواله عالما بقبح سيرته ذاما لها عائبا على نفسه عازما على الاقلاع والانابة * فان مثل هذا

الانسان من يرجى له النزوع عن أخلاقه بالتدريج والرجوع الى الطريقة المثلى بالتوبة وبصاحبة الاخيار وأهل الحكمة وبالاكباب على التفلسف واذ قد ذكرنا الخلق المحمود وما ينبغى أن يؤخذ به الاحداث والصبيان فنحن واصفون جميع القوى التى تحدث للحيوان أولا أولا الى أن ينتهى الى اقصى الكمال فى الانسانية فانك شديد الحاجة الى معرفة ذلك لتبتدئ على الترتيب الطبيعى فى تقويم واحد منها فنقول

﴿الاجسام الطبيعية﴾

ان الاجسام الطبيعية كلها تشترك فى الحد الذى يعمها ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة والصور التى تحدث فيها * فان الجماد منها اذا قبل صورة مقبولة عند الناس صار بها أفضل من الطينة الاولى التى لا تقبل تلك الصورة * فاذا بلغ الى ان يقبل صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجماد * وتلك الزيادة هى الاغتذاء والنمو والامتداد فى الاقطار واجتذاب ما يوافقه من الارض والماء وترك ما لا يوافقه ونفض الفضلات التى تتولد فيه من غذائه عن جسمه بالصموغ وهذه هى الاشياء التى ينفصل بها النبات من الجماد * وهى حال زائدة على الجسمية التى حددناها وكانت حاصلة فى الجماد * وهذه الحالة الزائدة فى النبات التى شرف بها على الجماد تتفاضل وذلك ان بعضه يفارق الجماد مفارقة

أما يدعوك طول الصبر منى * على استئناف منفعتى وشغلى
وعلمك أن ذا السلطان غاد * على خطرين من موت وعزل
وأنك ان تركت قضاء حقى * الى وقت التفرغ والتخلى
ستصبح نادما أسفا معزى * على فوت الصنيعة عند مثلى

وكتب بعض ذى الحرمات الى وال قد قصر فى رعاية حرمته يقول

أعلى الصراط تريد رعية حرمتى * أم فى الحساب تمن بالانعام
للنفع فى الدنيا أردتك فانتبه * لحوائجى من رقدة النوام

وكتب أبو على البصير الى بعض وزراء وقد اعتذر اليه بكثرة الاشغال يقول

لنا كل يوم نوبة قد تنوبها * وليس لنا رزق ولا عندنا فضل
فان تعتذر بالشغل عنا فانما * تناطبك الآمال ما اتصل الشغل

واعلم أن للمعروف شروطا لا يتم الا بها ولا يكمل الا معها فمن ذلك ستره عن اذاعة يستطيل لها واخفاؤه عن اشاعة يستدل بها * قال بعض الحكماء اذا اصطنعت المعروف فاستره واذا صنع اليك فانشره ولقد قال دعبل الخزاعى

اذا انتقموا أعلنوا أمرهم * وان أنعموا أنعموا باكتتام
يقوم القعود اذا أقبلوا * وتقعد هيبتهم بالقيام

على أن ستر المعروف من أقوى أسباب ظهوره وأبلغ دواعى نشره لما جبلت عليه النفوس من اظهار ما خفى واعلان ما كتم * وقال سهل بن هرون

خل اذا جئته يوما لتسأله * أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا
يخفى صنائعه والله يظهرها * ان الجميل اذا أخفيته ظهرا

ومن شروط المعروف تصغيره عن أن يراه مستكبرا وتقليله عن أن يكون مستكثرا لئلا يصير به مدلا بطرا او مستطيلا أشرا * وقال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه لا يتم المعروف الا بثلاث خصال تعجيله وتصغيره وستره فاذا عجلته هنأته واذا صغرته عظمته واذا سترته أتممته وقال بعض الشعراء

زادك المعروف عندى عظما * انه عندك مستور حقير
وتناسيت كأن لم تأته * وهو عند الناس مشهور خطير

ومن شروط المعروف مجانبة الامتنان به وترك الاعجاب بفعله لما فيهما من اسقاط الشكر واحباط الاجر * فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اياكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر ويمحق الاجر ثم تلا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى * وسمع ابن سيرين رجلا يقول لرجل فعلت اليك وفعلت فقال ابن سيرين اسكت فلا خير فى المعروف اذا أحصى * وقال بعض الحكماء المن مفسدة الصنيعة * وقال بعض الادباء كدر معروفا امتنان وضيع حسبا امتهان * وقال بعض البلغاء من من بمعروفه أسقط شكره ومن أعجب بعمله أحبط أجره وقال بعض الفصحاء قوة المن من ضعف المنن * وقال بعض الشعراء

أفسدت بالمن ما أسديت من حسن * ليس الكريم اذا أسدى بمنان

وقال

وقال أبو نواس

فامض لا تمنن على يدا * منك المعروف من كدره

وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه

لا تحملن لمن يمن من الانام عليك منه

واختر لنفسك حظها * واصبر فان الصبر جنه

منن الرجال على القلو * ب أشد من وقع الاسنه

ومن شروط المعروف أن لا يحتقر منه شيأ وان كان قليلا نزرا اذا كان الكثير معوزا وكنت عنه عاجزا فان من حقر يسيره فمنع منه أعجزه كثيره فامتنع عنه وفعل قليل الخير أفضل من تركه فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يمنعكم من المعروف صغره * وقال عبد الله بن جعفر لا تستحى من القليل فان المنع أقل منه ولا تجبن عن الكثير فانك أكثر منه وقال الشاعر

اعمل الخير ما استطعت وان كا * ن قليلا فلن تحيط بكله

ومتى تفعل الكثير من الخيـ * ـر اذا كنت تاركا لاقله

على أن من المعروف ما لا كلفة على موليه ولا مشقة على مسديه وانما هو جاه يستظل به الادنى ويرتفق به التابع * وقال الشاعر

ظل الفتى ينفع من دونه * وما له فى ظله حظ

واعلم أنك لن تستطيع أن تسع جميع الناس معروفك ولا أن توليهم احسانك فاعتمد بذلك أهل الفضل منهم والحفاظ واقصد به ذوى الرعاية والوداد ليكون معروفك فيهم ناميا وصنيعك عندهم زاكيا وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تنفع الصنيعة الا عند ذى حسب ودين * وقال النبى صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد خيرا جعل صنائعه فى أهل الحفاظ * وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه

ان الصنيعة لا تكون صنيعة * حتى يصاب بها طريق المصنع

فاذا صنعت صنيعة فاعمل بها * لله أو لذوى القرابة أودع

وقيل فى منثور الحكم لا خير فى معروف الى غير عروف وقد ضرب الشاعر به مثلا فقال

كحمار السوء ان أشبعته * رمح الناس وان جاع نهق

وقال بعض الحكماء على قدر المغارس يكون اجتناء الغارس فاخذه بعض الشعراء فقال

لعمرك ما المعروف فى غير أهله * وفى أهله الا كبعض الودائع

فمستودع ضاع الذى كان عنده * ومستودع ما عنده غير ضائع

وما الناس فى شكر الصنيعة عندهم * وفى كفرها الا كبعض المزارع

فمزرعة طابت وأضعف نبتها * ومزرعة أكدت على كل زارع

وأما من أسدى اليه المعروف واصطنع اليه الاحسان فقد صار باسر المعروف موثوقا وفى ملك الاحسان مرقوقا ولزمه ان كان من أهل المكافأة أن يكافئ عليها وان لم يكن من أهلها أن يقابل المعروف بنشره ويقابل الفاعل بشكره * فقد روى عن النبى صلى الله عليه

يسيرة كالمرجان وأشباهه * ثم يتدرج فيها فيحصل له من هذه الزيادة شئ بعد شئ فبعضه ينبت من غير زرع ولا بذر ولا يحفظ نوعه بالثمر والبزر ويكفيه فى حدوثه امتزاج العناصر وهبوب الرياح وطلوع الشمس فلذلك هو فى أفق الجمادات وقريب الحال منها ثم تزداد هذه الفضيلة فى النبات فيفضل بعضه على بعض بنظام وترتيب حتى تظهر فيه قوة الاثمار وحفظ النوع بالبزر الذى يخلف به مثله فتصير هذه الحالة زائدة فيه ومميزة له عن حال ما قبله * ثم تقوى هذه الفضيلة فيه حتى يصير فضل الثالث على الثانى كفضل الثانى على الاول ولا يزال يشرف ويفضل بعضه على بعض حتى يبلغ الى افقه ويصير فى أفق الحيوان وهى كرام الشجر كالزيتون والرمان والكرم وأصناف الفواكه الا أنها بعد مختلطة القوى أعنى ان قوى ذكورها واناثها غير متميزة فهى تحمل وتلد المثل ولم تبلغ غاية أفقها الذى يتصل بافق الحيوان * ثم تزداد وتمعن فى هذا الافق الى أن تصير فى أفق الحيوان فلا تحتمل زيادة وذلك أنها ان قبلت زيادة يسيرة صارت حيوانا وخرجت عن أفق النبات فحينئذ تتميز قواها ويحصل فيها ذكورة وأنوثة وتقبل من فضائل الحيوان أمورا تتميز بها عن سائر النبات والشجر كالنخل الذى طالع افق الحيوان

بالخواص العشر المذكورة في مواضعها ولم يبق بينه وبين الحيوان الا مرتبة واحدة وهي الانقلاع
من الارض والسعي الى
الغذاء وقد روي في الخبر
ماهو كالاشارة أو كالرمز
الى هذا المعنى وهو قوله
صلى الله عليه وسلم أكرموا
عماتكم النخل فانها خلقت
من بقية طينة آدم فاذا تحرك
النبات وانقلع من أفقه
وسعى الى غذائه ولم يتقيد
في موضعه الى أن يصير
اليه غذاؤه وكونت له آلات
أخر يتناول بها حاجاته التي
تكمله فقد صار حيوانا
وهذه الآلات تتزايد في
الحيوان من أول افقه
وتتفاضل فيه فيشرف فيه
بعضها على بعض كما كان
ذلك في النبات فلا يزال
يقبل فضيلة بعد فضيلة
حتى تظهر فيه قوة الشعور
باللذة والاذى فيلتذ بوصوله
الى منافعه و يتألم بوصول
مضاره اليه ثم يقبل الهام
الله عز وجل اياه فيهتدي
الى مصالحه فيطلبها والى
أضداده فيهرب منها وما
كان من الحيوان في أول
أفق النبات فانه لا يتزاوج
ولا يلد المثل بل يتولد
كالديدان والذباب
وأصناف الحشرات
الخسيسة * ثم يتزايد فيه
قبول الفضيلة كما كان
في النبات سواء * ثم
تحدث فيه قوة الغضب
التي ينهض بها الى دفع ما
يؤذيه فيعطى من السلاح
بحسب قوته ومايطيق استعماله فان كانت قوته الغضبية شديدة كان سلاحه تاما قويا

وسلم أنه قال من أودع معروفا فلينشره فان نشره فقد شكره وان كتمه فقد كفره * وروى الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أتمثل بهذين البيتين

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه * يوما فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثني عليك وان من * أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ردي علي قول اليهودي قاتله الله لقد أتاني جبرائيل برسالة من ربي تعالى أيما رجل صنع الى أخيه صنيعة فلم يجد لها جزاء الا الدعاء والثناء فقد كافأه * وقيل في منثور الحكم الشكر قيد النعم * وقال عبد الحميد من لم يشكر الانعام فاعدده من الانعام وقيل في منثور الحكم تمة كل نعمة شكرها * وقال بعض الحكماء كفر النعم من أمارات البطر وأسباب الغير * وقال بعض الفصحاء الكريم شكور أو مشكور واللئيم كفور أو مكفور * وقال بعض البلغاء لا زوال للنعمة مع الشكر ولا بقاء لها مع الكفر * وقال بعض الادباء

شكر الاله بطول الثناء * وشكر الولاة بصدق الولاء
وشكر النظير بحسن الجزاء * وشكرك الدون بحسن العطاء

وقال بعض الشعراء

فلو كان يستغني عن الشكر ماجد * لعزة ملك أو علو مكان
لما أمر الله العباد بشكره * فقال اشكروا لي أيها الثقلان

فان من شكر معروف من أحسن اليه ونشر افضال من أنعم عليه فقد أدى حق النعمة وقضى موجب الصنيعة ولم يبق عليه الا استدامة ذلك انما الشكر ليكون للمزيد مستحقا ولمتابعة الاحسان مستوجبا * حكي أن الحجاج أتي اليه بقوم من الخوارج وكان فيهم صديق له فأمر بقتلهم الا ذلك الصديق فانه عفا عنه وأطلقه ووصله فرجع الرجل الى قطري بن الفجاءة فقال له عد الى قتال عدو الله فقال هيهات غل يدا مطلقها واسترق رقبة معتقها وأنشأ يقول

أأقاتل الحجاج في سلطانه * بيد تقر بأنها مولاته
اني اذا لأخو الدناءة والذي * شهدت بأقبح فعله غدراته
ماذا أقول اذا وقفت ازاءه * في الصف واحتجت له فعلاته
أأقول جار علي لا اني اذا * لأحق من جارت عليه ولاته
وتحدث الاقوام ان صنائعا * غرست لدي فحنظلت نخلاته

وقيل في منثور الحكم المعروف رق والمكافأة عتق ومن أشكر الناس الذي يقول

لأشكرنك معروفا هممت به * ان اهتمامك بالمعروف معروف
ولا ألومك ان لم يمضه قدر * فالشيء بالقدر المحتوم مصروف

وهذا النوع من الشكر الذي يتعجل المعروف ويتقدم البر قد يكون على وجوه فيكون تارة من حسن الثقة بالمشكور في وصول بره واسداء عرفه ولا رأي لمن يحسن به ظن شاكر أن يخلف حسن ظنه فيه فيكون كما قال العتابي

قد أورقت فيك آمالي بوعدك لي * وليس في ورق الآمال لي ثمر

وقد يكون تارة من فرط شكر الراجي وحسن مكافأة الآمل فلا يرضى لنفسه الا بتعجيل الحق واسلاف الشكر وليس لمن صادف لمعروفه بعد ذا زاكيا ومغرسا ناميا أن يفوت نفسه غنمها ولا يحرمها ربحا فهذا وجه ثان وقد يكون تارة ارتهانا للمأمول وحبا للمسؤل وبحسب ما أسلف من الشكر يكون الذم عند الاياس * وقال بعض الادباء من حكماء المتقدمين من شكرك على معروف لم تسده اليه فعاجله بالبر والا انعكس فصار ذما * وقال ابن الرومي

وما الحقد الا توأم الشكر في الفتى * وبعض السجايا ينتسبن الى بعض
فحيث ترى حقدا على ذي اساءة * فثم ترى شكرا على حسن القرض
اذا الارض أدت ريع ما أنت زارع * من البذر فيها فهي ناهيك من أرض

وأما من ستر معروف المنعم ولم يشكره على ما أولاه من نعمه فقد كفر النعمة وجحد الصنيعة وان من أذم الخلائق وأسوا الطرائق ما يستوجب به قبح الرد وسوء المنع * فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يشكر الله من لا يشكر الناس * وقال بعض الأدباء من لم يشكر لمنعمه استحق قطع النعمة * وقال بعض الفصحاء من كفر نعمة المفيد استوجب حرمان المزيد * وقال بعض البلغاء من أنكر الصنيعة استوجب قبح القطيعة وأنشدني بعض الأدباء ما ذكر أنه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه

من جاور النعمة بالشكر لم * يخش على النعمة مغتالها
لو شكروا النعمة زادتهم * مقالة الله التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم * لكنما كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو الى * زوالها والشكر أبقى لها

وهذا آخر ما يتعلق بالقاعدة الثانية من أسباب الالفة الجامعة فاما القاعدة الثالثة فهي المادة الكافية لان حاجة الانسان لازمة لا يعرى منها بشر * قال الله تعالى وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين فاذا عدم المادة التي هي قوام نفسه لم تدم له حياة ولم تستقم له دنيا واذا تعذر شئ منها عليه لحقه من الوهن في نفسه والاختلال في دنياه بقدر ما تعذر من المادة عليه لان الشئ القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة اليها أعوزت بغير طلب وعدمت لغير سبب وأسباب المواد مختلفة وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف أسبابها علة للائتلاف بها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها كيلا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئمون ويشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفون ثم هداهم اليها بعقولهم وأرشدهم اليها بطباعهم حتى لا يتكلفوا ائتلافهم في المعايش المختلفة فيعجزوا ولا يتعاونوا بتقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيختلوا حكمة منه سبحانه وتعالى اطلع بها على عواقب الامور وقد أنبأ الله تعالى في كتابه العزيز اخبارا واذكارا فقال سبحانه وتعالى قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى اختلف المفسرون في تأويل ذلك فقال قتادة أعطى كل شئ ما يصلحه ثم هداه وقال مجاهد أعطى كل شئ صورته ثم هداه لمعيشته وقال ابن عباس رضي الله عنهما أعطى كل شئ زوجة ثم هداه لنكاحها

وان كانت ناقصة كان ناقصا وان كانت ضعيفة جدا لم يعط سلاح البتة بل أعطى آلة الحرب كشدة العدو والقدرة على الحيل التي تنجيه من مخاوفه * وأنت ترى ذلك عيانا من الحيوان الذي اعطى القرون التي تجري له مجرى الرماح والذي أعطى الانياب والمخالب التي تجري له مجرى السكاكين والخناجر والذي أعطى آلة الرمي التي تجري له مجرى النبل والنشاب * والذي أعطى الحوافر التي تجري له مجرى الدبوس والطبرزين * فاما ما لم يعط سلاحا لضعفه عن استعماله ولقلة شجاعته ونقصان قوته الغضبية ولانه لو أعطيه لصار كلا عليه * فقد اعطى آلة الهرب والحيل بجودة العدو والخفة والختل والمراوغة كالارانب وأشباهها * واذا تصفحت أحوال الموجودات من السباع والوحش والطير رأيت هذه الحكمة مستمرة فيها فتبارك الله أحسن الخالقين لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين فاما الانسان فقد عوض من هذه الآلات كلها بان هدى الى استعمالها كلها وسخرت هذه كلها له وسنتكلم على ذلك في موضعه فأما أسباب هذه الاشياء كلها والشكوك التي تعترض في قصده ومنها بعضا بالتلف والانواع من الاذى فليس يليق بهذا

الموضع وسأذكره ان أخر الله في الاجل عند بلوغنا الى الموضع الخاص بها ونعود الى ذكر مراتب الحيوان فنقول ان ما أهدى منها الى الازدواج وطلب النسل وحفظ الولد وتربيته والاشفاق عليه بالكن والعش والتباس كما نشاهد فيما يلد ويبيض وتغذيته اما باللبن واما بنقل الغذاء اليه فانه أفضل مما لا يهتدي الى شئ منها * ثم لا تزال هذه الاحوال تتزايد في الحيوان حتى يقرب من أفق الانسان فحينئذ يقبل التأدب ويصير بقبوله للادب ذا فضيلة يتميز بها من سائر الحيوانات ثم تتزايد هذه الفضيلة في الحيوانات حتى يشرف بها ضروب الشرف كالفرس والبازى المعلم ثم يصير من هذه المرتبة الى مرتبة الحيوان الذى يحاكى الانسان من تلقاء نفسه ويتشبه به من غير تعليم كالقردة وما أشبهها ويبلغ من ذكائها أن تستكفى في التأدب بان ترى الانسان يعمل عملا فتعمل مثله من غير أن تحوج الانسان الى تعب بها ورياضتها * وهذه غاية أفق الحيوان التى ان تجاوزها وقبل زيادة يسيرة خرج بها عن أفقه وصار فى أفق الانسان الذى يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التى يستعملها والصور التى تلاءمها * فاذا بلغ هذه الرتبة تحرك الى المعارف واشتاق الى العلوم وحدثت

وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا يعني معايشهم متى يزرعون ومتى يغرسون وهم عن الآخرة هم غافلون * وقال تعالى وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * قال عكرمة قدر في كل بلدة منها ما لم يجعله في الاخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد * وقال الحسن البصرى وعبد الرحمن بن زيد قدر أرزاق أهلها سواء للسائلين الزيادة في أرزاقهم ثم ان الله تعالى جعل لهم مع ما هداهم اليه من مكاسبهم وأرشدهم اليه من معائشهم دينا يكون حكما وشرعا يكون قيما ليصلوا الى موادهم بتقديره ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره حتى لا ينفردوا باراداتهم فيتغالبوا وتستولى عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا * قال الله تعالى ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض * قال المفسرون الحق في هذا الموضع هو الله جل جلاله فلاجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالالهام حتى جعل العقل هاديا اليها والدين قاضيا عليها لتتم السعادة وتعم المصلحة ثم انه جلت قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين بمادة وكسب فاما المادة فهى حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها وهى شيئان نبت نام وحيوان متناسل * قال الله تعالى وأنه هو أغنى وأقنى قال أبو صالح أغنى خلقه بالمال وأقنى جعل لهم قنية وهى أصول الاموال وأما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة والتصرف المؤدى الى الحاجة وذلك من وجهين أحدهما تقلب في تجارة والثانى تصرف في صناعة وهذان هما فرع لوجهى المادة فصارت أسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من أربعة أوجه وهى زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة * وحكى الحسن بن رجاء مثل ذلك عن المأمون قال سمعته يقول معايش الناس على أربعة أقسام زراعة وصناعة وتجارة وامارة فمن خرج عنها كان كلا عليها واذ قد تقررت أسباب المواد بما ذكرناه فسنصف حال كل واحد منها بقول موجز أما الاول من أسبابها وهى الزراعة فهى مادة أهل الحضر وسكان الامصار والمدن والاستمداد بها أعم نفعا وأوفى فرعا ولذلك ضرب الله تعالى به المثل فقال مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خير المال عين ساهرة لعين نائمة * وقال صلى الله عليه وسلم نعمت لكم النخلة تشرب من عين خرارة وتغرس في أرض خوارة وقال صلى الله عليه وسلم في النخل هى الراسخات في الوحل المطعمات في المحل وقال بعض السلف خير المال عين خرارة في أرض خوارة تسهر اذا نمت وتشهد اذا غبت وتكون عقبا اذا مت * وروى هشام ابن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق في خبايا الارض يعنى الزرع وحكى عن المعتضد أنه قال رأيت على بن أبى طالب رضى الله عنه في المنام يناولنى المسحاة وقال خذها فانها مفاتيح خزائن الارض وقال كسرى لموبذ ما قيمة تاجى هذا فأطرق ساعة ثم قال ما أعرف له قيمة الا أن تكون مطرة في نيسان فانها أصلح من معايش الرعية ما تكون قيمته مثل تاج الملك ولقى عبد الله بن عبد الملك بن شهاب الزهرى فقال له أدللنى على مال أعالجه فانشأ ابن شهاب يقول

تتبع خبايا الارض وادع مليكها * لعلك يوما أن تجاب فترزقا

فيؤتيك مالا واسعا ذا متانة * اذا ما مياه الارض غارت تدفقا

وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هذا لبسط القول فيه غير أن من فضل الزرع فلقرب مداه ووفور جداه ومن فضل الشجر فلثبوت أصله وتوالي ثمره * وأما الثاني من أسبابها وهو نتاج الحيوان فهو مادة أهل الفلوات وسكان الخيام لانهم لما لم تستقر بهم دار ولم تضمهم أمصار افتقروا الى الاموال المنتقلة معهم وما لا ينقطع غناؤه بالظعن والرحلة فاقتنوا الحيوان لانه يستقل في النقلة بنفسه ويستغني عن العلوفة برعيه ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه على أهل الخيام أيسر لقلة مؤنته وتسهيل الكلفة به وكانت جدواه عليهم أكثر لوفور نسله واتباع رسله الهاما من الله لخلقه في تعديل المصالح فيهم وارشادا لعباده في قسم المنافع بينهم * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم مهرة مأمورة أي كثيرة النسل ومنه تأول الحسن وقتادة قوله تعالى أمرنا مترفيها أي كثرنا عددهم وأما السكة المأبورة فهي النخل المؤبرة الحمل * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الغنم سمنها معاش وصوفها رياش * وروى عن أبي ظبيان أنه قال قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما مالك يا أبا ظبيان قال قلت عطائي ألفان قال اتخذ من هذا الحرث والسائبات قبل أن تليك غلمة من قريش لا تعد العطاء معهم مالا والسائبات النتاج * وحكى أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله اني اتخذت غنما أبتغي نسلها ورسلها وانها لا تنمي فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ما ألوانها قالت سود فقال عفري وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم في مناكح الآدميين اغتربوا ولا تضووا * وأما الثالث من أسبابها وهي التجارة فهي فرع لمادتي الزرع والنتاج فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تسعة أعشار الرزق في التجارة والحرث والباقي في السائبات وهي نوعان تقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر وهذا تربص واختصار وقد رغب عنه ذوو الاقدار وذهب فيه ذوو الاخطار والثاني تقلب بالمال بالاسفار ونقله الى الامصار فهذا أليق بأهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة غير أنه أكثر خطرا وأعظم غررا * فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان المسافر وماله لعلى قلت الا ما وقى الله يعني على خطر وفي التوراة يا ابن آدم أحدث سفرا أحدث لك رزقا * وأما الرابع من أسبابها وهو الصناعة فقد يتعلق بما مضى من الاسباب الثلاثة وتنقسم أقساما ثلاثة صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لان الناس آلات للصناعات وأشرفهم نفسا متهيء لاشرفها جنسا كما أن أرذلهم نفسا متهيء لارذلها جنسا لان الطبع يبعث على ما يلائمه ويدعو الى ما يجانسه * وحكى أن الاسكندر لما أراد الخروج الى أقاصي الارض قال لارسطاطاليس اخرج معي قال قد نحل جسمي وضعفت عن الحركة فلا تزعجني قال فما أصنع في عمالي خاصة قال انظر الى من كان له عبيد فأحسن سياستهم فوله الجنود ومن كانت له ضيعة فأحسن تدبيرها فوله الخراج فنبه باعتبار الطباع على ما أغناه عن كلفة التجربة وأشرف الصناعات صناعة الفكر وهي مدبرة وأرذلها صناعة العمل لان العمل

له قوى وملكات ومواهب من الله عز وجل يقتدر بها على الترقي والامعان في هذه الرتبة كما كان ذلك في المراتب الاخرى التي ذكرناها * وأول هذه المراتب من الافق الانساني المتصل بآخر ذلك الافق الحيواني مراتب الناس الذين يسكنون في أقاصي المعمورة من الشمال والجنوب كأواخر الترك من بلاد يأجوج ومأجوج وأواخر الزنج وأشباههم من الامم التي لا تميز عن القرود الا بمرتبة يسيرة * ثم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم الى أن يصير والى وسط الاقاليم فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل * والى هذا الموضع ينتهي فعل الطبيعة التي وكلها الله عز وجل بالمحسوسات * ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل واقتنائها بالارادة والسعي والاجتهاد الذي ذكرناه فيما تقدم حتى يصل الى آخر أفقه فاذا صار الى آخر أفقه اتصل بأول أفق الملائكة وهذا أعلى مرتبة الانسان وعندها تتأحد الموجودات ويتصل أولها بآخرها * وهو الذي يسمى دائرة الوجود لان الدائرة هي التي قيل في حدها انها خط واحد يبتدئ بالحركة من نقطة وينتهي اليها بعينها ودائرة الوجود هي المتأحدة التي جعلت الكثرة وحدة وهي التي تدل دلالة صادقة برهانية على موجدها وحكمته وقدرته ووجوده تبارك اسمه وتعالى جده وتقدس ذكره *

نتيجة الفكر وتدبيره فأما صناعة الفكر فقد تنقسم قسمين أحدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وقد أفردنا للسياسة كتابا لخصنا فيه من جملها ما ليس يحتمل هذا الكتاب زيادة عليها والثانى ما أدت الى المعلومات الحادثة عن الافكار النظرية وقد مضى فى فضل العلم من كتابنا هذا باب أغنى ما فيه عن زيادة قول فيه وأما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين عمل صناعى وعمل بهيمى فالعمل الصناعى أعلاهما رتبة لانه يحتاج الى معاطاة فى تعلمه ومعاناة فى تصوره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية والآخر غاهو صناعة كدو آلة ومهنة وهى الصناعة التى تقتصر عليها النفوس الرذلة وتقف عليها الطباع الخاسئة كما قال أكثم بن صيفى لكل ساقطة لاقطة وكما قال المتلمس

ولا يقيم على ضيم يسام به * الا الاذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته * وذا يشج فلا يرثى له أحد

وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين أحدهما أن تكون صناعة الفكر أغلب والعمل تبعا كالكتابة والثانى أن تكون صناعة العمل أغلب والفكر تبعا كالبناء وأعلاهما رتبة ما كانت صناعة الفكر أغلب عليها والعمل تبعا لها فهذه أحوال الخلق التى ركبهم الله عز وجل عليها فى ارتياد موادهم ووكلهم الى نظرهم فى طلب مكاسبهم وفرق بين هممهم فى التماسهم ليكون ذلك سببا لالفتهم فسبحان من تفرد فينا بلطف حكمته وأظهر فطننا بعزائم قدرته * واذ قد وضح القول فى أسباب المواد وجهات الكسب فليس يخلو حال الانسان فيها من ثلاثة أمور أحدها أن يطلب منها قدر كفايته ويلتمس وفق حاجته من غير أن يتعدى الى زيادة عليها أو يقتصر على نقصان عنها فهذه أحمد أحوال الطالبين وأعدل مراتب المقتصدين * وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أوحى الله تعالى الى كلمات فدخلن فى أذنى ووقرن فى قلبى من أعطى فضل ماله فهو خير له ومن أمسك فهو شر له ولا يلوم الله على كفاف * وروى حميد عن معاوية بن جندة قال قلت يا رسول الله ما يكفينى من الدنيا قال ما يسد جوعتك ويستر عورتك فان كان ذلك فذاك وان كان حمار فبخ بخ فلق من خبز أوجرة من ماء وأنت مسؤل عما فوق الازار * وقد روى عن ابن عباس ومجاهد فى قوله تعالى اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ان كل من ملك بيتا وزوجة وخادما فهو ملك * وروى زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان له بيت وخادم فهو ملك وهو فى المعنى صحيح لانه بالزوجة والخادم مطاع فى أمره وفى الدار محجوب الا عن أذنه وليس على من طلب الكفاية ولم يتجاوز تبعات الزيادة الا توخى الحلال منه واجمال الطلب فيه ومجانبة الشبهة الممازجة له * وقد روى نافع عن ابن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فدع ما يريبك الى ما لا يريبك فلن تجد فقد شئ تركته لله * وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال أما انه ليس باضاعة المال ولا تحريم الحلال ولكن أن تكون بما بيد الله أوثق منك بما فى يديك وأن

ولولا أن شرح هذا الموضوع لا يليق بصناعة تهذيب الاخلاق لشرحته وأنت تقف عليه ان بلغت هذه الرتبة بمشيئة الله * واذا تصورت قدر ما أومأنا اليه وفهمته اطلعت على الحالة التى خلقت وندبت اليها وعرفت الافق الذى يتصل بافقك وتنقلك فى مرتبة بعد مرتبة وركوبك طبقا عن طبق وحدث لك الايمان الصحيح وشهدت ما غاب عن غيرك من الدهماء وبلغت ان تتدرج الى العلوم الشريفة المكنونة التى مبدؤها تعلم المنطق فانه الآلة فى تقويم الفهم والعقل الغريزى * ثم الوصول به الى معرفة الخلائق وطباعها ثم التعلق بها والتوسع فيها والتوصل منها الى العلوم الالهية وحينئذ تستعد لقبول مواهب الله عز وجل وعطاياه فيأتيك الفيض الالهى فتسكن عن قلق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية وتلحظ المرتبة التى ترقيت فيها أولا فاولا من مراتب الموجودات * وعلمت ان كل مرتبة منها محتاجة الى ما قبلها فى وجودها وعلمت ان الانسان لا يتم له كماله الا بعد أن يحصل له ما قبله * واذا صار انسانا كاملا وبلغ غاية أفقه أشرق نور الافق الاعلى عليه وصار اما حكيما تاما تأتيه الالهامات فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكمية والتأييدات العلوية فى التصورات

يكون

يكون ثواب المصيبة أرجح عندك من بقائها * وحكى عبد الله بن المبارك قال كتب عمر بن عبد العزيز الى الجراح بن عبد الله الحكمي ان استطعت أن تدع مما أحل الله لك ما يكون حاجزا بينك وبين الحرام فافعل فانه من استوعب الحلال تاقت نفسه الى الحرام وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالى فان له معيشة ضنكا فقال عكرمة يعني كسبا حراما وقال ابن عباس هو انفاق من لا يوقن بالخلف وقال يحيى بن معاذ الدرهم عقرب فان أحسنت رقيتها والا فلا تأخذها وقيل من قل توقيه كثرت مساويه * وقال بعض البلغاء خير الاموال ما أخذته من الحلال وصرفته في النوال وشر الاموال ما أخذته من الحرام وصرفته في الآثام وكان الاوزاعي الفقيه كثيرا ما يتمثل بهذه الابيات

المال ينفد حله وحرامه * يوما ويبقى بعد ذاك أثامه
ليس التقي بمتق لالهه * حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب ما يجني ويكسب أهله * ويطيب من لفظ الحديث كلامه
نطق النبي لنا به عن ربه * فعلى النبي صلاته وسلامه

وحكي عن ابن المعتمر السلمي قال الناس ثلاثة أصناف أغنياء وفقراء وأوساط فالفقراء موتى الا من أغناه الله بعز القناعة والاغنياء سكارى الا من عصمه الله تعالى بتوقع الغير وأكثر الخير مع أكثر الاوساط وأكثر الشر مع أكثر الفقراء والاغنياء لسخف الفقر وبطر الغنى والامر الثاني أن يقصر عن طلب كفايته ويزهد في التماس مادته وهذا التقصير قد يكون على ثلاثة أوجه يكون تارة كسلا وتارة توكلا وتارة زهدا وتقنعا فان كان تقصيره لكسل فقد حرم ثروة النشاط ومرح الاغتباط فلن يعدم أن يكون كلا قصيا أو ضائعا شقيا * وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كاد الحسد أن يغلب القدر وكاد الفقر أن يكون كفرا وقال بزرجمهر ان كان شيء فوق الحياة فالصحة وان كان شيء مثلها فالغنى وان كان شيء فوق الموت فالمرض وان كان شيء مثله فالفقر * وقيل في منثور الحكم القبر خير من الفقر ووجد في نيل مصر مكتوب على حجر

عقب الصبر نجاح وغنى * ورداء الفقر من نسج الكسل

وقال بعض الشعراء

أعوذ بك اللهم من بطر الغنى * ومن نكبة البلوى ومن ذلة الفقر
ومن أمل عند في كل شارق * يرجعني منه بحظ يد صفر
اذا لم تدنسني الذنوب بعارها * فلست أبالي ما تشعث من أمري

واذا كان تقصيره لتوكل فذلك عجز قد أعذر به نفسه وترك حزم قد غير اسمه لان الله تعالى أمرنا بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم الى القضاء بعد الاعذار * وقد روى معمر عن أيوب عن أبي قلابة قال ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل فذكر فيه خير فقالوا يا رسول الله خرج معنا حاجا فاذا نزلنا منزلا لم يزل يصلي حتى نرحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله عز وجل حتى ننزل فقال صلى الله عليه وسلم فمن كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه قالوا كلنا يا رسول الله قال كلكم خير منه * وقال بعض الحكماء ليس من توكل المرء اضاعته

العقلية واما نبيا مؤيدا يأتيه الوحي على ضروب المنازل التي تكون له عند الله تعالى ذكره فيكون حينئذ واسطة بين الملأ الاعلى والملأ الاسفل وذلك بتصوره حال الموجودات كلها والحال التي ينتقل اليها من حال الانسية ومطالعة الآفاق التي ذكرناها وحينئذ يفهم عن الله عز وجل قوله (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) وتصور معنى قوله صلى الله عليه وسلم (هناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) واذا بلغ بنا الكلام الى ذكر هذه المنزلة العالية الشريفة التي أهل الانسان لها ونسقنا أحواله التي يترقى فيها وأنه يكون أولا بالشوق الى المعارف والعلوم فينبغي أن نزيد في بيانه وشرحه فنقول

﴿الشوق الى المعارف والعلوم﴾

ان هذا الشوق ربما ساق الانسان على منهج قويم وقصد صحيح حتى ينتهي الى غاية كماله وهي سعادته التامة وقلما يتفق ذلك وربما اعوج به عن السمت والسنن وذلك لاسباب كثيرة يطول ذكرها ولا حاجة بك الى علمها الآن وأنت في تهذيب خلقك فكما أن الطبيعة المدبرة للاجسام ربما شوقت الى ما ليس بتمام للجسم الطبيعي لعلل تحدث به وآفات تطرأ عليه بمنزلة من يشتاق الى أكل الطين وما جرى مجراه مما لا يكمل طبيعة الجسد

للعزم ولا من الحزم اضاعة نصيبه من التوكل وان كان تقصيره لزهد وتقنع فهذه حال من علم بمحاسبة نفسه بتبعات الغنى والثروة وخاف عليها بوائق الهوى والقدرة فآثر الفقر على الغنى وزجر النفس عن ركوب الهوى فقد روى أبو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم طلعت فيه شمسه الا وعلى جنبتيها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم الا الثقلين يا أيها الناس هلموا الى ربكم ان ما قل وكفى خير مما كثر وألهى * وروى زيد بن على بن الحسين عن أبيه عن جده رضى الله عنهم أجمعين أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة ومن رضى من الله عز وجل بالقليل من الرزق رضى الله عز وجل منه بالقليل من العمل * وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال من نبل الفقر أنك لا تجد أحدا يعصى الله ليفتقر فأخذه محمود الوراق فقال

يا عائب الفقر ألا ازدجر * عيب الغنى أكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله * على الغنى ان صح منك النظر
أنك تعصى لتنال الغنى * ولست تعصى الله كى تفتقر

وقال ابن المقفع

دليلك أن الفقر خير من الغنى * وأن قليل المال خير من المثرى
لقاؤك مخلوقا عصى الله بالغنى * ولم تر مخلوقا عصى الله بالفقر

وهذه الحال انما تصح لمن نصح نفسه فأطاعته وصدقها فأجابته حتى لان قيادها وهان عنادها وعلمت أن من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير كما كتب الحسن البصرى الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما يا أخى من استغنى بالله اكتفى ومن انقطع الى غيره تعنى ومن كان من قليل الدنيا لا يشبع لم يغنه منها كثرة ما يجمع فعليك منها بالكفاف وألزم نفسك العفاف واياك وجمع الفضول فان حسابه يطول * وقال بعض الحكماء هيهات منك الغنى ان لم يقنعك ما حويت فأما من أعرضت نفسه عن قبول نصحه وجمحت به عن قناعة زهده فليس الى اكراهها سبيل ولا للحمل عليها وجه الا بالرياضة والمرونة وأن يستنزلها الى اليسير الذى لا تنفر منه فاذا استقرت عليه أنزلها الى ما هو أقل منه لتنتهى بالتدريج الى الغاية المطلوبة وتستقر بالرياضة والتمرين على الحال المحبوبة * وقد تقدم قول الحكماء ان المكروه يسهل بالتمرين فهذا حكم ما فى الامر الثانى من التقصير عن طلب الكفاية * وأما الامر الثالث فهو أن لا يقنع بالكفاية * ويطلب الزيادة والكثرة فقد يدعو الى ذلك أربعة أسباب أحدها منازعة الشهوات التى لا تنال الا بزيادة المال وكثرة المادة فاذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يوصله اليها وليس للشهوات حد متناه فيصير ذلك ذريعة الى أن ما يطلبه من الزيادة غير متناه ومن لم يتناه طلبه استدام كده وتعبه فلم يف التذاذه بنيل شهواته بما يعانيه من استدامة كده واتعابه مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات والتعرض لاكتساب التبعات حتى يصير كالبهيمة التى قد انصرف طلبها الى ما تدعو اليه شهوتها فلا تنزجر عنه بعقل ولا تنكف عنه بقناعة * وقد روى عن على عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من أراد الله به

بل يهدمه ويفسده كذلك أيضا النفس الناطقة بما اشتاقت الى النظر والتمييز الذى لا يكملها ولا يشوقها نحو سعادتها بل يحركها الى الاشياء التى تعوقها وتقصر بها عن كمالها فحينئذ يحتاج الى علاج نفسانى روحانى كما احتاج فى الحالة الأولى الى طب طبيعى جسمانى ولذلك تكثر حاجات الناس الى المقومين والمنفعين والى المؤدبين والمسددين فان وجود تلك الطبائع الفائقة التى تساق بذاتها من غير توقف الى السعادة عسرة الوجود لا توجد الا فى الازمنة الطوال والمدد البعيدة وهذا الادب الحق الذى يؤدينا الى غايتنا يجب أن نلحظ فيه المبدأ الذى يجرى مجرى الغاية حتى اذا لحظت الغاية تدرج منها الى الامور الطبيعية على طريق التحليل ثم يبتدئ من أسفل على طريق التركيب فيسلك فيها الى أن ينتهى الى الغاية التى لحظت أولا وهذا المعنى هو الذى أحوجنا فى مبدأ هذا الكتاب وفى فصول أخر منه أن نذكر أشياء عالية لا تليق بهذه الصناعة لتتشوق اليها من يستحقها وليس يمكن الانسان أن يشتاق الى ما لا يعرفه البتة فاذا لحظها من فيه قبول لها وعناية بها عرفها بعض المعرفة فتشوقها وسعى نحوها واحتمل التعب والنصب فيها وينبغى أن يعلم أن كل انسان معد نحو فضيلة

خيرا

خيرا حال بينه وبين شهوته وحال بينه وبين قلبه واذا أراد به شرا وكله الى نفسه * وقد قال الشاعر

وانك ان أعطيت بطنك همه * وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

والسبب الثانى أن يطلب الزيادة ويلتمس الكثرة ليصرفها فى وجوه الخير ويتقرب بها فى جهات البر ويصطنع بها المعروف ويغيث بها الملهوف فهذا أعذر وبالحمد أحرى وأجدر اذا انصرفت عنه تبعات المطالب وتوقى شبهات المكاسب وأحسن التقدير فى حالتى فائدته وافادته على قدر الزمان وبقدر الامكان لان المال آلة للمكارم وعون على الدين ومتألف للاخوان ومن فقده من أهل الدنيا قلت الرغبة فيه والرهبة منه ومن لم يكن منهم بموضع رهبة ولا رغبة استهانوا به * وقد روى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان حساب أهل الدنيا هذا المال * وقال مجاهد الخير فى القرآن كله المال وانه لحب الخير لشديد يعنى المال وأحببت حب الخير عن ذكر ربى يعنى المال فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا يعنى مالا وقال شعيب النبى عليه السلام انى أراكم بخير يعنى المال وانما سمى الله تعالى المال خيرا اذا كان فى الخير مصروفا لان ما أدى الى الخير فهو فى نفسه وقد اختلف أهل التأويل فى قوله تعالى ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار فقال السدى وعبد الرحمن بن زيد الحسنة فى الدنيا وفى الآخرة الجنة وقال الحسن البصرى وسفيان الثورى الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة وفى الآخرة الجنة وقال ابن عباس الدراهم والدنانير خواتم الله فى الارض لا تؤكل ولا تشرب حيث قصدت بها قضيت حاجتك * وقال قيس بن سعد اللهم ارزقنى حمدا ومجدا فانه لا حمد الا بفعال ولا مجد الا بمال * وقد قيل لابى الزناد لم تحب الدراهم وهى تدنيك من الدنيا فقال هى وان أدنتنى منها فقد صانتنى عنها وقال بعض الحكماء من أصلح ماله فقد صان الاكرمين الدين والعرض * وقيل فى منثور الحكم من استغنى كرم على أهله ومر رجل من أرباب الاموال ببعض العلماء فتحرك له وأكرمه فقيل له بعد ذلك أكانت لك الى هذا حاجة قال لا ولكنى رأيت ذا المال مهيبا وسأل رجل محمد بن عمير بن عطارد وعتاب بن ورقاء فى عشر ديات فقال محمد على دية وقال عتاب الباقى على فقال محمد نعم العون اليسار على المجد وقال الاحنف بن قيس

فلو كنت مثريا بمال كثير * لجدت وكنت له باذلا

فان المروءة لا تستطا * ع اذا لم يكن مالها فاضلا

وكان يقال الدراهم مراهم لانها تداوى كل جرح ويطيب بها كل صلح * وقال ابن الجلال

رزقت مالا ولم ترزق مروءته * وما المروءة الا كثرة المال

اذا أردت رقى العلياء يقعدنى * عما ينوه باسمى رقة الحال

وقيل فى منثور الحكم الفقر مخذلة والغنى مجدلة والبؤس مرذلة والسؤال مبذلة وقال أوس بن حجر

أقيم بدار الحزم ما دام حزمها * وأحرى اذا حالت بان أتحولا

ما فهو اليها أقرب وبالوصول اليها أحرى * ولذلك لا تصير سعادة الواحد من الناس غير سعادة الآخر الا من اتفق له نفس صافية وطبيعة فائقة فينتهى الى غايات الامور والى غاية غاياتها أعنى السعادة القصوى التى لا سعادة بعدها

﴿ الواجب على الحاكم ﴾

ولاجل ذلك يجب على مدبر المدن أن يسوق كل انسان نحو سعادته التى تخصه ثم يقسم عنايته بالناس ونظره لهم بقسمين * أحدهما فى تسديد الناس وتقويمهم بالعلوم الفكرية * والآخر فى تسديدهم نحو الصناعات والاعمال الحسية * واذا سددهم نحو السعادة الفكرية بدأ بهم من الغاية الاخيرة على طريق التحليل ووقف بهم عند القوى التى ذكرناها * واذا سددهم نحو السعادة العملية بدأ بهم من عند هذه القوى وانتهى بهم الى تلك الغاية ولما كان غرضنا فى هذا الكتاب السعادة الخلقية وان تصدر عنا الافعال كلها جميلة كما رسمنا فى صدر الكتاب وعملناه لمحبى الفلسفة خاصة لا للعوام وكان النظر يتقدم العمل * وجب ان نذكر الخير المطلق والسعادة الانسانية لنحفظ الغاية الاخيرة ثم نطلب بالافعال الارادية التى ذكرناها فى المقالة الاولى * وارسطوطاليس انما بدأ كتابه بهذا الموضع وافتتحه بذكر الخير المطلق

ليعرف ويتشوق * ونحن نذكر ما قاله ونتبعه بما أخذناه أيضا عنه في مواضع أخر ليجتمع ما فرقه وتضيف الى ذلك ما أخذناه عن مفسرى كتبه المتقلبين لحكمته نحو استطاعتنا والله الموفق المؤيد فان الخير بيده وهو حسبنا ونعم الوكيل

المقالة الثالثة
الخير والسعادة

نبدأ بعونة الله تعالى في هذه المقالة بذكر الفرق بين الخير والسعادة بعد أن نذكر ألفاظ ارسطوطاليس اقتداء به وتوفية لحقه فنقول * ان الخير على ماحده واستحسنه من آراء المتقدمين هو المقصود من الكل وهو الغاية الاخيرة وقد يسمى الشئ النافع في هذه الغاية خيرا * فاما السعادة فهي الخير بالاضافة الى صاحبها وهي كمال له * فالسعادة اذا خير ما وقد تكون سعادة الانسان غير سعادة الفرس وسعادة كل شئ في تمامه وكماله الذى يخصه * فاما الخير الذى يقصده الكل بالشوق فهو طبيعة تقصد ولها ذات وهو الخير العام للناس من حيث هم ناس فهم باجمعهم مشتركون فيها * فاما السعادة فهي خير ما لواحد واحد من الناس فهي اذا بالاضافة ليست لها ذات معينة وهي تختلف بالاضافة الى قاصديها * فلذلك يكون الخير المطلق غير مختلف فيه وقد

فانى وجدت الناس الا أقلهم * خفاف عهود يكثرون التنقلا
بنو أم ذى المال الكثير يرونه * وان كان عبدا سيد الامر جحفلا
وهم لمقل المال أولاد علة * وان كان محضا في العشيرة مخولا

وقال بشر الضرير

كفى حزنا انى أروح وأغتدى * ومالى من مال أصون به عرضى
وأكثر ما ألقى الصديق بمرحبا * وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى

وقال آخر

أجلك قوم حين صرت الى الغنى * وكل غنى في العيون جليل
وليس الغنى الا غنى زين الفتى * عشية يقرى أو غداة ينيل

وقد اختلف الناس في تفضيل الغنى والفقر مع اتفاقهم على أن ما أحوج من الفقر مكروه وما أبطر من الغنى مذموم فذهب قوم الى تفضيل الغنى على الفقر لان الغنى مقتدر والفقير عاجز والقدرة أفضل من العجز وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة وذهب آخرون الى تفضيل الفقر على الغنى لان الفقير تارك والغنى ملابس وترك الدنيا أفضل من ملابستها وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة وذهب آخرون الى تفضيل التوسط بين الامرين بان يخرج عن حد الفقر الى أدنى مراتب الغنى ليصل الى فضيلة الامرين ويسلم من مذمة الحالين وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وأن خيار الامور أوساطها وقد مضى شواهد كل فريق في موضعه بما أغنى عن اعادته * والسبب الثالث أن يطلب الزيادة ويقتنى الاموال ليدخرها لولده ويخلفها لورثته مع شدة ضنه على نفسه وكفه عن صرف ذلك في حقه اشفاقا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب وهذا شقى بجمعها مأخوذ بوزرها قد استحق اللوم من وجوه لا تخفى على ذى لب منها سوء ظنه بخالقه أنه لا يرزقهم الا من جهته وقد قيل قتل القنوط صاحبه وفي حسن الظن بالله راحة القلوب * وقال عبد الحميد كيف تبقى على حالتك والدهر في احالتك ومنها الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه وقد قيل الدهر حسود لا يأتى على شئ الا غيره * وقيل في منثور الحكم المال ملول * وقال بعض الحكماء الدنيا ان بقيت لك لا تبقى لها ومنها ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور حاله وقد قيل انما مالك لك أو للوارث أو للجائحة فلا تكن أشقى الثلاثة * وقال عبد الحميد اطرح كواذب آمالك وكن وارث مالك ومنها ما لحقه من شقاء جمعه وناله من عناء كده حتى صار ساعيا محروما وجاهدا مذموما وقد قيل رب مغبوط بمسرة هى داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه وقال الشاعر

ومن كلفته النفس فوق كفافها * فما ينقضى حتى الممات عناؤه

ومنها ما يؤاخذ به من وزره وآثامه ويحاسب عليه من تبعاته واجرامه * وقد حكى أن هشام ابن عبد الملك لما ثقل بكى ولده عليه فقال لهم جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما اكتسب ما أسوأ حال هشام ان لم يغفر الله له فأخذ هذا

المعنى محمود الوراق فقال

تمتع بمالك قبل الممات * والا فلا مال ان أنت متا
شقيت به ثم خلفته * لغيرك بعدا وسحقا ومقتا
فجادوا عليك بزور البكاء * وجدت عليهم بما قد جمعتا
وأرهنتهم كل ما في يديك * وخلوك رهنا بما قد كسبتا

وروى أن العباس بن عبد المطلب جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ولني فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا عباس يا عم النبي صلى الله عليه وسلم قليل يكفيك خير من كثير يرديك يا عباس يا عم النبي نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها يا عباس يا عم النبي صلى الله عليه وسلم ان الامارة أولها ندامة وأوسطها ملامة وآخرها خزي يوم القيامة فقال يا رسول الله الامن عدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تعدلون مع الاقارب * وقال رجل للحسن البصري رحمه الله اني أخاف الموت وأكرهه فقال انك خلفت مالك ولو قدمته لسرك اللحوق به * وقيل في منثور الحكم كثرة مال الميت تعزي ورثته عنه فأخذ هذا المعنى ابن الرومي فقال وزاد

أبقيت مالك ميراثا لوارثه * فليت شعري ما أبقى لك المال
القوم بعدك في حال تسرهم * فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكاء فما يبكيك من أحد * واستحكم القول في الميراث والقال
ألهتهم عنك دنيا أقبلت لهم * وأدبرت عنك والايام أحوال

والسبب الرابع أن يجمع المال ويطلبه استحلالا لجمعه وشغفا باحترامه فهذا أسوأ الناس حالا فيه وأشدهم حرمانا قد توجهت اليه سائر الملاوم حتى صار وبالا عليه ومذاما وفي مثله قال الله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم فقال النبي صلى الله عليه وسلم تبا للذهب تبا للفضة فشق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا أي مال نتخذ فقال عمر رضي الله عنه أنا أعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله ان أصحابك قد شق عليهم فقالوا أي مال نتخذ فقال لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه وروى شهر بن حوشب عن أبي امامة قال مات رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال النبي صلى الله عليه وسلم كية ثم مات آخر فوجد في مئزره ديناران فقال النبي صلى الله عليه وسلم كيتان وانما ذكر ذلك فيهما وان كان قد مات على عهده من ترك أموالا جمة وأحوالا ضخمة فلم يكن فيه ما كان في هذين لانهما تظاهرا بالقناعة واحتجنا ما ليس بهما اليه حاجة فصار ما احتجناه وزرا عليهما وعقابا لهما * وقد قال الشاعر

اذا كنت ذا مال ولم تك ذا ندى * فأنت اذا والمقترون سواء
على أن في الاموال يوما تباعة * على أهلها والمقترون براء

وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

ان الذي رزق اليسار ولم يصب * حمدا ولا أجرا لغير موفق
والجد يدني كل شيء شاسع * والجد يفتح كل باب مغلق

يظن بالسعادة أنها تكون لغير الناطقين * فان كان ذلك ما عناه هي استعدادات فيها القبول تماماتها وكمالاتها من غير قصد ولا روية ولا ارادة وتلك الاستعدادات هي الشوق أو ما يجري مجرى الشوق من الناطقين بالارادة فأما ما يتأتى للحيوانات في مآكلها ومشاربها وراحاتها فينبغي أن يسمى بختا أو اتفاقا ولا يؤهل لاسم السعادة كما يسمى في الانسان أيضا * وانما استحسن الحد الذي ذكرنا للخير المطلق لان العقل لا يطلق السعي والحركة لا الى نهاية وهذا أول في العقل * ومثال ذلك ان الصناعات والهمم والتدابير الاختيارية كلها يقصد بها خير ما وما لم يقصد به خير ما فهو عبث والعقل يحظره ويمنع منه وبالواجب صار الخير المطلق هو المقصود اليه من كل الناس * ولكن بقي ان يعلم ما هو وما الغاية الاخيرة منه التي هي غاية الخيرات التي ترتقي الخيرات كلها اليها حتى نجعلها غرضنا ونتوجه اليه ولا نلتفت الى غيره ولا تنتشر أفكارنا في الخيرات الكثيرة التي تؤدي اليه اما تأدية بعيدة واما تأدية قريبة ولا نغلط أيضا فيما ليس بخير فنظنه خيرا ثم نفني أعمارنا في طلبه والتعب به وكلا سنبينه بمشيئة الله وعونه

﴿أقسام الخير﴾ الخير على ما قسمه ارسطوطاليس وحكاه عنه فرفوريوس وغيره قال الخيرات منها ما هي شريفة

وأحق خلق الله بالهم امرؤ * ذو همة عليا وعيش ضيق
ومن الدليل على القضاء وكونه * بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق
فاذا سمعت بان مجدودا حوى * عودا فاورق فى يديه فحقق
واذا سمعت بان محدودا أتى * ماء ليشربه فغيض فصدق

اللب العقل تقول لبيب ذو لب والجد فى اللغة الحظ وهو البخت والجد أيضا العظمة ومنه قوله تعالى وأنه تعالى جد ربنا والجد مصدر جد الشئ اذا قطع والجد بالكسر الانكماش فى الامر ورأى الاجتهاد فيها وهو أيضا الحق ضد الهزل وبالحاء اذا منع الرزق ومجدود ومحدود لا يقال فيهما الا بما لم يسم فاعله وآفة من بلى بالجمع والاستكثار ومنى بالامساك والادخار حتى انصرف عن رشده فغوى وانحرف عن سنن قصده فهوى أن يستولى عليه حب المال وبعد الامل فيبعثه المال على الحرص فى طلبه ويدعوه بعد الامل على الشح به والحرص والشح أصل لكل ذم وسبب لكل لؤم لان الشح يمنع من أداء الحقوق ويبعث على القطيعة والعقوق ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم شر ما أعطى العبد شح هالع وجبن خالع * وقال بعض الحكماء الغنى البخيل كالقوى الجبان وأما الحرص فيسلب فضائل النفس لاستيلائه عليها ويمنع من التوفر على العبادة لتشاغله عنها ويبعث على التورط فى الشبهات لقلة تحرزه منها وهذه الثلاث خصال هن جامعات الرذائل سالبات الفضائل مع أن الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى اذلال نفسه واسخاط خالقه * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الحريص الجاهد والقنوع الزائد يستوفيان أكلهما غير منتقص منه شئ فعلام التهافت فى النار * وقال بعض الحكماء الحرص مفسدة للدين والمروءة والله ما عرفت من وجه رجل حرصا فرأيت أن فيه مصطنعا وقال آخر الحريص أسير مهانة لا تفك أسره وقال بعض البلغاء المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبة والارزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمطالبة فذلل للمقادير نفسك واعلم بانك غير نائل بالحرص الا حظك وقال بعض الادباء رب حظ أدركه غير طالبه ودر أحرزه غير جالبه * وأنشدنى بعض أهل الادب لمحمد بن حازم

يا أسير الطمع الكا * ذب فى غل الهوان
ان عز اليأس خير * لك من ذل الامانى
سامح الدهر اذا عز * وخذ صفو الزمان
انما اعدم ذو الحر * ص وأثرى ذو التوانى

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها ولا نهاية محدودة يقنع بها لانه اذا وصل بالحرص الى ما أمل أغراه ذلك بزيادة الحرص والامل وان لم يصل رأى اضاعة الغنى لؤما والصبر عليه حزما وصار بما سلف من رجائه أقوى رجاء وأبسط املا * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يشيب ابن آدم ويبقى معه خصلتان الحرص والامل * وقيل للمسيح عليه السلام ما بال المشايخ احرص على الدنيا من الشباب قال لانهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب ولو صدق الحريص نفسه واستنصح عقله لعلم أن من تمام السعادة وحسن التوفيق الرضا

ومنها ماهي ممدوحة ومنها ماهي بالقوة كذلك وماهي نافعة فيها اما الشريفة فمنها ماهي التي شرفها من ذاتها وتجعل من اقتناها شريفا وهى الحكمة والعقل والممدوحة منها مثل الفضائل والافعال الجميلة الارادية والتى هى بالقوة مثل التهيؤ والاستعداد لنيل الاشياء التى تقدمت * والنافعة هى جميع الاشياء التى تطلب لا لذاتها بل ليتوصل بها الى الخيرات (وعلى جهة أخرى) الخيرات منها ماهى غايات ومنها ما ليست بغايات والغايات منها ماهى تامة ومنها ما هى غير تامة * فالتى هى تامة كالسعادة * وذلك انا اذا وصلنا اليها لم نحتج أن نستزيد اليها شيئا آخر * والتى هى غير تامة فكالصحة واليسار من قبل انا اذا وصلنا اليها احتجنا ان نستزيد فنقتنى أشياء أخر * وأما التى ليست بغاية ألبتة فكالعلاج والتعلم والرياضة (وعلى جهة أخرى) الخيرات منها ماهو مؤثر لاجل ذاته ومنها ماهو مؤثر لاجل غيره ومنها ماهو مؤثر للامرين جميعا ومنها ماهو خارج عنهما (وعلى جهة أخرى) الخيرات منها ما هو خير على الاطلاق ومنها ما هو خير عند الضرورة والاتفاقات التى تتفق لبعض الناس وفى وقت دون وقت * وأيضا منها ما هو خير لجميع الناس ومن جميع الوجوه وفى جميع الاوقات ومنها ما ليس بخير لجميع الناس ولا من

بالقضاء والقناعة بالقسم * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أقصدوا في الطلب فان ما رزقتموه أشد طلبا لكم منكم وما حرمتموه فلن تنالوه ولو حرصتم * وروى ان جبريل على نبينا وعليه السلام هبط على النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تبارك وتعالى يقرأ عليك السلام ويقول لك اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى فأمر النبي صلى الله عليه وسلم مناديا ينادي من لم يتأدب بادب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات * وقيل مكتوب في بعض الكتب ردوا أبصاركم عليكم فان لكم فيها شغلا وقال مجاهد في تأويل قوله تعالى ولنحيينه حياة طيبة قال بالقناعة وقال أكثم بن صيفي من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والثروة * وقال بعض السلف قد يخيب الجاهد الساعي ويظفر الوادع الهادي فأخذه البحتري فقال

لم ألق مقدورا على استحقاقه * في الحظ اما ناقصا أو زائدا
وعجبت لمجهود يحرم ناصبا * كلفا ولمجدود يغنم قاعدا
ما خطب من حرم الارادة قاعدا * خطب الذي حرم الارادة جاهدا

وقال بعض الحكماء ان من قنع كان غنيا وان كان مقترا ومن لم يقنع كان فقيرا وان كان مكثرا وقال بعض البلغاء اذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة واذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فمن أطاع الله عز وجل عز نصره ومن لزم القناعة زال فقره * وقال بعض الادباء القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسر وقال بعض الادباء انى أرى من له قنوع * يدرك ما نال وغنى والرزق يأتي بلا عناء * وربما فات من تعنى والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه فالوجه الاول أن يقنع بالبلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه وهذا أعلى منازل القناعة * وقال الشاعر

اذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن * على حالة الا رضيت بدونها

وقال مالك بن دينار أزهد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بلغته * وقال بعض الحكماء الرضا بالكفاف يؤدي الى العفاف * وقال بعض الادباء يا رب ضيق أفضل من سعة وعناء خير من دعة * وأنشدني بعض أهل الادب وذكر أنه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه

أفادتنا القناعة أي عز * وأي غنى أعز من القناعه
فصيرها لنفسك رأس مال * وصير بعدها التقوى بضاعه
تحز ربحين تغنى عن بخيل * وتنعم في الجنان بصبر ساعه

والوجه الثاني أن تنتهي به القناعة الى الكفاية ويحذف الفضول والزيادة وهذا أوسط حال المقتنع * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من عبد الا بينه وبين رزقه حجاب فان قنع واقتصد أتاه رزقه وان هتك الحجاب لم يزد في رزقه * وقال بعض الحكماء ما فوق الكفاف اسراف وقال بعض البلغاء من رضي بالمقدور قنع بالميسور وقال البحتري

تطلب الاكثر في الدنيا وقد * تبلغ الحاجة منها بالاقل

وأنشدت لابراهيم بن المدبر

جميع الوجوه (وعلى جهة أخرى) الخيرات منها ما هو في الجوهر ومنها ما هو في الكمية ومنها ما هو في الكيفية وفي سائر المقولات كالقوى والملكات * ومنها كالاحوال ومنها كالافعال ومنها كالغايات ومنها كالمواد * ومنها كالآلات ووجود الخيرات في المقولات كلها يكون على هذا المثال * أما في الجوهر أعني ما ليس بعرض فالله تبارك وتعالى هو الخير الاول فان جميع الاشياء تتحرك نحوه بالشوق اليه ولان مآل الخيرات الالهية من البقاء والسرمدية والتمام منه * وأما في الكمية فالعدد المعتدل والمقدار المعتدل وأما في الكيفية فكاللذات وأما في الاضافة فكالصداقات والرياسات وأما في الاين والمتى فكالمكان المعتدل والزمان الانيق البهج * وأما في الموضع فكالقعود والاضطجاع والاتكاء الموافق * وأما في الملك فكالاموال والمنافع * وأما في الانفعال فكالسماع الطيب وسائر المحسوسات المؤثرة * وأما في الفعل فكنفاذ الامر ورواج الفعل (وعلى جهة أخرى) الخيرات منها معقولات ومنها محسوسات

﴿السعادة﴾

وأما السعادة فقد قلنا انها خير ما وهي تمام الخيرات وغاياتها والتمام هو الذي اذا بلغنا اليه لم نحتج معه الى شئ

آخر فلذلك نقول * ان السعادة هي أفضل الخيرات ولكنا نحتاج في هذا التمام الذي هو الغاية القصوى الى سعادات أخرى وهي التي في البدن والتي خارج البدن (وارسطوطاليس) يقول انه يعسر على الانسان أن يفعل الافعال الشريفة بلا مادة مثل اتساع اليد وكثرة الاصدقاء وجودة البخت * قال ولهذا ما احتاجت الحكمة الى صناعة الملك في اظهار شرفها * قال ولهذا قلنا ان كان شئ عطية من الله تعالى وموهبة للناس فهو السعادة لانها عطية منه عز اسمه وموهبة في أشرف منازل الخيرات وفي أعلى مراتبها وهو خاصة بالانسان التام ولذلك لا يشاركه فيها من ليس بتام كالصبيان ومن يجري مجراهم * وأما أقسام السعادة على مذهب هذا الحكيم فهي خمسة أقسام أحدها في صحة البدن ولطف الحواس ويكون ذلك من اعتدال المزاج أعني ان يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس * والثاني في الثروة والاعوان وأشباههما حتى يتسع لأن يضع المال في موضعه ويعمل به سائر الخيرات ويواسي منه أهل الخيرات خاصة والمستحقين عامة ويعمل به كل ما يزيد في فضائله ويستحق الثناء والمدح عليه والثالث أن تحسن أحدوثته في الناس وينتشر ذكره بين أهل الفضل فيكون ممدوحا بينهم ويكثرون وذلك

ان القناعة والعفاف * لا يغنيان عن الغنى
فاذا صبرت عن المنى * فاشكر فقد نلت المنى

والوجه الثالث أن تنتهي به القناعة الى الوقوف على ما سنح فلا يكره ما أتاه وان كان كثيرا ولا يطلب ما تعذر وان كان يسيرا وهذا الحال أدنى منازل أهل القناعة لانها مشتركة بين رغبة ورهبة أما الرغبة فلانه لا يكره الزيادة على الكفاية اذا سنحت وأما الرهبة فلانه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة اذا تعذرت * وفي مثله قال ذو النون رحمة الله عليه من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة * وقد روى الحسن بن علي عن أبيه عن جده رضي الله عنهم ما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا دول فما كان منها لك أتاك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ومن انقطع رجاؤه مما فات استراح بدنه ومن رضي بما رزقه الله تعالى قرت عينه وقال أبو حازم الاعرج وجدت شيئين شيأ هو لي لن أعجله قبل أجله ولو طلبته بقوة السموات والارض وشيأ هو لغيري وذلك مما لم أنله فيما مضى ولا أناله فيما بقي يمنع الذي لي من غيري كما يمنع الذي لغيري مني ففي أي هذين أفني عمري وأهلك نفسي * وقال أبو تمام الطائي

لا تأخذوني بالزمان وليس لي * تبعا ولست على الزمان كفيلا
من كان مرعى عزمه وهمومه * روض الاماني لم يزل مهزولا
لو جاد سلطان القنوع وحكمه * في الخلق ما كان القليل قليلا
الرزق لا تكمد عليه فانه * يأتي ولم تبعث اليه رسولا

وانشدني بعض أهل الادب لابن الرومي

جرى قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق * ويرزق في غشاوته الجنين

ونحن نسأل الله تعالى أكرم مسؤل وأفضل مأمول أن يحسن الينا التوفيق فيما منح ويصرف عنا الرغبة فيما منع استكفافا لتبعات الثروة وموبقات الشهوة * روى شريك ابن أبي نمر عن أبي الجذع عن أعمامه وأجداده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خير أمتي الذين لم يعطوا حتى يبطروا ولم يقتروا حتى يسألوا * وقال أبو تمام الطائي

عندي من الايام ما لو أنه * أضحى بشارب مرقد ما غمضا
لا تطلبن الرزق بعد شماسه * فترومه سبعا اذا ما غيضا
ما عوض الصبر امرؤ الا رأى * ما فاته دون الذي قد عوضا

﴿باب أدب النفس وهو الخامس من الكتاب﴾

اعلم ان النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة لا يستغني محمودها عن التأديب ولا يكتفي بالمرضي منها عن التهذيب لان لمحمودها أضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة فان أغفل تأديبها تفويضا الى العقل أو توكلا على أن تنقاد الى الاحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الادب عاطلا وفي صورة الجهل داخلا لان الادب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة ولكل قوم مواضعة

الثناء عليه لما يتصرف فيه من الاحسان والمعروف * والرابع أن يكون منجحا فى الأمور وذلك

وذلك لا ينال بتوقف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة ويستفاد بالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيما وزكى الطبع اليه مسلما ولو كان العقل مغنيا عن الادب لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنين وبعقولهم مكتفين * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام من أدبك قال ما أدبنى أحد ولكنى رأيت جهل الجاهل فجانبته * وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه ان الله تعالى جعل مكارم الاخلاق ومحاسنها وصلا بينه وبينكم فحسب الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها * وقال ازدشير بن بابك من فضيلة الادب أنه ممدوح بكل لسان ومتزين به فى كل مكان * وباق ذكره على أيام الزمان * وقال مهبود شبه العالم الشريف العديم الادب بالبنيان الخراب الذى كلما علا سمكه كان أشد لوحشته وبالنهر اليابس الذى كلما كان أعرض وأعمق كان أشد لوعورته وبالارض الجيدة المعطلة التى كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به التفافا وصار للهوام سكنا * وقال ابن المقفع ما نحن الى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا الى الادب الذى هو لقاح عقولنا فان الحبة المدفونة فى الثرى لا تقدر أن تطلع زهرتها ونضارتها الا بالماء الذى يعود اليها من مستودعها * وحكى الاصمعى رحمه الله تعالى أن أعرابيا قال لابنه يا بنى الادب دعامة أيد الله بها الالباب * وحلية زين الله بها عواطل الاحساب فالعاقل لا يستغنى وان صحت غريزته عن الادب المخرج زهرته كما لا تستغنى الارض وان عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها * وقال بعض الحكماء الادب صورة العقل فصور عقلك كيف شئت وقال آخر العقل بلا أدب كالشجر العاقر ومع الادب كالشجر المثمر وقيل الادب أحد المنصبين * وقال بعض البلغاء الفضل بالعقل والادب لا بالاصل والحسب لان من ساء أدبه ضاع نسبه ومن قل عقله ضل أصله * وقال بعض الادباء ذك قلبك بالادب كما تذكى النار بالحطب واتخذ الادب غنما والحرص عليه حظا يرجيك راغب ويخاف صولتك راهب ويؤمل نفعك ويرجى عدلك * وقال بعض العلماء الادب وسيلة الى كل فضيلة وذريعة الى كل شريعة * وقال بعض الفصحاء الادب يستر قبيح النسب * وقال بعض الشعراء فيه

فما خلق الله مثل العقول * ولا اكتسب الناس مثل الادب
وما كرم المرء الا التقى * ولا حسب المرء الا النسب
وفى العلم زين لاهل الحجا * وآفة ذى الحلم طيش الغضب

وأنشد الاصمعى رحمه الله

وان يك العقل مولودا فلست أرى * ذا العقل مستغنيا عن حادث الادب
انى رأيتهما كالماء مختلطا * بالترب تظهر منه زهرة العشب
وكل من أخطأته فى مولده * غريزة العقل حاكى البهم فى الحسب

والتأديب يلزم من وجهين أحدهما ما لزم الوالد لولده فى صغره والثانى ما لزم الانسان فى نفسه عند نشوه وكبره فأما التأديب اللازم للاب فهو أن يأخذ ولده بمبادى الآداب ليأنس

اذا استتم كل ما روّى فيه وعزم عليه حتى يصير الى ما يأمله منه * والخامس ان يكون جيد الرأى صحيح الفكر سليم الاعتقادات فى دينه وغير دينه بريئا من الخطأ والزلل جيد المشورة فى الآراء * فمن اجتمعت له هذه الاقسام كلها فهو السعيد الكامل على مذهب هذا الرجل الفاضل ومن حصل له بعضها كان حظه من السعادة بحسب ذلك * وأما الحكماء قبل هذا الرجل مثل فيثاغورس وبقراط وأفلاطون وأشباههم فانهم أجمعوا على ان الفضائل والسعادة كلها فى النفس وحدها * ولذلك لما قسموا السعادة جعلوها كلها فى قوى النفس التى ذكرناها فى أول الكتاب (وهى الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة) وأجمعوا على أن هذه الفضائل هى كافية فى السعادة ولا يحتاج معها الى غيرها من فضائل البدن ولا ما هو خارج البدن فان الانسان اذا حصل تلك الفضائل لم تضره فى سعادته ان يكون سقيما ناقص الاعضاء مبتلى بجميع أعراض البدن * اللهم الا أن يلحق النفس منها مضرة فى خاص أفعالها مثل فساد العقل ورداءة الذهن وما أشبههما وأما الفقر والخمول وسقوط الحال وسائر الاشياء الخارجة

بها ويشوعليها فيسهل عليه قبولها عند الكبر لاستئناسه بمبادئها في الصغر لان نشو الصغير على الشئ يجعله متطبعا به ومن أغفل في الصغر كان تأديبه في الكبر عسيرا * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما نحل والد ولده نحلة أفضل من أدب حسن يفيده إياه أو جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه منه * وقال بعض الحكماء بادروا بتأديب الاطفال قبل تراكم الاشغال وتفرق البال * وقال بعض الشعراء

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت * ولا يلين اذا قومته الخشب
قد ينفع الادب الاحداث في صغر * وليس ينفع عند الشيبة الادب

﴿وقال آخر﴾

ينشو الصغير على ما كان والده * ان الاصول عليها ينبت الشجر

وأما الادب اللازم للانسان عند نشوه وكبره فادبان أدب مواضعة واصطلاح وأدب رياضة واستصلاح فأما أدب المواضعة والاصطلاح فيؤخذ تقليدا على ما استقر عليه اصطلاح العقلاء واتفق عليه استحسان الادباء وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب واتفاقهم على هيئات اللباس حتى ان الانسان الآن اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانبا للادب مستوجبا للذم لان فراق المألوف في العادة ومجانبة ما صار متفقا عليه بالمواضعة مفض الى استحقاق الذم بالعقل ما لم يكن لمخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث وقد كان جائزا في العقل أن يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه فيرونه حسنا ويرون ما سواه قبيحا فصار هذا مشاركا لما وجب بالعقل من حيث توجه الذم على تاركه ومخالفه من حيث انه كان جائزا في العقل أن يوضع على خلافه. وأما أدب الرياضة والاستصلاح فهو ما كان محمولا على حال لا يجوز في العقل أن يكون بخلافها ولا أن تختلف العقلاء في صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط ووضوح صحته بالدليل مرتبط وللنفس على ما يأتي من ذلك شاهد ألهمها الله تعالى ارشادا لها قال الله تعالى فألهمها فجورها وتقواها * قال ابن عباس رضى الله عنه بين لها ما تأتي من الخير وتذر من الشر وسنذكر تعليل كل شئ في موضعه فانه أولى به وأحق فأول مقدمات أدب الرياضة والاستصلاح أن لا يسبق الى حسن الظن بنفسه فيخفى عنه مذموم شيمه ومساوى أخلاقه لان النفوس بالشهوات آمرة وعن الرشد زاجرة * وقد قال الله تعالى ان النفس لامارة بالسوء وقال صلى الله عليه وسلم أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك ثم أهلك ثم عيالك ودعت أعرابية لرجل فقالت كبت الله كل عدو لك الا نفسك فأخذه بعض الشعراء فقال

قلبي الى ما ضرني داع * يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي اذا * كان عدوي بين أضلاعي

فاذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة الى تحكيمها وتحكيمها داع الى سلاطتها وفساد الاخلاق بها فاذا صرف حسن الظن عنها وتوسمها بما هي عليه من التسويف والمكر فاز بطاعتها وانحاز عن معصيتها * وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه العاجز من

عنها فليست عندهم بقادحة في السعادة ألبتة * وأما الرواقيون وجماعة من الطبيعيين فانهم جعلوا البدن جزأ من الانسان ولم يجعلوه آلة كما شرحناه فيما تقدم * فلذلك اضطروا الى أن يجعلوا السعادة التي في النفس غير كاملة اذا لم يقترن بها سعادة البدن وما هو خارج البدن أيضا أعني الاشياء التي تكون بالبخت والجد * والمحققون من الفلاسفة يحقرون أمر البخت وكل ما يكون به ومعه ولا يؤهلون تلك الاشياء لاسم السعادة لان السعادة شئ ثابت غير زائل ولا متغير وهي أشرف الامور وأكرمها وأرفعها فلا يجعلون لاخس الاشياء وهو الذي يتغير ولا يثبت ولا يحصل بروية ولا فكر ولا يتأتى بعقل وفضيلة فيها نصيبا وهذا النظر اختلف القدماء في السعادة العظمى فظن قوم انها لا تحصل للانسان الا بعد مفارقة البدن والطبيعيات كلها وهؤلاء هم القوم الذين حكينا عنهم أن السعادة العظمى هي في النفس وحدها وسموا الانسان ذلك الجوهر وحده دون البدن ولذلك حكموا أنها ما دامت في البدن ومتصلة بالطبيعة وكدرها ونجاسات البدن وضروراته وحاجات الانسان به وافتقاراته الى الاشياء الكثيرة فليست سعيدة على الاطلاق * وأيضا المارأوها لا تكمل لوجود الاشياء العقلية لانها لا تستتر عنها بظلمة الهيولى

عجز عن سياسة نفسه * وقد قال بعض الحكماء من ساس نفسه ساد ناسه فأما سوء الظن بها فقد اختلف الناس فيه فمنهم من كرهه لما فيه من اتهام طاعتها ورد مناصحتها فإن النفس وإن كان لها مكر يردي فلها نصح يهدي فلما كان حسن الظن بها يعمي عن محاسنها ومن عمي عن محاسن نفسه كان كمن عمي عن مساويها فلم ينف عنها قبيحا ولم يهد اليها حسنا * وقد قال الجاحظ في كتاب البيان يجب أن يكون في التهمة لنفسه معتدلا وفي حسن الظن بها مقتصدا فإنه إن تجاوز مقدار الحق في التهمة ظلمها فأودعها ذلة المظلومين وإن تجاوز بها الحق في مقدار حسن الظن أودعها تهاون الآمنين ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل * وقال الأحنف بن قيس من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ومن هدم دينه كان لمجده أهدم وذهب قوم إلى أن سوء الظن بها أبلغ في صلاحها وأوفر في اجتهادها لأن للنفس جورا لا يستقل إلا بالسخط عليها وغرورا لا ينكشف إلا بالتهمة لها لأنها محبوبة تجور إدلالا وتغر مكرا فإن لم يسئ الظن بها غلب عليه جورها وغره غرورها فصار بسورها قانعا وبالشبهة من أفعالها راضيا * وقد قالت الحكماء من رضي عن نفسه أسخط عليه الناس وقال كشاجم

لم أرض عن نفسي مخافة سخطها * ورضا الفتى عن نفسه إغضابها
ولو أنني عنها رضيت لقصرت * عما تزيد بمثله آدابها
وتبينت آثار ذاك فأكثرت * عذلي عليه فطال فيه عتابها

وقد استحسن قول أبي تمام الطائي

ويسيء بالإحسان ظنا لا كمن * هو بابنه وبشعره مفتون

فلم يروا إساءة ظنه بالإحسان ذما ولا استقلاله عمله لوما بل رأوا ذلك أبلغ في الفضل وأبعث على الازدياد فإذا عرف من نفسه ما تجن وتصور منها ما تكن ولم يطاوعها فيما تحب إذا كان غيا ولا صرف عنها ما تكره إذا كان رشدا فقد ملكها بعد أن كان في ملكها وغلبها بعد أن كان في غلبها * وقد روى أبو حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشديد من غلب نفسه * وقال عون بن عبد الله إذا عصتك نفسك فيما كرهت فلا تطعها فيما أحبت ولا يغرنك ثناء من جهل أمرك * وقال بعض البلغاء من قوي على نفسه تناهى في القوة ومن صبر عن شهوته بالغ في المروة فحينئذ يأخذ نفسه عند معرفة ما أكنت وخبرة ما أجنت بتقويم عوجها وإصلاح فسادها * وقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت يا رسول الله متى يعرف الإنسان ربه قال إذا عرف نفسه ثم يراعي منها ما صلح واستقام من زيغ يحدث عن إغفال أو ميل يكون عن إهمال ليتم له الصلاح وتستديم له السعادة فإن المغفل بعد المعاناة ضائع والمهمل بعد المراعاة زائغ وسنذكر من أحوال أدب الرياضة والاستصلاح فصولا تحتوي على ما يلزم مراعاته من الأخلاق ويجب معاناته من الأدب وهي ستة فصول متفرعة

﴿الفصل الأول﴾ في مجانبة الكبر والإعجاب لأنهما يسلبان الفضائل ويكسبان

أعني قصورها ونقصانها ظ وأنها إذا فارقت هذه الكدورة بارقت الجهالات وصفت وخلصت وقبلت الاضاءة والنور الالهي أعني العقل التام ويجب على رأي هؤلاء أن الانسان لا يسعد السعادة التامة إلا في الآخرة بعد موته * وأما الفرقة الأخرى فإنها قالت انه من القبيح الشنيع أن يظن أن الانسان ما دام حيا يعمل الأعمال الصالحة ويعتقد الآراء الصحيحة ويسعى في تحصيل الفضائل كلها لنفسه أولا ثم لأبناء جنسه ثانيا ويخاف رب العزة تقدس ذكره في خلقه بهذه الأفعال المرضية فهو شقي ناقص حتى إذا مات وعدم هذه الأشياء صار سعيدا تام السعادة وارسطوطاليس يحقق بهذا الرأي وذلك أنه تكلم في السعادة الانسانية والانسان هو المركب عنده من بدن ونفس ولذلك حد الانسان بالناطق المائت وبالناطق الماشي برجلين وما أشبه ذلك وهذه الفرقة وهي التي رئيسها أرسطوطاليس رأت أن السعادة الانسانية تحصل للانسان في الدنيا إذا سعى لها وتعب بها حتى يصير إلى أقصاها ولما رأى الحكيم ذلك وأن الناس مختلفون في هذه السعادة الانسانية وأنها قد أشكلت عليهم اشكالا شديدا احتاج أن يتعب في الإبانة عنها وإطالة الكلام فيها وذلك أن الفقير يرى أن السعادة العظمى في الثروة واليسار والمريض

الرذائل وليس لمن استوليا عليه اصغاء لنصح ولا قبول لتأديب لان الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين فلذلك وجب تقديم القول فيهما بابانة ما يكسبانه من ذم ويوجبانه من لوم فنقول أما الكبر فيكسب المقت ويلهي عن التألف ويوغر صدور الاخوان وحسبك بذلك سوءا عن استقصاء ذمه * ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمه العباس أنهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله يحتجب منهما وقال ازدشير بن بابك ما الكبر الافضل حمق لم يدر صاحبه أين يذهب به فيصرفه الى الكبر وما أشبه ما قال بالحق * وحكى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر الى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلاء فقال يا أبا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله فقال المهلب أما تعرفني فقال بل أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة فأخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعرا فقال

عجبت من معجب بصورته * وكان بالامس نطفة مذره
وفي غد بعد حسن صورته * يصير في اللحد جيفة قذره
وهو على تيهه ونخوته * ما بين ثوبيه يحمل العذره

وقد كان المهلب أفضل من أن يخدع نفسه بهذا الجواب الغير الصواب ولكنها زلة من زلات الاسترسال وخطيئة من خطايا الادلال فاما الحمق الصريح والجهل القبيح فهو ما حكى عن نافع بن جبير بن مطعم أنه جلس في حلقة العلاء بن عبد الرحمن الحرقي وهو يقرئ الناس فلما فرغ قال أتدرون لم جلست اليكم قالوا جلست لتسمع قال لا ولكني أردت أن أتواضع لله بالجلوس اليكم فهل يرجى من هذا فضل أو ينفع فيه عذل * وقد قال ابن المعتز لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوي الكمال استعانوا بالكبر ليعظم صغيرا ويرفع حقيرا وليس بفاعل وأما الاعجاب فيخفي المحاسن ويظهر المساوي ويكسب المذام ويصد عن الفضائل * وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الاعجاب ضد الصواب وآفة الالباب وقال بزرجمهر النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها التواضع والبلاء الذي لا يرحم صاحبه منه العجب * وقال بعض الحكماء عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله وليس الى ما يكسبه الكبر من المقت حد ولا الى ما ينتهي اليه العجب من الجهل غاية حتى انه ليطفئ من المحاسن ما انتشر ويسلب من الفضائل ما اشتهر وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة وبمذمة تهدم كل فضيلة مع ما يثيره من حنق ويكسبه من حقد * حكى عمر بن حفص قال قيل للحجاج كيف وجدت منزلك بالعراق قال خير منزل لو كان الله بلغني قتل أربعة فتقربت اليه بدمائهم * ولما ولي مقاتل بن مسمع سجستان أتاه الناس فأعطاهم الاموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط الناس له أرديتهم فمشى عليها وقال لرجل يماشيه لمثل هذا فليعمل العاملون وعبد الله بن زياد بن ظبيان التيمي خوف أهل البصرة أمر فخطب خطبة أوجز فيها فنادى الناس من اعراض المسجد أكثر الله فينا

يرى أنها في الصحة والسلامة والذليل يرى أنها في الجاه والسلطان والخليع يرى أنها في التمكن من الشهوات كلها على اختلافها والعاشق يرى أنها في الظفر بالمعشوق والفاضل يرى أنها في افاضة المعروف على المستحقين والفيلسوف يرى أن هذه كلها اذا كانت مرتبة بحسب تقسيط العدل أعني عند الحاجة وفي الوقت الذي يجب وكما يجب وعند من يجب فهي سعادات كلها وما كان منها يراد لشيء آخر فذلك الشيء أحق باسم السعادة ولما كان كل واحد من هاتين الفرقتين نظرت نظرا ما وجب أن نقول في ذلك ما نراه صوابا وجامعا للرأيين فنقول

(رأي المؤلف في السعادة)

ان الانسان ذو فضيلة روحانية يناسب بها الارواح الطيبة التي تسمى ملائكة وذو فضيلة جسمانية يناسب بها الانعام لانه مركب منهما فهو بالخير الجسماني الذي يناسب به الانعام مقيم في هذا العالم السفلي مدة قصيرة ليعمره وينظمه ويرتبه حتى اذا ظفر بهذه المرتبة على الكمال انتقل الى العالم العلوي وأقام فيه دائما سرمدا في صحبة الملائكة والارواح الطيبة وينبغي أن يفهم من قولنا العالم السفلي والعالم العلوي ما ذكرناه فيما تقدم فانا قد قلنا هناك انا لسنا نعني بالعلوي المكان الاعلى

فى الحس ولا بالعالم السفلى المكان الاسفل فى الحس بل كل محسوس فهو أسفل وان كان محسوسا فى المكان الأعلى . وكل معقول فهو أعلى وان كان معقولا فى المكان الاسفل وينبغى ان يعلم انه يحتاج فى صحة الارواح ابطيبة المستغنية عن الابدان الى شئ من السعادات البدنية التى ذكرناها سوى سعادة النفس فقط اعنى المعقولات الأبدية التى هى الحكمة فقط فاذا ما دام الانسان انسانا فلا تتم له السعادة الا بتحصيل الحالين جميعا وليس يحصلان على التمام الا بالاشياء النافعة فى الوصول الى الحكمة الابدية . فالسعيد اذا من الناس يكون فى احدى مرتبتين . إما مرتبة الاشياء الجسمانية متعلقا باحوالها السفلى سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور الشريفة باحثا عنها مشتاقا اليها متحركا نحوها مغتبطا بها . واما ان يكون فى رتبة الاشياء الروحانية متعلقا باحوالها العليا سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور البدنية معتبرا بها ناظرا فى علامات القدرة الالهية ودلائل الحكمة البالغة مقتديا بها ناظما لها مفيضا للخيرات عليها سايقا لها نحو الافضل فالافضل بحسب قبولها وعلى نحو استطاعتها . وأى امرئ لم يحصل فى احدى هاتين المنزلتين فهو فى رتبة الانعام بل هو اضل . وانما صار اضل لان تلك غير معرضة لهذه الخيرات ولا أعطيت استطاعة تتحرك بها نحو هذه المراتب العالية . وانما تتحرك بقواها نحو كمالاتها الخاصة بها والانسان معرض لها مندوب اليها مزاح العلة فيها وهو مع ذلك غير محصل لها ولا ساع نحوها . وهو مع ذلك مؤثر اضدادها يستعمل قواه

مثلك . وقال لقد كلفتم الله شططا ومعبد بن زرارة كان ذات يوم جالسا فى طريق فمرت به امرأة فقالت له يا عبد الله كيف الطريق الى موضع كذا فقال يا هناه مثلى يكون من عبيد الله وأبو شمال الأسدى أضل راحلته فالتمسها الناس فلم يجدوها فقال والله ان لم يرد الى راحلتى لا صليت له صلاة أبدا فالتمسها الناس فوجدوها فقالوا له قد رد الله راحلتك فصل فقال ان يمينى يمين مصر فانظر الى هؤلاء كيف أفضى بهم العجب الى حمق صار وا به نكالا فى الاولين ومثلا فى الآخرين ولو تصور المعجب المتكبر ما فطر عليه من جبلة وبلى به من مهنة لخفض جناح نفسه واستبدل لينا من عتوه وسكونا من نفوره * وقال الاحنف ابن قيس عجبت لمن جرى فى مجرى البول مرتين كيف يتكبر وقد وصف بعض الشعراء الانسان فقال

يا مظهر الكبر اعجابا بصورته * انظر خلاك فان النتن تثريب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم * ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
هل فى ابن آدم مثل الرأس مكرمة * وهو بخمس من الاقذار مضروب
أنف يسيل وأذن ريحها سهك * والعين مرفضة والثغر ملعوب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا * أقصر فانك مأكول ومشروب

وأحق من كان للكبر مجانبا وللاعجاب مباينا من جل فى الدنيا قدره وعظم فيها خطره لانه قد يستقل بعالى همته كل كثير ويستصغر معها كل كبير * وقال محمد بن على لا ينبغى للشريف أن يرى شيأ من الدنيا لنفسه خطيرا فيكون بها تائها * وقال ابن السماك لعيسى بن موسى تواضعك فى شرفك أشرف لك من شرفك وكان يقال اسمان متضادان بمعنى واحد التواضع والشرف وللكبر أسباب فمن أقوى أسبابه علو اليد ونفوذ الامر وقلة مخالطة الاكفاء * وحكى أن قوما مشوا خلف على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال أبعدوا عنى خفق نعالكم فانها مفسدة لقلوب نوكى الرجال ومشوا خلف ابن مسعود فقال ارجعوا فانها زلة للتابع وفتنة للمتبوع * وروى قيس بن حازم أن رجلا أتى به للنبى صلى الله عليه وسلم فأصابته رعدة فقال له صلى الله عليه وسلم هون عليك فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد وانما قال ذلك صلى الله عليه وسلم حسما لمواد الكبر وقطعا لذرائع الاعجاب وكسرا لاشر النفس وتذليلا لسطوة الاستعلاء * ومثل ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال أيها الناس لقد رأيتنى أرعى على خالات لى من بنى مخزوم فيقبضن لى القبضة من التمر والزبيب فاظل اليوم وأى يوم فقال له عبد الرحمن بن عوف والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت

الشريفة في الامور الدنيئة وتلك محصلة لكمالاتها التي تخصها فاذا الانعام اذا منعت الخيرات الانسية حرمت جوار الارواح الطيبة ودخول الجنة التي وعد المتقون فهي معذورة • والانسان غير معذور • مثل الاول مثل الاعمى اذا جار عن الطريق فتردى في بئر فهو مرحوم غير ملوم • ومثل الثاني مثل بصير يجوز على بصيرة حتى يتردى في البئر فهو ممقوت ملوم • واذ قد تبين ان السعيد لا محالة في احدى المرتبتين اللتين ذكرناها فقد تبين ايضا ان أحدهما ناقص مقصر عن الآخر وان الأنقص منهما ليس يخلو ولا يتعرى من الآلام والحسرات لأجل خدائع الطبيعة والزخارف الحسية التي تعرضه فيما تلابسه وتعوقه عما يلاحظه وتمنعه من الترقي فيها على ما ينبغي وتشغله عما يتعلق به من الامور الجسمانية فصاحب هذه المرتبة غير كامل على الاطلاق ولا سعيد تام • وان صاحب المرتبة الاخرى هو السعيد التام وهو الذي توفر حظه من الحكمة فهو مقيم بروحانيته بين الملأ الأعلى يستمد منهم لطائف الحكمة ويستنير بالنور الالهي ويستزيد من فضائله بحسب عنايته بها وقلة عوائقه عنها • ولذلك يكون ابدا خاليا من الآلام والحسرات التي لا يخلو صاحب المرتبة الاولى منها ويكون مسرورا أبدا بذاته مغتبطا بحاله وبما يحصل له دائما من فيض فضله نور الأول فليس يسر الا بتلك الأحوال ولا يغتبط الا بتلك المحاسن ولا يهش الا لاظهار تلك الحكمة بين أهلها ولا يرتاح الا لمن ناسبه أو قاربه وأحب الاقتباس منه • وهذه المرتبة التي من وصل اليها فقد وصل الى آخر السعادات واقصاها

نفسك فقال عمر رضي الله عنه ويحك يا ابن عوف اني خلوت فحدثتني نفسي فقالت أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك فأردت أن أعرفها نفسها • وللاعجاب أسباب فمن أقوى أسبابه كثرة مديح المتقربين وأطراء المتملقين الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبا والتملق خديعة وملعبا فاذا وجدوه مقبولا في العقول الضعيفة أغروا أربابها باعتقاد كذبهم وجعلوا ذلك الى الاستهزاء بهم • وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلا يزكي رجلا فقال له قطعت مطاه لو سمعها ما أفلح بعدها • وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه المدح ذبح وقال ابن المقفع قابل المدح كمادح نفسه • وقال بعض الحكماء من رضي أن يمدح بما ليس فيه فقد أمكن الساخر منه • وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اياكم والتمادح فانه الذبح ان كان أحدكم مادحا أخاه لا محالة فليقل أحسب ولا أزكي على الله أحدا • وقيل فيما أنزل الله عز وجل من الكتب السالفة عجبت لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب • وقال بعض الشعراء

يا جاهلا غره إفراط مادحه • لا يغلبن جهل من أطراك علمك بك

أثنى وقال بلا علم أحاط به • وأنت أعلم بالمحصول من ريبك

وهذا أمر ينبغي للعاقل أن يضبط نفسه عن أن يستفزها ويمنعها من تصديق المدح لها فان للنفس ميلا لحب الثناء وسماع المدح • وقال الشاعر

يهوى الثناء مبرز ومقصر • حب الثناء طبيعة الانسان

فاذا سامح نفسه في مدح الصبوة وتابعها على هذه الشهوة تشاغل بها عن الفضائل الممدوحة ولها بها عن المحاسن الممنوحة فصار الظاهر من مدحه كذبا والباطن من ذمه صدقا وعند تقابلهما يكون الصدق ألزم الامرين وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل ولا يتخدع بها مميز وليعلم أن المتقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع الاباء فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو أعرف بحقيقته ولكن تهمة المادح أغلب عليه فقل مدح كان جميعه صدقا وقل ثناء كان كله حقا ولذلك كره أهل الفضل أن يطلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح تحرزا من التجاوز فيه وتنزها عن التملق به • وقد روى مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكونوا عيابين ولا تكونوا العانين ولا متمادحين ولا متماوتين • وحكى الاصمعي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان اذا مدح قال اللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون • وقال بعض الشعراء

اذا المرء لم يمدحه حسن فعاله • فمادحه يهذي وان كان مفصحا

وربما آل حب المدح بصاحبه الى أن يصير مادح نفسه إما لتوهمه أن الناس قد غفلوا عن

وهو الذي لا يبالي بفراق الأحباب من أهل الدنيا ولا يتحسر على ما يفوته من التنعم فيها · وهو الذي يرى جسمه وماله وجميع خيرات الدنيا التي عددناها في السعادات التي في بدنه والخارجة عنه كلها كلا عليه الا في ضرورات يحتاج اليها لبدنه الذي هو مربوط به لا يستطيع الانحلال عنه الا عند مشيئة خالقه وهو الذي يشتاق الى صحبة أشكاله وملاقاة من يناسبه من الارواح الطيبة والملائكة المقربين وهو الذي لا يفعل الا ما أراده الله منه ولا يختار الا ما قرب اليه ولا يخالفه الى شئ من شهواته الردئية ولا ينخدع بخدائع الطبيعة ولا يلتفت الى شئ يعوقه عن سعادته وهو الذي لا يحزن على فقد محبوب ولا يتحسر على فوت مطلوب الا ان هذه المرتبة الأخيرة تتفاوت تفاوتا عظيما أعني ان من يصل اليها من الناس يكون على طبقات كثيرة غير متقاربة · وهاتان المرتبتان هما اللتان ساق الحكيم الكلام اليهما واختار المرتبة الاخيرة منهما وذلك في كتابه المسمى فضائل النفس وانا اورد الفاظه التي نقلت الى العربية بعينها قال

﴿أول رتب الفضائل﴾

أول رتب الفضائل تسمى سعادة وهي أن يصرف الانسان ارادته ومحاولاته الى مصالحه في العالم المحسوس والامور المحسوسة من امور النفس والبدن وما كان من الاحوال متصلا بهما ومشاركا لهما من الامور النفسانية ويكون تصرفه في الاحوال المحسوسة تصرفا لا يخرج به عن الاعتدال الملائم لاحوالها الحسية وهذه حال قد يتلبس فيها الانسان بالاهواء والشهوات الا أن ذلك بقدر معتدل غير مفرط وهو الى ما ينبغي أقرب منه الى ما لا ينبغي وذلك

فضله وأخلوا بحقه وأما انخداعهم بتدليس نفسه بالمدح والاطراء فيعتقدون أن قوله حق متبع وصدق مستمع وإما التلذذ بسماع الثناء وسرور نفسه بالمدح والاطراء كما يتغنى بنفسه طربا اذا لم يسمع صوتا مطربا ولا غناء ممتعا وأي ذلك كان فهو الجهل الصريح والنقص الفضيح * وقد قال بعض الشعراء

وما شرف أن يمدح المرء نفسه * ولكن أعمالا تذم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء ظنه * ولا كل أصحاب التجارة يربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظا * ولا كل من ضم الوديعة يصلح

وينبغي للعاقل أن يسترشد اخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من مساويه التي صرفه حسن الظن عنها فانهم أمكن نظرا وأسلم فكرا ويجعلون ما ينبهونه عليه من مساويه عوضا عن تصديق المدح فيه · وقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن مرآة المؤمن اذا رأى فيه عيبا أصلحه وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول رحم الله امرأ أهدى الينا مساوينا · وقيل لبعض الحكماء أتحب أن تهدى اليك عيوبك قال نعم من ناصح ومما يقارب معنى هذا القول ما روى عن عمر رضي الله عنه أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما من ترى أن نوليه حمص فقال رجلا صحيحا منك صحيحا لك قال تكون أنت ذلك الرجل قال لا تنتفع بي مع سوء ظني بك وسوء ظنك بي · وقيل في منثور الحكم من أظهر عيب نفسه فقد زكاها فاذا قطع أسباب الكبر وحسم مواد العجب اعتاض بالكبر تواضعا وبالعجب توددا وذلك من أوكد أسباب الكرامة وأقوى مواد النعم وأبلغ شافع الى القلوب يعطفها الى المحبة ويثنيها عن البغض · وقال بعض الحكماء من برئ من ثلاث نال ثلاثا من برئ من السرف نال العز ومن برئ من البخل نال الشرف ومن برئ من الكبر نال الكرامة وقال مصعب بن الزبير التواضع مصائد الشرف وقيل في منثور الحكم من دام تواضعه كثر صديقه وقد تحدث المنازل والولايات لقوم أخلاقا مذمومة يظهرها سوء طباعهم ولآخرين فضائل محمودة يبعثها زكاء شيمهم لان لتقلب الاحوال سكرة تظهر من الاخلاق مكنونها ومن السرائر مخزونها لاسيما اذا هجمت من غير تدريج وطرقت من غير تأهب · وقد قال بعض الحكماء في تقلب الاحوال تعرف جواهر الرجال وقال الفضل بن سهل من كانت ولايته دون قدره تواضع لها · وقال بعض البلغاء الناس في الولاية رجلان رجل يجل العمل بفضله ومروءته ورجل يجل بالعمل لنقصه ودناءته فمن جل عن عمله ازداد به تواضعا وبشرا ومن جل عنه عمله ازداد به تجبرا وتكبرا

﴿الفصل الثاني في حسن الخلق﴾ روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى

انه يجرى أمره نحو صواب التدبير المتوسط فى كل فضيلة ولا يخرج به عن تقدير الفكر وان لابس الامور المحسوسة وتصرف فيها • ثم الرتبة الثانية وهى التى يصرف الانسان فيها ارادته ومحاولاته الى الامر الافضل من صلاح النفس والبدن من غير أن يتلبس مع ذلك بشئ من الاهواء والشهوات ولا يكترث بشئ من النفسيات المحسوسة الا بما تدعوه اليه الضرورة • ثم تتزايد رتبة الانسان فى هذا الضرب من الفضيلة • وذلك ان الاماكن والرتب فى هذا الضرب من الفضائل كثيرة بعضها فوق بعض وسبب ذلك • أما أولا فاختلاف طبائع الناس وثانيا على حسب العادات وثالثا بحسب منازلهم ومواضعهم من الفضل والعلم والمعرفة والفهم • ورابعا بحسب هممهم وخامسا بحسب شوقهم ومعاناتهم و يقال أيضا بحسب جدهم * ثم تكون النذلة فى آخر هذه المرتبة أعنى هذا الصنف من الفضيلة الى الفضيلة الالهية المحضة * وهى التى لا يكون فيها تشوف الى آت ولا تلفت الى ماض ولا تشييع حال ولا تطلع الى ناء ولا ضن بقريب ولا خوف ولا فزع من أمر ولا شغف بحال ولا طلب لحظ من حظوظ الانسانية ولا من الحظوظ النفسانية أيضا ولا بما تدعو الضرورة اليه من حاجة البدن ولا القوى النفسانية * لكن يتصرف بتصرف الخير العقلى فى أعالى رتب الفضائل وهو صرف وارغب الوقت الى الامور الالهية ومعاناتها ومحاولاتها بلا طلب عوض أعنى أن يكون تصرفه فيها ومعاناته ومحاولته لها لنفس ذاتها فقط وهذه الرتبة أيضا تتزايد بالناس بحسب الهمم والشوق وفضل المعاناة والمحاولة وقوة الضريزة وصحة الثقة وبحسب.

اختار لكم الاسلام دينا فأكرموه بحسن الخلق والسخاء فانه لا يكمل الا بهما وقال الاحنف بن قيس الا أخبركم بأدوأ الداء قالوا بلى قال الخلق الدنى واللسان البذى • وقال بعض الحكماء من ساء خلقه ضاق رزقه وعلة هذا القول ظاهرة • وقال بعض البلغاء الحسن الخلق من نفسه فى راحة والناس منه فى سلامة والسيء الخلق الناس منه فى بلاء وهو من نفسه فى عناء • وقال بعض الحكماء عاشر أهلك بأحسن أخلاقك فان الثواء فيهم قليل • وقال بعض الشعراء

اذا لم تتسع أخلاق قوم * تضيق بهم فسيحات البلاد
اذا ما المرء لم يخلق لبيبا * فليس اللب عن قدم الولاد

فاذا حسنت أخلاق الانسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهلت عليه الامور الصعاب • ولانت له القلوب الغضاب • وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان فى الاعمار • وقال بعض الحكماء من سعة الاخلاق كنوز الارزاق وسبب ذلك ماذكرنا من كثرة الاصفياء المسعدين • وقلة الاعداء المجحفين • ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم أحبكم الى أحسنكم أخلاقا الموطؤن أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وحسن الخلق أن يكون سهل العريكة لين الجانب طليق الوجه قليل النفور طيب الكلمة وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاوصاف فقال أهل الجنة كل هين لين سهل طليق ولما ذكرنا من هذه الاوصاف حدود مقدرة ومواضع مستحقة كما قال الشاعر

أصفو وأكدر أحيانا لمختبر * وليس مستحسنا صفو بلا كدر

وليس يريد بالكدر الذى هو البذاء وشراسة الخلق فان ذلك ذم لا يستحسن وعيب لا يرتضى وانما يريد الكف والانقباض فى موضع يلام فيه المساعد ويذم فيه الموافق فاذا كانت لمحاسن الاخلاق حدود مقدرة ومواضع مستحقة فان تجاوز بها الحد صارت ملقا وان عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا والملق ذل والنفاق لؤم وليس لمن وسم بهما ود مبرور ولا أثر مشكور • وقد روى حكيم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه • وروى مكحول عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغى لذى الوجهين أن يكون وجيها عند الله تعالى وقال سعيد بن عروة لأن يكون لى نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر أحب الى من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين • وقال الشاعر

خل النفاق لاهله * وعليك فالتمس الطريقا

منزلة من بلغ الى هذا المبلغ من الفضيلة فى هذه الاحوال التى عددناها الى أن يكون تشبهه بالعلة الاولى واقتداؤه بها وبافعالها

﴿آخر مراتب الفضائل﴾

وآخر المراتب فى الفضيلة ان تكون أفعال الانسان كلها أفعالا الهية وهذه الافعال هى خير محض والفعل اذا كان خيرا محضا فليس يفعله فاعله من أجل شئ آخر غير الفعل نفسه وذلك ان الخير المحض هو غاية متوخاة لذاتها أى هو الامر المطلوب المقصود لذاته والامر الذى هو غاية فى نهاية النفاسة ليس يكون من أجل شئ آخر * فافعال الانسان اذا صارت كلها الهية فهى كلها انما تصدر عن لبه وذاته الحقيقية التى هى عقله الالهى الذى هو ذاته بالحقيقة وتزول وتتهدر وتموت سائر دواعى طباعه البدنى وسائر عوارض النفسين البهيميتين وعوارض التخيل المتولد عنهما وعن دواعى نفسه الحسية فلا يبقى له حينئذ ارادة ولا همة خارجتان عن فعله من أجلهما يفعل ما يفعل لكنه يفعل ما يفعله بلا ارادة ولا همة فى سوى الفعل اى لا يكون غرضه فى فعله غير ذات الفعل وهذا هو سبيل العقل الالهى فهذه الحال هى آخر رتب الفضائل التى يتقبل فيها الانسان أفعال المبدأ الاول خالق الكل عز وجل أعنى أن يكون فيما يفعله لا يطلب به حظا ولا مجازاة ولا عوضا ولا زيادة لكن يكون فعله بعينه هو غرضه أى ليس يفعله من أجل شئ آخر سوى ذات الفعل * ومعنى ذاته هو أن لا يفعل ما يفعله من أجل شئ غير فعله نفسه وذاته نفسها هى الفعل الالهى نفسه وهكذا يفعل البارى تعالى لذاته لا من أجل شئ آخر خارج عنه * وذلك ان فعل الانسان فى هذه الحال يكون كما قلنا خيرا محضا

وارغب بنفسك أن ترى * الا عدوا أو صديقا

وقال ابراهيم بن محمد

وكم من صديق وده بلسانه * خؤن بظهر الغيب لا يتذمم
يضاحكنى عجبا اذا ما لقيته * ويصدفنى منه اذا غبت أسهم
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا * وفى غيبه ان غاب صاب وعلقم

وربما تغير حسن الخلق والوطاء الى الشراسة والبذاء لاسباب عارضة وأمور طارئة تجعل اللين خشونة والوطاء غلظة والطلاقة عبوسا فمن أسباب ذلك الولاية التى تحدث فى الاخلاق تغيرا وعلى الخلطاء تنكرا اما من لؤم طبع . واما من ضيق صدر . وقد قيل من تاه فى ولايته ذل فى عزله وقيل ذل العزل يضحك من تيه الولاية . ومنها العزل فقد يسوء به الخلق ويضيق به الصدر اما لشدة أسف أو لقلة صبر . حكى حميد الطويل أن عمار بن ياسر عزل عن ولاية فاشتد ذلك عليه وقال انى وجدتها حلوة الرضاع مرة الفطام . ومنها الغنى فقد تتغير به أخلاق اللئيم بطرا وتسوء طرائقه أشرا وقد قيل من نال استطال وأنشد الرياشى

غضبان يعلم أن المال ساق له * ما لم يسقه له دين ولا خلق
فمن يكن عن كرام الناس يسألنى * فأكرم الناس من كانت له ورق

وقال بعض الشعراء

فان تكن الدنيا أنالتك ثروة * فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الاثراء منك خلائقا * من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وبحسب ما أفسده الغنى كذلك يصلحه الفقر وكتب قتيبة بن مسلم الى الحجاج أن أهل الشام قد التاثوا عليه فكتب اليه أن اقطع عنهم الارزاق ففعل فساءت حالهم فاجتمعوا اليه فقالوا أقلنا فكتب الى الحجاج فيهم فكتب اليه ان كنت آنست منهم رشدا فاجر عليهم ما كنت تجرى واعلم أن الفقر جند الله الاكبر يذل به كل جبار عنيد يتكبر وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لولا أن الله تعالى أذل ابن آدم بثلاث ما طأطأ رأسه لشئ الفقر والمرض والموت . ومنها الفقر فقد يتغير به الخلق اما أنفة من ذل الاستكانة أو أسفا على فائت الغنى ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر . وقال أبو تمام الطائى

وأعجب حالات ابن آدم خلقه * يضل اذا فكرت فى كنهه الفكر
فيفرح بالشئ القليل بقاؤه * ويجزع مما صار وهو له ذخر

وربما تسلى من هذه الحالة بالامانى وان قل صدقها فقد قيل قلما تصدق الامنية ولكن قد

وحكمة محضة فيبدأ بالفعل لنفس اظهار الفعل فقط لا لغاية أخرى يتوخاها بالفعل وهكذا فعل الله عز وجل الخاص به ليس هو على القصد الاول من أجل شئ خارج عن ذاته أعنى ليس ذلك من أجل سياسة الاشياء التى نحن بعضها لانه لو كان كذلك لكانت أفعاله حينئذ انما كانت وتكون وتتم بمشاركة الامور التى من خارج ولتدبيرها وتدبير أحوالها واهتمامه بها وعلى هذا تكون الاشياء التى من خارج أسبابا وعللا لافعاله وهذا شنيع قبيح تعالى الله عنه علوا كبيرا لكن عنايته عز وجل بالاشياء التى من خارج وفعله الذى يدبرها به ويرفدها انما هو على القصد الثانى وليس يفعل ما يفعله من أجل الاشياء أنفسها لكن من أجل ذاته أيضا وذلك لاجل ان ذاته تفضل لذاتها لا من أجل المفضل عليه ولا من أجل شئ آخر وهكذا سبيل الانسان اذا بلغ الى الغاية القصوى فى الامكان من الاقتداء بالبارى عز وجل تكون أفعاله التى يفعلها على القصد الاول من أجل ذاته نفسها التى هى العقل الالهى ومن أجل الفعل نفسه وان فعل فعلا يرفد به غيره وينفعه به فليس فعله ذلك على القصد الاول من أجل ذلك الغير لكن يفعل بذلك الغير ما يفعله به بقصد ثان وفعله ذلك من أجل ذاته بالقصد الاول ومن أجل الفعل نفسه أى لنفس الفضيلة والنفس الخير لان فعله ذلك فضيلة وخير ففعله لنفس الفعل لا لاجتلاب منفعة ولا لدفع مضرة ولا للتباهى وطلب الرياسة ومحبة الكرامة فهذا هو غرض الفلسفة ومنتهى السعادة * الا ان الانسان لا يصل الى هذه الحال حتى تفنى

يعتاض بها سلوة من هم أو مسرة برجاء . وقد قال أبو العتاهية

حركه مناك اذا اغتممـ * ـت فانهن مراوح

وقال آخر

اذا تمنيت بت الليل مغتبطا * ان المنى رأس أموال المفاليس

ومنها الهموم التى تذهل اللب وتشغل القلب فلا تتسع الاحتمال ولا تقوى على صبر وقد قيل الهم كالسم . وقال بعض الادباء الحزن كالداء المخزون فى فؤاد المحزون . وقال بعض الشعراء

هموم بالعيش مقرونة * فما تقطع العيش الا بهم
اذا تم أمر بدا نقصه * ترقب زوالا اذا قيل تم
اذا كنت فى نعمة فارعها * فان المعاصى تزيل النعم
وحام عليها بشكر الاله * فان الاله سريع النقم
حلاوة دنياك مسمومة * فما تأكل الشهد الا بسم
فكم قد دب فى مهلة * فلم يعلم الناس حتى هجم

ومنها الامراض التى يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبقى الاخلاق على اعتدال ولا يقدر معها على احتمال . وقد قال المتنبى

آلة العيش صحة وشباب * فاذا وليا عن المرء ولى
واذا الشيخ قال أف فما مـ * ـل حياة وانما الضعف ملا
واذا لم تجد من الناس كفؤا * ذات خدر أرادت الموت بعلا
أبدا تسترد ما تهب الدنـ * ـيا فيا ليت جودها كان بخلا

ومنها علو السن وحدوث الهرم لتأثيره فى آلة الجسد كذلك يكون تأثيره فى أخلاق النفس فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من أثقال فكذلك تعجز النفس عن أثقال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الوفاق ومضيق الشقاق وكذلك ما ضاهاه . وقال منصور النمرى

ما كنت أوفى شبابى كنه عزته * حتى مضى فاذا الدنيا له تبع
أصبحت لم تطعمى ثكل الشباب ولم * تشجى بغصته فالعذر لا يقع
ما كان أقصر أيام الشباب وما * أبقى حلاوة ذكراه التى تدع
ما واجه الشيب من عين وان رمقت * الا لها نبوة عنه ومرتدع
قد كدت تقضى على فوت الشباب أسى * لولا يعزيك أن العمر منقطع

فهذه سبعة أسباب أحدثت سوء خلق كان عاما وههنا سبب خاص يحدث سوء خلق خاص وهو البغض الذى تنفر منه النفس فتحدث نفورا عن المبغض فيؤول الى سوء خلق يخصه

دون

دون غيره فاذا كان سوء الخلق حادثا بسبب كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب ثم بالضد

﴿الفصل الثالث في الحياء﴾ اعلم أن الخير والشر معان كامنة تعرف بسمات دالة كما قالت العرب في أمثالها تخبر عن مجهوله مرآته . وكما قال عمر بن سلم الشاعر

لا تسأل المرء عن خلائقه * في وجهه شاهد من الخبر

فسمة الخير الدعة والحياء وسمة الشر القحة والبذاء وكفى بالحياء خيرا أن يكون على الخير دليلا وكفى بالقحة والبذاء شرا أن يكونا الى الشر سبيلا . وقد روى حسان بن عطية عن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء والعي شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق ويشبه أن يكون العي في معنى الصمت والبيان في معنى التشادق كما جاء في الحديث الآخر أن أبغضكم الى الثرثارون المتفيهقون المتشدقون . وروى أبو سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحياء من الايمان والايمان في الجنة والبذاء من الجفاء والجفاء في النار . وقال بعض الحكماء من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه . وقال بعض البلغاء حياة الوجه بحيائه كما أن حياة الغرس بمائه * وقال بعض البلغاء العلماء يا عجبا كيف لا تستحي من كثرة ما لا تستحي وتتقي من طول ما لا تتقي . وقال بعض الشعراء وهو صالح بن عبد القدوس

اذا قل ماء الوجه قل حياؤه * ولا خير في وجه اذا قل ماؤه
حياءك فاحفظه عليك وانما * يدل على فعل الكريم حياؤه

وليس لمن سلب الحياء صاد عن قبيح ولا زاجر عن محظور فهو يقدم على ما يشاء ويأتي ما يهوى وبذلك جاء الخبر روى شعبة عن منصور بن ربعي عن أبي منصور البدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى يا ابن آدم اذا لم تستح فاصنع ما شئت وليس هذا القول اغراء بفعل المعاصي عند قلة الحياء كما توهمه بعض من جهل معاني الكلام ومواضعات الخطاب وفي مثل هذا الخبر قول الشاعر

اذا لم تخش عاقبة الليالي * ولم تستح فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير * ولا الدنيا اذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير * ويبقى العود ما بقي اللحاء

واختلف أهل العلم في معنى هذا الخبر فقال أبو بكر بن محمد الشاشي في أصول الفقه معنى هذا الحديث أن من لم يستحي دعاه ترك الحياء الى أن يعمل ما يشاء لا يردعه عنه رادع فليستحي المرء فان الحياء يردعه وسمعت من يحكي عن أبي بكر الرازي من أصحاب أبي حنيفة أن المعنى فيه اذا عرضت عليك أفعالك التي هممت بفعلها فلم تستحي منها لحسنها وجمالها فاصنع ما شئت منها فجعل الحياء حكما على أفعاله وكلا القولين حسن والاول أشبه لان الكلام خرج من النبي صلى الله عليه وسلم مخرج الذم لا مخرج المدح لكن قد جاء الحديث بما

ارادته كلها التي بحسب الامور الخارجة وتفنى العوارض النفسانية وتموت خواطره التي تكون عن العوارض وعن شعار الحياة وهمة الهية وانما يعتلي من ذلك اذا صار صافيا من الامر الطبيعي ألبتة ونفى منه نفيا كاملا ثم حينئذ يعتلي معرفة الهية وشوقا الهيا ويوقن بالامور الالهية بما يتقرر في نفسه وفي ذاته التي هي العقل كما تقررت فيه القضايا الاول التي تسمى العلوم الاوائل الا أن تصور العقل ورويته في هذا الحال بالامور الالهية وتيقنه لها يكون يعني أشرف وألطف وأظهر وأشهد انكشافا له وبيانا من القضايا الاول التي تسمى العلوم الاوائل العقلية * فهذه ألفاظ هذا الحكيم قد نقلتها نقلا (وهي نقل أبي عثمان الدمشقي * وهذا الرجل فصيح باللغتين جميعا أعني اليونانية والعربية مرضي النقل عند جميع من طالع هاتين اللغتين وهو مع ذلك شديد التحري لايراد الالفاظ اليونانية ومعانيها من ألفاظ العرب ومعانيها لا تختلف في لفظ ولا معنى * ومن رجع الى هذا الكتاب أعني المسمى بفضائل النفس قرأ هذه الالفاظ كما نقلتها) وليست تحصل هذه المراتب التي يترقى فيها صاحب السعادة التامة الا بعد أن يعلم أجزاء الحكمة كلها علما صحيحا ويستوفيها أولا أولا كما رتبناها في كتابنا المسمى بترتيب السعادات * ومن ظن من الناس أنه يصل اليها بغير تلك الطريقة وعلى غير ذلك المنهج فقد ظن باطلا وبعد عن الحق بعدا كثيرا * ولينذكر في هذا الموضع الخطأ العظيم الذي وقع فيه قوم ظنوا أنهم يدركون الفضيلة بتعطيل القوة العاملة واهمالها وبترك النظر الخاص بالعقل واكتفائهم باعمال ليست مدنية ولا بحسب ما يقسطه التمييز والعقل * وقد سماهم قوم العاملة والناحية *

ولذلك رتبنا هذا الكتاب عقب ذلك الكتاب ليلحظ منهما السعادة الاخيرة المطلوبة بالحكمة البالغة وتتهذب لها النفس وتتهيأ لقبولها غسلا وتنقية من الامور الطبيعية وشهوات الابدان * ولذلك سميته أيضا بكتاب طهارة الاعراق (وقد قال ارسطوطاليس فى كتابه المسمى بالاخلاق) ان هذا الكتاب لا ينتفع به الاحداث كثير منفعة ولا من هو فى طبيعة الاحداث * قال ولست أعنى بالحدث ههنا حدث السن لان الزمان لا تأثير له فى هذا المعنى * وانما أعنى السيرة التى يقصدها أهل الشهوات واللذات الحسية * وأما أنا فأقول انى ما ذكرت هذه المرتبة الاخيرة من السعادة طمعا فى وصول الاحداث الجهال اليها بل لتمر على سمعهم فقط وليعلموا ان ههنا مرتبة حكمية لا يصل اليها الا أهلها الاعلون مرتبة * فليلتمس كل من نظر فى هذا الكتاب المرتبة الاولى منها بالاخلاق التى وصفتها فان وفق بعد ذلك وأعانه الشوق الشديد والحرص التام وسائر ما ذكرناه ووصفناه عن الحكيم فليترق فى درجات الحكمة وليتصاعد فيها بجهده فان الله عز وجل يعينه ويوفقه * فاذا بلغ الانسان الى غاية هذه السعادة ثم فارق بجسمه الكثيف دنياه الدنيئة وتجرد بنفسه اللطيفة التى عنى بتطهيرها وغسلها من الادناس الطبيعية لاخراه العلية فقد فاز وأعد ذاته للقاء خالقه عز وجل اعدادا روحانيا ليس فيه نزاع الى تلك القوى التى كانت تعوقه عن سعادته ولا تشوق اليها لانه قد تطهر منها وتنزه عنها ولم تبق فيه ارادة لها ولا حرص عليها وقد استخلصها للقاء رب العالمين ولقبول كراماته وفيض نوره الذى كان غير مستعد له ولا فيه قبول من عطائه ويأتيه حينئذ الذى وعد به المتقون والابرار

يضاهى القول الثانى وهو قوله صلى الله عليه وسلم ما أحببت أن تسمعه أذناك فأته وما كرهت أن تسمعه أذناك فاجتنبه ويجوز أن يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه ويكون التأويل الاول فى الحديث المتقدم أصح اذ ليس يلزم أن تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها متفقة المعانى بل اختلاف معانيها أدخل فى الحكمة وأبلغ فى الفصاحة اذا لم يضاد بعضها بعضا واعلم أن الحياء فى الانسان قد يكون من ثلاثة أوجه أحدها حياؤه من الله تعالى والثانى حياؤه من الناس والثالث حياؤه من نفسه فاما حياؤه من الله تعالى فيكون بامتثال أوامره والكف عن زواجره * وروى ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال استحيوا من الله عز وجل حق الحياء فقيل يا رسول الله فكيف نستحى من الله عز وجل حق الحياء قال من حفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وترك زينة الحياة الدنيا وذكر الموت والبلى فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء وهذا الحديث من أبلغ الوصايا * وقال أبو الحسن الماوردى مصنف الكتاب رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ذات ليلة فقلت يا رسول الله أوصنى فقال استحى من الله عز وجل حق الحياء ثم قال تغير الناس قلت وكيف ذلك يا رسول الله قال كنت أنظر الى الصبى فأرى من وجهه البشر والحياء وأنا أنظر اليه اليوم فلا أرى ذلك فى وجهه ثم تكلم بعد ذلك بوصايا وعظات تصورتها وأذهلنى السرور عن حفظها وودت أنى لو حفظتها فلم يبدأ بشئ صلى الله عليه وسلم قبل الوصية بالحياء من الله عز وجل وجعل ما سلبه الصبى من البشر والحياء سببا لتغير الناس وخص الصبى لان ما يأتيه بالطبع من غير تكلف فصلى الله وسلم على من هدى أمته وتابع انذارها وقطع أعذارها وأوصل تاديبها وحفظ تهذيبها وجعل لكل عصر حظا من زواجره ونصيبا من أوامره أعاننا الله على قبولها بالعمل وعلى استدامتها بالتوفيق * وقد روى أن علقمة بن علاثة قال يا رسول الله عظنى فقال النبى صلى الله عليه وسلم استحى من الله تعالى استحياءك من ذوى الهيبة من قومك وهذا الحياء يكون من قوة الدين وصحة اليقين ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم قلة الحياء كفر يعنى من الله لما فيه من مخالفة أوامره * وقال صلى الله عليه وسلم الحياء نظام الايمان فاذا انحل نظام الشئ تبدد ما فيه وتفرق وأما حياؤه من الناس فيكون بكف الاذى وترك المجاهرة بالقبيح * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من اتقى الله اتقى الناس * وروى أن حذيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس وقال لا خير فيمن لا يستحى من الناس * وقال بشار بن برد

ولقد أصرف الفؤاد عن الشئ * ء حياء وحبه فى السواد
أمسك النفس بالعفاف وأمسى * ذاكرا فى غد حديث الاعادى

وهذا

كما سبق الايماء اليه مرارا فى قوله عز وجل (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وفى قول النبى صلى الله عليه وسلم (هناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)

﴿ الرتبة الأولى من السعادة الاخيرة ﴾

واذ قد لخصنا أمر هاتين المنزلتين من السعادة القصوى فقد تبين بيانا كافيا ان احداهما بالاضافة الينا أولى والأخرى ثانية ومن المحال ان نسلك الى الثانية من غير ان نمر بالأولى * فقد وجب ان نعود الى ما بدأنا به من ذكر الرتبة الأولى من السعادة الأخيرة ونستوفى الكلام فيها وفى الاخلاق التى بنينا الكتاب عليها ونخلى عن بيان الرتبة الثانية الى وقت آخر فنقول * ان من عنى ببعض القوى التى ذكرناها دون بعض أو تعمد لاصلاحها فى وقت دون وقت لم تحصل له السعادة * وكذلك يكون حال الرجل فى تدبير منزله اذا عنى ببعض أجزائه دون بعض أو فى وقت دون وقت فانه لا يكون مدبر منزل * وكذلك حال مدبر المدينة اذا خص بنظره طائفة دون طائفة أو وقتا دون وقت لا يستحق اسم الرياسة على الاطلاق (وارسطوطاليس) تمثل بأن قال ان الخطاف الواحد اذا ظهر لا يدل على طبيعة الربيع ولا يوم واحد معتدل الهواء يبشر بالربيع * فعلى طالب السعادة ان يطلب السيرة اللذيذة عنده فيسر بها دائما فان تلك السيرة هى واحدة ولذيذة فى نفسها * فلذلك قلنا انه ينبغى ان يتشوقها دائما ويثبت عليها أبدا * ولما كانت السير ثلاثة لانها تنقسم بانقسام الغايات الثلاثة التى يقصدها الناس * اعنى سيرة

وهذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروءة وحب الثناء * ولذلك قال صلى الله عليه وسلم * من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له * يعنى والله أعلم انه لما رفض مروءته وظهور شهوته * وروى الحسن عن أبى هريرة قال قال صلى الله عليه وسلم ان مروءة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه وإلفه وجليسه * وقال بعض الشعراء

ورب قبيحة ما حال بينى * وبين ركوبها الا الحياء
اذا رزق الفتى وجها وقاحا * تقلب فى الامور كما يشاء

وقال آخر

اذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا * وتستحى مخلوقا فما شئت فاصنع

وأما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات * وقال بعض الحكماء ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك * وقال بعض الادباء من عمل فى السر عملا يستحى منه فى العلانية فليس لنفسه عنده قدر * ودعا قوم رجلا كان يألف عشرتهم فلم يجبهم وقال انى دخلت البارحة فى الاربعين وأنا أستحى من سنى * وقال بعض الشعراء

فسرى واعلانى وتلك خليقتى * وظلمة ليلى مثل ضوء نهارى

وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة فتى كمل حياء الانسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه أسباب الخير وانتفت عنه أسباب الشر وسار بالفضل مشهورا وبالجميل مذكورا * وقال بعض الشعراء

وانى ليثنينى عن الجهل والخنا * وعن شتم ذى القربى خلائق أربع
حياء واسلام وتقوى وطاعة * لربى ومثلى من يضر وينفع

وان أخل باحد وجوه الحياء لحقه من النقص باخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله * وقد قال الرياشى يقال ان أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان يتمثل بهذا الشعر

وحاجة دون أخرى قد سنحت لها * جعلتها للتى أخفيت عنوانا
انى كأنى أرى من لا حياء له * ولا أمانة وسط القوم عريانا

﴿ الفصل الرابع فى الحلم والغضب ﴾ روى محمد بن حارث الهلالى أن جبريل نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد انى أتيتك بمكارم الاخلاق فى الدنيا والآخرة * خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وروى سفيان بن عيينة أن النبى صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية قال يا جبريل ما هذا قال لا أدرى حتى أسأل العالم ثم عاد جبريل وقال يا محمد ان ربك يأمرك ان تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك * وروى هشام عن الحسن أن النبى صلى الله عليه وسلم قال أيعجز أحدكم أن يكون كابى ضمضم كان اذا خرج من منزله قال اللهم انى تصدقت بعرضى على عبادك * وروى عن النبى صلى الله

اللذة وسيرة الكرامة * وسيرة الحكمة وكانت سيرة الحكمة أشرفها وأتمها وكانت فضائل النفس كثيرة * وجب ان يفضل الانسان بافضلها ويشرف باشرفها فسيرة الافاضل السعداء سيرة لذيذة بنفسها لان أفعالهم أبدا مختارة وممدوحة وكل انسان يلتذ بما هو محبوب عنده * يلتذ بعدل العادل أو يلتذ بحكمة الحكيم والأفعال الفاضلة والغايات التى ينتهى اليها بالفضائل لذيذة محبوبة فالسعادة ألذ من كل شئ (وارسطوطاليس) يقول ان السعادة الالهية وان كانت كما ذكرناها من الشرف وسيرتها ألذ وأشرف من كل سيرة فانها محتاجة الى السعادات الاخر الخارجة لان تظهر بها والا كانت كامنة غير ظاهرة * واذا كانت كذلك كان صاحبها كالفاضل النائم الذى لا يظهر فعله وحينئذ لا يكون بينه وبين غيره فرق كما وصفنا حالهما فيما تقدم * فالمطلع اذن على حقيقة هذه السعادة المتمكن من اظهار فعله بها هو الذى يلتذ بها وهو الذى يسر سرورا حقيقيا غير مموه ولا مزخرف بالباطل * وهو الذى يخرج من حد المحبة الى العشق والهيمان وحينئذ يأنف ان يصير سلطانه العالى بحسب سلطان بطنه وفرجه فلا يخدم بأشرف جزء فيه أخس جزء فيه * وأعنى بالسرور المزخرف بالاباطيل اللذات التى تشركنا فيها الحيوانات التى ليست بناطقة فان تلك اللذات حسية تنصرم وشيكا وتملها الحواس سريعا * فاذا دامت عليها صارت كريهة وربما عادت مؤلمة وكان للحس لذة عرضية على حدة فكذلك للعقل لذة ذاتية على حدة لان لذة العقل لذة ذاتية ولذة الحس عرضية * فمن لا يعرفه

عليه وسلم أنه قال * ان الله يحب الحليم الحيى ويبغض الفاحش البذى وقال عليه الصلاة والسلام من حلم ساد ومن تفهم ازداد * وقال بعض الادباء من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم * وقال بعض البلغاء ما ذب عن الاعراض كالصفح والاعراض * وقال بعض الشعراء

أحب مكارم الاخلاق جهدى * وأكره ان أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما * وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه * ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالحلم من أشرف الاخلاق وأحقها بذوى الالباب لما فيه من سلامة العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد * وقد قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصاره وحد الحلم ضبط النفس عن هيجان الغضب وهذا يكون عن باعث وسبب وأسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة أحدها الرحمة للجهال وذلك من خير يوافق رقة * وقد قيل فى منثور الحكم من أوكد الحلم رحمة الجهال وقال أبو الدرداء رضى الله عنه لرجل أسمعه كلاما يا هذا لا تغرقن فى سبنا ودع للصلح موضعا فانا لا نكافئ من عصى الله فينا باكثر من أن نطيع الله عز وجل فيه * وشتم رجل الشعبى فقال ان كنت كما قلت فغفر الله لى وان لم أكن كما قلت فغفر الله لك * واغتاظت عائشة رضى الله عنها على خادم لها ثم رجعت الى نفسها فقالت لله در التقوى ما تركت لذى غيظ شفاء * وقسم معاوية رضى الله عنه قطائف فاعطى شيخا من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه فحلف أن يضرب بها رأس معاوية فأتاه فأخبره فقال له معاوية أوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ * والثانى من أسبابه القدرة على الانتصار وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكرا للقدرة عليه * وقال بعض الحكماء ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعا من السطوة * وقال بعض البلغاء أحسن المكارم عفو المقتدر وجود المفتقر * والثالث من أسبابه الترفع عن السباب وذلك من شرف النفس وعلو الهمة كما قالت الحكماء شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم * وقد قيل ان الله تعالى سمى يحيى عليه السلام سيدا لحلمه وقد قال الشاعر

لا يبلغ المجد أقوام وان كرموا * حتى يذلوا وان عزوا لاقوام
ويشتموا فترى الالوان مسفرة * لا صفح ذل ولكن صفح أحلام

* والرابع من أسبابه الاستهانة بالمسيء وذلك عن ضرب من الكبر والاعجاب كما حكى عن مصعب بن الزبير أنه لما ولى العراق جلس يوما لعطاء الجند وأمر مناديه فنادى اين عمرو ابن جرموز وهو الذى قتل أباه الزبير فقيل له أيها الامير انه قد تباعد فى الارض فقال أو يظن

اللذة بالحقيقة كيف يلتذ بها ومن لا يعرف الرياسة الذاتية كيف يصير اليها فانا قد قدمنا وصفها وشوقنا اليها باعادة الكلام فيها مرارا وقلنا من لا يعرف الخير المطلق والفضيلة التامة ولا يعرف الحكمة العملية يعني ايثار الافضل والعمل به والثبات عليه لا ينشط له ولا يرتاح اليه * ومن كان كذلك فكيف يلتذ ويتنعم بما شرحناه (١٣٩) ودللنا عليه * وقد كان للحكماء المتقدمين مثل يضربونه ويكتبونه في الهياكل وهي مساجدهم ومصلاهم * وهو هذا الملك الموكل بالدنيا يقول ان ههنا خيرا وههنا شرا وههنا ما ليس بخير ولا شر * فمن عرف هذه الثلاثة حق معرفتها تخلص مني وتخاصالما ومن لم يعرفها قتلته شر قتلة وذلك اني لا اقتله قتلا وحيدا ولكني أقتله اولا اولا في زمان طويل فهذا المثل (من نظر فيه وتأمله عرف منه جميع ما قدمنا ذكره * وينبغي ان يعلم ان السعيد الذي ذكرنا حاله ما دام حيا تحت هذا الفلك الدائر بكواكبه ودرجاته ومطالع سعوده ونحوسه يرد عليه من النكبات والنوائب وأنواع المحن والمصائب ما يرد على غيره الا انه يذعر منها ولا يلحقه ما يلحق غيره من المشقة في احتمالها لانه غير مستعد لسرعة الانفصال منها بعادة الهلع والجزع والاحزان ولا قابل أثر الهموم والاحزان بالاحوال العارضة وان أصابه من هذه الآلام شئ فهو يقدر على ضبط نفسه كيلا تنقله عن السعادة الى ضدها بل لا تخرجه عن حد السعادة ألبتة * ولو ابتلى ببلايا أيوب عليه السلام واضعافها ما أخرجه عن حد السعادة وذلك لما يجد في نفسه من المحافظة على شروط الشجاعة والصبر على ما يجزع منه أصحاب خور الطباع فيكون سروره أولا بذاته و بالاحاديث الجميلة التي تنشر .

الجاهل أني أقيده بأبي عبد الله ليظهر آمنا ليأخذ عطاءه موفرا فعد الناس ذلك من مستحسن الكبر ومثل ذلك قول بعض الزعماء في شعره

أوكلما طن الذباب طردته * ان الذباب اذا علي كريم

وأكثر رجل من سب الاحنف وهو لا يجيبه فقال والله ما منعه من جوابي الا هواني عليه * وفي مثله يقول الشاعر

نجى بك لؤمك منجى الذباب * حمته مقاذيره أن ينالا

وأسمع رجل ابن هبيرة فاعرض عنه فقال له الرجل اياك أعني فقال له وعنك أعرض * وفي مثله يقول الشاعر

فاذهب فانت طليق عرضك انه * عرض عززت به وأنت ذليل

وقال عمرو بن علي

اذا نطق السفيه فلا تجبه * فخير من اجابته السكوت

سكت عن السفيه فظن أني * عييت عن الجواب وما عييت

* والخامس من أسبابه الاستحياء من جواب الجواب وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة وقد قال بعض الحكماء احتمال السفيه خير من التحلي بصورته والاغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته * وقال بعض الادباء ما أفحش حليم ولا أوحش كريم * وقال لقيط بن زرارة

وقل لبني سعد فمالي ومالكم * ترقون مني ما استطعتم وأعتق

أغركم أني باحسن شيمة * بصير وأني بالفواحش أخرق

وان تك قد فاحشتني فقهرتني * هنيئا مريئا أنت بالفحش أحذق

والسادس من أسبابه التفضل على السباب فهذا يكون من الكرم وحب التألف كما قيل للاسكندر ان فلانا وفلانا ينتقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهما فقال هما بعد العقوبة أعذر في تنقصي وثلبي فكان هذا تفضلا منه وتألفا وقد حكي عن الاحنف بن قيس أنه قال ما عاداني أحد قط الا أخذت في أمره باحدى ثلاث خصال ان كان أعلى مني عرفت له قدره وان كان دوني رفعت قدري عنه وان كان نظيري تفضلت عليه فأخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب * وان كثرت منه الي الجرائم

فما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم

فاما الذي فوقي فاعرف قدره * وأتبع فيه الحق والحق لازم

وأما الذي دوني فاحلم دائبا * أصون به عرضي وان لام لائم

وأما الذي مثلي فان زل أوهفا * تفضلت ان الفضل بالفخر حاكم

عنه ويرى ان القاتل الذي يدعي الشطارة والمصارع الذي يهوى الغلبة كل واحد منهما يصبر على شدائد عظيمة من تقطيع أعضاء نفسه وترك الشهوات التي يتمكن منها طلبا لما يحصل له من الغلبة وانتشار الصيت فيرى نفسه أحرى وأولى منهما بالصبر اذا كان غرضه أشرف وصيته في الفضلاء أبلغ وأشهر وأكرم ولانه يسعد في نفسه ثم يصير قدوة لغيره (وارسطوطاليس) يقول ان بعض الاشياء تعرض من سوء البخت بما يكون يسيرا سهل المحتمل فاذا عرض للانسان واحتمله لم يكن فيه دلالة على كبر نفسه وعظم همته ومن لم يكن سعيدا ولا سبقت له رياضة بهذه الصناعة الشريفة من تهذيب الاخلاق فانه سينفعل انفعالا قويا فيعرض له عند حلول المصائب احدى الحالتين * اما الاضطراب الفاحش والالم الشديد والخروج بها الى الحد الذي يرثى له ويرحم * واما ان يتشبه بالسعداء ويسمع مواعظهم فيظهر الصبر والسكون الا انه جزع الباطن متألم الضمير وكما ان الاعضاء المفلوجة اذا حركت الى اليمين تحركت الى الشمال كذلك تكون حركات نفوس الاشرار تتحرك الى خلاف ما يحملونها عليه من الجميل أعني اذا تشبهوا بالاجواد وأهل العدالة كانت هذه حالهم

﴿رأى أرسطاطاليس في بقاء النفس﴾

ومما يستدل به من كلام أرسططاليس على انه كان يقول ببقاء النفس وبالمعاد كلامه المتداول في كتاب الاخلاق وهو هذا * قال قد حكمنا ان السعادة شيء ثابت غير متغير وقد علمنا أيضا ان الانسان قد تلحقه تغيرات كثيرة واتفاقات شتى فانه قد يمكن لمن هو أرغد الناس عيشا ان يصاب بمصائب عظيمة كما رمز في برناس ومن يتفق له هذه المصائب .

والا

* والسابع من أسبابه استنكاف السباب وقطع السباب وهذا يكون من الحزم كما حكي أن رجلا قال لضرار بن القعقاع والله لو قلت واحدة لسمعت عشرا فقال له ضرار والله لو قلت عشرا لم تسمع واحدة * وحكي أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال لعامر بن مرة الزهري من أحمق الناس قال من ظن أنه أعقل الناس قال صدقت فمن أعقل الناس قال من لم يجاوز الصمت في عقوبة الجهال وقال الشعبي ما أدركت أمي فابرها ولكن لا أسب أحدا فيسبها * وقال بعض الحكماء في اعراضك صون أعراضك * وقال بعض الشعراء

وفي الحلم ردع للسفيه عن الاذى * وفي الخرق اغراء فلا تك أخرقا
فتندم اذ لا تنفعنك ندامة * كما ندم المغبون لما تفرقا

وقال آخر

قل ما بدا لك من زور ومن كذب * حلمي أصم وأذني غير صماء

* والثامن من أسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون من ضعف النفس وربما أوجبه الرأي واقتضاه الحزم * وقد قيل في منثور الحكم الحلم حجاب الآفات * وقال الشاعر

ارفق اذا خفت من ذي هفوة خرقا * ليس الحليم كمن في أمره خرق

* والتاسع من أسبابه الرعاية ليد سالفة وحرمة لازمة وهذا يكون من الوفاء وحسن العهد وقد قيل في منثور الحكم أكرم الشيم أرعاها للذمم * وقال الشاعر

ان الوفاء على الكريم فريضة * واللؤم مقرون بذي الاخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفا * وترى اللئيم مجانب الانصاف

* والعاشر من أسبابه المكر وتوقع الفرص الخفية وهذا يكون من الدهاء وقد قيل في منثور الحكم * من ظهر غضبه قل كيده * وقال بعض الادباء غضب الجاهل في قوله وغضب العاقل في فعله * وقال بعض الحكماء اذا سكت عن الجاهل فقد أوسعته جوابا وأوجعته عقابا * وقال إياس بن قتادة

تعاقب أيدينا ويحلم رأينا * ونشتم بالافعال لا بالتكلم

وقال بعض الشعراء

وللكف عن شتم اللئيم تكرما * أضر له من شتمه حين يشتم

فهذه عشرة أسباب تدعو الى الحلم وبعض الاسباب أفضل من بعض وليس اذا كان بعض أسبابه مفضولا ما يقتضي أن تكون نتيجته من الحلم مذمومة وانما الاولى بالانسان أن يدعوه للحلم أفضل أسبابه وان كان الحلم كله فضلا وان عرى عن أحد هذه الاسباب كان ذلا ولم يكن حلما لاننا قد ذكرنا ان حد الحلم انه ضبط النفس عن هيجان الغضب فاذا فقد الغضب لسماع ما يغضب كان ذلك من ذل النفس وقلة الحمية * وقد قالت الحكماء ثلاثة لا يعرفون

وماتت عليها فليس يسميه أحد من الناس سعيدا وليس ينبغى على هذا القياس ان يسمى انسان من الناس سعيدا ما دام حيا بل ينتظر به آخر عمره ثم يحكم عليه فالانسان اذن انما يصير سعيدا اذا مات الا ان هذا قول فى غاية الشناعة اذا كنا نقول ان السعادة هى خير ما ثم قال فى هذا الموضع أيضا موضع شك فانه قد يظن بالميت ان يلحقه خير وشر اذ قد يلحق الحى أيضا وهو لا يحس به مثل الكرامة او الهوان واستقامة أمر الاولاد وأولاد الاولاد فى هذه الاشياء خير لانه قد يمكن فيمن عاش عمره كله الى أن يبلغ الشيخوخة سعيدا وتوفى على هذا السبيل أن يلحقه مثل هذه التغيرات فى أولاده حتى يكون بعضهم خيارا حسن السيرة وبعضهم بضد ذلك * ومن البين أنه قد يمكن ان يوجد بين الآباء والاولاد تباين واختلاف بكل جهة * ولكن من المنكر أن يكون الميت بتغير غيره يصير مرة سعيدا ومرة أخرى شقيا ومن المنكر أن لا تكون أمور الاولاد متصلة بالوالدين فى وقت من الاوقات ولكن ينبغى أن نعود الى ما كان الشك واقعا فيه * فهذا الشك الذى أورده ارسطوطاليس على نفسه فى هذا الموضع هو شك من يعتقد ان للانسان بعد موته أحوالا وانه يتصل به لا محالة من أمور أولاده وأولاد أولاده أحوال مختلفة بحسب أخلاق سير الاولاد فكيف تقول ليت شعرى فى الانسان اذا مات سعيدا ثم لحقه من شقى بعض أولاده أو سوء سيرة من يجيء من نسله ما يكون ضد سيرته وهو حى فانه ان غير سعادته كان هذا شنيعا وان لم يلحقه أيضا شئ من ذلك كان أيضا شنيعا * ثم ارسطوطاليس يحل هذا الشك بأن يقول ما هذا معناه ان سيرة الانسان ينبغى ان تكون سيرة محمودة لانه يختار فى كل

الا فى ثلاثة مواطن لا يعرف الجواد الا فى العسرة والشجاع الا فى الحرب والحليم الا فى الغضب * وقال الشاعر

ليست الاحلام فى حال الرضى * انما الاحلام فى حال الغضب

وقال آخر

من يدعى الحلم أغضبه لتعرفه * لا يعرف الحلم الا ساعة الغضب

وأنشد النابغة الجعدى بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا خير فى حلم اذا لم يكن له * بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل اذا لم يكن له * حليم اذا ما أورد الامر أصدرا

فلم ينكر صلى الله عليه وسلم قوله عليه ومن فقد الغضب فى الاشياء المغضبة حتى استوت حالتاه قبل الاغضاب وبعده فقد عدم من فضائل النفس الشجاعة والانفة والحمية والغيرة والدفاع والاخذ بالثار لانها خصال مركبة من الغضب فاذا عدمها الانسان هان بها ولم يكن لباقى فضائله فى النفوس موضع ولا لوفور حلمه فى القلوب موقع * وقد قال المنصور اذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة * وقال بعض الحكماء العفو يفسد من اللئيم بقدر اصلاحه من الكريم وقال عمرو بن العاص اكرموا سفهاءكم فانهم يقونكم العار والشنار وقال مصعب بن الزبير ما قل سفهاء قوم الا ذلوا وقال أبو تمام الطائى

والحرب تركب رأسها فى مشهد * عدل السفيه به بألف حليم

وليس هذا القول أغراء بحكم الغضب والانقياد اليه عند حدوث ما يغضب فيكسب بالانقياد للغضب من الرذائل أكثر مما يسلبه عدم الغضب من الفضائل ولكن اذا ثار به الغضب عند هجوم ما يغضبه كف سورته بحزمه وأطفأ ثائرته بحلمه ووكل من استحق المقابلة الى غيره ولم يعدم مسيئا مكافيا كما لم يعدم محسنا مجازيا والعرب تقول دخل بيننا ما أخرج منه أى ان أخرج منه خير دخله خير وان أخرج منه شر دخله شر وأنشد بن دريد عن أبى حاتم

اذا أمن الجهال جهلك مرة * فعرضك للجهال غنم من الغنم
فعم عليه الحلم والجهل والقه * بمنزلة بين العداوة والسلم
اذا أنت جازيت السفيه كما جزى * فأنت سفيه مثله غير ذى حلم
ولا تغضبن عرض السفيه وداره * بحلم فان أعيا عليك فبالصرم
فيرجوك تارات ويخشاك تارة * ويأخذ فيما بين ذلك بالحزم
فان لم تجد بدا من الجهل فاستعن * عليه بجهال فذاك من العزم

وهذه من أحكم أبيات وجدتها فى تدبير الحلم والغضب وهذا التدبير انما يستعمل فيما لا يجد الانسان بدا من مقارنته ولا سبيل الى طراحه ومتاركته اما لخوف شره أو للزوم أمره فأما

ما يعرض له أفضل الاعمال من الصبر مرة ومن اختيار الافضل فالافضل مرة * ومن التصرف فى الاموال اذا اتسع فيها وحسن التجمل اذا عدمها يكون سعيدا فى جميع أحواله غير منتقل عن السعادة بوجه من الوجوه * فالسعيد اذا ورد عليه نحس عظيم جعل سيرته أكثر سعادة لانه يداريه مداراة جميلة ويصبر على الشدائد صبرا حسنا * ومتى لم يفعل ذلك كدر سعادته ونغصها وجلب له أحزانا وغموما تعوقه عن أفعال كثيرة * والجميل اذا ظهر من السعداء فى هذه الاحوال والافعال كان أشد اشراقا وحسنا وذلك اذا احتمل ما كبر وعظم من المصائب احتمالا سهلا بعد أن لا يكون ذلك لا لعدم حسه ولا لنقصان فهمه بالامور بل لشهامته وكبر نفسه * قال اذا كانت الافعال هى ملاك السيرة كما قلنا فليس يكون أحد من السعداء شقيا لانه ليس يفعل فى وقت من الاوقات أفعالا مرذولة فاذا كان هكذا فالسعيد أبدا يكون مغبوطا وان حلت به المصائب التى حلت بفرياموس ولا يكون أيضا شقيا ولا سريع التنقل من ذلك لانه ليس ينتقل عن السعادة بسهولة ولا تنقله عنها الاوقات اليسيرة بل لا تنقله عنها الآفات العظيمة الكثيرة وليس يكون سعيدا اذا نالته هذه الامور زمانا يسيرا بل اذا ظفر بأمور جميلة فى زمان طويل * ثم قال بعد قليل وأما حال الانسان بعد موته فالقول بان الآفات التى تعرض لاولاد الميت وأصدقائه باجمعهم ليست تتعلق به أصلا مضاد لما يعتقده جميع الناس * واذا كانت الامور العارضة لهؤلاء كثيرة متفننة وكان بعضها يتعدى الى الميت أكثر وبعضها أقل صارت قسمتنا اياها الى الاشياء الجزئية بلا نهاية * وأما اذا قيل قولا كليا وعلى طريق

من أمكن اطراحه ولم يضر بسعادته فالهوان به أولى والاعراض عنه أصوب فاذا كان على ما وصفت استفاد بتحريك الغضب فضائله وأمن بكف نفسه عن الانقياد له رذائله وصار الحلم مدبرا للامور المغضبة بقدر لا يعتريه نقص بعدم الغضب ولا يلحقه زيادة بفقد الحلم ولو عزب عنه الحلم حتى انقاد لغضبه ضل عنه وجه الصواب فيه وضعف رأيه عن خبرة أسبابه ودواعيه حتى يصير بليد الرأى مغمور الروية مقطوع الحجة مسلوب العزاء قليل الحيلة مع ما يناله من أثر ذلك فى نفسه وجسده حتى يصير أضر عليه مما غضب له * وقد قال بعض الحكماء من كثر شططه كثر غلطه * وروى أن سلمان قال لعلى رضى الله عنه ما الذى يباعدنى عن غضب الله عز وجل قال لا تغضب * وقال بعض السلف أقرب ما يكون العبد من غضب الله عز وجل اذا غضب * وقال بعض البلغاء من رد غضبه هد من أغضبه * وقال بعض الادباء ما هيج جاشك كغيظ أجاشك * وقال رجل لبعض الحكماء عظنى قال لا تغضب فينبغى لذى اللب السوى والحزم القوى أن يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدها ويقابل دواعى شره بحزمه فيردها ليحظى باجل الخيرة ويسعد بحميد العاقبة * وقال بعض الادباء فى اغضابك راحة أعصابك وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها وسبب الحزن هجوم ما تكرهه النفس ممن فوقها والغضب يتحرك من داخل الجسد الى خارجه والحزن يتحرك من خارج الجسد الى داخله فلذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب لبروز الغضب وكمون الحزن وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبروزه والحادث عن الحزن المرض والاسقام لكمونه ولذلك أفضى الحزن الى الموت ولم يفض اليه الغضب فهذا فرق ما بين الحزن والغضب * واعلم أن لتسكين الغضب اذا هجم أسبابا يستعان بها على الحلم منها أن يذكر الله عز وجل فيدعوه ذلك الى الخوف منه ويبعثه الخوف منه على الطاعة له فيرجع الى أدبه ويأخذ بندبه فعند ذلك زوال الغضب * قال الله تعالى (واذكر ربك اذا نسيت) قال عكرمة يعنى اذا غضبت وقال الله تعالى (واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله) ومعنى قوله ينزغنك أى يغضبنك فاستعذ بالله انه هو السميع العليم يعنى انه سميع بجهل من جهل عليم بما يذهب عنك الغضب * وذكر ان فى التوراة مكتوبا يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب اذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق وحكى أن بعض ملوك الفرس كتب كتابا دفعه الى وزيره وقال اذا غضبت فناولنيه وكان فيه مالك والغضب انما أنت بشر ارحم من فى الارض يرحمك من فى السماء * وقال بعض الحكماء من ذكر قدرة الله لم يستعمل قدرته فى ظلم عباد الله * وقال عبد الله بن مسلم بن محارب لهارون الرشيد يا أمير المؤمنين أسألك بالذى أنت بين يديه أذل منى بين يديك وبالذى هو أقدر على عقابك منك على عقابى لما

عفوت

الرسم نخليق أن نكتفي بما نقوله فيها وهو أنه كما أن الآفات التي تعرض للميت في حياته بعضها يثقل عليه احتماله ويتلف سيرته وبعضها يخف عليه احتماله كذلك يكون حاله فيما يعرض لاولاده وأصدقائه وكل واحد من العوارض التي تعرض للاحياء مخالف لما يعرض لهم اذا ماتوا أكثر من مخالفة كل ما يضرب به المثل ويشبه ان كان يصل اليهم من هذه الاشياء شيء خيرا كان أو شرا أن يكون يسيرا نزرا بمقدار ما لا يجعل غير السعيد سعيدا ولا ينتزع السعادة من السعداء فهذا حل ارسطوطاليس للشك الذي أورده

لذة السعادة

ولما قلنا ان السعادة ألذ الاشياء وأفضلها وأجودها وأوضحها وجب أن نبين وجه اللذة فيها بأتم بيان كما قلناه فيما مضى ان اللذة تنقسم الى قسمين أحدهما لذة انفعالية والاخرى لذة فعلية أي فاعلة * فأما اللذة الانفعالية فهي شبيهة بلذة الاناث واللذة الفاعلة تشبه لذة الذكور * ولذلك صارت اللذة الانفعالية هي التي تشاركنا فيها الحيوانات التي ليست بناطقة وذلك أنها مقترنة بالشهوات ومحبة الانتقام وهي انفعالات النفسين البهيميتين * وأما اللذة الاخرى فهي الفاعلة وهي التي يختص بها الحيوان الناطق ولأنها غير هيولانية ولا منفعلة انفعالا لأنها صارت لذة تامة وتلك ناقصة وهذه ذاتية وتلك عرضية * وأعني بالذاتية والعرضية ان اللذات الحسية المقترنة بالشهوات تزول سريعا وتنقضي وشيكا بل تنقلب لذاتها فتصير غير لذات بل تصير آلاما كثيرة أو مكروهة بشعة مستقبحة وهذه أضداد اللذة ومقابلاتها * وأما اللذة الذاتية فانها لا تصير في وقت آخر غير لذة ولا تنتقل عن حالتها بل

عفوت عنه فما عنه لما اذكره قدرة الله تعالى * وروى ان رجلا شكى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم القسوة فقال اطلع في القبور واعتبر بالنشور * وكان بعض ملوك الطوائف اذا غضب ألقي عنده مفاتيح ترب الملوك فيزول غضبه ولذلك قال عمر رضي الله عنه من أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير * ومنها أن ينتقل عن الحالة التي هو فيها الى حالة غيرها فيزول عنه الغضب بتغير الاحوال والتنقل من حال الى حال وكان هذا مذهب المأمون اذا غضب أو شتم وكانت الفرس تقول اذا غضب القائم فليجلس واذا غضب الجالس فليقم * ومنها أن يتذكر ما يؤول اليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام * وكتب ابرويز الى ابنه شيرويه ان كلمة منك تسفك دما وأخرى منك تحقن دما وان نفاذ أمرك مع كلامك فاحترس في غضبك من قولك أن يخطئ ومن لونك أن يتغير ومن جسدك أن يخف فان الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلما * وقال بعض الحكماء الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لؤم * وقال بعض الادباء اياك وعزة الغضب فانها تفضي الى ذل العذر وقال بعض الشعراء

وإذا ما اعترتك في الغضب العزة * فاذكر تذلل الاعتذار

* ومنها ان يتذكر ثواب العفو وجزاء الصفح فيقهر نفسه على الغضب رغبة في الجزاء والثواب وحذرا من استحقاق الذم والعقاب * روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ينادي مناد يوم القيامة من له أجر على الله عز وجل فليقم فيقوم العافون عن الناس ثم تلا فمن عفا وأصلح فأجره على الله * وقال رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان في أسارى بن الاشعث ان الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فاعط الله ما يحب من العفو * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال * الخير ثلاث خصال فمن كن فيه فقد استكمل الايمان من اذا رضي لم يدخله رضاه في باطل واذا غضب لم يخرجه غضبه من حق واذا قدر عفا * وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلاما فقال عمر أردت أن يستفزني الشيطان لعزة السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غدا انصرف رحمك الله * ومنها أن يذكر انعطاف القلوب عليه وميل النفوس اليه فلا يرى اضاعة ذلك بتغير الناس عنه فيرغب في التألف وجميل الثناء * وروى ابن أبي ليلى عن عطية عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ازداد أحد بعفو الا عزا فاعفوا يعزكم الله * وقال بعض البلغاء ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ولا من شروط الكرم ازالة النعم * وقال المأمون لابراهيم بن المهدي اني شاورت في أمرك فأشاروا علي بقتلك الا اني وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم حرمتك فقال يا أمير المؤمنين ان المشير أشار بما جرت به العادة في السياسة الا أنك أبيت أن تطلب النصر الا من حيث ما عودته من العفو فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك وأنشأ يقول

البر بي منك وطأ العذر عندك لي * فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم

هي ثابتة أبدا * واذا كانت كذلك فقد صح حكمنا ووضح أن السعيد تكون لذته ذاتية لا عرضية وعقلية لا حسية وفعلية لا انفعالية والهية لا بهيمية * ولذلك قالت الحكماء ان اللذة اذا كانت صحيحة ساقت البدن من النقص الى التمام ومن السقم الى الصحة * وكذلك تسوق النفس من الجهل الى العلم ومن الرذيلة الى الفضيلة * الا أن ههنا سرا ينبغي أن يقف عليه المتعلم * وهو أن ميله الى اللذة الحسية ميل قوى جدا وشوقه اليها شوق مزعج ولا تزيد العادة في قوة الطبع الذي لنا كبير زيادة لفرط ما جبلنا عليه في البدء من القوة والشوق * ولذلك متى كانت هذه اللذة حسية قبيحة جدا ثم مال الطبع اليها بافراط وانفعل عنها بقوة استحسن الانسان فيها كل قبيح وهون على نفسه منها كل صعب ولا يرى موضع الغلط ولا مكان القبيح حتى تبصره الحكمة وأما اللذة العقلية الجميلة فأمرها بالضد * وذلك أن الطبع يكرهها فان انصرف الانسان اليها بمعرفته وتمييزه احتاج فيها الى صبر ورياضة حتى اذا تبصر فيها وتدرب لها انكشف له حسنها وبهاؤها وصارت عنده بمكان في الحسن * ومن هنا تبين أن الانسان في ابتداء تكوينه محتاج الى سياسة الوالدين ثم الى الشريعة الالهية والدين القيم حتى تهذبه وتقومه الى الحكم البالغة ليتولى تدبير نفسه الى آخر عمره وقد تبين مع ذلك تعلق السعادة بالجود * وذلك أنا قد بينا أن اللذة تابعة لها ولذة الفاعل أبدا تكون في الاعطاء ولذة المنفعل أبدا تكون في الاخذ ولا تظهر لذة السعيد الا بابراز فضائله واظهار حكمته ووضعها كفائته في مواضعها وكذلك البناء الحاذق والصانع

وقام علمك بي فاحتج عند لك لي * مقام شاهد عدل غير متهم
لئن جحدتك معروفا مننت به * اني لفي اللؤم أحظى منك بالكرم
تعفو بعدل وتسطو ان سطوت به * فلا عدمناك من عاف ومنتقم

﴿الفصل الخامس في الصدق والكذب﴾ قال الله تعالى وهو أصدق القائلين ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * وقال تعالى انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال للحسن بن علي رضي الله عنهما * دع ما يريبك الى ما لا يريبك * فان الكذب ريبة والصدق طمأنينة * وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال رحم الله امرأ أصلح من لسانه وأقصر من عنانه وألزم طريق الحق مقوله ولم يعود الخطل مفصله * وروى صفوان بن سليم قال قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أيكون المؤمن جبانا قال نعم قيل أفيكون بخيلا قال نعم قيل أفيكون كذابا قال لا * وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ولا تلبسوا الحق بالباطل أي لا تخلطوا الصدق بالكذب * وقيل في منثور الحكم الكذاب لص لان اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك * وقال بعض الحكماء الخرس خير من الكذب وصدق اللسان أول السعادة * وقال بعض البلغاء الصادق مصان جليل والكاذب مهان ذليل * وقال بعض الادباء لا سيف كالحق ولا عون كالصدق * وقال بعض الشعراء

وما شئ اذا فكرت فيه * بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه * وأبعد بالبهاء من الرجال

والكذب جماع كل شر وأصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتائجه لانه ينتج النميمة والنميمة تنتج البغضاء والبغضاء تؤول الى العداوة وليس مع العداوة أمن ولا راحة ولذلك قيل من قل صدقه قل صديقه * والصدق والكذب يدخلان الاخبار الماضية كما أن الوفاء والخلف يدخلان المواعيد المستقبلة فالصدق هو الاخبار عن الشئ على ما هو عليه والكذب هو الاخبار عن الشئ بخلاف ما هو عليه ولكل واحد منهما دواع فدواعي الصدق لازمة ودواعي الكذب عارضة لان الصدق يدعو اليه عقل موجب وشرع مؤكد فالكذب يمنع منه العقل ويصد عنه الشرع ولذلك جاز أن تستفيض الاخبار الصادقة حتى تصير متواترة ولم يجز أن تستفيض الاخبار الكاذبة لان اتفاق الناس في الصدق والكذب انما هو لاتفاق الدواعي فدواعي الصدق يجوز أن يتفق الجمع الكثير عليها حتى اذا نقلوا خبرا وكانوا عددا ينتفي عن مثلهم المواطأة وقع في النفس صدقه لان الدواعي اليه نافعة واتفاق الناس في الدواعي النافعة ممكن ولا يجوز أن يتفق العدد الكثير الذي لا يمكن مواطأة مثلهم على نقل خبر يكون كذبا لان الدواعي اليه غير نافعة وربما كانت ضارة وليس

ف

اللطيف والموسيقاني المحسن وبالجملة كل صانع حاذق فاضل في صناعته يسر باظهار فضائله واذاعتها بين أهلها ومستحقيها * وهذا هو معنى الجود الان الجود باعلى الاشياء واكرمها أفضل وأشرف من الجود بأدونها وأخسها وقد عرض لهذا الجود مع شرفه وعلو مرتبته ضد ما عرض لذلك الجود الآخر مع نزارته وقلته * وذلك ان

في جاري العادة أن يتفق الجمع الكثير على دواع غير نافعة ولذلك جاز اتفاق الناس على الصدق لجواز اتفاق دواعيهم ولم يجز أن يتفقوا على الكذب لامتناع اتفاق دواعيهم * واذا كان للصدق والكذب دواع فلا بد من ذكر ما سنح به الخاطر من دواعيهما أما دواعي الصدق فمنها العقل لانه موجب لقبح الكذب لاسيما اذا لم يجلب نفعا ولم يدفع ضررا والعقل يدعو الى فعل ما كان مستحسنا ويمنع من اتيان ما كان مستقبحا وليس ما استحسن من مبالغات الشعراء حتى صار كذبا صراحا استحسانا للكذب في العقل كالذي أنشدنيه الأزدي لبعض الشعراء

توهمه فكري فأصبح خده * وفيه مكان الوهم من فكري أثر
وصافحه كفي فآلم كفه * فمن لمس كفي في أنامله عقر
ومر بقلبي خاطرا فجرحته * ولم أر شيأ قط يجرحه الفكر

وكقول العباس بن الاحنف وان كان دون هذه المبالغة

تقول وقد كتبت دقيق خطي * اليها لم تجنبت الجليلا
فقلت لها نحلت فصار خطي * مساعدة لكاتبه نحيلا

لانه خرج مخرج المبالغة في التشبيه والاقتدار على صنعة الشعر وان شواهد الحال تخرجه عن تلبيس الكذب وكذلك ما استحسن في الصنعة ولم يستقبح في العقل وان كان الكذب مستقبحا فيه ومنها الدين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب لان الشرع لا يجوز أن يرد بارخاص ما حظره العقل بل قد جاء الشرع زائدا على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب لان الشرع ورد بحظر الكذب وان جر نفعا أو دفع ضررا والعقل انما حظر ما لا يجلب نفعا ولا يدفع ضررا ومنها المروءة فانها مانعة من الكذب باعثة على الصدق لانها قد تمنع من فعل ما كان مستكرها فاولى من فعل ما كان مستقبحا ومنها حب الثناء والاشتهار بالصدق حتى لا يرد عليه قول ولا يلحقه ندم * وقد قال بعض البلغاء ليكن مرجعك الى الحق ومنزعك الى الصدق فالحق أقوى معين والصدق أفضل قرين * وقال بعض الشعراء

عود لسانك قول الصدق تحظ به * ان اللسان لما عودت معتاد
موكل بتقاضي ما سننت له * في الخير والشر فانظر كيف ترتاد

وأما دواعي الكذب فمنها اجتلاب النفع واستدفاع الضر فيرى أن الكذب أسلم وأغنم فيرخص لنفسه فيه اغترارا بالخدع واستشفافا للطمع وربما كان الكذب أبعد لما يؤمل وأقرب لما يخاف لان القبيح لا يكون حسنا والشر لا يصير خيرا وليس يجنى من الشوك العنب ولا من الكرم الحنظل * وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تحروا الصدق

صاحب الاموال والمقتنات الخارجة كلها ينتقص ماله بالانفاق وينثلم بالبذل وتفنى ذخائره وأما صاحب السعادة التامة فان أمواله لا تنتقص بالانفاق بل تزيد ولا تفنى ذخائره بالتبذير بل تنمو * وتلك معرضة للآفات الكثيرة من الاعداء واللصوص وسائر المتسلطين وهذه محروسة من كل آفة لا سبيل للاشرار والاعداء اليها بوجه ولا سبب وقد ظهرت لذة السعيد كيف تكون ومن أين تبتدئ والى أين تنتهي وكيف يكون السرور الحقيقي واللذة الذاتية وتبين أيضا أنها أبدية وتامة والهية وان ضدها هو الشقاء لذاته بالضد وعلى العكس أعني أن لذاته كلها عرضية ومنتقلة عن طبائعها الى أضدادها حتى تصير مؤلمة أو مكروهة وانها غير الهية بل شيطانية وغير ممدوحة بل هي مذمومة * وذلك بان ينظر في السعادة هل هي ممدوحة فان أرسطوطاليس

يقول ان الاشياء التي هي في غاية الفضل لا يوجد لها مدح لانها أفضل وأمدح وأجل من أن تمدح قال وذلك انا قد ننسب المتأهلين والخيار من الناس الى السعادة وليس يوجد أحد من الناس يمدح السعادة نفسها كما يمدح العدل * لكنه يجلها ويكرمها الى أنها أمر الهي بالاشياء التي هي أفضل من المدح وهو الله

تعالى والى الخير فان المدح هو الفضيلة والعمل بها * ثم انتهى كلامه هذا الى ان قال فالله تعالى أكرم وأشرف من أن يمدح بل انما يمجدونه ونحن نمجد الله تعالى ونقدسه تمجيدا كثيرا وأما السعادة فلانها أمر الهي وانما تفعل الاشياء كلها لاجلها فهي كذلك أيضا ممجدة * فعلى هذا الامر ينبغي ان لا تمدح السعادة لانها أجل من كل مدح بل نمجدها في نفسها ونمدح الامور كلها بها وبقدر قسطها منها

﴿المقالة الرابعة﴾

(ظهور الفضائل ممن ليس بسعيد ولا فاضل)

قد قلنا فيما سلف ان السعادة تظهر في الافعال من العدالة والشجاعة والعفة وسائر ما تحت هذه الانواع التي أحصيناها وحددناها

وهذه الافعال قد تظهر ممن ليس بسعيد ولا فاضل وذلك انه قد يعمل بعض الناس عمل العدول وليس بعادل ويعمل عمل الشجعان وليس بشجاع ويعمل عمل الاعفاء وليس بعفيف * مثال ذلك ان من ترك الشهوات من المآكل والمشارب وسائر اللذات التي ينهمك فيها غيره اما لانه ينتظر منها أكثر مما يحضره واما لانه لا يعرفها ولم يباشرها كالاعراب الذين يبعدون عن البلاد وكالرعاة في البوادي وقلل الجبال واما لانه ممتلئ مما يجده ويحضره واما لجمود شهوته ونقصان تركيبه واما لانه استشعر خوفا من تناولها ومكروها يلحقه بسببها
ثم
واما لانه ممنوع منها فان هؤلاء كلهم يعملون عمل الاعفاء وليسوا باعفاء على الحقيقة وانما يسمى عفيفا

وان رأيتم فيه الهلكة فان فيه النجاة وتجنبوا الكذب وان رأيتم أن فيه النجاة فان فيه الهلكة وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لان يضعني الصدق وقلما يفعل أحب الي من أن يرفعني الكذب وقلما يفعل * وقال بعض الحكماء الصدق منجيك وان خفته والكذب مرديك وان أمنته * وقال الجاحظ الصدق والوفاء توأمان والصبر والحلم توأمان بهن تمام كل دين وصلاح كل دنيا وأضدادهن سبب كل فرقة وأصل كل فساد ومنها أن يؤثر أن يكون حديثه مستعذبا وكلامه مستظرفا فلا يجد صدقا يعذب ولا حديثا يستظرف فيستحلي الكذب الذي ليست غرائبه معوزة ولا طرائفه معجزة وهذا النوع أسوأ حالا مما قبل لانه يصدر عن مهانة النفس ودناءة الهمة * وقد قال الجاحظ لم يكذب أحد قط الا لصغر قدر نفسه عنده * وقال ابن المقفع لا تتهاون بارسال الكذبة من الهزل فانها تسرع الى ابطال الحق ومنها أن يقصد بالكذب التشفي من عدوه فيسميه بقبائح يخترعها عليه ويصفه بفضائح ينسبها اليه ويرى أن معرة الكذب غنم وأن ارسالها في العدو سهم وسم وهذا أسوأ حالا من النوعين الاولين لانه قد جمع بين الكذب المعر والشر المضر ولذلك ورد الشرع برد شهادة العدو على عدوه ومنها أن تكون دواعي الكذب قد ترادفت عليه حتى ألفها فصار الكذب له عادة ونفسه اليه منقادة حتى لو رام مجانبة الكذب عسر عليه لان العادة طبع ثان * وقد قالت الحكماء من استحلى رضاع الكذب عسر فطامه * وقيل في منثور الحكم لا يلزم الكذاب شيء الا غلب عليه * واعلم أن للكذاب قبل خبرته أمارات دالة عليه فمنها أنك اذا لقنته الحديث تلقنه ولم يكن بين ما لقنته وبين ما أورده فرق عنده ومنها أنك اذا شككته فيه تشكك حتى يكاد يرجع فيه ولولاك ما تخالجه الشك فيه ومنها أنك اذا رددت عليه قوله حصر وارتبك ولم يكن عنده نصرة المحتجين ولا برهان الصادقين ولذلك قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الكذاب كالسراب ومنها ما يظهر عليه من ريبة الكذابين وينم عليه من ذلة المتوهمين لان هذه أمور لا يمكن الانسان دفعها عن نفسه لما في الطبع من آثارها * ولذلك قالت الحكماء العينان أنم من اللسان * وقال بعض البلغاء الوجوه مرايا تريك أسرار البرايا * وقال بعض الشعراء

تريك أعينهم ما في صدورهم * ان العيون يؤدي سرها النظر

واذا اتسم بالكذب نسبت اليه شوارد الكذب المجهولة وأضيفت الى أكاذيبه زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب مكذوبا عليه فيجمع بين معرة الكذب منه ومضرة الكذب عليه * وقد قال الشاعر

حسب الكذوب من البلية بعض ما يحكى عليه
فاذا سمعت بكذبة * من غيره نسبت اليه

على الحقيقة من وفى العفة حدها المذكور فيما تقدم واختارها لنفسها لا لغرض آخر غيرها وآثرها لانها فضيلة ثم تناول كل واحدة من شهواته بمقدار الحاجة ومن الوجه الذي ينبغي وفي الوقت الذي ينبغي وعلى الحال الذي ينبغي * وكذلك حال الذي يعمل أعمال الشجعان وليس بشجاع * وذلك أن من باشر

الحروب وأقدم على ركوب الاهوال لبعض ما يوصل اليه المال أو لبعض الرغبات التي لا تجحد كثرة فان مثل هذا يعمل عمل الشجعان ولكن يعمله بطبيعة الشره لا بطبيعة الفضيلة التي تدعى شجاعة * وكل من كان أكثر اقداما وأصبر على الاهوال لهذه الاحوال يجب ان يكون أكثر شرها ونهما لا أكثر شجاعة * وذلك انه يخاطر بنفسه الشريفة ويصبر على المكاره العظيمة طمعا في المال وما يصل اليه بالمال * وقد رأينا أهل الشقاوة يعملون عمل الاعفاء وعمل الشجعان وهم أبعد الناس عن كل فضيلة * وذلك انهم يصبرون عن الشهوات كلها ويصبرون على عقوبات السلطان وضرب السياط وتقطيع الاعضاء والجراحات التي لا يؤمن منها وينتهون فيها الى اقصى الصبر على الصلب وسمل العيون وقطع الايدي والارجل وضروب التمثيل طلبا للاسم وذكر بين قوم في مثل حالهم من سوء الاختيار ونقصان الفضائل * وقد يعمل أيضا عمل الشجعان من يخاف لائمة عشيرته أو عقوبة سلطان أو خوف سقوط جاهه أو ما أشبه ذلك * وقد يعمل عمل الشجعان من اتفق له مرارا كثيرة ان يغلب أقرانه فهو يقدم ثقة منه بالعادة الجارية وجهلا بمواقع الاتفاقات * وقد يعمل عمل الشجعان

ثم انه ان تحرى الصدق اتهم وان جانب الكذب كذب حتى لا يعتقد له حديث بصدق ولا كذب مستنكر * وقد قال الشاعر

اذا عرف الكذاب بالكذب لم يكد * يصدق في شئ وان كان صادقا
ومن آفة الكذاب نسيان كذبه * وتلقاه ذا حفظ اذا كان صادقا

وقد وردت السنة بارخاص الكذب في الحرب واصلاح ذات البين على وجه التورية والتأويل دون التصريح به فان السنة لا يجوز أن ترد باباحة الكذب لما فيه من التنفير وانما ذلك على طريق التورية والتعريض كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطرف برداء وانفرد عن أصحابه فقال له رجل ممن أنت قال من ماء فورى عن الاخبار بنسبه بأمر يحتمل فظن السائل أنه عنى القبيلة المنسوبة الى ذلك وانما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من الماء الذي يخلق منه الانسان فبلغ ما أحب من اخفاء نفسه وصدق في خبره وكالذي حكى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر معه فتلقاه العرب وهم يعرفون أبا بكر ولا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون يا أبا بكر من هذا فيقول هاد يهديني السبيل فيظنون أنه يعني هداية الطريق وهو انما يريد هداية سبيل الخير فيصدق في قوله ويوري عن مراده * وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب * وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان في المعاريض ما يكفي أن يعف الرجل عن الكذب * وقال بعض أهل التأويل في قوله تعالى لا تؤاخذني بما نسيت أنه لم ينس ولكنه معاريض الكلام * وقال ابن سيرين الكلام أوسع من أن يصرح فيه بالكذب * واعلم أن من الصدق ما يقوم مقام الكذب في القبح والمعرة ويزيد عليه في الاذى والمضرة وهي الغيبة والنميمة والسعاية * فأما الغيبة فانها خيانة وهتك ستر يحدثان عن حسد وغدر قال الله تعالى * ولا يغتب بعضكم بعضا * أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا * يعني أنه كما لا يحل لحمه ميتا لا تحل غيبته حيا * وروي أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فاخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال صامتا عما أحل لهما وأفطرتا على ما حرم عليهما * وروت أسماء بنت يزيد قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقا على الله عز وجل أن يحرم لحمه على النار * وقال عدي بن حاتم الغيبة رعى اللئام وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول الغيبة فاكهة النساء * وقال رجل لابن سيرين رحمه الله اني اغتبتك فاجعلني في حل فقال ما أحب أن أحل لك ما حرم الله عليك * وقال ابن السماك لا تعن الناس على عيبك بسوء غيبك * وقال الشاعر

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا * فيهتك الله سترا عن مساويكا

العشاق وذلك أنهم يركبون الاهوال فى طلب المعشوق لرغبتهم فى الفجور أو لحرصهم على متعة العين منه لا لطلب الفضيلة ولا لاختيار الموت الجميل على الحياة الرديئة كما يفعل الشجاع بالحقيقة * وأما شجاعة الاسد والفيل واشباههما من الحيوانات فانها تشبه الشجاعة وليست بشجاعة حقيقية * وذلك أنها قد وثقت بقوتها اذ انها تفوق غيرها فهى تقدم لا بطبيعة الشجاعة بل لتمام القدرة وثقة النفس والغلبة * وما كان منها سبعا فهو مع هذه الحال مزاح العلة فى السلاح الذى عدمه وهو كصاحب السلاح هنا اذا قدم على الاعزل * وليست هذه شجاعة مع عدم الاختيار الذى يستعمله الشجاع * وذلك ان الشجاع خوفه من الامر أشد من خوفه من الموت ولذلك يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة * على أن لذة الشجاع ليست تكون فى مبادئ أموره فان مبادئ الامور تكون مؤذية له لكنها تكون فى عواقب الامور وتكون أيضا باقية مدة عمره وبعد عمره لاسيما اذا حامى عن دينه وعن اعتقاداته الصحيحة فى وحدانية الله عز وجل والشريعة التى هى سياسة الله وسنته العادلة التى بها مصالح العباد فى الدنيا والآخرة فان مثل هذا فكر فى قصر مدة عمره وعلم انه لامحالة سيموت بعد أيام ثم كان محبا للجميل ثابتا على الرأى الصحيح فهو لامحالة يحامى عن دينه ويمنع العدو من استباحة حريمه والتغلب على مدينته ويأنف من الفرار ويعلم ان الجبان اذا اختار الفرار فانما يستبقى شيأ هو لامحالة فان زائل وان تأخر أياما معدودة ثم هو فى هذه الحياة اليسيرة يمقوت مكدر الحياة بالذل وضروب .

واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا * ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

وربما عذر المغتاب نفسه بانه يقول حقا ويعلن فسقا ويستشهد بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة الامام الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه فيبعد من الصواب ويجانب الادب لانه وان كان بالغيبة صادقا فقد هتك سترا كان بصونه أولى وجاهر من أسر وأخفى وربما دعى المغتاب ذلك الى اظهار ما كان يستره والمجاهرة بما كان يضمره فلم يفد ذلك الا فسادا أخلاقه من غير أن يكون فيه صلاح لغيره وقد قيل لانوشروان ما الذى لا خير فيه قال ما ضرنى ولم ينفع غيرى أو ضر غيرى ولم ينفعنى فلا أعلم فيه خيرا * وقيل فى منثور الحكم لا تبد من العيوب ما ستره علام الغيوب * وقد روى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال هى أن تقول لاخيك ما فيه فان كنت صادقا فقد اغتبته وان كنت كاذبا فقد بهته وقال عبد الرحمن بن زيد فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم انه استهزاء المسلم بمن أعلن بفسقه * ودخلت امرأة على النبى صلى الله عليه وسلم مستفتية فلما خرجت قالت عائشة رضى الله عنها يا رسول الله ما أقصرها فقال مهلا اياك والغيبة فقالت يا رسول الله انما قلت ما فيها قال أجل ولولا ذلك لكان بهتانا * وسئل بعض الادباء عن صفة اللئيم فقال اللئيم اذا غاب عاب واذا حضر اغتاب فاما الخير فمحمول على الانكار لافعال هؤلاء ولا يكون الانكار غيبة لانه نهى عن منكر وفرق بين انكار المجاهر وغيبة المساتر * وأما النميمة فهى أن تجمع الى مذمة الغيبة رداءة وشرا وتضم الى لؤمها دناءة وغدرا ثم تؤول الى تقاطع المتواصلين وتباغض المتحابين * وروى شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الا أخبركم بشراركم قالوا بلى يا رسول الله قال من شراركم المشاؤن بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون العيوب * وروى محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغار ملعون كل قتات ملعون كل منان * الشغار المحرش بين الناس يلقى بينهم العداوة والقتات النمام وقيل النمام الذى يكون مع القوم يتحدثون فينم حديثهم والقتات هو الذى يستمع عليهم وهم لا يعلمون فينم حديثهم والمنان هو الذى يصنع الخير ويمن به * وقيل فى منثور الحكم النميمة سيف قاتل * وقال بعض الادباء لم يمش ماش شر من واش فاما السعاية فهى شر الثلاثة لانها تجمع الى مذمة الغيبة ولؤم النميمة التغرير بالنفوس والاموال والقدح فى المنازل والاحوال * وروى ابن قتيبة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الجنة لا يدخلها ديوث ولا قلاع الديوث هو الذى يجمع بين الرجال والنساء سمى بذلك لانه يدث بينهم والقلاع هو الساعى الذى يقع فى الناس عند الامراء سمى بذلك

بذلك لانه يأتى الرجل المتمكن عند الامير فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه * وقال بعض الحكماء الساعى بين منزلتين قبيحتين اما أن يكون صدق فقد خان الامانة واما ان يكون قد كذب فخالف المروءة * وقال بعض الحكماء الصدق يزين كل أحد الا السعاة فان الساعى أذم وآثم ما يكون اذا صدق * وقال بعض البلغاء النميمة دناءة والسعاية رداءة وهما رأس الغدر وأساس الشر فجنب سبلهما واجتنب أهلهما ووقع الفضل بن سهل على قصة ساع سعى اليه نحن نرى قبول السعاية شرا منها لان السعاية دلالة والقبول اجازة فاتقوا الساعى فانه ان كان فى سعايته صادقا كان فى صدقه آثما اذلم يحفظ الحرمة ويستر العورة * وقال الاسكندر لرجل سعى اليه برجل أتحب أن نقبل منك ما تقول فيه على أن نقبل منه ما يقول فيك قال لا قال فكف عن الشر يكف عنك الشر وروى أن الله تعالى أوحى الى موسى على نبينا وعليه السلام ان فى بلدك ساعيا ولست أخبرك وهو فى أرضك فقال يارب دلنى عليه حتى اخرجه فقال ياموسى أكره النميمة وأنم

﴿الفصل السادس فى الحسد والمنافسة﴾ اعلم أن الحسد خلق ذميم مع اضراره بالبدن وفساده للدين حتى لقد أمر الله بالاستعاذة من شره فقال تعالى ومن شر حاسد اذا حسد وناهيك بحال ذلك شرا * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال دب اليكم داء الامم قبلكم البغضاء والحسد هى الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر والذى نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بأمر اذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم فاخبر صلى الله عليه وسلم بحال الحسد وان التحابب ينفيه وأن السلام يبعث على التحابب فصار السلام اذا نافيا للحسد وقد جاء كتاب الله تعالى بما يوافق هذا القول وقال الله تعالى (ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) قال مجاهد معناه ادفع بالسلام اساءة المسىء. وقال الشاعر

قد يلبث الناس حينا ليس بينهم * ودّ فيزرعه التسليم واللطف

وقال بعض السلف الحسد أول ذنب عصى الله به فى السماء يعنى حسد ابليس لآدم عليه السلام وأول ذنب عصى الله به فى الارض يعنى حسد ابن آدم لاخيه حتى قتله * وقال بعض الحكماء من رضى بقضاء الله تعالى لم يسخطه أحد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد . وقال بعض البلغاء الناس حاسد ومحسود ولكل نعمة حسود * وقال بعض الادباء ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحسود نفس دائم وهم لازم وقلب هائم * فاخذه بعض الشعراء فقال

ان الحسود الظلوم فى كرب * يخاله من يراه مظلوما
ذا نفس دائم على نفس * يظهر منها ما كان مكتوما

الصغار وهذه حال الشجاع مع قوى نفسه أعنى بمقاومة شهواته واستلامه لذات الشجاعة بعينها * ومن سمع كلام الامام صلوات الله عليه الذى صدوره عن حقيقة الشجاعة اذ قال لاصحابه أيها الناس ان لم تقتلوا تموتوا والذى نفس ابن أبى طالب بيده لالف ضربة بالسيف على الرأس أهون من ميتة على الفراش تبين له أن جميع ما أحصيناه للانسان ليس بمعدود فيها وان كان يشبهها بالصورة * ذلك أنه ليس كل من يقدم على الاهوال فهو شجاع ولا كل من لا يخاف من الفضائح فهو شجاع * وذلك أن من لا يفزع من ذهاب شرفه أو فضيحة حرمه أو عند حدوث الرجفات والزلازل والصواعق أو الزمانة فى الامراض أو عدم الاخوان والاصدقاء أو عند اضطراب البحر وهول الامواج والهواء الهائج فهو بأن يوصف بالجنون مرة وبالقحة مرة اولى بان يوصف بالشجاعة * وكذلك من خاطر بنفسه فى وقت الأمن والطمأنينة بان يثب من سطح عال أو يصعد مرتقى صعبا أو يحمل نفسه على خوض ماء غزير وهو لا يحسن السباحة أو يساور جملا هائجا أو ثورا صعبا أو فرسا لم يرض من غير ضرورة تدعوه الى ذلك بل مرآة بالشجاعة واظهار مرتبة الشجعان فهو بان يسمى مطرمذا مائقا اولى منه بان يسمى شجاعا * وأما من خنق نفسه خوفا من الفقر او الذل أو أهلكها بالسم وما أشبهه من باب الضيم فهو بان يوصف بالجبن اولى منه بان يوصف بالشجاعة وذلك ان الاقدام وقع منه بطبيعة الجبن لا بطبيعة الشجاعة فان الشجاع يصبر على ما يرد عليه من الشدائد صبرا جميلا و يعمل أعمالا تليق بتلك الحال كما شرحناه فيما تقدم

وكذلك يجب أن تعظم الشجاع ويشجع بنفسه وحقيق على السلطان خاصة والقيم بأمر الدين والملك أن ينافس فيه ويجل قدره ويعلى خطره ويميزه عن سائر من يتشبه به ممن ذكرناه * فقد تبين من جميع ما قلناه ان الشجاع هو الذي يستهين بالشدائد في الامور الجميلة ويصبر على الامور الهائلة ويستخف بما يستعظمه عوام الناس حتى بالموت لاختيار الامر الافضل ولا يحزن على ما لا درك فيه ولا يضطرب عندما يفدحه من المصائب ويكون غضبه اذا غضب بمقدار ما يجب وعلى من يجب وفي الوقت الذي يجب وكذلك يكون انتقامه على هذه الشرائط فان الحكماء قالوا ان من لا ينتقم بالحق قلبه ذليل فاذا انتقم عاد الى حالته من النشاط وهذا الانتقام اذا كان بحسب الشجاعة كان محمودا واذا لم يكن كذلك كان مذموما * فقد نقل الينا في الاخبار المأثورة عمن أقدم على سلطان قوي ورام أن ينتقم منه فاهلك نفسه من غير أن يضر سلطانه روايات كثيرة * وكذلك حال من أقدم على قرن قوي او خصم ألد لا يستطيع مقاومته فان الانتقام منه يعود بالا عليه وزيادة في الذل والعجز * فاذن ليست تتم شرائط الشجاعة والعفة الا للحكيم الذي يستعمل كل شيء في موضعه الخاص به وبقدر اقساط العقل له فكل شجاع عفيف حكيم وكل حكيم شجاع عفيف وهذه الحال بعينها تظهر فيمن عمل عمل الاسخياء وليس بسخي * وذلك أن من بذل أمواله في شهواته طلبا للسمعة والرياء أو تقربا الى السلطان أو لدفع مضرة عن نفسه وحرمه وأولاده أو بذلها لمن لا يستحق من أهل الشر أو الملهين أو المساخرين أو بذلها

ولو لم يكن من ذم الحسد الا انه خلق دنيء يتوجه نحو الاكفاء والاقارب ويختص بالمخالط والمصاحب لكانت النزاهة عنه كرما والسلامة منه مغنما فكيف وهو بالنفس مضر وعلى الهم مصر حتى ربما أفضى بصاحبه الى التلف من غير نكاية في عدو ولا اضرار بمحسود * وقد قال معاوية رضي الله عنه ليس في خصال الشر أعدل من الحسد يقتل الحاسد قبل أن يصل الى المحسود * وقال بعض الحكماء يكفيك من الحاسد انه يغتم في وقت سرورك * وقيل في منثور الحكم عقوبة الحاسد من نفسه * وقال الاصمعي قلت لاعرابي ما أطول عمرك قال تركت الحسد فبقيت * وقال رجل لشريح القاضي اني لأحسدك على ما أرى من صبرك على الخصوم ووقوفك على غامض الحكم فقال ما نفعك الله بذلك ولا ضرني * وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله تعالى

اصبر على كيد الحسو * د فان صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها * ان لم تجد ما تأكله

وحقيقة الحسد شدة الاسى على الخيرات تكون للناس الافاضل وهو غير المنافسة وربما غلط قوم فظنوا أن المنافسة في الخير هي الحسد وليس الامر على ما ظنوا لان المنافسة طلب التشبه بالافاضل من غير ادخال ضرر عليهم والحسد مصروف الى الضرر لان غايته أن يعدم الافاضل فضلهم من غير أن يصير الفضل له فهذا الفرق بين المنافسة والحسد فالمنافسة اذا فضيلة لانها داعية الى اكتساب الفضائل والاقتداء بأخيار الافاضل * وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن يغبط والمنافق يحسد وقال الشاعر

نافس على الخيرات أهل العلا * فانما الدنيا أحاديث
كل امرئ في شأنه كادح * فوارث منهم وموروث

* واعلم ان دواعي الحسد ثلاثة * أحدها بغض المحسود فيأسى عليه بفضيلة تظهر أو منقبة تشكر فيثير حسدا قد خامر بغضا وهذا النوع لا يكون عاما وان كان أضرها لانه ليس يبغض كل الناس * والثاني أن يظهر من المحسود فضل يعجز عنه فيكره تقدمه فيه واختصاصه به فيثير ذلك حسدا لولاه لكف عنه وهذا أوسطها لانه لا يحسد الاكفاء من دنا وانما يختص بحسد من علا وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من المنافسة ولكنها مع عجز فلذلك صارت حسدا * والثالث أن يكون في الحاسد شح بالفضائل وبخل بالنعم وليست اليه فيمنع منها ولا بيده فيدفع عنها لانها مواهب قد منحها الله من شاء فيسخط على الله عز وجل في قضائه ويحسد على ما منح من عطائه وان كانت نعم الله عز وجل عنده أكثر ومنحه عليه أظهر وهذا النوع من الحسد أعمها وأخبثها اذ ليس لصاحبه راحة ولا لرضاه غاية فان اقترن بشر وقدرة كان جورا وانتقاما وان صادف عجزا ومهانة كان كمدا وسقاما * وقد قال عبد

الحميد

الحميد المحسود من الهم كساقى السم فان سرى سمه زال عنه همه * واعلم ان بحسب فضل الانسان وظهور النعمة عليه يكون حسد الناس له فان كثر فضله كثر حساده وان قل قلوا لان ظهور الفضل يثير الحسد وحدوث النعمة يضاعف الكمد ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم استعينوا على قضاء الحوائج بسترها فان كل ذى نعمة محسود * وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما كانت نعمة الله على أحد الا وجد لها حاسدا فلو كان الرجل أقوم من القدح لما عدم غامزا * وقد قال الشاعر

ان يحسدونى فانى غير لائمهم * قبلى من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لى ولهم ما بى وما بهم * ومات أكثرنا غيظا بما يجد

وربما كان الحسد منبها على فضل المحسود ونقص الحسود * كما قال أبو تمام الطائى

واذا أراد الله نشر فضيلة * طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت * ما كان يعرف طيب عرف العود
لولا التخوف للعواقب لم يزل * للحاسد النعمى على المحسود

فاما ما يستعمله من كان غالبا عليه الحسد وكان طبعه اليه مائلا لينتفى عنه ويكفاه ويسلم من ضرره وعداوته فأمور هى له حسم ان صادفها عزم فمنها اتباع الدين فى اجتنابه والرجوع الى الله عز وجل فى آدابه فيقهر نفسه على مذموم خلقها وينقلها عن لئيم طبعها وان كان نقل الطباع عسرا لكن بالرياضة والتدريج يسهل منها ما استصعب ويحبب منها ما أتعب وان تقدم قول القائل من ربه خلقه كيف يخلى خلقه غير انه اذا عانى تهذيب نفسه تظاهر بالتخلق دون الخلق ثم بالعادة يصير كالخلق * قال أبو تمام الطائى

فلم أجد الاخلاق الا تخلقا * ولم أجد الافضال الا تفضلا

* ومنها العقل الذى يستقبح به من نتائج الحسد ما لا يرضيه ويستنكف من هجنة مساويه فيذلل نفسه أنفة ويقهرها حمية فتذعن لرشدها وتجيب الى صلاحها وهذا انما يصح لذى النفس الأبية والهمة العلية وان كان ذو الهمة يجل عن دناءة الحسد * وقد قال الشاعر

أبى له نفسان نفس زكية * ونفس اذا ما خافت الظلم تشمس

* ومنها أن يستدفع ضرره ويتوقى أثره ويعلم أن مكانته فى نفسه أبلغ ومن الحسد أبعد فيستعمل الحزم فى دفع ما كده وأكمده ليكون أطيب نفسا وأهنأ عيشا * وقد قيل العجب لغفلة الحساد عن سلامة الاجساد * وقد قال الشاعر

بصير باعقاب الأمور كانما * يرى بصواب الرأى ما هو واقع

* ومنها ما يرى من نفور الناس عنه وبعدهم منه فيخافهم اما على نفسه من عداوة أو على عرضه من ملامة فيتألفهم بمعالجة نفسه ويراهم ان صلحوا أجدى نفعا وأخلص ودا

لطمع فى أكثر منها على سبيل التجارة والمرابحة فكل هؤلاء يعمل عمل الاسخياء وليس بسخى * أما بعضهم فيبذل ماله بطبيعة الشره وأما بعضهم فبطبيعة الطرمذة والرياء وبعضهم على طريق الازدياد من المال والربح فيه وأما بعضهم فعلى سبيل التبذير وقلة المعرفة بقدر المال * وهذا أكثر ما يعرض للوارث ولمن لا يتعب فى اكتساب المال فلا يعرف صعوبة الامر فيه * وذلك ان المال صعب الاكتساب سهل الانفاق والتفرقة وقد شبهه الحكماء بمن يرفع حملا ثقيلا الى قلة جبل ثم يرسله فان الامر فى ترقيته واصعاده صعب ولكن ارساله من هناك أمر سهل

﴿الحاجة الى المال واكتسابه بالطرق الشريفة العادلة﴾

الحاجة الى المال ضرورية فى العيش وهو نافع فى اظهار الحكمة والفضيلة ومن اكتسبه من وجهه صعب عليه وذلك ان المكاسب الجميلة قليلة ووجوهها يسيرة عند الرجل العادل الحر وأما غير العادل الحر فليس يبالى كيف اكتسبه ومن أين وصل اليه ولاجل ذلك يوجد كثير من الاحرار والفضلاء ناقصى الحظ منه ويوجدون أيضا ذامين للمكتسبين منه وأما أضدادهم فلاجل انهم يكتسبون المال من وجوه الخيانات ولا يبالون كيف وصل اليهم فانهم يوجدون أبدا أوفرى الحظ منه واسعى النفقات شاكرين لبخوتهم والعامة يغبطونهم ويحسدونهم * الا ان العاقل اذا رأى نفسه وهو برىء من المذمات نقى العرض من السوآت لم يتدنس بالقبيح من المكاسب ولم يتطرق اليه بخيانة ولا سرقة ولا

ظلم لمن هو دونه أو مثله وتجنب فيه وجوه العار والفضائح كالقيادة والخداع وترويج السلع القبيحة على الملوك واستنزالهم عن أموالهم بالخدع والمكر ومساعدتهم على الفواحش وتحسين القبائح فيما يوافق هواهم وما يجرى مجرى ذلك من السعاية والنميمة والغيبة وضروب الفساد التي يرتكبها طلاب المال من غير وجهه بضروب المغابنات ووجوه الظلم بنفسه ويعتاض من المال الراحة والمحمدة فلا يلوم البخت ولا يبغض الدول ولا يحسد أصحاب الاموال المكتسبة من غير وجوهها الجميلة * فهذه أحوال المكتسبين للاموال ومنفقيها وكذلك حال من عمل عمل العدول وليس بعدل وذلك انه اذا عدل في بعض الامور مراآة ليصل به الى كرامة أو مال أو غير ذلك من الشهوات أو لغرض آخر مما عددناه فيما تقدم فليس يسمى عادلا وانما يعمل عمل العدول للغرض الذي يقصده وينبغي ان ينسب فعله الى غرضه فانه يحسب هذا يفعل ذلك كما قلنا وشرحنا

﴿العادل﴾

فاما العادل بالحقيقة فهو الذي يعدل قواه وافعاله وأحواله كلها حتى لا تزيد بعضها على بعض ثم يروم ذلك فيما هو خارج عنه من المعاملات والكرامات ويقصد في جميع ذلك فضيلة العدالة نفسها لا غرضا آخر سواها وانما يتم له ذلك اذا كانت له هيئة نفسانية أدبية تصدر عنها افعاله كلها بحسبها ولما كانت العدالة وسطا بين أطراف وهيئة يقتدر بها على رد الزائد والناقص اليها صارت أتم الفضائل وأشبهها بالوحدة وأعنى بذلك ان

وزن

* وقال ابن العميد رحمه الله تعالى

داوى جوى بجوى وليس بحازم * من يستكف النار بالحلفاء

وقال المؤمل بن أميل

لا تحسبوني غنيا عن مودتكم * انى اليكم وان أيسرت مفتقر

ومنها أن يساعد القضاء ويستسلم للمقدور ولا يرى أن يغالب قضاء الله فيرجع مغلوبا ولا أن يعارضه في أمره فيرد محروما مسلوبا وقد قال أزدشير بن بابك اذا لم يساعدنا القضاء ساعدناه * وقال محمود الوراق

قدر الله كائن * حين يقضى وروده

قد مضى فيك علمه * وانتهى ما يريده

فأرد ما يكون ان * لم يكن ما تريده

فان أظفرته السعادة بأحد هذه الاسباب وهدته المراشد الى استعمال الصواب سلم من سقامه وخلص من غرامه واستبدل بالنقص فضلا واعتاض من الذم حمدا ولمن استنزل نفسه عن مذمة فصرفها عن لائمة هو أظهر حزما وأقوى عزما ممن كفته النفس جهادها وأعطته قيادها ولذلك قال على بن أبي طالب رضي الله عنه خياركم كل مفتن تواب وان صدته الشهوة عن مراشده وأضله الحرمان عن مقاصده فانقاد للطبع اللئيم وغلب عليه الخلق الذميم حتى ظهر حسده واشتد كمده فقد باء بأربع مذام * احداهن حسرات الحسد وسقام الجسد ثم لا يجد لحسرته انتهاء ولا يؤمل لسقامه شفاء * وقال ابن المعتز الحسد داء الجسد * والثانية انخفاض المنزلة وانحطاط المرتبة لانحراف الناس عنه ونفورهم منه * وقد قيل في منثور الحكم الحسود لا يسود * والثالثة مقت الناس له حتى لا يجد فيهم محبا وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم وليا فيصير بالعداوة مأثورا وبالمقت مزجورا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه * والرابعة اسخاط الله تعالى في معارضته واجتناب الاوزار في مخالفته اذ ليس يرى قضاء الله عدلا ولا لنعمه من الناس أهلا * ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب * وقال عبد الله بن المعتز الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه طالب ما لا يجده * واذا بلى الانسان عن هذه حاله من حساد النعم وأعداء الفضل واستعاذ بالله من شره وتوقى مصارع كيده وتحرز من غوائل حسده وأبعد عن ملابسته وادنائه لعضل دائه واعواز دوائه * فقد قيل حاسد النعمة لا يرضيه الا زوالها * وقال بعض الحكماء من ضر بطبعه فلا تأنس بقربه فان قلب الاعيان صعب المرام * وقال عبد الحميد أسد تقاربه خير من حسود تراقبه وقال محمود الوراق

الوحدة هي التي لها الشرف الاعلى والرتبة القصوى * وكل كثرة لا يضبطها معنى يوحدها فلا قوام لها ولا ثبات والزيادة والنقصان والكثرة والقلة هي التي تفسد الاشياء اذا لم يكن بينهما مناسبة تحفظ عليها الاعتدال بوجه ما فالاعتدال هو الذي يرد اليها ظل الوحدة ومعناها وهو الذي يلبسها شرف الوحدة ويزيل عنها رذيلة الكثرة والتفاوت والاضطراب الذي لا يحد ولا ينضبط بالمساواة التي هي خليفة الوحدة في جميع الكثرات واشتقاق هذا الاسم يدلك على معناه وذلك ان العدل في الاجمال والاعتدال في الاثقال والعدالة في الافعال مشتقة من معنى المساواة والمساواة هي أشرف النسب المذكورة في صناعة الارثماطيقي ولذلك لا تنقسم ولا يوجد لها أنواع وانما هي وحدة في معناها أو ظل للوحدة فاذا لم نجد المساواة التي هي المثل بالحقيقة في الكثرة عدلنا الى النسب المذكورة التي تحمل اليها وتعود الى حقيقتها وذلك انا حينئذ نضطر الى ان نقول نسبة هذا الى هذا كنسبة هذا الى هذا ولذلك لا توجد النسبة الا بين أربعة أو ثلاثة يتكرر فيها الوسط فتصير أيضا أربعة والنسبة الاولى تسمى منفصلة والثانية تسمى متصلة * ومثال الاولى ا ب ج د فنقول نسبة (ا) الى (ب) كنسبة (ج) الى (د) * ومثال الثانية ان ناخذ الباء مشتركا فنقول نسبة (ا) الى (ب) كنسبة (ب) الى (ج) وهذه النسبة توجد بين ثلاثة أشياء * وهي النسبة العددية والنسبة المساحية والنسبة التأليفية وجميع ذلك مبين مشروح في المختصر الذي عملناه في صناعة العدد * وأما سائر النسب فراجعة اليها ولذلك عظمها الاوائل واستخرجوا بها العلوم الجمة الشريفة * ولما كانت نسبة المساواة عزيزة لانها نظيرة الوحدة عدلنا الى حفظ هذه النسب الاخرى في الامور الكثيرة التي تلابسها لانها عائدة اليها وغير خارجة عنها فنقول

﴿مواضع العدالة﴾ ان العدالة موجودة في ثلاثة مواضع أحدها قسمة الاموال والكرامات والثاني قسمة المعاملات الارادية كالبيع والشراء والمعاوضات والثالث قسمة الاشياء التي وقع فيها ظلم وتعد * فأما العدالة في الامور التي تكون

أعطيت كل الناس من نفسي الرضا * الا الحسود فانه أعياني
ما ان لي ذنبا اليه علمته * الا تظاهر نعمة الرحمن
وأبى فما يرضيه الا ذلتي * وذهاب أموالي وقطع لساني

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاثة لا يسلم أحد منهن الطيرة وسوء الظن والحسد فاذا تطيرت فلا ترجع واذا ظننت فلا تحقق واذا حسدت فلا تبغ

﴿فصل﴾ وأما آداب المواضعة والاصطلاح فضربان أحدهما ما تكون المواضعة في فروعه والعقل موجب لاصوله والثاني ما تكون المواضعة في فروعه وأصوله وذلك متضح في الفصول التي نذكرها اذا سبرت وهي ثمانية

﴿الفصل الاول في الكلام والصمت﴾ اعلم ان الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر ويخبر بمكنونات السرائر لا يمكن استرجاع بوادره ولا يقدر على رد شوارده فحق على العاقل أن يحترز من زلله بالامساك عنه أو بالاقلال منه * روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال رحم الله من قال خيرا فغنم أو سكت فسلم * وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ يا معاذ أنت سالم ما سكت فاذا تكلمت فعليك أو لك * وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه اللسان معيار أطاشه الجهل وأرجحه العقل * وقال بعض الحكماء الزم الصمت تعد حكيما جاهلا كنت أو عالما * وقال بعض الادباء سعد من لسانه صموت وكلامه قوت وقال بعض العلماء من أعوذ ما يتكلم به العاقل أن لا يتكلم الا لحاجته أو حجته ولا يفكر الا في عاقبته أو في آخرته وقال بعض البلغاء الزم الصمت فانه يكسبك صفو المحبة ويؤمنك سوء المغبة ويلبسك ثوب الوقار ويكفيك مؤنة الاعتذار * وقال بعض الفصحاء اعقل لسانك الا عن حق توضحه أو باطل تدحضه أو حكمة تنشرها أو نعمة تذكرها وقال الشاعر

رأيت العز في أدب وعقل * وفي الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن * اذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيبا أن تراه * له وجه وليس له لسان

واعلم أن للكلام شروطا لا يسلم المتكلم من الزلل الا بها ولا يعرى من النقص الا بعد أن يستوفيها وهي أربعة فالشرط الاول أن يكون الكلام لداع يدعو اليه اما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر والشرط الثاني أن يأتي به في موضعه ويتوخى به اصابة فرصته والشرط الثالث

في القسم الاول فتكون بالنسبة المنفصلة التي بين الاربعة اعني ان تكون نسبة الاول الى الثاني كنسبة الثالث الى الرابع مثال ذلك ان يقال نسبة هذا الانسان الى هذه الكرامة أو الى هذا المال كنسبة كل من كان في مثل مرتبته الى مثل قسطه * فاذا يجب ان يوفر عليه ويسلم وأما في الامور التي تكون في القسم الثاني أعني المعاملات والمعاوضات فيكون بالنسبة المنفصلة مرة وبالنسبة المتصلة أخرى مثاله ان تقول نسبة هذا البزاز الى هذا الاسكاف كنسبة هذا الثوب الى هذا الخف ثم ليس يمنع مانع ان تقول نسبة البزاز الى الاسكاف كنسبة الاسكاف الى النجار أو تقول نسبة الثوب الى الخف كنسبة الخف الى الكرسي ويتبين لك من هذين المثالين ان النسبة الاولى تكون بالعمق فقط والنسبة الثانية تكون بالعرض والعمق جميعا أعني ان الاولى تقع بين الكليين والجزئيين وهو بالعمق أشبه والثانية تقع بالعرض في الجزئيين وقد تقع بين الكليين والجزئيين أيضا وأما العدالة التي تقع في المظالم والامور القسمية فهي بالنسبة المساحية اشبه وذلك ان الانسان متى كان على نسبة من انسان آخر فابطل هذه النسبة بحيف أو ضرر يلحقه به فان العدالة توجب ان يلحق به ضرر مثله ليعود التناسب الى ما كان عليه * فالعادل من شأنه ان يساوي بين الاشياء الغير المتساوية * مثال ذلك ان الخط اذا قسم بقسمين غير متساويين نقص من الزائد وزاد على الناقص حتى يحصل له التساوي ويذهب عنه معنى القلة والكثرة ومعنى الزيادة والنقصان وكذلك الخفة والثقل وجميع ما أشبه ذلك * ولكن ينبغي ان يكون عالما بطبيعة الوسط حتى يمكنه ان يرد الطرفين اليه مثال ذلك الربح والخسران فانهما في باب المعاملات طرفان أحدهما زيادة والآخر نقصان فاذا أخذ أقل مما يجب صار الى جانب النقصان وان أخذ أكثر مما يجب كان خارجا الى جانب الزيادة (لزوم الشريعة في المعاملات) والشريعة هي التي ترسم في كل واحد من هذه الاشياء التوسط والاعتدال لان الناس هم مدنيون بالطبع ولا يتم لهم عيش الا بالتعاون فيجب

أن يقتصر منه على قدر حاجته والشرط الرابع أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به فهذه أربعة شروط متى أخل المتكلم بشرط منها فقد أوهن فضيلة باقيها وسنذكر تعليل كل شرط منها بما ينفي عن لزومه فأما الشرط الاول وهو الداعي الى الكلام فلان ما لا داعي له هذيان وما لا سبب له هجر ومن سامح نفسه في الكلام اذا عن ولم يراع صحة دواعيه واصابة معانيه كان قوله مرذولا ورأيه معلولا كالذي حكى ابن عائشة أن شابا كان يجالس الاحنف ويطيل الصمت فأعجب ذلك الاحنف فخلت الحلقة يوما فقال له الاحنف تكلم يا ابن أخي فقال يا عم لو أن رجلا سقط من شرف هذا المسجد هل كان يضره شئ فقال يا ابن أخي ليتنا تركناك مستورا ثم تمثل الاحنف بقول الاعور الشني

وكائن ترى من صامت لك معجب * زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وكالذي حكى عن أبي يوسف الفقيه ان رجلا كان يجلس اليه فيطيل الصمت فقال له أبو يوسف ألا تسأل قال بلى متى يفطر الصائم قال اذا غربت الشمس قال فان لم تغرب الى نصف الليل قال فتبسم أبو يوسف رحمه الله وتمثل ببيتي الخطفي جد جرير

عجبت لازراء العيي بنفسه * وصمت الذي قد كان بالقول أعلما
وفي الصمت ستر للعيي وانما * صحيفة لب المرء أن يتكلما

ومما أطرفك به عني اني كنت يوما في مجلسي بالبصرة وأنا مقبل على تدريس أصحابي اذ دخل علي رجل مسن قد ناهز الثمانين أو جاوزها فقال لي قد قصدتك بمسألة اخترتك لها فقلت اسأل عافاك الله وظننته يسأل عن حادث نزل به فقال اخبرني عن نجم ابليس ونجم آدم ما هو فان هذين لعظم شأنهما لا يسئل عنهما الا علماء الدين فعجبت وعجب من في مجلسي من سؤاله وبدر اليه قوم منهم بالانكار والاستخفاف فكففتهم وقلت هذا لا يقنع مع ما ظهر من حاله الا بجواب مثله فأقبلت عليه وقلت يا هذا ان المنجمين يزعمون أن نجوم الناس لا تعرف الا بمعرفة مواليدهم فان ظفرت بمن يعرف ذلك فاسأله فحينئذ أقبل علي وقال جزاك الله خيرا ثم انصرف مسرورا فلما كان بعد أيام عاد وقال ما وجدت الى وقتي هذا من يعرف مولد هذين فانظر الى هؤلاء كيف أبانوا بالكلام عن جهلهم وأعربوا بالسؤال عن نقصهم اذ لم يكن لهم داع اليه ولا روية فيما تكلموا به ولو صدر عن روية ودعا اليه داع

لسلموا

ان بعضهم يخدم بعضا ويأخذ بعضهم من بعض ويعطى بعضهم بعضا فهم يطلبون المكافأة المناسبة فاذا أخذ الاسكاف من النجار عمله وأعطاه عمله فهى المعاوضة اذا كان العملان متساويين ولكن ليس يمنع مانع ان يكون عمل الواحد خيرا من عمل الآخر فيكون الدينار هو المقوم والمسوى بينهما * فالدينار هو عدل ومتوسط الا انه ساكت والانسان الناطق هو الذى يستعمله ويقوم به جميع الامور التى تكون بالمعاملات حتى تجرى على استقامة ونظام ومناسبة صحيحة عادلة ولذلك يستعان بالحاكم الذى هو عدل ناطق اذا لم يستقم الامر بين الخصمين بالدينار الذى هو عدل ساكت وأرسطوطاليس يقول ان الدينار ناموس عادل ومعنى الناموس فى لغته السياسة والتدبير وما أشبه ذلك فهو يقول * فى كتابه المعروف بنيقوماخيا ان الناموس الاكبر هو من عند الله تبارك وتعالى والحاكم ناموس ثان من قبله والدينار ناموس ثالث فناموس الله تعالى قدوة النواميس كلها يعنى الشريعة والحاكم الثانى مقتد به والدينار مقتد ثالث وانما قومت الاشياء المختلفة بالاثمان المختلفة لتصح المشاركات والمعاملات ويتبين وجه الاخذ والاعطاء فالدينار هو الذى يسوى بين المختلفات ويزيد فى شئ وينقص فى آخر حتى يحصل بينهما الاعتدال فتستوى المعاملة بين الفلاح والنجار مثلا وهذا هو العدل المدنى وبالعدل المدنى عمرت المدن وبالجور المدنى خربت المدن وليس يمنع مانع من ان يكون عمل يسير يساوى عملا كثيرا مثال ذلك ان المهندس ينظر نظرا قليلا ويعمل عملا يسيرا ويساوى نظره هذا عملا كثيرا من أقوام يكدون بين يديه ويعملون بما رسمه وكذلك صاحب الجيش يكون تدبيره ونظره يسيرا ولكنه يساوى أعمالا كثيرة مما يحارب بين يديه ويعمل الاعمال الثقيلة العظيمة فالجائر يبطل التساوى وهو عند أرسطوطاليس على ثلاث منازل * فالجائر الاعظم هو الذى لا يقبل الشريعة ولا يدخل تحتها والجائر الثانى هو الذى لا يقبل قول الحاكم العادل فى معاملاته وأموره كلها * والجائر الثالث هو الذى لا يكتسب ويغتصب الاموال فيعطى نفسه أكثر مما يجب لها وغيره أقل مما يجب له * قال فالمستمسك بالشريعة يعمل بطبيعة المساواة فيكتسب الخير والسعادة من وجوه

لسلموا من شينه وبرئوا من عيبه ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لسان العاقل من وراء قلبه فاذا أراد الكلام رجع الى قلبه فان كان له تكلم وان كان عليه أمسك وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرض له * وقال عمر بن عبد العزيز من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه * وقال بعض الحكماء عقل المرء مخبوء تحت لسانه * وقال بعض البلغاء احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك أو يتلف نفسك فلا شئ أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع الى الجواب * وقال أبو تمام الطائى

ومما كانت الحكماء قالت * لسان المرء من تبع الفؤاد

وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة فى الكلام ويقول اذا جالست الجهال فانصت لهم واذا جالست العلماء فانصت لهم فان فى انصاتك للجهال زيادة فى الحلم وفى انصاتك للعلماء زيادة فى العلم وأما الشرط الثانى فهو أن يأتى بالكلام فى موضعه لان الكلام فى غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به وما لا ينفع من الكلام فقد تقدم القول بانه هذيان وهجر فان قدم ما يقتضى التأخير كان عجلة وخرقا وان أخر ما يقتضى التقديم كان توانيا وعجزا لان لكل مقام قولا وفى كل زمان عملا * وقد قال الشاعر

تضع الحديث على مواضعه * وكلامها من بعدها نزر

وأما الشرط الثالث وهو أن يقتصر منه على قدر حاجته فان الكلام ان لم ينحصر بالحاجة ولم يقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية ولا لقدره نهاية وما لم يكن من الكلام محصورا كان حصرا ان قصر وهذرا ان كثر * وروى أن اعرابيا تكلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وطول فقال النبى صلى الله عليه وسلم كم دون لسانك من حجاب قال شفتاى وأسنانى قال فان الله عز وجل يكره الانبعاق فى الكلام فنضر الله وجه امرئ أوجز فى كلامه فاقتصر على حاجته * وحكى أن بعض الحكماء رأى رجلا يكثر الكلام ويقل السكوت فقال ان الله تعالى انما خلق لك أذنين ولسانا واحدا ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به وقال بعض الحكماء من كثر كلامه كثرت آثامه * وقال ابن مسعود أنذركم فضول المنطق وقال بعض البلغاء كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل واياك وما يسخط سلطانك ويوحش اخوانك فمن أسخط سلطانه تعرض للمنية ومن أوحش اخوانه تبرأ من الحرية وقال بعض الشعراء

العدالة لان الشريعة تأمر بالاشياء المحمودة لانها من عند الله عز وجل فلا تأمر الا بالخير والا بالاشياء التي تفعل السعادة وهي أيضا تنهى عن الرداآت البدنية وتأمر بالشجاعة وحفظ الترتيب والثبات في مصاف الجهاد وتأمر بالعفة وتنهى عن الفسوق وعن الافتراء والشتم والهجر وبالجملة تأمر بجميع الفضائل وتنهى عن جميع الرذائل * فالعادل يستعمل العدالة في ذاته وفي شركائه المدنيين * والجائر يستعمل الجور في ذاته وفي اصدقائه ثم في جميع شركائه المدنيين قال وليست العدالة جزأ من الفضيلة بل هي الفضيلة (١٥٦) كلها ولا الجور الذي هو ضدها جزأ من الرذيلة لكنه الرذيلة كلها فبعض أنواع الجور ظاهر ينفعل بالارادة مثل ما يكون في البيع والشراء والكفالات والقروض والعوارى * وبعضها خفي ينفعل أيضا بالارادة مثل السرقة والفجور والقيادة وخداع المماليك وشهادة الزور وبعضها غشمي على سبيل التغلب مثل التعذيب بالدهق والقيود والاغلال

﴿ الامام العادل ﴾

فالامام العادل الحاكم بالسوية يبطل هذه الانواع ويخلف صاحب الشريعة في حفظ المساواة فهو لا يعطي ذاته من الخيرات أكثر مما يعطي غيره * ولذلك قيل في الخبر ان الخلافة تظهر الانسان * قال فاما العامة فانها تؤهل لمرتبة الامامة التي هي الخلافة العامة بما ذكرناه * من كان شريفا في حسبه ونسبه وبعضهم يؤهل لذلك من كان كثير المال * وأما العقلاء فانهم يؤهلون لذلك من كان حكيما فاضلا فان الحكمة والفضيلة هي التي تعطي الرياسات والسيادات الحقيقية وهي التي رتبت الثاني والاول في مرتبتيهما وفضلتهما

﴿ أسباب المضرات ﴾

وأسباب المضرات كلها تنقسم الى أربعة أنواع * أحدها الشهوة والرداءة التابعة لها * والثاني الشرارة والجور التابع لها * والثالث الخطأ ويتبعه الحزن والرابع الشقاء * أما الشهوة فانها تحمل الانسان على الاضرار بغيره الا أنه لا يكون مؤثرا له ولا ملتذا به * ولكنه يفعله ليصل به الى شهوته وربما كان متألما به كارها له الا أن قوة الشهوة تحمله على ارتكاب ما يرتكبه * وأما الشرير فانه

وزن الكلام اذا نطقت فانما * يبدي عيوب ذوي العيوب المنطق

ولمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصير يكون حصرا وتكثير يكون هذرا وكلاهما شين وشين الهذر أشنع وربما كان في الغالب أخوف قال النبي صلى الله عليه وسلم وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم الا حصائد ألسنتهم * وقال بعض الحكماء مقتل الرجل بين فكيه * وقال بعض البلغاء الحصر خير من الهذر لان الحصر يضعف الحجة والهذر يتلف المحجة * وقد قال الشاعر

رأيت اللسان على أهله * اذا ساسه الجهل ليثا مغيرا

وقال بعض الادباء (يارب ألسنة كالسيوف تقطع أعناق أصحابها وما ينقص من هيئات الرجال يزيد في بهائها وألبابها) * وقد ذهب بعضهم الى أن الكلام اذا كثر عن قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية وكان صوابا لا يشوبه خطل وسليما لا يتعوده زلل فهو البيان والسحر الحلال * وقال سليمان بن عبد الملك وقد ذم الكلام في مجلسه كلا ان من تكلم فاحسن قدر على أن يسكت فيحسن وليس من سكت فأحسن قدر على أن يتكلم فيحسن ووصف بعضهم الكاتب فقال الكاتب من اذا أخذ شبرا كفاه واذا وجد طومارا أملاه * وأنشد بعضهم في خطباء اياد

يرمون بالخطب الطوال وتارة * وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وقال الهيثم بن صالح لابنه يابني اذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب فقال يا أبتي فان أنا أكثرت وأكثرت يعني كلاما وصوابا فقال يابني ما رأيت موعوظا أحق بان يكون واعظا منك * وأنشدت لابي الفتح البستي

تكلم وسدد ما استطعت فانما * كلامك حي والسكوت جماد
فان لم تجد قولا سديدا تقوله * فصمتك عن غير السداد سداد

وقيل لاياس بن معاوية ما فيك عيب الا كثرة الكلام فقال أفتسمعون صوابا أو خطأ قالوا لا بل صوابا قال فالزيادة من الخير خير * وقال أبو عثمان الجاحظ للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا الى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر وصدق أبو عثمان لان الاكثار منه وان كان صوابا يمل السامع ويكل الخاطر وهو صادر عن اعجاب به لولاه قصر عنه ومن أعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل في

الكلام

يتعمد الاضرار بغيره على سبيل الايثار له والالتذاذ به * كمن يسعى الى السلطان ويحمله على ازالة نعمة لا يصل اليه منها شئ * ولكن يلتذ بالمكروه الذي يصل الى غيره * وأما الخطأ فان صاحبه لا يقصد الاضرار بغيره ولا يؤثره ولا يلتذ به بل يقصد فعلا ما فيعرض منه فعل آخر * وصاحب الفعل يحزن ويكتئب لما اتفق اليه من الخطا * وأما الشقاء فصاحبه لا يكون هذا مبدأ فعله ولا له فيه صنع بالقصد * بل يوقعه فيه سبب آخر من خارج * وذلك كمن تصدم به دابته صديقا له فتقتله * فهذا يسمى شقيا وهو مرحوم معذور لا يجب عليه عتب ولا عقوبة * وأما السكران والغضبان والغيران اذا فعلوا فعلا قبيحا فانهم يستحقون العتب والتقويم لان مبتدأ أفعالهم منهم * وذلك أن السكران باختياره أزال عقله والغضبان والغيران اختارا الانقياد بهاتين القوتين اذا هاجتا بهما * ونعود الى ما كنا فيه من ذكر العدالة فنقول

﴿تقسيم العدالة﴾

ان ارسطوطاليس قسم العدالة الى أقسام ثلاثة * أحدها ما يقوم به الناس لرب العالمين * وهو أن يجري الانسان فيما بينه وبين الخالق عز وجل على ما ينبغي وبحسب ما يجب عليه من حقه وبقدر طاقته * وذلك أن العدل اذا كان هو اعطاء ما يجب من يجب كما يجب * فمن المحال أن لا يكون لله تعالى الذي وهب لنا هذه الخيرات العظيمة واجب ينبغي أن يقوم به الناس * والثاني ما يقوم به بعض الناس لبعض من أداء الحقوق وتعظيم الرؤساء وتأدية الامانات والنصفة في المعاملات * والثالث ما يقومون به من حقوق أسلافهم مثل أداء الديون عنهم وانفاذ وصاياهم وما أشبه ذلك فهذا ما قاله ارسطوطاليس * وأما تحقيق ما قاله مما يجب لله عز وجل وان كان ظاهرا * فانا نقول فيه ما يليق بهذا الموضع * وهو أن العدالة لما كانت تظهر في الاخذ والاعطاء وفي الكرامة التي ذكرناها * وجب أن يكون لما يصل الينا من عطيات الخالق عز وجل ونعمه التي لا تحصى حق يقابل عليه * وذلك أن من اعطى خيرا ما وان كان قليلا ثم لم يران يقابله بضرب من المقابلة فهو جائر

الكلام كثير الزلل دائم العثار * وقال بعض الحكماء من أعجب بقوله أصيب بعقله وليس لكثرة الحذر رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازي ضرره لانه يخاف من نفسه الزلل ومن سامعيه الملل وليس في مقابلة هذين حاجة داعية ولا نفع مرجو * وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أبغضكم الي المتفيهق المكثار والملح المهذار وسأل رجل حكيما فقال متى أتكلم قال اذا اشتهيت الصمت فقال متى أصمت قال اذا اشتهيت الكلام * وقال جعفر بن يحيى اذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار عيا وان كان الاكثار واجبا كان التقصير عجزا * وقيل في منثور الحكم اذا تم العقل نقص الكلام * وقال بعض الادباء من أطال صمته اجتلب من الهيبة ما ينفعه ومن الوحشة ما لا يضره * وقال بعض البلغاء عي تسلم منه خير من منطق تندم عليه فاقتصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك واياك وفضوله فانه يزل القدم ويورث الندم * وقال بعض الفصحاء فم العاقل ملجم اذا هم بالكلام أحجم وفم الجاهل مطلق كلما شاء أطلق * وقال بعض الشعراء

ان الكلام يعد القوم جلوته * حتى يلج به عي واكثار

وأما الشرط الرابع وهو اختيار اللفظ الذي يتكلم به فلأن اللسان عنوان الانسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله فيلزم أن يكون بتهذيب ألفاظه حريا وبتقويم لسانه مليا * روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمه العباس يعجبني جمالك قال وما جمال الرجل يا رسول الله قال لسانه * وقال خالد بن صفوان ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة * وقال بعض الحكماء اللسان وزير الانسان * وقال بعض الادباء كلام المرء وافد أدبه * وقال بعض البلغاء يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفعله * وقال بعض الشعراء

وان لسان المرء ما لم تكن له * حصاة على عوراته لدليل

وليس يصح اختيار الكلام الا لمن أخذ نفسه بالبلاغة وكلفها لزوم الفصاحة حتى يصير متدربا بها معتادا لها فلا يأتي بكلام مستكره اللفظ ولا مختل المعنى لان البلاغة ليست على معان مفردة ولا لالفاظها غاية وانما البلاغة أن تكون بالمعاني الصحيحة مستودعة في ألفاظ فصيحة فتكون فصاحة الالفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة * وقد قيل لليوناني ما البلاغة قال اختيار الكلام وتصحيح الاقسام * وقيل ذلك للرومي فقال حسن الاختصار عند البديهة

فكيف به اذا أعطى جما كثيرا وأخذ أخذا دائما ثم لم يعط فى مقابلته شيء البتة * ثم على قدر النعمة التى تصل الى الانسان يجب ان يكون اجتهاده فى المقابلة عليها * مثال ذلك ان الملك الفاضل اذا أمن السرب وبسط العدل وأوسع العمارة وحمى الحريم وذب عن الحوزة ومنع من التظالم ووفر الناس على ما يختارونه من مصالحهم ومعايشهم * فقد أحسن الى كل واحد من رعيته احسانا يخصه فى نفسه وان كان قد عمهم بالخير واستحق من كل واحد منهم ان يقابله بضرب من المقابلة متى قعد عنه كان جائرا

اذ كان يأخذ نعمته ولا يعطيه شيأ * لكن مقابلة الملك الفاضل من رعيته انما تكون باخلاص الدعاء ونشر المحاسن وجميل الشكر وبذل الطاعة وترك المخالفة فى السر والعلانية والمحبة الصادقة والائتمام بسيرته بحو الاستطاعة والاقتداء به فى تدبير منزله وأهله وولده وعشيرته فان نسبة الملك الى مدينته ورعيته كنسبة صاحب المنزل الى منزله وأهله فمن لم يقابل ذلك الاحسان بهذه الطاعة والمحبة فقد جار وظلم وهذا الظلم والجور اذا كان فى مقابلة النعم الكثيرة فهو أفحش وأقبح * وذلك ان الظلم وان كان فى نفسه قبيحا فان مراتبه كثيرة * لان مقابلة كل نعمة انما تكون بحسب منزلتها وموقعها وبقدر فائدتها وعائدتها وعلى مقدار عددها * فان كانت النعم كثيرة العدد وعظيمة الوقع فكيف يكون حال من لا يلزم لها حقا ولا يرى عليها مقابلة بطاعة ولا شكر ولا محبة صادقة ولا مسعاة صالحة * فاذا كان هذا معروفا غير منكور واجبا غير مجحود فى ملوكنا ورؤسائنا * فبالاحرى ان يكون للملك الاول الذى يصل الينا فى كل طرفة عين ضروب احسانه الفائض على أجسامنا ونفوسنا التى لا يقع عليها احصاء ولا عدد من الحقوق الواجب علينا القيام بها والنهوض بتأديتها أترانا نجهل النعمة الاولى علينا بالوجود ثم تتابعها متواترة بعد ذلك بالخلق الجسدانى الذى أفنى فيه صاحب كتابى التشريح ومنافع الاعضاء ألف ورقة ثم لم يبلغ بعض ما عليه كنه الامر * أم ترانا

وان

والغزارة يوم الاطالة * وقيل للهندى فقال معرفة الفصل من الوصل * وقيل للعربى فقال ماحسن ايجازه وقل مجازه * وقيل للبدوى فقال مادون السحر وفوق الشعر يفت الخردل ويحط الجندل * وقيل للحضرى فقال ما كثر اعجازه وتناسبت صدوره وأعجازه * وقال ابن المقفع البلاغة قلة الحصر والجراءة على البشر * وسأل الحجاج بن القرية عن الايجاز قال أن تقول فلا تبطئ وأن تصيب فلا تخطئ وقال الشاعر

خير الكلام قليل * على كثير دليل
والعى معنى قصير * يحويه لفظ طويل
وفى الكلام فضول * وفيه قال وقيل

وأما صحة المعانى فتكون من ثلاثة أوجه أحدها ايضاح تفسيرها حتى لا تكون مشكلة ولا مجملة والثانى استيفاء تقسيمها حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج عنها ما هو فيها والثالث صحة مقابلاتها والمقابلة تكون من وجهين أحدهما مقابلة المعنى بما يوافقه وحقيقة هذه المقاربة لان المعانى تصير متشاكلة والثانى مقابلته بما يضاده وهو حقيقة المقابلة وليس للمقابلة الا أحد هذين الوجهين الموافقة فى الائتلاف والمضادة مع الاختلاف فأما فصاحة الالفاظ فتكون بثلاثة أوجه أحدها مجانبة الغريب الوحشى حتى لا يمجه سمع ولا ينفر منه طبع والثانى تنكب اللفظ المستبذل والعدول عن الكلام المسترذل حتى لا يستسقطه خاصى ولا ينبو عن فهم عامى كما قال الجاحظ فى كتاب البيان أما أنا فلم أر قوما أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب وذلك أنهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا عاميا والثالث أن يكون بين الالفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة أما المطابقة فهى أن تكون الالفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها وقال بشر ابن المعتمر فى وصيته فى البلاغة اذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ولا صائرة الى مستقرها ولا حالة فى مركزها بل وجدتها قلقة فى مكانها نافرة عن موضعها فلا تكرهها على القرار فى غير موضعها فانك ان لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد واذا أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقا فيهما عابك من أنت أقل عيبا منه وأزرى عليك من أنت فوقه وأما المناسبة فهى أن يكون المعنى يليق ببعض الالفاظ اما لعرف مستعمل أو لاتفاق مستحسن حتى اذا ذكرت تلك المعانى بعد تلك الالفاظ كانت نافرة عنها

نجهل ما وهب لنا من نفوسنا وما ركب فيها من القوى والملكات التي لا نهاية لها وما أمدها به من فيض العقل ونوره وبهائه وبركاته وما عرضنا به للملك الابدي والنعيم السرمدي (لا) لعمري ما يجهل هذه النعمة الا النعم فاما الانسان فيعرف من ذلك ما يضطره اليه مشاهدة أحواله في جميع أوقاته واذا كان الخالق تعالى غنيا عن معونتنا ومساعينا فمن المحال والقبيح والجور الفاحش أن نلتزم له نحن حقا ولا نقابله على هذه الآلاء والنعم بما يزيل عنا سمة الجور والخروج عن شريطة العدل ان ارسطوطاليس لم ينص في هذا الموضع على العبادة التي يجب ان نلتزمها لخالقنا عز وجل غير انه قال ما معناه * وقد اختلف الناس فيما ينبغي ان يقوم به المخلوقون لخالقهم فبعضهم رأى انه صلوات وصيام وخدمة هياكل ومصليات وقرابين وبعضهم رأى أن يقتصر على الاقرار بربوبيته والاعتراف باحسانه وتمجيده بحسب استطاعته وبعضهم رأى أن يتقرب اليه بان يحسن الى نفسه بتزكيتها وحسن سياستها والاحسان الى المستحقين من أهل نوعه بالمواساة ثم بالحكمة * والموعظة وبعضهم رأى اللهج بالفكر في الالهيات والتصرف نحو المحاولات التي يتزايد بها الانسان من معرفة ربه عز وجل حتى تتكامل معرفته به وتحقيقه وحدانيته وصرف الوكد اليه وبعضهم رأى ان الواجب للرب جل ذكره على الناس ليس سبيله واحدا ولا هو شئ بعينه يلتزمه الجميع التزاما واحدا وعلى مثال واحد لكنه يختلف بحسب اختلاف طبقات الناس ومراتبهم من العلم فهذا ما قاله أرسطوطاليس بالفاظه المنقولة الى العربية وأما المحدث من الفلاسفة فانهم قالوا ان عبادة الله عز وجل على ثلاثة أنواع * أحدها فيما يجب له على الابدان كالصلاة والصيام والسعي الى المواقف الشريفة لمناجاة الله عز وجل * والثاني فيما يجب له على النفوس كالاعتقادات الصحيحة وكالعلم بتوحيد الله عز اسمه وما يستحقه من الثناء والتمجيد وكالفكر فيما أفاضه على العالم من وجوده وحكمته ثم الاتساع في هذه المعارف والثالث فيما يجب له عند مشاركات الناس في المدن وهي في المعاملات والمزارعات والمناكح وفي تأدية الامانات مع نصيحة البعض للبعض بضروب المعاونات وعند جهاد الاعداء والذب عن الحريم وحماية الحوزة

وان كانت أصح وأوضح لاعتيادها سواها * وقال بعض البلغاء لا يكون البليغ بليغا حتى يكون معنى كلامه أسبق الى فهمك من لفظه الى سمعك وأما معاطاة الاعراب وتجنب اللحن فانما هو من صفات الصواب والبلاغة أعلى منه رتبة وأشرف منزلة وليس لمن لحن في كلامه مدخل في الادباء فضلا عن أن يكون في عداد البلغاء واعلم أن للكلام آدابا ان أغفلها المتكلم أذهب رونق كلامه وطمس بهجة بيانه ولهى الناس عن محاسن فضله بمساوي أدبه فعدلوا عن مناقبه بذكر مثالبه فمن آدابه أن لا يتجاوز في مدح ولا يسرف في ذم وان كانت النزاهة عن الذم كرما والتجاوز في المدح ملقا يصدر عن مهانة والسرف في الذم انتقام يصدر عن شر وكلاهما شين وان سلم من الكذب * يروى أنه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تميم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الاهتم عن قيس بن عاصم فمدحه فقال قيس والله يا رسول الله لقد علم أني خير مما وصف ولكن حسدني فذمه عمرو وقال والله يا رسول الله لقد صدقت في الاولى وما كذبت في الاخرى لاني رضيت في الاولى فقلت أحسن ما علمت وسخطت في الاخرى فقلت أقبح ما علمت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا على أن السلامة من الكذب في المدح والذم متعذرة لا سيما اذا مدح تقربا وذم تحنقا * وحكي عن الاحنف بن قيس أنه قال سهرت ليلتي أفكر في كلمة أرضي بها سلطاني ولا أسخط بها ربي فما وجدتها * وقال عبد الله بن مسعود ان الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج وما معه دينه قيل وكيف ذلك قال يرضيه بما يسخط الله عز وجل وسمع ابن الرومي رجلا يصف رجلا ويبالغ في مدحه فأنشأ يقول

اذا ما وصفت امرأ لامرئ * فلا تغل في وصفه واقصد
فانك ان تغل تغل الظنو * ن فيه الى الامد الابعد
فيضأل من حيث عظمته * لفضل المغيب على المشهد

ومن آدابه أن لا تبعثه الرغبة والرهبة على الاسترسال في وعد أو وعيد يعجز عنهما ولا يقدر على الوفاء بهما فان من أطلق بهما لسانه وأرسل فيهما عنانه ولم يستثقل من القول ما يستثقله من العمل صار وعده نكثا ووعيده عجزا * وحكي أن سليمان بن داود عليهما السلام مر بعصفور يدور حول عصفورة فقال لاصحابه هل تدرون ما يقول لها قالوا لا يا نبي الله قال انه يخطبها لنفسه ويقول لها زوجيني نفسك أسكنك أي غرف دمشق شئت وقال سليمان

قالوا فهذه هي العبادات وهي الطرق المؤدية الى الله عز وجل * وهذه الانواع وان كانت معدودة ومحصورة فانها منقسمة الى أنواع كثيرة وأقسام غير محصاة وللانسان مقامات ومنازل عند الله عز وجل فالمقام الاول الموقنين وهو رتبة الحكماء وأجلة العلماء والمقام الثاني مقام المحسنين وهو رتبة الذين يعملون بما يعلمون وهو ماذكرناه في كتابنا هذا من الفضائل والعمل بها * والمقام الثالث مقام الابرار وهو رتبة المصلحين وهؤلاء هم خلفاء الله بالحقيقة في اصلاح العباد والبلاد * والمقام الرابع مقام الفائزين وهو رتبة المخلصين في المحبة واليها تنتهي رتبة الاتحاد وليس بعدها منزلة ولا مقام لمخلوق ويسعد الانسان بهذه المنازل اذا حصلت له أربع خلال اولها الحرص والنشاط والثاني العلوم الحقيقية والمعارف اليقينية والثالث الحياء من الجهل ونقصان القريحة اللذين يحدثان بالاهمال والرابع لزوم هذه الفضائل والترقي فيها دائما بحسب الاستطاعة فهذه أسباب الاتصال

﴿أسباب الانقطاع عن الله﴾

واما أسباب الانقطاعات عن الله عز وجل والمساقط وهي التي تعرف بالعوائق فاولها السقوط الذي يستحق به الاعراض وتتبعه الاستهانة والثاني السقوط الذي يستحق به الحجاب ويتبعه الاستخفاف والثالث السقوط الذي يستحق به الطرد ويتبعه المقت * والرابع السقوط الذي يستحق به الخساة ويتبعه البغض وانما يشقى العبد اذا حصل على أربع خلال * أولها الكسل والبطالة ويتبعهما اضياع الزمان وفناء العمر بغير فائدة انسانية ومما والثاني الغباوة والجهل المتولدان عن ترك النظر ورياضة النفس بالتعاليم التي أحصيناها في كتاب مراتب السعادات والثالث الوقاحة التي ينتجها اهمال النفس اذا اتبعت الشهوات وترك زمامها الركوب الخطايا والسيئات * والرابع الانهماك الذي يحدث من الاستمرار في القبائح وترك الانابة وهذه الانواع الاربعة مسماة في الشرع بعبارة بعة أسماء فالاول هو الزيغ * والثاني هو الرين * والثالث هو الغشاوة والرابع هو الختم ولكل واحدة من هذه الشقاوات علاج خاص

كذب العصفور فان غرف دمشق مبنية بالصخور لا يقدر أن يسكنها هناك ولكن كل خاطب كاذب ومن آدابه ان قال قولا حققه بفعله واذا تكلم بكلام صدقه بعمله فان ارسال القول اختيار والعمل به اضطرار ولأن يفعل مالم يقل أجمل من أن يقول مالم يفعل * وقال بعض الحكماء أحسن الكلام مالا يحتاج فيه الى الكلام أي يكتفي بالفعل من القول * وقال محمود الوراق

القول ماصدقه الفعل * والفعل ماوكده العقل
لايثبت القول اذا لم يكن * يقله من تحته الاصل

ومن آدابه أن يراعي مخارج كلامه بحسب مقاصده وأغراضه فان كان ترغيبا قرنه باللين واللطف وان كان ترهيبا خلطه بالخشونة والعنف فان لين اللفظ في الترهيب وخشونته في الترغيب خروج عن موضعهما وتعطيل للمقصود بهما فيصير الكلام لغوا والغرض المقصود هواء وقد قال أبو الاسود الدؤلي لابنه يابني ان كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ولا بكلام من هو دونك فيزدروك ومن آدابه أن لايرفع بكلامه صوتا مستنكرا ولا ينزعج له انزعاجا مستهجنا وليكف عن حركة تكون طيشا وعن حركة تكون عيا فان نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة * وقد حكي أن الحجاج قال لاعرابي أخطيب أنا قال نعم لولا أنك تكثر الرد وتشير باليد وتقول أما بعد ومن آدابه أن يتجافى هجر القول ومستقبح الكلام وليعدل الى الكناية عما يستقبح صريحه ويستهجن فصيحه ليبلغ الغرض ولسانه نزه وأدبه مصون * وقد قال محمد بن علي في قوله تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما قال كانوا اذا ذكروا الفروج كنوا عنها وكما أنه يصون لسانه عن ذلك فهكذا يصون عنه سمعه فلا يسمع خنى ولا يصغي الى فحش فان سماع الفحش داع الى اظهاره وذريعة الى انكاره واذا وجد عن الفحش معرضا كف قائله وكان اعراضه أحد النكيرين كما أن سماعه أحد الباعثين وأنشدني أبو الحسن بن الحارث الهاشمي

تحر من الطرق أوساطها * وعد عن الموضع المشتبه
وسمعك صن عن قبيح الكلام * كصون اللسان عن النطق به
فانك عند استماع القبيح * شريك لقائله فانتبه

سنذكره عند مداواة أسقام النفس حتى تعود الى الصحة باذن الله عز وجل * وهذه الاشياء التى عددناها الآن لاخلاف بين الحكماء فيها وبين أصحاب الشرائع وانما تختلف بالعبارات والاشارات اليها بحسب اللغات * وافلاطون يقول ان العدالة اذا حصلت للانسان أشرق بها كل واحد واحد من أجزاء النفس وذلك لحصول فضائلها أجمع فيها فحينئذ تنهض النفس فتؤدى فعلها الخاص بها على أفضل ما يكون وهو غاية قرب الانسان السعيد من الاله تقدس اسمه قال والعدالة توسط ليس على جهة التوسط الذى فى الفضائل التى تقدم ذكرها لكن لانها فى الوسط والجور فى الطرفين وانما صار الجور فى الطرفين لانه زيادة ونقصان وذلك ان من شأن الجور طلب الزيادة والنقصان معا أما الزيادة فمن النافع على الاطلاق واما النقصان فمن الضار فلذلك يكون الجائر مستعملا للزيادة والنقصان اما لنفسه فيستعمل الزيادة فى النافع واما لغيره فيستعمل النقصان منه وأما فى الضار فبالضد وعلى العكس وذلك انه اما لنفسه فيستعمل النقصان منه واما لغيره فيستعمل الزيادة والفضائل التى قلنا انها أوساط بين الرذائل وهى غايات ونهايات * وذلك أن الوسط ههنا نهاية لها من كل جهة فهو فى غاية البعد منها ولذلك متى بعد عن الوسط زيادة بعد قرب من رذيلة كما قلنا فيما تقدم فقد تبين من جميع ما قدمنا ان الفضائل كلها اعتدالات وان العدالة اسم يشملها ويعمها كلها وان الشريعة لما كانت تقدر الافعال الارادية التى تقع بالروية وبالوضع الالهى صار المتمسك بها فى معاملاته عدلا والمخالف لها جائرا فلهذا قلنا ان العدالة تلقب للتمسك بالشريعة الا انا قد قلنا مع ذلك انها هيئة نفسانية تصدر عنها هذه الفضيلة * فتصور هذه الهيئة النفسانية فانك سترى رؤية واضحة ان صاحبها ينقاد ولا محالة للشريعة طوعا ولا يضادها بنوع من أنواع التضاد * وذلك انه اذا حافظ على المناسبات التى ذكرناها لانها مساواة وآثرها بعد اجالة الرأى فيها على سبيل الاختيار لها والرغبة فيها وجب عليه موافقة الشريعة وترك مخالفتها وأقل

ومما يجرى مجرى فحش القول وهجره فى وجوب اجتنابه ولزوم تنكبه ما كان شنيع البديهة مستنكر الظاهر وان كان عقب التأمل سليما وبعد الكشف والروية مستقيما كالذى رواه الازدى عن الصولى لبعض المتكلمين من الشعراء

انى شيخ كبير * كافر بالله سيرى
أنت ربى والهى * رازق الطفل الصغير

يريد بقوله كافر أى لابس لان الكفر التغطية ولذلك سمى الكافر بالله كافرا لانه قد غطى نعمة الله بمعصيته وقوله بالله سيرى يقسم عليها أن تسير وقوله أنت ربى يعنى ربى ولدك من التربية والهى رازق الطفل الصغير كما أنه رازق الولد الكبير فانظر الى هذا التكلف الشنيع والتعمق البشيع ما اعتاض من حيث البديهة اذا سلم بعد الفكر والروية الا لوما ان حسن فيه الظن أو ذما ان تروى فيه الارتياب وقلما يكون ذلك الا من خليع بطر أو مرتاب أشر فأما الحديث المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تصلوا على النبى فخارج من هذا النوع من التلبيس وفى تأويله وجهان أحدهما انه أراد النهى عن الصلاة فى المكان المرتفع المحدودب مأخوذ من النبوة والثانى أنه أراد الطريق ومنه سمى رسل الله أنبياء لانهم الطرق اليه وانما زال عنه التلبيس اذ قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان من قول غيره تلبيسا شنيعا لان موضوع خطابه وشواهد أحواله يصرفان كلامه عن التجوز والاسترسال فى أمر أونهى الى ما يجوز ان يرد به شرع وينهى عنه نبى وليس يمتنع ذلك فى غيره ولذلك افترق وجوده منه ومن غيره ومن آدابه أن يجتنب أمثال العامة الغوغاء ويتخصص بامثال العلماء الادباء فان لكل صنف من الناس أمثالا تشاكلهم فلا تجد لساقط الامثلا ساقطا وتشبيها مستقبحا وللسقاط أمثال فمنها تمثيلهم للشئ المريب كما قال الصنوبرى

اذا ما كنت ذا بول صحيح * ألا فاضرب به وجه الطبيب

ولذلك علتان احداهما أن الامثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس ولم يكن لذى الهمة الساقطة الا مثل مرذول وتشبيه معلول والثانية أن الامثال مستخرجة من أحوال المتمثلين بها فبحسب ما هم عليه تكون أمثالهم فلهاتين العلتين وقع الفرق بين أمثال الخاصة وأمثال العامة وربما ألف المتخصص مثلا عاميا أوتشبيها ركيكا لكثرة ما يطرق

ماتكون المساواة بين اثنين ولكنها تكون فى معاملة مشتركة بينهما وهو الشئ الثالث وربما كانا شيئين كما قلنا فتصير المناسبات كما بينا بين أربعة أشياء * وينبغى أن يعلم ان هذه الهيئة النفسانية هى غير الفعل وغير المعرفة وغير القوة * اما الفعل فلانا قد بينا أنه قد يقع على غير هيئة نفسانية * كمن يعمل أعمال العدالة وليس بعادل وكمن يعمل اعمال الشجاعة وليس بشجاع * وأما القوة والمعرفة فلان كل واحدة منهما هى بعينها للضدين معا فان العلم بالضدين واحد وكذلك القوة على الضدين قوة واحدة * واما الهيئة القابلة لاحد الضدين فهى غير الهيئة القابلة للضد الآخر * ومثال ذلك هيئة الشجاعة فانها غير هيئة الجبن وكذلك هيئة العفة غير هيئة الشره وهيئة العدالة غير هيئة الجور * ثم ان العدالة والخيرية يشتركان فى باب المعاملات والاخذ والاعطاء الا أن العدالة تقع فى اكتساب المال على الشرائط التى قدمنا القول فيها والخيرية تقع فى انفاق المال على الشرائط التى ذكرناها أيضا ومن شأن من يكتسب أن يأخذ فهو بالمنفعل أشبه ومن شأن المنفق ان يعطى فهو بالفاعل أشبه فلهذه العلة تكون محبة الناس للخير أشد من محبتهم للعادل الا ان نظام العالم بسبب العدالة أكثر منه بالخيرية وخاصة الفضيلة هى فى فعل الخير لا فى ترك الشر وخاصة محبة الناس وحمدهم فى بذل المعروف لا فى جمع المال فالخير لا يكرم المال ولا يجمعه لذاته بل ليصرفه فى وجوهه التى يكتسب بها المحبات والمحامد ومن خاصة الخير أن لا يكون كثير المال لانه منفاق ولا يكون أيضا فقيرا لانه كسوب من حيث ينبغى وهو غير متكاسل عن الكسب ألبتة لانه بالمال يصل الى فضيلة الخيرية ولذلك لا يضيع المال ولا يستعمل فيه التبذير ولا يشح أيضا فلا يستعمل التقتير فكل خير عادل وليس كل عادل خيرا

﴿مسألة عويصة أولى﴾ وفى هذا الموضع مسألة عويصة سأل عنها الحكماء أنفسهم وأجابوا عنها بجواب مقنع ويمكن أن يجاب فيها بجواب آخر أشد إقناعا ويجب أن نذكر الجميع وهو ان الشاك أن يشك فيقول اذا كانت العدالة فعلا اختياريا

منعه من مخالطة الاراذل فيسترسل فى ضربه مثلا فيصير به مثلا كالذى حكى عن الاصمعى ان الرشيد سأله يوما عن أنساب بعض العرب فقال على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين فقال له الفضل بن الربيع أسقط الله جنبيك أتخاطب أمير المؤمنين بمثل هذا الخطاب فكان الفضل بن الربيع مع قلة علمه أعلم بما يستعمل من الكلام فى محاورة الخلفاء من الاصمعى الذى هو واحد عصره وقريع دهره والامثال من الكلام موقع فى الاسماع وتأثير فى القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ولا يؤثر تأثيرها لان المعانى بها لائحة والشواهد بها واضحة والنفوس بها وامقة والقلوب بها واثقة والعقول لها موافقة فلذلك ضرب الله الامثال فى كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله وأوضح بها الحجة على خلقه لانها فى العقول معقولة وفى القلوب مقبولة ولها أربعة شروط أحدها صحة التشبيه والثانى أن يكون العلم بها سابقا والكل عليها موافقا والثالث أن يسرع وصولها للفهم ويعجل تصورها فى الوهم من غير ارتياء فى استخراجها ولا كد فى استنباطها والرابع أن تناسب حال السامع لتكون أبلغ تأثيرا وأحسن موقعا فاذا اجتمعت فى الامثال المضروبة هذه الشروط الاربعة كانت زينة للكلام وجلاء للمعانى وتدبرا للافهام

﴿الفصل الثانى فى الصبر والجزع﴾ اعلم أن من حسن التوفيق وأمارات السعادة الصبر على الملمات والرفق عند النوازل وبه نزل الكتاب وجاءت السنة قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون يعنى اصبروا على ما افترض الله عليكم وصابروا عدوكم ورابطوا فيه تأويلان أحدهما على الجهاد والثانى على انتظار الصلوات * وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أدلكم على ما يحط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال اسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فنزل الكتاب بتأكيد الصبر فيما أمر به وندب اليه وجعله من عزائم التقوى فيما افترضه وحث عليه * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب * وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو * وقال عبد الحميد لم أسمع أعجب من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو أن الصبر والشكر بعيران ما باليت أيهما ركبت وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أفضل العدة الصبر على الشدة

وقال

يتعاطاه العادل ويقصد به تحصيل الفضيلة لنفسه والمحمدة من الناس فيجب أن يكون الجور فعلا اختياريا يتعاطاه الجائر ويقصد به تحصيل الرذيلة لنفسه ومذمة الناس * ومن القبيح الشنيع أن يظن بالانسان العاقل أنه يقصد الاضرار بنفسه بعد الروية وعلى سبيل الاختيار ثم أجابوا عن ذلك وحلوا هذا الشك بان قالوا ان من ارتكب فعلا يؤديه الى ضرر أو عذاب فانه يكون ظالما لنفسه وضارا لها من حيث يقدر انه ينفعها وذلك لسوء اختياره وترك مشاورة العقل فيه * مثال ذلك الحاسد فانه ربما جنى على نفسه لا على سبيل ايثار الاضرار بها بل لانه يظن انه ينفعها في العاجل بالخلاص من الاذى الذي يلحقه من الحسد * هذا جواب القوم * وأما الجواب الآخر فهو ان الانسان لما كان ذا قوى كثيرة سمي بمجموعها انسانا واحدا لم ينكر أن تصدر عنه أفعال مختلفة بحسب تلك القوى وانما المنكر أن يكون الشيء الواحد البسيط ذو القوة الواحدة تقع منه بتلك القوة أفعال مختلفة لا بحسب الآلات المختلفة ولا بقدر القابلات منه بل بتلك القوة الواحدة فقط فهذا لعمري منكر شنيع ولكن الانسان قد تبين من حاله ان له قوى كثيرة فيعمل بكل قوة عملا مخالفا للعمل بالاخرى أعني أن صاحب الغضب اذا استشاط يختار أفعالا مخالفة لافعاله اذا كان ساكنا وديعا وكذلك صاحب الشهوة الهائجة وصاحب النشوة الطروب فان من شأن هؤلاء أن يستخدموا العقل الشريف في تلك الاحوال ولا يستشيرونه ولذلك تجد العاقل اذا تغيرت أحواله تلك فصار من الغضب الى الرضا ومن السكر الى الافاقة تعجب من نفسه وقال ليت شعري كيف اخترت تلك الافعال القبيحة ويلحقه الندم وانما ذلك لان القوة التي تهيج به تدعوه الى ارتكاب فعل يظنه في تلك الحال صالحا له جميلا به لتتم له حركة القوة الهائجة به فاذا سكن عنها وراجع عقله رأى قبح ذلك الفعل وفساده * وقوى الانسان التي تدعوه الى ضروب الشهوات ومحبة الكرامات كثيرة جدا فهو بحسب قواه الكثيرة تكون أفعاله كثيرة فاذا تعود الانسان أن تكون سيرته

وقال بعض البلغاء من خير خلال الصبر على اختلال * وقيل في منثور الحكم من أحب البقاء فليعد للمصائب قلبا صبورا * وقال بعض الحكماء بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ * وقال بعض الشعراء وهو عبيد بن الابرص

صبر النفس عند كل ملم * ان في الصبر حيلة المحتال
لا تضيقن في الامور فقد تكشف غماؤها بغير احتيال
ربما تجزع النفوس من الامر له فرجة كحل العقال

وقال ابن المقفع في كتاب اليتيمة الصبر صبران فاللئام أصبر أجساما والكرام أصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوي الجسد على الكد والعمل لان هذا من صفات الحمير ولكن أن يكون للنفس غلوبا وللامور متحملا ولجاشه عند الحفاظ مرتبطا واعلم أن الصبر على ستة أقسام وهو في كل قسم منها محمود فأول أقسامه وأولاها الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به والانتهاء عما نهى الله عنه لان به تخلص الطاعة وبها يصح الدين وتؤدى الفروض ويستحق الثواب كما قال في محكم الكتاب انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد وليس لمن قل صبره على طاعة حظ من بر ولا نصيب من صلاح ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها ثوابا ويدفع عنها عقابا كان من سوء الاختيار بعيدا من الرشاد حقيقا بالضلال وقد قال الحسن البصري رحمه الله تعالى يا من يطلب من الدنيا ما لا يلحقه أترجو أن تلحق من الآخرة ما لا تطلبه وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى

أراك امرأ ترجو من الله عفوه * وأنت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وأنت مقصر * فيا من يداوي الناس وهو سقيم

وهذا النوع من الصبر انما يكون لفرط الجزع وشدة الخوف فان من خاف الله عز وجل صبر على طاعته ومن جزع من عقابه وقف عند أوامره والقسم الثاني الصبر على ما تقتضيه أوقاته من رزية قد أجهده الحزن عليها أو حادثة قد أكده الهم بها فان الصبر عليها يعقبه الراحة منها ويكسبه المثوبة عنها فان صبر طائعا والا احتمل هما لازما وصبر كارها آثما * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليختر ربا سواي * وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه للاشعث بن قيس انك ان صبرت

فاضلة ولم يقدم على شيء من أفعاله الا بعد مطالعة العقل الصريح وبعد مراعاة الشريعة القويمة كانت أفعاله كلها منتظمة غير مختلفة ولا خارجة عن سنن العدل أعني المساواة التي قدمنا القول فيها * ولهذا السبب قلنا ان السعيد هو من اتفق له في صباه أن يأنس بالشريعة ويستسلم لها ويتعود جميع ما تأمره به حتى اذا بلغ المبلغ الذي يمكنه به أن يعرف الاسباب والعلل طالع الحكمة فوجدها موافقة لما تقدمت عادته به فاستحكم رأيه وقويت بصيرته ونفذت عزيمته وههنا مسألة عويصة أشد من الاولى وهو أن التفضل شيء محمود جدا

﴿مسألة عويصة ثانية﴾

وليس يقع تحت العدالة لان العدالة كما ذكرنا مساواة والتفضل زيادة وقد حكمنا أن العدالة تجمع الفضائل كلها ولا مزيد عليها بل يجب أن تكون الزيادة عليها مذمومة كما أن النقصان عنها مذموم ليكون شرف الوسط الذي تقدم وصفه في سائر الاخلاق حاصلا للعدالة * فالجواب عنها أن التفضل احتياط يقع من صاحبه في العدالة ليأمن به وقوع النقص في شيء من شرائطها وليس الوسط في كلا الطرفين من الاخلاق على شريطة واحدة وذلك ان الزيادة في باب السخاء اذا لم تخرج الى باب التبذير أحسن من النقصان فيه وأشبه بالمحافظة على شرائطه فتصير كالاحتياط فيه والاخذ بالحزم فيه * وأما العفة فان النقصان من الوسط فيها أحسن من الزيادة عليه وأشبه بالمحافظة على شرائطه وأبلغ في الاحتياط عليه وأخذ الحزم فيه ومع ذلك فليس يستعمل التفضل الا حيث تستعمل العدالة * وأعني بذلك ان من أعطى ماله من لا يستحق شيأ منه وترك مواساة من يستحقه لا يسمى متفضلا بل مضيعا * وانما يكون متفضلا اذا أعطى من يستحق كل ما يستحق ثم زاده تفضلا وهذه الزيادة ليست من الزيادة التي ذكرناها في باب السخاء لان تلك الزيادة ذهاب الى الطرف الذي يسمى تبذيرا وهو مذموم ويعرف ذلك من حده وهو بذل ما لا ينبغي كما لا ينبغي في الوقت الذي لا ينبغي * فاذا التفضل غير خارج عن شرط العدالة بل هو احتياط

اذا

جرى عليك القلم وأنت ماجور وان جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور * وقد ذكر ذلك أبو تمام في شعره فقال

وقال علي في التعازي لاشعث * وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاء وخشية * فتؤجر أو تسلو سلو البهائم

وقال شبيب بن شيبة للمهدي ان أحق ما تصبر عليه ما لم تجد الى دفعه سبيلا وأنشد

ولئن تصبك مصيبة فاصبر لها * عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر

وقال آخر

تصبرت مغلوبا واني لموجع * كما صبر الظمآن في البلد القفر
وليس اصطباري عنك صبر استطاعة * ولكنه صبر أمر من الصبر

والقسم الثالث الصبر على ما فات ادراكه من رغبة مرجوة وأعوز نيله من مسرة مأمولة فان الصبر عنها يعقب السلو منها والاسف بعد اليأس خرق * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أعطى فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر فاولئك لهم الامن وهم مهتدون * وقال بعض الحكماء اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لا يخطر ببالك فلم تقله وقال بعض الشعراء

اذا ملك القضاء عليك أمرا * فليس يحله غير القضاء
فمالك والمقام بدار ذل * ودار العز واسعة الفضاء

وقال بعض الحكماء ان كنت تجزع على ما فات من يدك فاجزع على ما لا يصل اليك فاخذه بعض الشعراء فقال

لا تطل الحزن على فائت * فقلما يجدي عليك الحزن
سيان محزون على فائت * ومضمر حزنا لما لم يكن

والقسم الرابع الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها فلا يتعجل هم ما لم يأت فان أكثر الهموم كاذبة وان الاغلب من الخوف مدفوع * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بالصبر يتوقع الفرج ومن يدمن قرع باب يلج * وقال الحسن البصري رحمه الله لا تحملن على يومك هم غدك فحسب كل يوم همه * وأنشد الجاحظ لحارثة بن زيد

فيها ولذلك قيل ان المتفضل أشرف من العادل * فقد بان أن التفضل ليس غير العدالة بل هو العدالة مع الاحتياط فيها وكانه مبالغة لا يخرجها عن معناها لان هذه الهيئة النفسانية ليست غير تلك الهيئة بل هي * فأما الاطراف التي هي رذائل أعني الزيادة والنقصان التي سبق القول فيهما فهي كلها هيآت مذمومة غير الهيآت المحمودة * وحدود هذه الاشياء هي التي تحصل لك معانيها ومشاركة بعضها البعض ومباينة بعضها البعض * وأيضا فان الشريعة تأمر بالعدالة أمرا كليا وليست تنحط الى الجزئيات وأعني بذلك ان العدالة التي هي المساواة تكون مرة في باب الكم ومرة في باب الكيف وفي سائر المقولات وبيان ذلك ان نسبة الماء الى الهواء مثلا ليست تكون بالكمية بل بالكيفية ولو كانت بالكمية لوجب أن يكونا متساويين في المساحة ولو كانا كذلك لتغالبا وأحال أحدهما الآخر الى ذاته وكذلك النار والهواء ولو أحالت هذه العناصر بعضها بعضا لفنى العالم في أقرب مدة * ولكن البارى تقدس اسمه عدل بين هذه بالقوة فتقاومت فليس يغلب أحد الآخر بالكلية وانما يحيل الجزء منها الجزء في الاطراف أعني حيث تلتقي نهاياتها وأما كلياتها فلا تقدر على كلياتها لان قواها متساوية متعادلة على غاية التسوية والتعادل * وبهذا النوع من العدل قيل بالعدل قامت السموات والارض ولو رجح أحدهما على الآخر بزيادة يسير قوة لاحال الزائد الناقص وقوى عليه فبطل العالم فسبحان القائم بالقسط لا اله الا هو

﴿الشريعة تأمر بالعدالة﴾

ولما كانت الشريعة تأمر بالعدالة الكاملة لم تأمر بالتفضل الكلي بل ندبت اليه ندبا يستعمل في الجزئيات التي لا يمكن أن تعين عليها لانها بلا نهاية وجزمت القول في العدالة الكلية لانها محصورة يمكن أن تعين عليها * وقد تبين أيضا مما قدمنا أن التفضل انما يكون في العدالة التي تخص الانسان في نفسه * أعني تسوية المعاملة أولا فيما بينه وبين غيره ثم الاستظهار فيه والاحتياط عليه بما يكون تفضلا ولو كان حاكما بين قوم ولا نصيب له في تلك الحكومة لم يجز له التفضل ولم يسعه الا العدل

اذا الهم أمسى وهو داء فأمضه * ولست بمضيه وأنت تعادله
ولا تنزلن أمر الشديدة بامرئ * اذا هم أمر أعوقته عواذله
وقل للفؤاد ان نجد بك نزوة * من الروع فافرح أكثر الهم باطله

والقسم الخامس الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها وينتظر من نعمة يأملها فانه ان أدهشه التوقع لها وأذهله التطلع اليها انسدت عليه سبل المطالب واستفزه تسويل المطامع فكان أبعد لرجائه وأعظم لبلائه واذا كان مع الرغبة وقورا وعند الطلب صبورا انجلت عنه عماية الدهش وانجابت عنه حيرة الوله فابصر رشده وعرف قصده وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الصبر ضياء يعني والله أعلم أنه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقائق الامور وقال أكثم بن صيفي من صبر ظفر وقال ابن المقفع كان مكتوبا في قصر ازدشير الصبر مفتاح الدرك وقال بعض الحكماء بحسن التأني تسهل المطالب وقال بعض البلغاء من صبر نال المنى ومن شكر حصن النعمى وقال محمد بن بشير

ان الامور اذا انسدت مطالبها * فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا
لا تيأسن وان طالت مطالبة * اذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته * ومدمن القرع للابواب أن يلجا

والقسم السادس الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من أمر مخوف فبالصبر في هذا تنفتح وجوه الآراء وتستدفع مكائد الاعداء فان من قل صبره عزب رأيه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه وقد قال الله تعالى واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل وان لم تستطع فاصبر فان في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا * واعلم ان النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه الصبر مستأصل الحدثان والجزع من أعوان الزمان وقال بعض الحكماء بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الامور وقال بعض البلغاء عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن سليمان بن داود عليهما السلام لما استكد شياطينه في البناء شكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال ألستم تذهبون فرغا وترجعون مشاغيل قالوا بلى قال ففي ذلك راحة فبلغ ذلك سليمان على نبينا وعليه السلام

المحض والتسوية الصحيحة بلا زيادة ولا نقصان وتبين أيضا أن الهيئة التى تصدر عنها الافعال العادلة متى نسبت الى صاحبها سميت فضيلة واذا نسبت الى من يعامله بها سميت عدالة واذا اعتبرت بذاتها سميت ملكة نفسانية * فاستعمال المرء العاقل العدل على نفسه أول ما يلزمه ويجب عليه * وقد ذكرنا فيما تقدم كيف يفعل ذلك وبينا كيف يعدل قواه الكثيرة اذا هاج به بعضها وأشرنا الى أجناس هذه القوى الكثيرة وأن بعضها يكون بالشهوات المختلفة وبعضها بطلب الكرامات الكثيرة وانها اذا تغالبت وتهايجت حدث فى الانسان باضطرابها أنواع الشر وجذبته كل واحدة منها الى ما يوافقها وهكذا سبيل كل مركب من كثرة اذا لم يكن لها رئيس واحد ينظمها ويوحدها * وارسطوطاليس يشبه من كان كذلك بمن يجذب من جهات كثيرة فيتقطع بينها وينشق بحسب تلك الجهات وقواها * وليس ينظم هذه الكثرة التى ركب الانسان منها الا الرئيس الواحد الموهوب له من الفطرة * أعنى العقل الذى به تميزه من البهائم وهو خليفة الله عز وجل عنده فان هذه القوى كلها اذا ساسها العقل انتظمت وزال عنها سوء النظام الذى يحدث من الكثرة وجميع ما ذكرنا من اصلاح الاخلاق مبنى عليه * فاذا تم للانسان ذلك أعنى أن يعدل على نفسه وأحرز هذه الفضيلة فقد لزمه أن يعدل على أصدقائه وأهله وعشيرته ثم يستعمله فى الاباعد وسائر الحيوان * واذ قد صح ذلك وظهر ظهورا حسيا فقد ظهر بظهوره ان شر الناس من جار على نفسه ثم على أصدقائه وعشيرته ثم على كافة الناس والحيوان لان العلم بأحد الضدين هو العلم بالضد الآخر * فخير الناس العادل وشرهم الجائر كما تبين ذلك * وتدعى قوم ان نظام أمر الموجودات كلها وصلاح أحوالها معلق بالمحبة وقالوا ان الانسان انما اضطر الى اقتناء هذه الفضيلة أعنى الهيئة التى تصدر عنها العدالة عند تعاطى المعاملات لما فاته شرف المحبة * ولو كان المتعاملون أحباء لتناصفوا ولم يقع بينهم خلاف * وذلك ان الصديق يحب صديقه ويريد له ما يريد

قال

فشغلهم ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال ألستم تستريحون بالليل قالوا بلى قال ففى هذا راحة لكم نصف دهركم فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم بالليل والنهار فشكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال الآن جاءكم الفرج فما لبث أن أصيب سليمان عليه السلام ميتا على عصاه فاذا كان هذا فى نبى من أنبياء الله يعمل بأمره ويقف على حده فكيف بما جرت به الاقدار من أبد عادية وساقه القضاء من حوادث نازلة فهل تكون مع التناهى الا منقرضة وعند بلوغ الغاية الا منحسرة * وأنشد بعض الادباء لعثمان بن عفان رضى الله عنه

خليلى لا والله ما من ملمة * تدوم على حى وان هى جلت
فان نزلت يوما فلا تخضعن لها * ولا تكثر الشكوى اذا النعل زلت
فكم من كريم قد بلى بنوائب * فصابرها حتى مضت واضمحلت
وكم غمرة هاجت بامواج غمرة * تلقيتها بالصبر حتى تجلت
وكانت على الايام نفسى عزيزة * فلما رأت صبرى على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتى كريمة * فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ولتسهيل المصائب وتخفيف الشدائد أسباب اذا قارنت حزما وصادفت عزما هان وقعها وقل تأثيرها وضررها فمنها اشعار النفس بما تعلمه من نزول الفناء وتقضى المسار وأن لها آجالا منصرمة ومددا منقضية اذ ليس للدنيا حال تدوم ولا لمخلوق فيها بقاء * وروى ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما مثلى ومثل الدنيا الا كمثل راكب مال الى ظل شجرة فى يوم صائف ثم راح وتركها * وسئل على بن أبى طالب رضى الله عنه عن الدنيا فقال تغر وتضر وتمر * وسأل بعض خلفاء بنى العباس جليساله عن الدنيا فقال اذا أقبلت أدبرت وقال عمرو بن عبيد الدنيا أمد والآخرة أبد * وقال أنوشروان ان أحببت أن لا تغتم فلا تقتن ما به تهتم * فأخذه بعض الشعراء فقال

ألم تر أن الدهر من سوء فعله * يكدر ما أعطى ويسلب ما أسدى
فمن سره أن لا يرى ما يسوءه * فلا يتخذ شيأ يخاف له فقدا

وأنشد بعض الحكماء

لحكيمنا بقراط خير قضية * ووصية تنفى الهموم الركدا

لنفسه ولا تتم الثقة والتعاضد والتوازر الا بين المتحابين * واذا تعاضدوا وجمعتهم المحبة وصلوا الى جميع المحبوبات ولم تتعذر عليهم المطالب وان كانت صعبة شديدة * وحينئذ ينشؤون الاراء الصائبة وتتعاون العقول على استخراج الغوامض من التدابير القويمة ويتقوون على نيل الخيرات كلها بالتعاضد * وهؤلاء القوم انما نظروا الى فضيلة التأحد التي تحصل بين الكثرة ولعمري انها أشرف غايات أهل المدنية * وذلك انهم اذا تحابوا ثم اصلوا وأراد كل واحد منهم لصاحبه مثل ما يريده لنفسه فتصير القوى الكثيرة واحدة ولم يتعذر على أحد منهم رأى صحيح ولا عمل صواب ويكون مثلهم في جميع ما يحاولونه مثل من يريد تحريك ثقل عظيم بنفسه فلا يطيق ذلك * فان استعان بقوة غيره حركه ومدبر المدينة انما يقصد بجميع تدابيره ايقاع المودات بين أهلها واذا تم له هذا خاصة فقد تمت له جميع الخيرات التي تتعذر عليه وحده وعلى أفراد أهل مدينته وحينئذ يغلب أقرانه و يعمر بلدانه ويعيش هو ورعيته مغبوطين ولكن هذا التأحد المطلوب بهذه المحبة المرغوب فيها لا يتم الا بالآراء الصحيحة التي يرجى الاتفاق من العقول السليمة عليها والاعتقادات القويمة التي لا تحصل الا بالديانات التي يقصد بها وجه الله عز وجل وأصناف المحبات كثيرة وان كانت ترتقي كلها الى وجه واحد وسنقول فيها بمعونة الله فيما يتلوا هذه المقالة ان شاء الله

قال الهموم تكون من طبع الورى * فى لبث ما فى طبعه أن ينفدا
فاذا اقتنيت من الزجاجة قابلا * للكسر فانكسرت فلا تك مكمدا

وأنشد نى بعض أهل العلم لسعيد بن مسلم

انما الدنيا هبات * وعوار مستردة
شدة بعد رخاء * ورخاء بعد شدة

ولما قتل بزرجمهر وجد فى جيب قميصه رقعة فيها مكتوب اذا لم يكن جد ففيم الكد وان لم يكن للامر دوام ففيم السرور واذا لم يرد الله دوام ملك ففيم الحيلة * وقال ابن الرومى

رأيت حياة المرء رهنا بموته * وصحته رهنا كذلك بالسقم
اذا طاب لى عيش تنغص طيبه * بصدق يقينى أن سيذهب كالحلم
ومن كان فى عيش يراعى زواله * فذلك فى بؤس وان كان فى نعم

ومنها أن يتصور انجلاء الشدائد وانكشاف الهموم وأنها تتقدر بأوقات لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها فلا تقصر بجزع ولا تطول بصبر وأن كل يوم يمر بها يذهب منها بشطر و يأخذ منها بنصيب حتى تنجلى وهو عنها غافل * وحكى أن الرشيد حبس رجلا ثم سأل عنه بعد زمان فقال للموكل به قل له كل يوم يمضى من نعمه يمضى من بؤسى مثله والامر قريب والحكم لله تعالى فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال

لو أن ما أنتم فيه يدوم لكم * ظننت ما أنا فيه دائما أبدا
لكننى عالم أنى وأنكم * سنستجد خلاف الحالتين غدا

وأنشدت لبعض الشعراء

عواقب مكروه الامور خيار * وأيام ضر لا تدوم قصار
وليس بباق بؤسها ونعيمها * اذا كر ليل ثم كر نهار

وأنشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين حضرته الوفاة

ألم تر أن ربك ليس تحصى * أياديه الحديثة والقديمة
تسل عن الهموم فليس شئ * يقوم ولا هموم بالمقيمة
لعل الله ينظر بعد هذا * اليك بنظرة منه رحيمة

ومنها أن يعلم أن فيما وقى من الرزايا وكفى من الحوادث ما هو أعظم من رزيته وأشد من

﴿ المقالة الخامسة ﴾ (التعاون والاتحاد) قد سبق القول فى حاجة بعض الناس الى بعض وتبين أن كل واحد منهم يجد تمامه عند صاحبه وأن الضرورة داعية الى استعانة بعضهم ببعض لان الناس مطبوعون على النقصانات ومضطرون الى تماماتها ولا سبيل لافرادهم والواحد فالواحد منهم الى تحصيل تمامه بنفسه كما شرحناه فيما مضى فالحاجة صادقة والضرورة داعية الى حال تجمع وتؤلف بين أشتات الاشخاص ليصير وا بالاتفاق والائتلاف كالشخص الواحد الذى تجمع أعضاؤه كلها على الفعل الواحد النافع له ﴿ المحبة ﴾ وللمحبة أنواع وأسباب تكون بعدد أنواعها * فاحد

أنواعها ما ينعقد سريعا وينحل سريعا * والثاني ما ينعقد سريعا وينحل بطيئا * والثالث ما ينعقد بطيئا وينحل سريعا والرابع ما ينعقد بطيئا وينحل بطيئا * وانما انقسمت الى هذه الانواع فقط لان مقاصد الناس في مطالبهم وسيرهم ثلاثة ويتركب بينها رابع وهي اللذة والخير والمنافع والمتركب منها * واذا كانت هذه غايات الناس في مقاصدهم فلا محالة أنها أسباب المحبة من عاون عليها وصار سببا للوصول اليها فقد أفلح * فاما المحبة التي يكون سببها اللذة فهي التي تنعقد سريعا وتحل سريعا * وذلك لان اللذة سريعة التغير كما شرحنا أمرها فيما تقدم وأما المحبة التي سببها الخير فهي التي تنعقد سريعا وتحل بطيئا وأما المحبة التي سببها المنافع فهي التي تنعقد بطيئا وتحل سريعا * وأما التي تتركب من هذه اذا كان فيها الخير فانها تحل بطيئا وتنعقد بطيئا * وهذه المحبات كلها تحدث بين الناس خاصة لانها تكون بارادة وروية وتكون فيها مجازاة ومكافأة * فأما التي تكون بين الحيوانات غير الناطقة فالاحرى بها أن تسمى إلفا وتقع بين الاشكال منها خاصة * وأما التي لا نفوس لها من الاحجار وأمثالها فليس يوجد فيها الا الميل الطبيعي الى مراكزها التي تخصها وقد يوجد أيضا بينها منافرة ومشاكلة بحسب أمزجتها الحادثة فيها من عناصرها الاولى وهذه الامزجة كثيرة واذا وقع منها شئ يتناسب نسبة تأليفية أو عددية مساحية حدثت بينها ضروب من المشاكلة واذا كان أضداد هذه النسب حدثت بينها منافرة وتحدث لها أشياء تسمى خواص وهي أفعال بديعة وهي التي تسمى أسرار الطبائع ولاسيما في النسب التأليفية فانها أشرف النسب بعد نسبة المساواة ولها اضداد أعني هذه النسب * وهي مبينة مشروحة في صناعة الارثماطيقي ثم في صناعة التأليف * وأما الامزجة التي بحسب هذه النسب فهي خفية عنا وعسرة المرام وقد ادعى قوم الوصول اليها وليست تكون هذه الافعال والخواص التي تحدث بين الامزجة من النسب المذكورة موجودة في العناصر أنفسها والكلام فيها خارج عن غرضنا وانما ذكرناها هنا *

حادثة ليعلم أنه ممنوح بحسن الدفاع ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى في أثناء كل محنة منحة * وقيل للشعبي في نائبة كيف أصبحت قال بين نعمتين خير منشور وشر مستور وقال بعض الشعراء

لاتكره المكروه عند حلوله * ان العواقب لم تزل متباينه
كم نعمة لاتستقل بشكرها * لله في طي المكاره كامنه

ومنها أن يتأسى بذوي الغير ويتسلى بأولي العبر ويعلم أنهم الاكثرون عددا والاسرعون مددا فيستجد من سلوة الاسى وحسن العزا ما يخفف شجوه ويقل هلعه * وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألصقوا بذوي الغير تتسع قلوبكم * وعلى مثل ذلك كانت مراثي الشعراء قال البحتري

فلا عجب للاسد ان ظفرت بها * كلاب الاعادي من فصيح وأعجمي
فحربة وحشي سقت حمزة الردى * وموت علي من حسام ابن ملجم

وقال أبو نواس

المرء بين مصائب لاتنقضي * حتى يوارى جسمه في رمسه
فمؤجل يلقى الردى في أهله * ومعجل يلقى الردى في نفسه

ومنها أن يعلم أن النعم زائرة وأنها لامحالة زائلة وأن السرور بها اذا أقبلت مشوب بالحذر من فراقها اذا أدبرت وأنها لاتفرح باقبالها فرحا حتى تعقب بفراقها ترحا فعلى قدر السرور يكون الحزن * وقد قيل في منثور الحكم المفروح به هو المحزون عليه وقيل من بلغ غاية ما يحب فليتوقع غاية ما يكره * وقال بعض الحكماء من علم أن كل نائبة الى انقضاء حسن عزاؤه عند نزول البلاء * وقيل للحسن البصري رحمه الله كيف ترى الدنيا قال شغلني توقع بلائها عن الفرح برخائها فأخذه أبو العتاهية فقال

تزيده الايام ان أقبلت * شدة خوف لتصاريفها
كأنها في حال اسعافها * تسمعه وقعة تخويفها

ومنها أن يعلم أن سروره مقرون بمساءة غيره وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره اذا كانت الدنيا تنتقل من صاحب الى صاحب وتصل صاحبا بفراق صاحب فتكون سرورا لمن وصلته وحزنا لمن فارقته وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ما قرعت عصا على عصا الا فرح لها قوم

وحزن

وحزن آخرون وقال البحترى

متى أرت الدنيا نباهة خامل * فلا ترتقب الا خمول نبيه

وقال المتنبى

بذا قضت الايام ما بين أهلها * مصائب قوم عند قوم فوائد

وأنشد بعض أهل الادب

ألا انما الدنيا غضارة ايكة * اذا اخضر منها جانب جف جانب

فلا تفرحن منها لشئ تفيده * سيذهب يوما مثل ما أنت ذاهب

وما هذه الايام الا فجائع * وما العيش واللذات الا مصائب

ومنها أن يعلم أن طوارق الانسان من دلائل فضله ومحنه من شواهد نبله وذلك لاحدى علتين اما لان الكمال معوز والنقص لازم فاذا تواتر الفضل عليه صار النقص فيما سواه وقد قيل من زاد فى عقله نقص من رزقه * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما انتقصت جارحة من انسان الا كانت ذكاء فى عقله * وقال أبو العتاهية

ماجاوز المرء من أطرافه طرفا * الا تخوّنه النقصان من طرف

وأنشدنى بعض أهل الادب لابراهيم بن هلال الكاتب

اذا جمعت بين امرأين صناعة * فأحببت أن تدرى الذى هو أحذق

فلا تتفقد منهما غير ما جرت * به لهما الارزاق حين تفرق

فحيث يكون النقص فالرزق واسع * وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق

وأما لان ذا الفضل محسود وبالاذى مقصود فلا يسلم فى بره من معاد واشتطاط مناو قال الصنوبرى

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى * كالنار مخبرة بفضل العنبر

وقلما تكون محنة فاضل الا من جهة ناقص وبلوى عالم الا على يد جاهل وذلك لاستحكام العداوة بينهما بالمباينة وحدوث الانتقام لاجل التقدم * وقد قال الشاعر

فلا غرو أن منى عليم بجاهل * فمن ذنب التنين تنكسف الشمس

ومنها ما يعتاضه من الارتياض بنوائب عصره ويستفيده من الحنكة ببلاء دهره فيصلب عوده ويستقيم عموده ويكمل بادنى شدته ورخائه ويتعظ بمالى عفوه وبلائه * حكى عن

لانها تشبه المشاكلات والمنافرات التى بين الحيوان فى الظاهر والنسبة التى تحدث بين الناس بالارادة وهى التى نتكلم فيها ويقع فيها مكافأة ومجازاة ﴿الصداقة﴾ الصداقة نوع من المحبة الا أنها أخص منها وهى المودة بعينها وليس يمكن ان تقع بين جماعة كثيرين كما تقع المحبة وأما العشق فهو افراط فى المحبة وهو أخص من المودة وذلك انه لا يمكن ان يقع الا بين اثنين فقط ولا يقع فى النافع ولا فى المركب من النافع وغيره وانما يقع لمحب اللذة بافراط ولمحب الخير بافراط وأحدهما مذموم والآخر محمود فالصداقة بين الاحداث ومن كان فى مثل طباعهم انما تحدث لاجل (١٦٩) اللذة فهم يتصادقون سريعا ويتقاطعون سريعا وربما اتفق ذلك بينهم فى الزمان القليل مرارا كثيرة وربما بقيت بقدر ثقتهم ببقاء اللذة ومعاودتها حالا بعد حال فاذا انقطعت هذه الثقة بمعاودتها انقطعت الصداقة بالوقت وفى الحال والصداقة من المشايخ ومن كان فى مثل طباعهم انما تقع لمكان المنفعة فهم يتصادقون بسببها فاذا كانت المنافع مشتركة بينهم وهى فى الاكثر طويلة المدة كانت الصداقة باقية فحين تنقطع علاقة المنفعة بينهم وتنقطع رجاؤهم من المنفعة المشتركة تنقطع موداتهم والصداقة بين الاخيار تكون لاجل الخير وسببها هو الخير ولما كان الخير شيأ غير متغير الذات صارت مودات أصحابه باقية غير متغيرة وأيضا لما كان الانسان مركبا من طبائع متضادة صار ميل كل واحد منها يخالف ميل الآخر فاللذة التى توافق احداها تخالف لذة الاخرى التى تضادها فلا تخلص لها لذة غير مشوبة بأذى ولما كان فيه أيضا جوهر آخر بسيط الهى غير مخالط لشئ من الطبائع الاخرى صارت له لذة غير مشابهة لشئ من تلك اللذات وذلك انها بسيطة أيضا والمحبة التى سببها هذه اللذة هى التى تفرط حتى تصير عشقا تاما خالصا شبيها بالوله وهى المحبة الالهية الموصوفة التى يدعيها بعض المتألهين وهى التى يقول فيها ارسطوطاليس حكاية عن ابرقليطس ان الاشياء المختلفة لا تتشاكل ولا يكون منها تأليف جيد وأما الاشياء المتشاكلة وهى التى يسر بعضها ببعض ويشتاق بعضها الى بعض فأقول عنها ان الجواهر البسيطة اذا تشاكلت واشتاق بعضها الى

بعض تألفت واذا تألفت صارت شيأ واحدا لاغيرية بينها اذ الغيرية انما تحدث من جهة الهيولى وأما الاشياء ذوات الهيولى وهى الاجرام فانها وان اشتاقت بنوع من الشوق الى التألف فانها لا تتحد ولا يمكن ذلك فيها وذلك انها تلتقى بنهاياتها وسطوحها دون ذواتها وهذا الالتقاء سريع الانفصال اذ كان التأحد فيه ممتنعا وانما تتأحد بنحو استطاعتها أعنى ملاقاة سطوحها فاذا الجوهر الالهى الذى فى الانسان اذا صفا من كدورته التى حصلت فيه من ملابسة الطبيعة ولم تجذبه أنواع الشهوات وأصناف محبات الكرامات اشتاق الى شبيهه ورأى بعين عقله الخير الاول المحض الذى لا تشوبه مادة فاسرع اليه وحينئذ يفيض نور ذلك الخير الاول عليه فيلتذ به لذة لا تشبهها لذة ويصير الى معنى الاتحاد الذى وصفناه استعمل الطبيعة البدنية أم لم يستعملها * الا انه بعد مفارقته الطبيعة بالكلية أحق بهذه المرتبة العالية لانه ليس تصفو الصفاء التام الا بعد مفارقته الحياة الدنيوية ومن فضائل هذه المحبة الالهية انها لا تقبل النقصان ولا تقدح فيها السعاية ولا يعترض عليها الملك ولا تكون الا بين الاخيار فقط وأما المحبات التى تكون بسبب المنفعة واللذة فقد تكون بين الاشرار وبين الاخيار والاشرار الا انها تنقضى وتنحل مع تقضى المنافع واللذائذ لانها عرضية وكثيرا ما تحدث بالاجتماعات فى المواضع الغريبة * الا انها تزول بزوال المواضع كالسفينة وما جرى مجراها * والسبب فى هذه المحبة الانس وذلك ان الانسان آنس بالطبع وليس بوحشي ولا نفور ومنه فاذا اشتق اسم الانسان فى اللغة العربية وقد تبين ذلك فى صناعة النحو وليس كما قال الشاعر * سميت انسانا لانك ناس * فان هذا الشاعر ظن ان الانسان مشتق من النسيان وهو غلط منه * و ينبغى ان يعلم ان هذا الانس الطبيعى فى الانسان هو الذى ينبغى ان نحرص عليه ونكتسبه مع أبناء جنسنا حتى لا يفوتنا بجهدنا واستطاعتنا فانه مبدأ المحبات كلها ﴿والشريعة تدعو الى الانس والمحبة﴾ وانما وضع للناس بالشريعة وبالعادة الجميلة اتخاذ الدعوات والاجتماع فى المآدب ليحصل لهم

ثعلب قال دخلت على عبيد الله بن سليمان بن وهب وعليه خلع الرضا بعد النكبة فلما امتثلت بين يديه قال لى يا أبا العباس اسمع ما أقول

نوائب الدهر ادبتنى * وانما يوعظ الاديب
قد ذقت حلوا وذقت مرا * كذاك عيش الفتى ضروب
لم يمض بؤس ولا نعيم * الا ولى فيهما نصيب
كذاك من صاحب الليالى * تغذوه من درها الخطوب

فقلت لمن هذه الابيات قال لى ومنها أن يختبر أمور زمانه ويتنبه على صلاح شانه فلا يغتر برخاء ولا يطمع فى استواء ولا يؤمل أن تبقى الدنيا على حالة أو تخلو من تقلب واستحالة فان من عرف الدنيا وخبر أحوالها هان عليه بؤسها ونعيمها وأنشد بعض الادباء

انى رأيت عواقب الدنيا * فتركت ما أهوى لما أخشى
فكرت فى الدنيا وعالمها * فاذا جميع أمورها تفنى
وبلوت أكثر أهلها فاذا * كل امرئ فى شأنه يسعى
أسنى منازلها وأرفعها * فى العز أقربها من المهوى
تعفو مساويها محاسنها * لا فرق بين النعى والبشرى
ولقد مررت على القبور فما * ميزت بين العبد والمولى
أتراك تدرى كم رأيت من الاحياء ثم رأيتهم موتى

فاذا ظفر المصاب بأحد هذه الاسباب تخففت عنه أحزانه وتسهلت عليه أشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع حسن العزاء وقال بعض الحكماء من حاذر لم يهلع ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقعا لم يكن متوجعا وقال بعض الشعراء

ما يكون الامر سهلا كله * انما الدنيا سرور وحزون
هون الامر تعش فى راحة * قلما هونت الا سيهون
تطلب الراحة فى دار العنا * ضل من يطلب شيأ لا يكون

فان أغفل نفسه عن دواعى السلوة ومنعها من أسباب الصبر تضاعف عليه من شدة الاسى وهم الجزع ما لا يطيق عليه صبرا ولا يجد عنه سلوا وقال ابن الرومى

ان البلاء يطاق غير مضاعف * فاذا تضاعف صار غير مطاق

هذا الانس والشريعة انما أوجبت على الناس ان يجتمعوا فى مساجدهم كل يوم خمس مرات وفضلت صلاة الجماعة على صلاة الآحاد ليحصل لهم هذا الانس الطبيعى الذى هو فيهم بالقوة حتى يخرج الى الفعل ثم يتأكد بالاعتقادات الصحيحة التى تجمعهم وهذا الاجتماع فى كل يوم ليس يتعذر على أهل كل محلة وسكة * والدليل على ان غرض صاحب الشريعة ما ذكرناه أنه أوجب على أهل المدينة بأسرهم ان يجتمعوا فى كل أسبوع يوما بعينه فى مسجد يسعهم ليجتمع أيضا شمل أهل المحال والسكك فى كل أسبوع كما اجتمع شمل أهل الدور والمنازل فى كل يوم * ثم أوجب أيضا ان يجتمع أهل المدينة مع أهل القرى والرساتيق المتقاربين فى كل سنة مرتين فى مصلى بارز بن مصحرين ليسعهم المكان ويتجدد الانس بين كافتهم وتشملهم المحبة الناظمة لهم * ثم أوجب بعد ذلك ان يجتمعوا فى العمر كله مرة واحدة فى الموضع المقدس بمكة ولم يعين من العمر وقت مخصوص ليتسع لهم الزمان وليجتمع أهل المدن المتباعدة كما اجتمع أهل المدينة الواحدة ويصير حالهم فى الانس والمحبة وشمول الخير والسعادة كحال المجتمعين فى كل سنة وفى كل اسبوع وفى كل يوم فيجتمعوا بذلك الى الانس الطبيعى والى الخيرات المشتركة وتتجدد بينهم محبة الشريعة وليكبروا الله على ما هداهم ويغتبطوا بالدين القويم القيم الذى ألفهم على تقوى الله وطاعته

﴿الخليفة يحرس الدين﴾

والقائم يحفظ هذه السنة وغيرها من وظائف الشرع حتى لا تزول عن أوضاعها هو الامام وصناعته هى صناعة الملك * والاوائل لا يسمون بالملك الا من حرس الدين وقام بحفظ مراتبه وأوامره وزواجره * وأما من اعرض عن ذلك فيسمونه متغلبا ولا يؤهلونه لاسم الملك وذلك أن الدين هو وضع الهى يسوق الناس باختيارهم الى السعادة القصوى * والملك هو حارس هذا الوضع الالهى حافظ على الناس ما أخذوا به * وقد قال حكيم الفرس وملكهم ازدشير ان الدين والملك اخوان

فاذا ساعده جزعه بالاسباب الداعية عليه وأمده هلعه بالذرائع الداعية اليه فقد سعى فى حتفه وأعان على تلفه فمن أسباب ذلك تذكر المصاب حتى لا يتناساه وتصوره حتى لا يعزب عنه ولا يجد من التذكار سلوة ولا يخلط مع التصور تعزية وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تستفزوا الدموع بالتذكر وقال الشاعر

* ولا يبعث الاحزان مثل التذكر *

ومنها الاسف وشدة الحسرة فلا يرى من مصابه خلفا ولا يجد لمفقوده بدلا فيزداد بالاسف ولها وبالحسرة هلعا ولذلك قال الله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم وقال بعض الشعراء

اذا بليت فثق بالله وارض به * ان الذى يكشف البلوى هو الله
اذا قضى الله فاستسلم لقدرته * ما لامرئ حيلة فيما قضى الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه * لا تيأسن فان الصانع الله

ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل فى قوله تعالى فاصبر صبرا جميلا انه الصبر الذى لا شكوى فيه ولا بث روى أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما صبر من بث وحكى كعب الاحبار أنه مكتوب فى التوراة من أصابته مصيبة فشكى الى الناس فانما يشكو ربه وحكى ان اعرابية دخلت من البادية فسمعت صراخا فى دار فقالت ما هذا فقيل لها مات لهم انسان فقالت ما أراهم الا من ربهم يستغيثون وبقضائه يتبرمون وعن ثوابه يرغبون * وقد قيل فى منثور الحكم من ضاق قلبه اتسع لسانه وأنشد بعض أهل العلم

لا تكثر الشكوى الى الصديق * وارجع الى الخالق لا المخلوق
* لا يخرج الغريق بالغريق *

﴿وقال بعض الشعراء﴾

لا تشك دهرك ما صححت به * ان الغنى هو صحة الجسم
هبك الخليفة كنت منتفعا * بغضارة الدنيا مع السقم

ومنها اليأس من خبر مصابه ودرك طلابه فيقترن بحزن الحادثة قنوط الاياس فلا يبقى معه صبر ولا يتسع لها صدر وقد قيل المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين * وقال ابن الرومى

اصبرى أيتها النفـ * ـس فان الصبر أحجى

توأمان لايتم أحدهما الابالآخر * فالدين أس والملك حارس * وكل مالاأس له فهدوم * وكل مالاحارس له فضائع ولذلك حكمنا على الحارس الذى نصب للدين أن يتيقظ فى موضعه ويحكم صناعته ولايباشر أمره بالهوينا ولا يشتغل بلذة تخصه ولايطلب الكرامة والغلبة الامن وجهها * فانه متى أغفل شيئا من حدوده دخل عليه من هنالك الخلل والوهن * وحينئذ تتبدل أوضاع الدين ويجد الناس رخصة فى شهواتهم ويكثر من يساعدهم على ذلك فتنقلب هيئة السعادة الى ضدها ويحدث بينهم الاختلاف والتباغض فاداهم ذلك الى الشتات والفرقة وبطل الغرض الشريف وانتقض النظام الذى طلبه صاحب الشرع بالاوضاع الالهية فاحتيج حينئذ الى تجديد الامر واستئناف التدبير وطلب الامام الحق والملك العدل * ونعود الى ذكر أجناس المحبات وأسبابها فنقول

﴿أجناس المحبات وأسبابها﴾

ان هذه الاسباب كلها ماخلا المحبة الالهية اذا كانت مشتركة بين المتحابين وكانت واحدة بعينها جاز فى الشيئين ان ينعقدا معا وينحلا معا وجاز أيضا أن يبقى أحدهما وينحل الآخر * مثال ذلك ان اللذات المشتركة بين الرجل والمرأة هى سبب للمحبة بينهما فقد يجوز أن تجمع المحبات لان السبب واحد وهى اللذة * وقد يجوز أن تنقطع احداهما وتبقى الاخرى وذلك ان اللذة تتغير ولا تكاد تثبت كما تقدم وصفها * فقد يجوز أن يتغير سبب احدى المحبتين ويثبت الآخر * وأيضا فان بين الرجل وبين زوجته خيرات مشتركة ومنافع مختلطة وهما يتعاونان عليها اعنى الخيرات الخارجة عنها وهى الاسباب التى تعمر بها المنازل * فالمرأة تنتظر من زوجها تلك الخيرات لانه هو الذى يكتسبها ويحضرها * وأما الرجل فانه ينتظر من زوجته ضبط تلك الخيرات لانها هى التى تحفظها.

ربما خاب رجاء * وأتى مالبس يرجى

وأنشدنى بعض أهل العلم

أتحسب ان البؤس للحر دائم * ولودام شئ عده الناس فى العجب
لقد عرفتك الحادثات ببؤسها * وقد أدبت ان كان ينفعك الادب
ولوطلب الانسان من صرف دهره * دوام الذى يخشى لأعياه ماطلب

ومنها أن يعزى بملاحظة من حيطت سلامته وحرست نعمته حتى التحف بالامن والدعة واستمتع بالثروة والسعة ويرى انه قد خص من بينهم بالرزية بعد أن كان مساويا وأفرد بالحادثة بعد أن كان مكافيا فلا يستطيع صبرا على بلوى ولايلزم شكرا على نعمى ولوقابل بهذه النظرة ملاحظة من شاركه فى الرزية وساواه فى الحادثة لتكافأ الامران فهان عليه الصبر وحان منه الفرج * وأنشدت لامرأة من العرب

أيها الانسان صبرا * ان بعد العسر يسرا
كم رأينا اليوم حرا * لم يكن بالامس حرا
ملك الصبر فاضحى * مالكا خيرا وشرا
اشرب الصبر وان كا * ن من الصبر أمرا

وأنشدت لبعض أهل الادب

براع الفتى للخطب تبدو صدوره * فيأسى وفى عقباه يأتى سروره
ألم تر أن الليل لما تراكمت * دجاه بدا وجه الصباح ونوره
فلا تصحبن اليأس ان كنت عالما * لبيبا فان الدهر شتى أموره

واعلم أنه قل من صبر على حادثة وتماسك فى نكبة الا كان انكشافها وشيكا وكان الفرج منه قريبا أخبرنى بعض أهل الادب أن أبا أيوب الكاتب حبس فى السجن خمس عشرة سنة حتى ضاقت حيلته وقل صبره فكتب الى بعض اخوانه يشكو له طول حبسه فرد عليه جواب رقعته بهذا

صبرا أبا أيوب صبر مبرح * فاذا عجزت عن الخطوب فمن لها
ان الذى عقد الذى انعقدت له * عقد المكاره فيك يملك حلها
صبرا فان الصبر يعقب راحة * ولعلها أن تنجلى ولعلها

واجابه

وتدبرها التمر ولا تضيع فمتى قصر أحدهما اختلفت المحبة وحدثت الشكايات ولا تزال كذلك الى أن تنقطع أو تبقى مع الشكايات والملامة * وكذلك حال المنفعة المشتركة بين الناس اذا كانت واحدة بعينها * وأما المحبات المختلفة التى أسبابها مختلفة فهى أولى بسرعة التحلل * ومثال ذلك أن تكون محبة أحد المتحابين لأجل المنفعة ومحبة الآخر لأجل اللذة كما يعرض ذلك للمعاشرين على أن أحدهما مغن والآخر مستمع فان المغنى منهما يحب المستمع لأجل المنفعة والمستمع منهما يحب المغنى اللذة *وكما يعرض أيضا بين العاشق والمعشوق اللذين أحدهما يلتذ بالنظر والآخر ينتظر المنفعة وهذا الصنف من المحبة يعرض فيه أبدا التشكى والتظلم * وذلك أن طالب اللذة يتعجل مطلوبه وطالب المنفعة يتأخر عنه ولا يكاد يعتدل الأمر بينهما * لذلك ترى العاشق يشكو معشوقه ويتظلم منه وهو بالحقيقة ظالم ينبغى أن يشتكى لانه يتعجل لذته بالنظر ولا يرى المكافأة بما يستحق صاحبه والمحبة اللوامة كثيرة الانواع الا أن الاصل فيها ما ذكرت * ويوشك أن تكون المحبة بين الرئيس والمرؤوس والغنى والفقير تعرض لها الملامة والتوبيخ لأجل اختلاف الاسباب ولأن كل واحد ينتظر من المكافأة عند الآخر ما لا يجده عنده فيقع فساد فى النيات بينهما ثم استبطاء ثم ملامات * ويزيل ذلك طلب العدالة ورضا كل واحد بما يستحقه من الآخر وبذل كل واحد للآخر العدل المبسوط بينهما * والمماليك خاصة لا يرضيهم من مواليهم الا الزيادة الكثيرة فى الاستحقاق وكذلك الموالى يستبطئون العبيد فى الخدمة والشفقة والنصيحة وفى جميع ذلك يقع اللوم وفساد الضمير * فهذه المحبة اللوامة لا يكاد يخلو الانسان منها الا على شريطة العدل وطلب الوسط من الاستحقاق والرضا به وهو صعب ﴿محبة الاخيار﴾ وأما محبة الاخيار بعضهم بعضا فانها تكون لا للذة خارجة ولا لمنفعة بل لمناسبة الجوهر بينهما وهى قصد الخير

فأجابه أبو أيوب يقول

صبرتنى ووعظتنى وأنالها * وستنجلى بل لا أقول لعلها
ويحلها من كان صاحب عقدها * كرما به اذ كان يملك حلها

ولم يلبث بعد ذلك فى السجن الا أياما حتى أطلق مكرما * وأنشد ابن دريد عن أبى حاتم

اذا اشتملت على اليأس القلوب * وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واطمأنت * وأرست فى مكانتها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجها * ولا أغنى بحيلته الاريب
أتاك على قنوط منك غوث * يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات اذا تناهت * فموصول بها الفرج القريب

﴿الفصل الثالث فى المشورة﴾ اعلم أن من الحزم لكل ذى لب أن لا يبرم أمرا ولا يمضى عزما الا بمشورة ذى الرأى الناصح ومطالعة ذى العقل الراجح فان الله تعالى أمر بالمشورة نبيه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفل به من ارشاده ووعده به من تأييده فقال تعالى وشاورهم فى الامر قال قتادة أمره بمشاورتهم تألفا لهم وتطييبا لانفسهم * وقال الضحاك أمره بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون وان كان عن مشورتهم غنيا وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال المشورة حصن من الندامة وأمان من الملامة * وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه نعم الموازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الرجال ثلاثة رجل ترد عليه الامور فيسددها برأيه ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأى ورجل حائر بأمره لا يأتمر رشدا ولا يطيع مرشدا وقال عمر بن عبد العزيز ان المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة لا يضل معهما رأى ولا يفقد معهما حزم وقال سيف بن ذى يزن من أعجب برأيه لم يشاور ومن استبد برأيه كان من الصواب بعيدا * وقال عبد الحميد المشاور فى رأيه ناظر من ورائه وقيل فى منثور الحكم المشاورة راحة لك وتعب على غيرك وقال بعض الحكماء الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه وقال بعض الادباء ما خاب من استخار ولا ندم من استشار وقال بعض البلغاء من حق العاقل أن يضيف الى رأيه آراء العقلاء ويجمع الى عقله عقول

والتماس الفضيلة فاذا أحب أحدهم الآخر لهذه المناسبة لم تكن بينهم مخالفة ولا منازعة ونصح بعضهم بعضا وتلاقوا بالعدالة والتساوى فى ارادة الخير وهذا التساوى فى النصيحة وارادة الخير هو الذى يوحد كثرتهم * ولهذا احد الصديق بانه آخر هو أنت الا انه غيرك بالشخص ولهذا صار عزيز الوجود ولم يوثق بصداقة الاحداث والعوام ومن ليس بحكيم لان هؤلاء يحبون ويصادقون لاجل اللذة والمنفعة ولا يعرفون الخير بالحقيقة واغراضهم غير صحيحة * وأما السلاطين فانهم يظهرون الصداقة على انهم متفضلون (١٧٤) ومحسنون الى من يصادقهم فلا يدخلون تحت الحد الذى ذكرناه وفى صداقتهم زيادة ونقصان والمساواة عزيزة الوجود عندهم وكذلك محبة الوالد للولد والولد للوالد فان أنواع هذه المحبة مختلفة واسبابها أيضا مختلفة كما قلنا الا ان محبة الوالد للولد والولد للوالد وان كان بينهما اختلاف ما من وجه فان بينهما اتفاقا ذاتيا واعنى بالذاتى ههنا ان الوالد يرى فى ولده انه هو هو وانه نسخ صورته التى تخصه من الانسانية فى شخص ولده نسخا طبيعيا ونقل ذاته الى ذاته نقلا حقيقيا وحق له ان يرى ذلك لان التدبير الالهى بالسياسة الطبيعية التى هى سياسته عز وجل هو الذى عاون الانسان على انشاء الولد وجعله السبب الثانى فى ايجاده ونقل صورته الانسانية اليه ولذلك يحب الوالد لولده جميع ما يحبه لنفسه ويسعى فى تأديبه وتكميله بكل ما فاته فى نفسه طول عمره * ولا يشق عليه ان يقال له ولدك أفضل منك لانه يرى انه هو هو * وكان من الانسان اذا تزايد فى نفسه حالا فحالا وترقى فى الفضيلة درجة فدرجة لا يشق عليه ان يقال له انك الآن أفضل مما كنت بل يسره ذلك كذلك تكون حاله اذا قيل له فى ولده مثل ذلك * ثم تفضل أيضا محبة الوالد على محبة الولد بانه الفاعل له وبانه يعرفه منذ أول تكونه ويستبشر به وهو جنين ثم تزداد محبته له مع التربية والنشأة ويتأكد سروره به وتأميله له * ويحدث له اليقين بانه باق به صورة وان فنى بجسمه مادة وهذه المعانى الجليلة عند أهل العلم تتراءى للعوام كانها مع

الحكماء فالرأى القذر عاذل والعقل الفرد عاضل وقال بشار بن برد

اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن * برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة * فان الخوافى قوة للقوادم

فاذا عزم على المشاورة ارتاد لها من أهلها من قد استكملت فيه خمس خصال احداهن عقل كامل مع تجربة سالفة فان بكثرة التجارب تصح الروية * وقد روى أبو الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا * وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر عداوة العاقل اذا كان عدوا فانه يوشك أن يورطك بمشورته فيسبق اليك مكر العاقل وتوريط الجاهل وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم قال نحن ألف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فكأنا ألف حازم وكان يقال اياك ومشاورة رجلين شاب معجب بنفسه قليل التجارب فى غيره أو كبير قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه * وقيل فى منثور الحكم كل شئ يحتاج الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب ولذلك قيل الايام تهتك لك عن الاستار الكامنة * وقال بعض الحكماء التجارب ليس لها غاية والعاقل منها فى زيادة * وقال بعض الحكماء من استعان بذوى العقول فاز بدرك المأمول * وقال أبو الاسود الدؤلى

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه * ولا كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن اذا ما استجمعا عند صاحب * فحق له من طاعة بنصيب

والخصلة الثانية أن يكون ذا دين وتقى فان ذلك عماد كل صالح وباب كل نجاح ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة موفق العزيمة * روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أراد أمرا فشاور فيه امرأ مسلما وفقه الله لارشد أموره * والخصلة الثالثة أن يكون ناصحا ودودا فان النصح والمودة يصدقان الفكرة ويمحضان الرأى * وقد قال بعض الحكماء لا تشاور الا الحازم غير الحسود واللبيب غير الحقود واياك ومشاورة النساء فان رأيهن الى الافن وعزمهن الى الوهن * وقال بعض الادباء مشورة المشفق الحازم ظفر ومشورة غير الحازم خطر * وقال بعض الشعراء

اصف ضميرا لمن تعاشره * واسكن الى ناصح تشاوره
وارض من المرء فى مودته * بما يؤدى اليك ظاهره

وراءستر * وأما محبة الولد للوالد فانها تنقص عن هذه الرتبة بان الولد مفعول و بانه لا يعرف ذاته ولا فاعل ذاته الا بعد زمان طويل و بعد ان يستثبت أباه حسا و ينتفع به دهرا ثم يعقل بعد ذلك أمره بالصحة وعلى مقدار عقله واستبصاره في الامور يكون تعظيمه لوالديه ومحبته لهما ولهذه العلة وصى الله عز وجل الولد بوالده ولم يوص الوالد بولده * وأما محبة الاخوة بعضهم لبعض فلان سبب تكونهم ونشوهم واحد بعينه ﴿نسبة الملك الى رعيته﴾ ويجب ان تكون نسبة الملك الى رعيته نسبة أبوية ونسبة رعيته اليه نسبة بنوية ونسبة الرعية

بعضهم الى بعض نسبة أخوية حتى تكون السياسات محفوظة على شرائطها الصحيحة * وذلك أن مراعاة الملك لرعيته هي مراعاة الاب لاولاده ومعاملته اياهم تلك المعاملة * وقد كنا أشرنا الى ذلك وسنزيده بيانا اذا صرنا الى ذكر سياسة الملك في موضع آخر * وعنايته برعيته يجب أن تكون مثل عناية الاب باولاده شفقة وتحننا وتعطفا خلافة لصاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم بل لمشرع الشريعة تعالى ذكره في الرأفة والرحمة وطلب المصالح لهم ودفع المكاره عنهم وحفظ النظام فيهم وبالجملة في كل ما يجلب الخير ويمنع الشر * فانه عند ذلك تحبه رعيته محبة الاولاد للاب الشفيق وتحدث بينهما تلك النسبة وانما تختلف هذه المحبات بالتفاضل الذى يكون بعظم المنافع * فيجب أن يكرم الاب كرامة أبوية * ويكرم السلطان كرامة سلطانية * ويكرم الناس بعضهم بعضا كرامة أخوية * ولكل مرتبة من هذه استئهال خاص بها واستحقاق واجب لها * فاذا لم يحفظ بالعدالة تزاد وتنقص وعرض لها الفساد وانتقلت الرياسات وانعكست الأمور فيعرض لرياسة الملك أن تنتقل الى رياسة التغلب ويتبع ذلك ان تنتقل محبة الرعية الى البغض له ويعرض لرياسات من دونه مثل ذلك * فتصير محبة الاخيار الى تباغض الاشرار وتعود الالفة نفارا والتواد نفاقا ويطلب كل واحد لنفسه ما يظنه خيرا له وان أضر بغيره وتبطل الصداقات

من يكشف الناس لا يجد أحدا * تصح منهم له سرائره
أوشك أن لا يدوم وصل أخ * في كل زلاته تنافره

والخصلة الرابعة أن يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاغل فان من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأى ولا يستقيم له خاطر * وقد قيل في منثور الحكم كل شئ يحتاج الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب وكان كسرى اذا دهمه أمر بعث الى مرازبته فاستشارهم فان قصروا في الرأى ضرب قهارمته وقال أبطأتم بأرزاقهم فأخطؤا في آرائهم * وقال صالح بن عبد القدوس

ولا مشير كذى نصح ومقدرة * في مشكل الامر فاختر ذاك منتصحا

والخصلة الخامسة أن لا يكون له في الامر المستشار غرض يتابعه ولا هوى يساعده فان الاغراض جاذبة والهوى صاد والرأى اذا عارضه الهوى وجاذبته الاغراض فسد * وقد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب

وقد يحكم الايام من كان جاهلا * ويردى الهوى ذا الرأى وهو لبيب
ويحمد في الامر الفتى وهو مخطئ * ويعذل في الاحسان وهو مصيب

فاذا استكملت هذه الخصال الخمس في رجل كان أهلا للمشورة ومعدنا للرأى فلا تعدل عن استشارته اعتمادا على ما تتوهمه من فضل رأيك وثقة بما تستشعره من صحة رويتك فان رأى غير ذى الحاجة أسلم وهو من الصواب أقرب لخلوص الفكر وخلو الخاطر مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال رأس العقل بعد الايمان بالله التودد الى الناس وما استغنى مستبد برأيه وما هلك أحد عن مشورة فاذا أراد الله بعبد هلكة كان أول ما يهلكه رأيه * وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه * وقال لقمان الحكيم لابنه شاور من جرب الامور فانه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء وأنت تأخذه مجانا * وقال بعض الحكماء نصف رأيك مع أخيك فشاوره ليكمل لك الرأى * وقال بعض الادباء من استغنى برأيه ضل ومن اكتفى بعقله زل * وقال بعض البلغاء الخطأ مع الاسترشاد أحمد من الصواب مع الاستبداد * وقال الشاعر

خليلي ليس الرأى في صدر واحد * أشيرا على بالذى تريان

والخير المشترك بين الناس ويؤول الامر الى الهرج الذى هو ضد النظام الذى رتبه الله لخلقه ورسمه بالشريعة واوجبه بالحكمة البالغة ﴿المحبة التى لا تطرأ عليها الآفات﴾ وأما المحبة التى لا تشوبها الانفعالات ولا تطرأ عليها الآفات وهى محبة العبد لخالقه عز وجل فانها انما تخلص للعالم الربانى وحده خاصة ولا سبيل لغيره اليها الا بالدعوى الكاذبة * وكيف يجد الانسان السبيل الى محبة من لا يعرفه ولا يعرف ضروب انعامه الدارة عليه ووجوه احسانه المتصلة به فى بدنه ونفسه اللهم الا أن يتصور فى نفسه صنما ويظنه الخالق عز وجل فيحبه ويعبده فان أكثر الناس كما قال تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) ولعمرى ان العامة تدعى المعرفة والمحبة وهم يتصورون شخصا وشبحا فتكون عبادتهم له دون الله وهذا هو الضلال البعيد * ومدعو هذه المحبة كثيرون جدا والمحقون منهم قليلون جدا بل هم أقل من القليل * وهذه المحبة لا محالة تتصل بها الطاعة والتعظيم ويتلوها ويقرب منها محبة الوالدين واكرامهما وطاعتهما وليس يرتقى الى مرتبتها شئ من المحبات الا محبة الحكماء عند تلامذتهم فانها متوسطة بين المحبة الاولى والمحبة الثانية * وذلك ان المحبة الاولى لا يبلغها شئ من المحبات كما أن أسبابها لا يبلغها شئ من الاسباب والنعم التى تأتى من قبلها لا يشبهها شئ من النعم * وأما المحبة الثانية فهى تتلوها الآن سببها هو الثانى فى وجودنا الحسى أعنى أبداننا وتكويننا * وأما محبة الحكماء فهى أشرف وأكرم من محبة الوالدين لاجل أن تربيتهم هى لنفوسنا وهم الاسباب فى وجودنا الحقيقى وبهم وصولنا الى السعادة التامة التى نلنا بها الاتاء الابدى والنعيم السرمدى فى جوار رب العالمين * فبحسب فضل انعامهم علينا وبقدر فضل النفوس على الابدان تجب حقوقهم وتلزم طاعتهم ومحبتهم وليس يبلغ أحد جزاء ولا مكافأة الاول ولا ما يستأهله الثانى أعنى الوالدين وان هو اجتهد وبالغ ولا يؤدى حقوقهما أبدا وان خدم باقصى طاقته

ولا ينبغى أن يتصور فى نفسه أنه ان شاور فى أمره ظهر للناس ضعف رأيه وفساد رويته حتى افتقر الى رأى غيره فان هذه معاذير النوكى وليس يراد الرأى للمباهاة به وانما يراد للانتفاع بنتيجته والتحرز من الخطأ عند زلله وكيف يكون عارا ما أدى الى صواب وصد عن خطأ * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لقحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على أموركم بالمشاورة وقال بعض الحكماء من كمال عقلك استظهارك على عقلك * وقال بعض البلغاء اذا أشكلت عليك الامور وتغير لك الجمهور فارجع الى رأى العقلاء وافزع الى استشارة العلماء ولا تأنف من الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد فلان تسأل وتسلم خير لك من أن تستبد وتندم وينبغى أن تكثر من استشارة ذوى الالباب لاسيما فى الامر الجليل فقلما يضل عن الجماعة رأى أو يذهب عنهم صواب لارسال الخواطر الثاقبة واجالة الافكار الصادقة فلا يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جائز * وقد قيل فى منثور الحكم من أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطأ عاذرا وان كان الخطأ من الجماعة بعيدا فاذا استشار الجماعة فقد اختلف أهل الرأى فى اجتماعهم عليه وانفراد كل واحد منهم به فذهب الفرس أن الاولى اجتماعهم على الارتياء واجالة الفكر ليذكر كل واحد منهم ما تدحه خاطره وأنتجه فكره حتى اذا كان فيه قدح عورض أو توجه عليه رد نوقض كالجدل الذى تكون فيه المناظرة وتقع فيه المنازعة والمشاجرة فانه لا يبقى فيه مع اجتماع القرائح عليه خلل الا ظهر ولا زلل الا بان وذهب غيرهم من أصناف الامم الى أن الاولى استسرار كل واحد بالمشورة ليجيل كل واحد منهم فكره فى الرأى طمعا فى الحظوة بالصواب فان القرائح اذا انفردت استكدها الفكر واستفرغها الاجتهاد واذا اجتمعت فوضت وكان الاول من بداتها متبوعا ولكل واحد من المذهبين وجه ووجه الثانى أظهر والذى أراه فى الاولى غير هذين المذهبين على الاطلاق ولكن ينظر فى الشورى فان كانت فى حال واحدة هل هى صواب أم خطأ كان اجتماعهم عليها أولى لان ما تردد بين أمرين فالمراد منه الاعتراض على فساده أو ظهور الحجة فى صلاحه وهذا مع الاجتماع أبلغ وعند المناظرة أوضح وان كانت الشورى فى خطب قد استبهم صوابه واستعجم جوابه من أمور خافية وأحوال غامضة لم يحصرها عدد ولم يجمعها تقسيم ولا عرف لها جواب يكشف عن خطئه وصوابه فالاولى فى مثله انفراد كل واحد بفكره وخلوه بخاطره ليجتهد فى الجواب

وغايته وسمه * وأما محبة طالب الحكمة للحكيم والتلميذ الصالح للمعلم الخير فانها من جنس المحبة الأولى وفي طريقها وذلك لاجل الخير العظيم الذي يشرف عليه ويصل اليه وللرجاء الكريم الذي لا يتحقق الا بعنايته ولا يتم الا بطاعته ولأنه والد روحاني ورب بشري واحسانه احسان الهي ذلك انه يربيه بالفضيلة التامة ويغذوه بالحكمة البالغة ويسوقه الى الحياة الابدية والنعيم السرمدي واذا كان هو السبب في كل وجودنا العقلي وهو المربي لنفوسنا الروحانية فبحسب فضل النفس على البدن يجب أن يفضل المنعم بهذا على المنعم بذلك وبقدر فضلها على البدن يكون فضل التربية على التربية فبحق أن يحب التلميذ معلم الحكمة محبة خالصة شبيهة بالمحبة الاولى ولذلك قلنا ان هذه المحبة من جنس تلك المحبة الاولى والطاعة له من جنس تلك الطاعة وكذلك تعظيمه له واجلاله اياه ثم لما كان سبب هاتين النعمتين ومعرضنا لهما وسائقنا اليهما والى جميع النعم هو السبب الاول الذي هو سبب الخيرات كلها قربت منا أو بعدت عنا عرفناها أو لم نعرفها وجب أن تكون محبتنا له في أعلى مراتب المحبات وكذلك طاعتنا له وتمجيدنا اياه (١٧٧) ويجب على من بلغ هذه المنزلة من الاخلاق أن يعرف مراتب المحبات وما يستحقه كل واحد من صاحبه حتى لا يبذل كرامة الوالد للرئيس الاجنبي ولا كرامة الصديق للسلطان ولا كرامة الولد للعشير ولا كرامة الاب للابن فان لكل واحد من هؤلاء وأشباههم صنفا من الكرامة وحقا من الجزاء ليس للآخر ومتى خلط فيه اضطرب وفسد وحدثت الملامات واذا وفى كل واحد منهم حقه وقسطه من المحبة والخدمة والنصيحة كان عادلا وأوجبت له محبته وعدالته فيها محبته لصاحبه ومعاملته وكذلك يجب أن يجري الامر في مؤانسة الاصحاب والخلطاء والمعاشرين من توفية حقوقهم واعطائهم ما هو خاص بهم * ومن غش المحبة والصداقة كان أسوأ حالا ممن غش الدرهم والدينار فان الحكيم ذكر ان المحبة المغشوشة تحل سريعا وتفسد وشيكا كما أن الدرهم والدينار اذا كانا مغشوشين فسدا سريعا وهذا واجب في جميع أنواع المحبات ولذلك يتعاطى العاقل أبدا نمطا واحدا ويلزم مذهبا واحدا في ارادة الخير ويفعل جميع ما يفعله من أجل ذاته ويرى خيره عند غيره كما يراه عند نفسه وأما صديقه فقد قلنا انه هو هو الا انه غيره بالشخص أما سائر مخالطيه ومعارفه فانه يسلك بهم مسلك أصدقائه كأنه مجتهد في أن يبلغ بهم وفيهم منازل الاصدقاء بالحقيقة وان كان لا يمكن ذلك في جميعهم فهذه سيرة الخير في نفسه وفي رؤسائه وأهله وعشيرته وأصدقائه وسلطانه ﴿الشرير﴾ وأما الشرير فانه يهرب من هذه السيرة وينفر منها لرداءة الهيئة التي حصلت له ولمحبة البطالة والتكاسل عن معرفة الخير والتمييز بينه وبين الشر وبين ما هو مظنون عنده خيرا وليس بخير ومن كان على هذه الحالة من الشرور ورداءة الهيئة كانت أفعاله كلها رديئة ومن كانت ذاته رديئة هرب من ذاته لاجل ان الرداءة مهروب منها واضطر الى

ثم يقع الكشف عنه أخطأ هو أم صواب فيكون الاجتهاد في الجواب منفردا والكشف عن الصواب مجتمعا لان الانفراد في الاجتهاد أصح والاجتماع على المناظرة أبلغ فهكذا هذا وينبغي أن يسلم أهل الشورى من حسد أو تنافس فيمنعهم من تسليم الصواب لصاحبه ثم يعرض المستشير ذلك على نفسه مع مشاركتهم في الارتياء والاجتهاد فاذا تصفح أقاويل جميعهم كشف عن أصولها وأسبابها وبحث عن نتائجها وعواقبها حتى لا يكون في الامر مقلدا ولا في الرأي مفوضا فانه يستفيد بذلك مع ارتياضه بالاجتهاد ثلاث خصال احداهن معرفة عقله وصحة رويته والثانية معرفة عقل صاحبه وصواب رأيه والثالثة وضوح ما استبهم من الرأي وافتتاح ما أغلق من الصواب فاذا تقرر له الرأي أمضاه فلم يؤاخذهم بعواقب الاكداء فيه فانما على الناصح الاجتهاد وليس عليه ضمان النجح لاسيما والمقادير غالبة ومتى عرف منه تعقب المشير وكل الى رأيه وأسلم الى نفسه فصار فردا لا يعان برأي ولا يمد بمشورة وقد قالت الفرس في حكمها أضعف الحيلة خير من أقوى الشدة وأقل التأني خير من أكثر العجلة والدولة رسول القضاء المبرم واذا استبد الملك برأيه عميت عليه المراشد واذا ظفر برأي من خامل لا يراه للرأي أهلا ولا للمشورة مستوجبا اغتنمه عفوا فان الرأي كالضالة تؤخذ أين وجدت ولا يهون لمهانة صاحبه فيطرح فان الدرة لا يضعها مهانة غائصها والضالة لا تترك لذلة واجدها وليس يراد الرأي لمكان المشير به فيراعى قدره وانما يراد لانتفاع المستشير وأنشد أبو العيناء عن الاصمعي

النصح أرخص ما باع الرجال فلا * تردد على ناصح نصحا ولا تلم

صحبة قوم يناسبونه ليفنى عمره معهم ويشتغل بهم عن ذاته وما يجده فيها من الاضطراب والقلق ذلك أن هؤلاء الاشرار اذا خلوا بأنفسهم تذكروا أفعالهم الرديئة وهاجت بهم القوى المتضادة التى تدعوهم الى ارتكاب الشرور المتضادة فيألمون من ذواتهم وتتشاغب نفوسهم كل الشغب وتجذبهم القوى التى فيهم وهى التى لم يروضوها بالادب الحقيقى الى جهات مختلفة من اللذات الرديئة وطلب الكرامات التى لا يستحقونها والشهوات الرديئة التى تهلكهم سريعا فاذا جذبتهم هذه القوى الى جهات مختلفة أحدثت فيهم آلاما كثيرة لانه لا يمكن أن يفرح ويحزن معا ولا يرضى ويسخط فى حال واحدة ولا يستطيع أن يؤلف بين الاضداد حتى تجتمع له فهو من شقائه يهرب من ذاته لانها رديئة فاسدة متألمة كثيرة الشغب عليه ويلتمس لعشرته ومخالطته من هو مثله أو أسوأ حالا منه فيجد للوقت راحة به وسكونا اليه لاجل المشاكلة ثم يعود بعد قليل وبالا عليه وزيادة فى خباله وفساده فيألم به ويهرب منه فليس له محب ولا ذاته ولا له نصيح ولا نفسه وليس يحصل الا على الندامة ولا يرجع الى الشقوة (١٧٨) ﴿الخير الفاضل﴾ وأما الرجل الخير الفاضل فان سيرته جيدة محبوبة فهو يحب ذاته وأفعاله ويسر بنفسه ويسر به أيضا غيره ويختار كل انسان مواصلته ومصادقته فهو صديق نفسه والناس أصدقاؤه وليس يضاده الا الشرير فقط ويعرض لمن هذه سيرته أن يحسن الى غيره بقصد وبغير قصد وذلك أن أفعاله لذيذة محبوبة واللذيذ المحبوب مختار فيكثر المقبلون عليه والمحتفلون به والآخذون عنه وهذا هو الاحسان الذاتى الذى يبقى ولا ينقطع ويتزايد على الايام ولا ينتقص وأما الاحسان العرضى الذى ليس بخلق ولا هو سيرة لصاحبه فانه ينقطع ويلحق فيه اللوم والمحبة التى تعرض منه تلحق بالمحبات اللوامة ولذلك يوصى صاحبه بتربيته فيقال له تربية الصنعة أصعب من ابتدائها والمحبة التى تحدث بين المحسن والمحسن اليه يكون فيها زيادة ونقصان أعنى أن محبة المحسن للمحسن اليه أشد من محبة المحسن اليه للمحسن واستدل ارسطوطاليس على ذلك بان المقرض وصانع المعروف يهتم كل واحد منهما بمن أقرضه واصطنع المعروف عنده ويتعاهدانهما ويحبان سلامتهما أما المقرض فربما أحب سلامة المقترض لمكان الاخذ لا لمكان المحبة أعنى أنه يدعو له بالسلامة والبقاء وسبوغ النعمة ليصل الى حقه وأما المقترض فليس يعنى كبير عناية بالمقرض ولا يدعو له بهذه الدعوات وأما مصطنع المعروف فانه بالحق الواجب يود الذى اصطنع اليه معروفه وان لم ينتظر منه منفعة ذلك ان كل صانع فعل جيد محمود يحب مصنوعه فاذا كان مصنوعه مستقيما جيدا وجب أن يكون محبوبا فى الغاية فقد تبين أن محبة المحسن أشد من محبة المحسن اليه وأما المحسن اليه فشهوته للاحسان أشد وأزيد من شهوة المحسن وأيضا فان المحبة المكتسبة بالاحسان المرباة على طول.

ان النصائح لا تخفى مناهجها * على الرجال ذوى الالباب والفهم

ثم لا وجه لمن تقرر له رأى أن يبنى فى امضائه فان الزمان غادر والفرص منتهزة والثقة عجز وقيل للملك زال عنه ملكه ما الذى سلبك ملكك قال تأخيرى عمل اليوم لغد * وقال الشاعر

اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة * ولا تك بالترداد للرأى مفسدا

فانى رأيت الريث فى العزم هجنة * وانفاذ ذى الرأى العزيمة أرشدا

وينبغى لمن أنزل منزلة المستشار وأحل محل الناصح المواد حتى صار مأمول النجح مرجو الصواب أن يؤدى حق هذه النعمة باخلاص السريرة ويكافئ على الاستسلام ببذل النصح فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان من حق المسلم على المسلم اذا استنصحه أن ينصحه وربما أبطرته المشاورة فاعجب برأيه فاحذره فى المشاورة فليس لمعجب رأى صحيح ولا روية سليمة وربما شح فى الرأى لعداوة أو حسد فورى أو مكر فاحذر العدو ولا تثق بحسود ولا عذر لمن استشاره عدو أو صديق أن يكتم رأيا وقد استرشد ولا أن يخون وقد ائتمن * روى محمد بن المنكدر عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال المستشير والمستشار مؤتمن * وقال سليمان بن دريد

وأجب أخاك اذا استشارك ناصحا * وعلى أخيك نصيحة لا ترددد

ولا ينبغى أن يشير قبل ان يستشار الا فيما مس ولا أن يتبرع بالرأى الا فيما لزم فانه لا ينفك من أن يكون رأيا متهما أو مطرحا وفى أى هذين كان وصمة وانما يكون الرأى مقبولا اذا كان عن رغبة وطلب أو كان لباعث وسبب * روى أبو بلال العجلى عن حذيفة بن اليمان

عن

الزمان مجرى مجرى القنيات التي تتعب بتحصيلها فان ما يكتسب منها على سبيل التعب والنصب تكون المحبة له أشد والضن به أكثر ومن وصل الى المال بغير تعب لم يكترث به ولم يشح عليه و بذله في غير موضعه كما يفعل الوراث ومن يجري مجراهم وأما من وصل اليه بتعب وسافر في طلبه وشق بجمعه فانه لامحالة يكون شديد الضن به والمحبة له ولهذه العلة صارت الام أكثر محبة للولد من الاب و يعرض لها من الحنين والوله أضعاف ما يعرض للاب وبهذا النوع من المحبة يحب الشاعر شعره و يعجب به أكثر من اعجاب غيره وكل فاعل فعل بتعب به فهو يحب فعله وأيضا فان المنفعل لا يتعب كتعب الفاعل والآخذ منفعل والمعطي فاعل فمن هذه الوجوه يتبين أن مصطنع المعروف يحب من أحسن اليه حبا شديدا ومن الناس من يصطنع المعروف لاجل الخير نفسه ومنهم من يصطنعه لاجل الذكر الجميل ومنهم من يصطنعه رياء فقط ومن البين ان أعلاه مرتبة من صنعه لذاته أعني لذات الخير وصاحب هذه الرتبة لا يعرف الذكر الجميل والثناء الباقي ومحبة من لم يصطنع المعروف عنده وان لم يقصد ذلك الفعل

ولا بالنية ولما حكمنا فيما تقدم حكما مقبولا لا يرده أحد وهو أن كل انسان يحب نفسه وكانت هذه المحبة لا محالة تنقسم بالاقسام الثلاثة التي ذكرناها أعني اللذة والمنافع والخير وجب من ذلك أن لا يوجد من لا يميز بين هذه الاقسام حتى يعرف الافضل فالافضل منها فلا يدري كيف يحسن الى نفسه التي هي محبوبته فيقع في ضروب من الخطأ لجهله بالخير الحقيقي ولذلك صار بعض الناس يختار لنفسه سيرة اللذة وبعضهم سيرة الكرامة والمنافع لانهم لا يعرفون ما هو أفضل منها وأما من عرف سيرة الخير وعلو مرتبته فهو لامحالة يختار لنفسه أفضل السير وأكرم الخيرات فلا يؤثر اللذات البهيمية ولا اللذات الخارجة عن نفسه فانها عرضية كلها ومستحيلة ومضمحلة لكنه يختار لها أتم الخيرات وأعلاها وأعظمها وهو الخير الذي لها بالذات أعني الذي ليس بخارج عنها وهو الذي ينسب الى جزئه الالهي ومن سار بهذه السيرة واختارها لنفسه فقد أحسن اليها وأزلفها في الشرف الاعلى وأهلها لقبول الفيض الالهي واللذة الحقيقية التي لا تفارقه أبدا واذا كان بهذه الحال فهو لامحالة يفعل سائر الخيرات الاخر وينفع غيره ببذل الاموال والسماحة بجميع ما يتشاح الناس عليه ويخص أصدقاءه من ذلك بكل ما يضيق عنه ذرع أصحاب السير الباقية فيصير معظما عند كل واحد ولاسيما عند صديقه وقد بينا فيما تقدم ان الانسان مدني بالطبع وشرحنا معنى المدني فاذا بالواجب يكون تمام سعادته الانسانية عند أصدقائه ومن كان تمامه عند غيره فمن المحال أن يصل مع الوحدة والتفرد الى سعادته التامة

﴿الاصدقاء﴾

فالسعيد اذا من اكتسب الاصدقاء واجتهد في بذل الخيرات لهم .

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال قال لقمان لابنه يابني اذا استشهدت فاشهد واذا استعنت فاعن واذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر * وقال يهس الكلابي

من الناس من ان يستشرك فتجتهد * له الرأي يستغششك مالا تبايعه
فلا تمنحن للرأي من ليس أهله * فلا أنت محمود ولا الرأي نافعه

﴿الفصل الرابع في كتمان السر﴾ اعلم أن كتمان الاسرار من أقوى أسباب النجاح وأدوم لاحوال الصلاح * روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال استعينوا على الحاجات بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود * وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه سرك أسيرك فان تكلمت به صرت أسيره * وقال بعض الحكماء لابنه يابني كن جوادا بالمال في موضع الحق ضنينا بالاسرار عن جميع الخلق فان أحمد جود المرء الانفاق في وجه البر والبخل بمكتوم السر * وقال بعض الادباء من كتم سره كان الخيار اليه ومن أفشاه كان الخيار عليه * وقال بعض البلغاء ما أسرك ما كتمت سرك * وقال بعض الفصحاء مالم تغيبه الاضالع فهو مكشوف ضائع * وقال بعض الشعراء وهو أنس بن أسيد .

ولا تفش سرك الا اليك * فان لكل نصيح نصيحا
فاني رأيت وشاة الرجا * ل لا يتركون أديما صحيحا

وكم من اظهار سر أراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتمه كان من سطوته آمنا وفي عواقبه سالما ولنجاح حوائجه راجيا * وقال أنوشروان من حصن سره فله

ليكتسب بهم مالا يقدران يكتسبه لذاته فيلتذبهم أيام حياته ويلتذون أيضا به وقد شرحنا حال هذه اللذة وانها باقية الهية غير منحلة ولا متغيرة وهؤلاء في جملة الناس قليلون جدا وأما أصحاب اللذات البهيمية والنافع فيها فكثيرون جدا وقد يكتفى من هؤلاء بالقليل كالابازير في الطعام وكالملح خاصة وأما الصديق الاول الذى ذكرنا وصفه فلا يمكن أن يكون كثيرا لعزته ولانه محبوب بافراط وافراط المحبة لا يصح ولا يتم الا لواحد وأما حسن العشرة وكرم اللقاء والسعى لكل أحد بسيرة الصديق الحقيقى فيبذول لاجل طلب الفضيلة ولانا قد قلنا فيما تقدم ان الرجل الخير الفاضل يسلك في عشرة معارفه مسلك الصديق وان لم تتم الصداقة الحقيقية فيهم وارسطوطاليس يقول (ان الانسان محتاج الى الصديق عند حسن الحال وعند سوء الحال فعند سوء الحال يحتاج الى معونة الاصدقاء وعند حسن الحال يحتاج الى المؤانسة والى من يحسن اليه) ولعمرى ان الملك العظيم يحتاج الى من يصطنعه ويضع احسانه عنده كما ان الفقير من الناس يحتاج الى صديق يصطنعه ويضع عنده المعروف (١٨٠) قال (ومن أجل فضيلة الصداقة يشارك الناس بعضهم بعضا ويتعاشرون عشرة جميلة ويجتمعون في الرياضات والصيد والدعوات) وأما سقراطيس فانه قال بهذه الالفاظ (انى لاكثر التعجب ممن يعلم أولاده أخبار الملوك ووقائع بعضهم ببعض وذكر الحروب والضغائن ومن انتقم أو وثب على صاحبه ولا يخطر ببالهم أمر المودة وأحاديث الالفة وما يحصل من الخيرات العامة لجميع الناس بالمحبة والانس وانه لا يستطيع أحد من الناس أن يعيش بغير المودة وان مالت اليه الدنيا بجميع رغائبها فان ظن أحد أن أمر المودة صغير فالصغير من ظن ذلك وان قدر أنه موجود ويسير الخطب يدرك بالهوينا فما أصعبه وما أعسر وجود صداقة يوثق بها عند البلوى) ثم قال (لكنى أعتقد وأقول ان قدر المودة وخطرها عندى أعظم من جميع ذهب كنوز قارون ومن ذخائر الملوك ومن جميع ما يتنافس فيه أهل الارض من الجواهر وما تحويه الدنيا برا وبحرا وما يتقلبون فيه من سائر الامتعة والاثاث ولا يعدل جميع ذلك ما اخترته لنفسى من فضيلة المودة وذلك ان جميع ما أحصيته لا ينفع صاحبه اذا حلت به لوعة مصيبة في صديقه » وافهم من الصديق ههنا انه آخر هو أنت سواء كان أخا من نسب أو غريبا أو ولدا أو والدا ولا يقوم له جميع ما في الارض مقام صديق يثق به في مهم يساعده عليه سعادة عاجلة أو آجلة تتم له فطوبى لمن أوتى هذه النعمة العظيمة وهو خلو من السلطان وأعظم طوبى لمن أوتيه في سلطان ذلك ان من باشر أمور الرعية وأراد أن يعرف أحوالهم وينظر في أمورهم حق النظر لن يكفيه أذنان ولا عينان ولا قلب واحد فان وجد اخوانا ذوى ثقة وجد بهم عيونا وآذانا وقلوبا كأنها بأجمعها له فقربت عليه أطرافه واطلع من أدنى أمره

تحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات واظهار الرجل سر غيره أقبح من اظهاره سر نفسه لانه يبوء باحدى وصمتين الخيانة ان كان مؤتمنا أو النميمة ان كان مستودعا فأما الضرر فربما استويا فيه أو تفاضلا وكلاهما مذموم وهو فيهما ملوم وفى الاسترسال بابداء السر دلائل على ثلاثة أحوال مذمومة احداها ضيق الصدر وقلة الصبر حتى انه لم يتسع لسر ولم يقدر على صبر وقال الشاعر

اذا المرء أفشى سره بلسانه * ولام عليه غيره فهو أحمق

اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذى يستودع السر أضيق

والثانية الغفلة عن تحذر العقلاء والسهو عن يقظة الاذكياء وقد قال بعض الحكماء انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون والثالثة ما ارتكبه من الغرر واستعمله من الخطر وقد قال بعض الحكماء سرك من دمك فاذا تكلمت به فقد أرقته واعلم ان من الاسرار ما لا يستغنى فيه عن مطالعة صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم فليختر العاقل لسره أمينا ان لم يجد الى كتمه سبيلا وليتحر في اختيار من يأتمنه عليه ويستودعه اياه فليس كل من كان على الاموال أمينا كان على الاسرار مؤتمنا والعفة عن الاموال أيسر من العفة عن اذاعة الاسرار لان الانسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه ويشح باليسير من ماله حفظا له وضنا به ولا يرى ما أضاع من سره كبيرا في جنب ما حفظه من يسير ماله مع عظم الضرر الداخل عليه فمن أجل ذلك كان أمناء الاسرار أشد تعذرا وأقل وجودا من أمناء الاموال وكان حفظ المال أيسر من كتم الاسرار لان أحراز

الاموال

على أقصامو رأى الغائب بصورة الشاهد فأنى توجد هذه الفضيلة الا عند الصديق وكيف يطمع فيها عند غير الرفيق الشفيق

﴿ كيف يختار الصديق ﴾

واذ قد عرفنا هذه النعمة الجليلة الخطيرة فيجب علينا ان ننظر كيف نقتنيها ومن أين نطلبها واذا حصلت لنا كيف نحتفظ بها لئلا يصيبنا فيها ما أصاب الرجل الذي ضرب به المثل حين طلب شاة سمينة فوجدها وارمة فاغتر بها وظن الورم سمنا فأخذه الشاعر فقال

أعيذها نظرات منك صادقة * ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

لاسيما وقد علمنا ان الانسان من بين الحيوان يتصنع حتى يظهر للناس منه ما لا حقيقة له فيبذل ماله وهو بخيل ليقال هو جواد ويقدم فى بعض المواطن على بعض المخاوف ليقال هو شجاع وأما سائر الحيوان فان أخلاقها ظاهرة للناس من أول الامر لا يتصنع فيها وكذلك يكون حال من لا يعرف الحشائش والنبات فانها تشتبه فى عينه حتى ربما تناول منها شيأ وهو يظنه حلوا فاذا طعمه وجده مرا وربما ظنه غذاء فيكون سما فينبغى لنا أن نحذر ركوب الخطر فى تحصيل هذه النعمة الجليلة حتى لا نقع فى مودة المموهين الخداعين

الذين يتصورون لنا بصورة الفضلاء الاخيار فاذا حصلونا فى شباكهم افترسونا كما تفترس السباع أكيلتها * والطرق الى السلامة من هذا الخطر بحسب ما أخذناه عن سقراطيس اذا أردنا أن نستفيد صديقا أن نسأل عنه كيف كان فى صباه مع والديه ومع اخوته وعشيرته فان كان صالحا معهم فارج الصلاح منه والا فابعد منه واياك واياه قال (ثم اعرف بعد ذلك سيرته مع أصدقائه قبلك فأضفها الى سيرته مع اخوته وآبائه) * ثم تتبع أمره فى شكر من يجب عليه شكره أو كفره النعمة ولست أعنى بالشكر المكافأة التى ربما عجز عنها بالفعل ولكن ربما عطل نيته فى الشكر فلا يكافئ بما يستطيع وبما يقدر عليه ويغتنم الجميل الذى يسدى اليه ويراه حقا له أو يتكاسل عن شكره باللسان وليس أحد يتعذر عليه نشر النعمة التى تتولاه والثناء على صاحبها والاعتداد له بها وليس شئ أشد احتياجا للنقم من الكفر وحسبك ما أعده الله لكافر نعمته من النقم مع تعاليه عن الاستضرار بالكفر * ولا شئ أجلب للنعمة ولا أشد تثبيتا لها من الشكر وحسبك ما وعد الله به الشاكرين مع استغنائه عن الشكر فتعرف هذا الخلق ممن تريد مؤاخاته واحذر ان تبتلى بالكفر للنعم ولا تكن بالمستحقر لأيادى الاخوان واحسان السلطان * ثم انظر الى ميله الى الراحات وتباطئه عن الحركة التى فيها أدنى نصب فان هذا الخلق ردىء ويتبعه الميل الى اللذات فيكون سببا للتقاعد عما يجب عليه من الحقوق ثم انظر نظرا شافيا فى محبته للذهب والفضة واستهانته بجمعهما وحرصه عليهما فان كثيرا من المتعاشرين يتظاهرون بالمحبة ويتهادون ويتناصحون فاذا وقعت بينهم معاملة فى هذين الحجرين هر بعضهم على بعض هرير الكلاب وخرجوا الى ضروب العداوة ثم انظر فى

الاموال منيعة وأحراز الاسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه القلوب أوعية الاسرار والشفاه أقفالها والالسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره ومن صفات أمين السر أن يكون ذا عقل صاد ودين حاجز ونصح مبذول وود موفور وكتوما بالطبع فان هذه الامور تمنع من الاذاعة وتوجب حفظ الامانة فمن كملت فيه فهو عنقاء مغرب وقيل فى منثور الحكم قلوب العقلاء حصون الاسرار وليحذر صاحب السر أن يودع سره من يتطلع اليه ويؤثر الوقوف عليه فان طالب الوديعة خائن وقيل فى منثور الحكم لا تنكح خاطب سرك وقال صالح بن عبد القدوس

لا تذع سرا الى طالبه * منك فالطالب للسر مذيع

وليحذر كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب الاذاعة وطريق الى الاشاعة لامرين أحدهما أن اجتماع هذه الشروط فى العدد الكثير معوز ولا بد اذا كثروا من أن يكون فيهم من أخل ببعضها والثانى أن كل واحد منهم يجد سبيلا الى نفى الاذاعة عن نفسه واحالة ذلك على غيره فلا يضاف اليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب وقد قال بعض الحكماء كلما كثرت خزان الاسرار ازدادت ضياعا وقال بعض الشعراء

وسرك ما كان عند امرئ * وسر الثلاثة غير الخفى

وقال آخر

فلا تنطق بسرك كل سر * اذا ما جاوز الاثنين فاش

محبته للرئاسة والتفريط فان من أحب الغلبة والترؤس وان يفرط لا ينصفك فى المودة ولا يرضى منك بمثل ما يعطيك ويحمله الخيلاء والتيه على الاستهانة باصدقائه وطلب الترفع عليهم ولا تتم مع ذلك مودة ولا غبطة ولا بد من أن تؤول الحال بينهم الى العداوة والاحقاد والاضغان الكثيرة ثم انظر هل هو ممن يستهزئ بالغناء والمجون وضروب اللهو واللعب وسماع المجون والمضاحيك فان كان كذلك فأشغله عن مساعدات اخوانه ومواساتهم وما أشد هربه عن مكافأة باحسان واحتمال النصب ودخول تحت جميل فان وجدته بريئا من هذه الخلال فلتحتفظ عليه ولترغب فيه ولتكتف بواحد ان وجد فان الكمال عزيز وأيضا فان من كثرت أصدقاؤه لم يف بحقوقهم واضطر الى الاغضاء عن بعض ما يجب عليه والتقصير فى بعض امور بما ترادفت عليه أحوال متضادة أعنى أن تدعوه مساعدة صديق الى ان يسر بسروره ومساعدة آخر أن يغتم بغمه وأن يسعى بسعى واحد ويقعد بقعود آخر مع أحوال تشبه هذه كثيرة مختلفة ولا ينبغى ان يحملك ما حضتك عليه لك أحد فتبقى خلوا من الصديق بل يجب أن تغض عن المعايب اليسيرة التى لا يسلم من مثلها البشر وتنظر ما تجده فى نفسك من عيب فتحتمل مثله من غيرك واحذر عداوة من صادقته أو خالطته أو خالطته مخالطة الصديق واسمع قول الشاعر

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب

﴿ آداب الصداقة ﴾

لذلك يجب عليك متى حصل لك صديق ان تكثر من اعانته وتبالغ فى تفقده ولا تستهين باليسير من حقه عند مهم يعرض له أو حادث يحدث به فأما فى أوقات الرخاء فينبغى ان تلقاه بالوجه الطلق والخلق الرحب وان تظهر له فى عينك وحركاتك وفى هشاشتك وارتياحك عند مشاهدته اياك ما يزداد به فى كل يوم وكل حال ثقة بمودتك وسكونا اليك ويرى السرور فى جميع أعضائك التى يظهر السرور فيها اذا قيل ان التحفى الشديد عند طلعة الصديق لا يخفى وسرور الشكل بالشكل أمر غير مشكل ثم ينبغى أن تفعل مثل ذلك بمن تعلم أنه يؤثره ويحبه من صديق أو ولد أو تابع أو حاشية وتثنى عليهم من غير اسراف يخرج بك الى الملق الذى عقتك عليه ويظهر لهم منك تكلف فيه وانما يتم لك ذلك اذا توخيت الصدق فى كل ما تثنى به عليه والزم هذه الطريقة حتى لا يقع منك توان فيها بوجه من الوجوه وفى حال من الاحوال فان ذلك يجلب

من طلب الفضائل ممن تصادقه على تتبع صغار عيوبه فتصير بذلك الى أن لا يسلم ثم لو سلم من اذاعتهم لم يسلم من ادلالهم واستطالتهم فان لمن ظفر بسر من فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل كان أشد من ذل الرق وخضوع العبد وقد قال بعض الحكماء من أفشى سره كثر عليه المتآمرون فاذا اختار وأرجو أن يوفق للاختيار واضطر الى استيداع سره وليته كفى الاضطرار وجب على المستودع له أداء الامانة فيه بالتحفظ والتناسى له حتى لا يخطر له ببال ولا يدور له فى خلد ثم يرى ذلك حرمة يرعاها ولا يدل ادلال اللئام وحكى أن رجلا أسر الى صديق له حديثا ثم قال أفهمت قال بل جهلت قال أحفظت قال بل نسيت وقيل لرجل كيف كتمانك للسر قال أجحد الخبر وأحلف للمستخبر وقال بعض الشعراء

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت * من الضلوع على الاسرار والخبر
لكنت أول من ينسى سرائره * اذ كنت من شرها يوما على خطر

وحكى أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس فى مجلسه حفظ السر فقال ابنه

ومستودعى سرا تضمنت سره * فأودعته من مستقر الحشى قبرا
ولكننى أخفيه عنى كأننى * من الدهر يوما ما أحطت به خبرا
وما السر فى قلبى كميت بحفرة * لانى أرى المدفون ينتظر النشرا

﴿ الفصل الخامس فى المزاح والضحك ﴾ اعلم أن للمزاح ازاحة عن الحقوق ومخرجا الى القطيعة والعقوق يصم المازح ويؤذى الممازح فوصمة المازح أن يذهب عنه الهيبة والبهاء ويجرئ عليه الغوغاء والسفهاء وأما أذية الممازح فلانه معقوق بقول

المحبة الخالصة وبكسب الثقة التامة ويهدنك محبة الغرباء ومن لامعرفة لك به * وكما أن الحمام اذا ألف بيوتنا وآنس بمجالسنا وطاف بها يجلب لنا أشكاله وأمثاله فكذلك حال الانسان اذا عرفنا واختلط بنا اختلاط الراغب فينا الآنس بنا * بل يزيد على الحيوان الغير الناطق بحسن الوصف وجميل الثناء ونشر المحاسن * واعلم ان مشاركة الصديق فى السراء اذا كنت فيها وان كانت واجبة عليك حتى لا تستأثرها ولا تختص بشئ منها فان مشاركته فى الضراء أوجب وموقعها عنده أعظم * وانظر عند ذلك ان اصابته نكبة أو لحقته مصيبة أو عثر به الدهر كيف تكون مواساتك له بنفسك ومالك وكيف يظهر له تفقدك ومراعاتك * ولا تنتظرن به أن يسألك تصريحا أو تعريضا بل اطلع على قلبه واسبق الى مافى نفسه وشاركه فى مضض ما لحقه ليخف عنه * وان بلغت مرتبة من السلطان والغنى فاغمس اخوانك فيهما من غير امتنان ولا تطاول * وان رأيت من بعضهم نبوا عنك أو نقصانا مما عهدته فداخله زيادة مداخلة واختلط به واجتذب اليك * فانك ان أنفت من ذلك أو تداخلك شئ من الكبر والصلف عليهم انتقض حبل المودة وانتكثت قوته * ومع ذلك فلست تأمن أن يزولوا عنك فتستحى منهم وتضطر الى قطيعتهم حتى لا تنظر اليهم * ثم حافظ على هذه الشروط بالمداومة عليها لتبقى المودة على حال واحدة * وليس هذا الشرط خاصا بالمودة بل هو مطرد فى كل ما يخصك أعنى أن مركوبك وملبوسك ومنزلك متى لم تراعها مراعاة متصلة فسدت وانتقضت * فاذا كانت صورة حائطك وسطوحك كذلك ومتى غفلت أو توانيت لم تأمن تقوضه وتهدمه فكيف ترى أن تجفو من ترجوه من ترجوه لكل خير وتنتظر مشاركته فى السراء والضراء ومع ذلك فان ضررتك يختص بك بمنفعة واحدة * وأما صديقك فوجوه الضرر التى تدخل عليك بجفائه وانتقاض مودته كثيرة عظيمة ذلك * أنه ينقلب عدوا وتتحول منافعه مضارا فلا تأمن غوائله وعدواته مع عدمك الرغائب والمنافع به وينقطع رجاؤك فيما لا تجد له خلفا ولا تستفيد عنه عوضا ولا يسد مسده شئ * واذا راعيت شروطه وحافظت عليها بالمداومة أمنت جميع ذلك * ثم احذر المراء معه خاصة وان كان واجبا أن تحذره مع كل أحد فان مماراة الصديق تقتلع المودة من أصلها لانها سبب الاختلاف والاختلاف سبب التباين الذى هو هربنا منه الى ضده وقبحنا أثره واخترنا عليه الالفة التى طلبناها وأثنينا عليها وقلنا ان الله عز وجل دعا اليها بالشريعة القويمة * وانى لاعرف من يؤثر المراء ويزعم أنه يقدح خاطره ويشحذ ذهنه ويثير شكوكه فهو يتعمد فى المحافل التى تجمع رؤساء أهل النظر ومتعاطى العلوم مماراة صديقه ويخرج فى كلامه معه الى ألفاظ الجهال من العامة وسقاطهم ليزيد فى خجل صديقه وليظهر انقطاعه وتبلده * وليس يفعل ذلك عند خلوته به ومذاكرته له وانما يفعله حين يظن به انه أدق نظرا

كريه وفعل ممض ان أمسك عنه أحزن قلبه وان قابل عليه جانب أدبه فحق على العاقل أن يتقيه وينزه نفسه عن وصمة مساويه وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى * وقال عمر بن عبد العزيز اتقوا المزاح فانه حمقة تورث ضغينة * وقال بعض الحكماء انما المزاح سباب الا أن صاحبه يضحك وقيل انما سمى المزاح مزاحا لانه يزيح عن الحق * وقال ابراهيم النخعى المزاح من سخف أو بطر * وقيل فى منثور الحكم المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب * وقال بعض الحكماء من كثر مزاحه زالت هيبته ومن كثر خلافه طابت غيبته * وقال بعض البلغاء من قل عقله كثر هزله وذكر خالد بن صفوان المزاح فقال يصك أحدكم صاحبه بأشد من الجندل وينشقه أحرق من الخردل ويفرغ عليه أحر من المرجل ثم يقول انما كنت أمازحك وقال بعض الحكماء خير المزاح لا ينال وشره لا يقال فنظمه السابورى فى قصيدته الجامعة للآداب فقال وزاد

شر مزاح المرء لا يقال * وخيره يا صاح لا ينال
وقد يقال كثرة المزاح * من الفتى تدعو الى التلاحى
ان المزاح بدؤه حلاوه * لكنما آخره عداوه
يحتد منه الرجل الشريف * ويجترى بسخفه السخيف

وقال أبو نواس

خل جنبيك لرام * وامض عنه بسلام

أو احضر حجة وأغزر علما واحد قريحة * فما كنت أشبهها الا باهل البغى وجبابرة أصحاب الاموال والمشبهين بهم من أهل البدع * فان هؤلاء يستحقر بعضهم بعضا ولا يزال يصغر بصاحبه ويزدري على مروءته ويتطلب عيوبه ويتتبع عثراته ويبالغ كل واحد فيما يقدر عليه من اساءة صاحبه حتى يؤدي بهم الحال الى العداوة التامة التي يكون معها السعاية وازالة النعم ويتجاوز ذلك الى سفك الدم وأنواع الشرور * فكيف يثبت مع المراء محبة ويرجى به ألفة ثم احذر في صديقك ان كنت محققا بعلم أو متحليا بأدب أن تبخل عليه بذلك الفن أو يرى فيك انك تحب الاستبداد دونه والاستئثار عليه فان أهل العلم لا يرى بعضهم في بعض ما يراه أهل الدنيا بينهم * ذلك ان متاع الدنيا قليل فاذا تزاحم عليه قوم ثلم بعضهم حال بعض ونقص حظ كل واحد من حظ الآخر * وأما العلم فانه بالضد وليس أحد ينقص منه ما يأخذه غيره بل يزكو على النفقة ويرويع الصداقة ويزيد على الانفاق وكثرة المخرج فاذا بخل صاحب علم بعلمه فانما ذلك لأحوال فيه كلها قبيحة وهي انه اما أن يكون قليل البضاعة منه فهو يخاف أن يفني ما عنده أو يرد عليه ما لا يعرفه فيزول تشرفه عند الجهال * واما أن يكون مكتسبا به فهو يخشى أن يضيق مكسبه به وينقص حظه منه * واما أن يكون حسودا والحسود بعيد من كل فضيلة لا يوده أحد * واني لاعرف من لا يرضى بان تبخل بعلم نفسه حتى يبخل بعلم غيره ويكثر عتبه وسخطه على من لا يفيد غيره من التلامذة المستحقين لفائدة العلم * وكثيرا ما يتوصل الى أخذ الكتب من أصحابها ثم منعهم منها * وهذا خلق لا تبقى معه مودة بل يجب الى صاحبه عداوات لا يحسبها ويقطع اطماع اصدقائه من صداقته * ثم احذر أن تنبسط بأصحابك ومن يخلو بك من اتباعك وتحمل أحدا منهم على ذكر شيء في نفسه * ولا ترخص في عيب شيء يتصل به فضلا عن عيبه ولا يطمعن أحد في ذلك من أولي انسبائك والمتصلين بك لا جدا ولا هزلا وكيف تحتمل ذلك فيه وأنت عينه وقلبه وخليفته على الناس كلهم بل أنت هو فانه ان بلغه شيء مما حذرتك منه لم يشك أن ذلك كان عن رأيك وهواك فينقلب عدوا وينفر عنك نفور الضد * فان عرفت منه أنت عيبا فوافقه عليه موافقة لطيفة ليس فيها غلظة * فان الطبيب الرقيق ربما بلغ بالدواء اللطيف ما يبلغه غيره بالشق والقطع والكي بل ربما توصل بالغذاء الى الشفاء واكتفى به عن المعالجة بالدواء * ولست أحب أن تغضي عما تعرفه في صديقك وأن تترك موافقته عليه بهذا الضرب من الموافقة * فان ذلك خيانة منك ومسامحة فيما يعود ضرره عليه وليس من حق الصديق أن يعرف ويبذل بعيوب الاضداد حتى يعيبوه ويثلبوه * ثم احذر النميمة وسماعها * وذلك أن الاشرار يدخلون بين الاخيار في صورة النصحاء فيوهمونهم النصيحة وينقلون

هب بداء الصمت خير * لك من داء الكلام
انما السالم من ألجم * فاه بلجام
ربما استفتح بالمز * ح مغاليق الحمام
والمنايا آكلات * شاربات للانام

واعلم أنه قلما يعرى من المزاح من كان سهلا فالعاقل يتوخى بمزاحه احدى حالتين لا ثالث لهما احداهما ايناس المصاحبين والتودد الى المخالطين وهذا يكون بما أنس من جميل القول وبسط من مستحسن الفعل وقد قال سعيد بن العاص لابنه اقتصد في مزاحك فان الافراط فيه يذهب البهاء ويجرئ عليك السفهاء وان التقصير فيه يفض عنك المؤانسين ويوحش منك المصاحبين والحالة الثانية أن ينفي بالمزاح ما طرأ عليه من سأم وأحدث به من هم فقد قيل لا بد للصدور أن تنفث * وأنشدت لابي الفتح البستي

أفد طبعك المكدود بالجد راحة * يجم وعلله بشيء من المزح
ولكن اذا أعطيته المزح فليكن * بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح على هذا الوجه روي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال اني لامزح ولا أقول الا حقا فمن مزاحه صلى الله عليه وسلم ما روي ان عجوزا من الانصار أتته فقالت يا رسول الله ادع لي بالمغفرة فقال أما علمت أن الجنة لا يدخلها العجائز فصرخت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أما قرأت قول الله عز وجل انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا وأتته أخرى في حاجة لزوجها فقال لها ومن زوجك فقالت

فلان

اليهم فى عرض الاحاديث اللذيذة اخبار أصدقائهم محرفة مموهة حتى اذا تجاسر واعليهم بالحديث المختلق يصرحون لهم بما يفسد مودا تهم ويشوه وجوه أصدقائهم الى أن يبغض بعضهم بعضا * وللقدماء فى هذا المعنى كتب مؤلفة يحذرون فيها من النميمة ويشبهون صورة النمام بمن يحلل باظافيره أصول البنيان القوية حتى يؤثر فيها ثم لايزال يزيد ويعن حتى يدخل فيها المعول فيقلعه من أصله * ويضربون له الامثال الكثيرة المشبهة بحديث الثور مع الاسد فى كتاب كليله ودمنه * ونحن نكتفى بهذا القدر من الايماء لئلا نخرج عن رسم كتابنا وعما بنينا عليه مذهبنا من الايجاز فى الشرح * ولست أترك مع الايجاز والاختصار تعظيم هذا الباب وتكريره عليك لتعلم أن القدماء انما ألفوا فيه الكتب وضربوا له الامثال وأكثروا فيه من الوصايا لما رأوه من النفع العظيم عند السامعين من الاخيار ولما خافوه من الضرر الكثير على من يستهين به من الاغمار * وليعلم المثل المضروب فى السباع القوية اذا دخل عليها الثعلب الروّاغ على ضعفه أهلكها ودمرها * وفى الملوك الحصفاء يدخل بينهم أهل النميمة فى صورة الناصحين حتى يفسدوا نياتهم على وزرائهم المبالغين فى نصحهم المجتهدين فى تثبيت ملكهم الى أن تغضبوا عليهم ويصرفوا به عيونهم عنهم ويصيروا من محبتهم وايثارهم على آبائهم وأولادهم الى أن لايملؤا عيونهم منهم والى ان يبطشوا بهم قتلا وتعذيبا وهم غير مذنبين ولا مجترمين ولا مستحقين الا الكرامة والاحسان فاذا بلغ بهم من الافساد والاضرار ما بلغوه من هؤلاء فبالأحرى ان يبلغوه منا اذالم يجدوه فى أصدقائنا الذين اخترناهم على الايام وادخرناهم للشدائد وأحللناهم محل أرواحنا وزدناهم تفضلا واكراما * ويتبين لك من جميع ماقدمناه ان الصداقة وأصناف المحبات التى تتم بها سعادة الانسان من حيث هو مدنى بالطبع انما اختلفت ودخل فيها ضروب الفساد وزال عنها معنى التأحد وعرض لها الانتشار حتى احتجنا الى حفظها والتعب الكثير بنظامها من أجل النقائص الكثيرة التى فينا وحاجتنا الى اتمامها مع الحوادث التى تعرض لنا من الكون والفساد * فان الفضائل الخلقية انما وضعت لاجل المعاملات والمعاشرات التى لايتم الوجود الانسانى الابها * ذلك ان العدل انما احتيج اليه لتصحيح المعاملات وليزول به معنى الجور الذى هو رذيلة عند المتعاملين * وانما وضعت العفة فضيلة لاجل اللذات الرديئة التى تجنى الجنايات العظيمة على النفس والبدن * وكذلك الشجاعة وضعت فضيلة من أجل الامور الهائلة التى يجب أن يقدم الانسان عليها فى بعض الاوقات ولايهرب منها وعلى هذا جميع الاخلاق المرضية التى وصفناها وحضضنا على اقتنائها وأيضا فان جميع هذه الفضائل تحتاج الى أسباب خارجة من الاموال واكتسابها من وجوهها التى يمكنه ان يفعل بها

فلان فقال لها الذى فى عينه بياض فقالت لا فقال بلى فانصرفت تعجلى الى زوجها وجعلت تتأمل عينيه فقال لها ماشأنك فقالت أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فى عينيك بياضا فقال أماترين بياض عينى أكثر من سوادها * وأتى رجل على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال انى احتلمت على أمى فقال أقيموه فى الشمس واضربوا ظله الحدو سئل الشعبى عن أكل لحم الشيطان فقال نحن نرضى منه بالكفاف وقيل له ما اسم امرأة ابليس لعنه الله فقال ذلك نكاح ماشهدناه وقال رجل لغلام بكم تعمل معى قال بطعامى فقال له أحسن قليلا قال فاصوم الاثنين والخميس * وحكى عن أبى صالح بن حسان وكان محدثا أنه قال يوما لاصحابه أفقه الناس وضاح اليمن فى قوله

اذا قلت هاتى نولينى تبسمت * وقالت معاذ الله من فعل ماحرم
فما نولت حتى تضرعت عندها * وأنبأتها مارخص الله فى اللمم

فاما الخروج الى حد الخلاعة فهجنة ومذمة كالذى حكى عن أبى معاوية الضرير وكان محدثا أنه خرج يوما الى أصحابه وهو يقول

واذا المعدة جاشت * فارمها بالمنجنيق
بثلاث من نبيذ * ليس بالحلو الرقيق

أماترى كيف طرق بخلاعته التهمة على نفسه بهذا المزح فيما العلم برىء منه وبعيد عنه وقد كان أبوهريرة رضى الله عنه مسترسلا فى المزاحه * روى ابن قتيبة فى المعارف أن مروان ربما كان يستخلفه على المدينة فيركب حمارا قد شد عليه بردعة فيسير فيلقى الرجل فيقول الطريق

فعل الاحرار والعادل يحتاج الى مثل ذلك ليجازى من عاشره بجميل و يكافئ من عامله باحسان وجميعها الا تقوم الا بالابدان والانفس وما هو خارج عنها على حسب تقسيمنا السعادات فيما مضى * وكلما كانت الحاجات كثيرة احتيج الى المواد الخارجة عنا أكثر فهذه حالة السعادات الانسانية التى لا تتم لنا الا بالافعال البدنية والاحوال المدنية وبالاعوان الصالحين والاصدقاء المخلصين وهى كما نراها كثيرة والتعب بها عظيم ومن قصر فيها قصرت به السعادة الخاصة به * ولذلك صار الكسل ومحبة الراحة من أعظم الرذائل لانهما يحولان بين المرء وبين جميع الخيرات والفضائل ويسلخان الانسان من الانسانية * ولذلك ذممنا المتوسمين بالزهد اذا تفردوا عن الناس وسكنوا الجبال والمفازات واختاروا التوحش الذى هو ضد التمدن لانهم ينسلخون عن جميع الفضائل الخلقية التى عددناها كلها * وكيف يعف و يعدل ويسخو و يشجع من فارق الناس وتفرد عنهم وعدم الفضائل الخلقية * وهل هو الا بمنزلة الجماد والميت * وأما محبة الحكمة والانصراف الى التصور العقلى واستعمال الآراء الالهية بانها خاصة الجزء الالهى من الناس وليس يعرض لها شىء من

الآفات التى تعرض للجبلات الاخر الخلقية وضروب الفساد * ولذلك قلنا انها لا تقبل التميمة ولا نوعا من أنواع الشرور لانها الخير المحض وسببها الخير الاول الذى لا تشوبه مادة ولا تلحقه الشرور التى فى المادة * ومادام الانسان يستعمل الاخلاق والفضائل الانسانية فانها تعوقه عن هذا الخير الاول وهذه السعادة الالهية ولكن ليس يتم له الابتلاء ومن أجل تلك الفضائل بنفسه ثم اشتغل عنها بالفضيلة الالهية فقد اشتغل بذاته حقا وتجافى مجاهدات الطبيعة

قد جاء الامير وربما أتى الصبيان وهم يلعبون لعبة الاعراب فلا يشعرون حتى يلقى نفسه بينهم و يضرب برجله فيفزع الصبيان فينفرون وهذا خروج عن القدر المستحسن به ويوشك أن يكون لهذا الفعل منه تأويل سائغ وقد كان صهيب بن سنان مزاحا فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أتأكل تمرا وبك رمد فقال يا رسول الله انما أمضغ على الناحية الاخرى وانما استجاز صهيب أن يعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزح فى جوابه لان استخباره صلى الله عليه وسلم قد كان يتضمن المزح فاجابه عن استخباره بما يوافقه مساعدا لغرضه وتقربا من قلبه والا فليس لاحد أن يجعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم مزحا لان المزح هزل ومن جعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم المبين عن الله عز وجل أحكامه المؤدى الى خلقه أوامره هزلا ومزحا فقد عصى الله ورسوله وصهيب كان أطوع لله سبحانه وتعالى من أن يكون بهذه المنزلة فقد قال صلى الله عليه وسلم أنا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبش ومن مستحسن المزح ومستمع الدعابة ما حكى الزبير ابن بكار عن الكندى أن القشيرى وقف على شيخ من الاعراب فقال يا اعرابى ممن أنت فقال من عقيل قال من أى عقيل قال من بنى خفاجة فقال القشيرى (رأيت شيخا من بنى خفاجه) فقال الاعرابى ما شأنه قال (له اذا جن الظلام حاجة) فقال الاعرابى ماهى قال (كحاجة الديك الى الدجاجة) فاستعبر الاعرابى ضاحكا وقال قاتلك الله ما أعرفك بسرائر القوم فانظر كيف بلغ بهذا المزح غايته ولسانه نزه وعرضه مصون وهذا غاية ما يتسامح به الفضلاء من الخلاعة وان كان مستكرها الفحوى والنزاهة من مثله أولى ولهذا أن يسترسل

فى

وآلامها ومن مجاهدات النفس وقواها وصار مع الارواح الطيبة واختلط بالملائكة المقربين فاذا انتقل من وجوده الاول الى وجوده الثانى حصل فى النعيم الابدى والسرور السرمدى

﴿رأى ارسطوطاليس فى السعادة التامة﴾ وقد أطلق أرسطوطاليس جميع هذه الالفاظ وقال ان السعادة التامة الخالصة هى لله عز وجل ثم للملائكة والمتالهين * ثم قال ولا ينبغى أن يضاف الى الملائكة تلك الفضائل التى عددناها فى سعادة الانسان فانهم لا يتعاملون ولا يكون عند أحد منهم وديعة فيحتاج الى ردها ولا لاحد منهم تجارة فيحتاج الى العدالة ولا يفزعه شئ فيحتاج الى النجدة ولا له نفقات فيحتاج الى الذهب والفضة ولا له شهوات فيحتاج الى ضبط النفس والى فضيلة العفة ولا هو مركب من الاستقصاآت الاربعة التى تحل فى أضدادها فيحتاج الى الغذاء * فاذا هؤلاء الابرار المطهرون من بين خلق الله عز وجل غير محتاجين الى الفضائل الانسية والله تعالى و تقدس وجل أعلى من ملائكته فيجب ان ننزهه عن جميع ما ذكرناه من فضائل الانسان وانما ذكرنا الخير البسيط الذى يشبهه وننسب اليه الامور

العقلية التى تليق به * فبالحق الواجب الذى لا مرية فيه لا يحبه الا السعيد الخير من الناس الذى يعرف السعادة والخير بالحقيقة فلذلك يتقرب اليه بما جهده ويطلب مرضاته بقدر طاقته ويتقبل أوامره بنحو استطاعته * ومن أحب الله تعالى هذه المحبة وتقرب اليه هذا التقرب وأطاعه هذه الطاعة أحبه الله وقربه وأرضاه واستحق خلته التى أطلقتها الشريعة على بعض البشر حيث قيل ابراهيم خليل الله * وأما أرسطوطاليس فانه أطلق بعد ذلك بالعلة شيأ غير مطلق فى لغتنا * وذلك أنه قال (من أحب الله وتعاهده كما يتعاهد الاصدقاء بعضهم بعضا أحسن اليه) ولذلك يظن بالحكيم اللذات العجيبة وضروب الفرح الغريبة ويرى من تحقق بالحكمة أنها ملذة غاية الالتذاذ فلا يلتفت الى غيرها ولا يعرج على سواها * واذا كان الامر على ما وصفناه فالحكيم السعيد التام الحكمة هو الله تعالى فليس يحبه الا السعيد الحكيم بالحقيقة لان الشبيه انما يسر بشبيهه فقط * ولذلك صارت هذه السعادة أرفع وأعلى من تلك السعادة التى ذكرناها وهى غير منسوبة الى الانسان لانها مهذبة من الحياة الطبيعية مبرأة من القوى النفسانية متباينة لجميعها غاية المباينة وانما هى موهبة الهية يهبها البارى جلت عظمته لمن اصطفاه من عباده ثم التمسها منه وسعى لها سعيها ورغب فيها ولزمها مدة حياته واحتمل المشقة والتعب فان من لم يصبر على ادامة التعب اشتاق اللعب

﴿الراحة البدنية ليست من أسباب السعادة﴾ ذلك ان اللعب يشبه الراحة والراحة ليست من تمام السعادة ولا من أسبابها وانما يميل الى الراحات البدنية من كان طبيعى الشكل بهيمى النجار كالعبيد والصبيان والبهائم فليس ينسب الحيوان غير الناطق ولا الصبيان والعبيد الى السعادة ولا من كان مناسبا لهم * وأما العاقل الفاضل فانه يطالب بهمته أعلى المراتب * وارسطوطاليس يقول (لا ينبغى أن تكون همم الانسان انسية وان كان انسانا ولا يرضى بهمم الحيوان الميت وان كان هو أيضا ميتا بل يقصد بجميع قواه ان يحيا حياة الهية * فان الانسان وان كان صغير الجثة فهو عظيم بالحكمة شريف بالعقل والعقل يفوق جميع الخلائق لانه الجوهر الرئيس المستولى على هذا الكل بامر مبدعه تعالى جده) * وقد قلنا فيما تقدم ان الانسان ما دام فى هذا العالم فهو محتاج الى حسن الحال الخارجة عنه ولكن ينبغى ان ينصرف الى طلب ذلك بقوته كلها ولا يطلب الاستكثار منه فقد يصل الى الفضيلة من ليس بكثير المال ولا ظاهر اليسار فان الفقير من المال والاملاك قد يفعل الافعال الكريمة * ولذلك قالت الحكماء ان السعداء هم رزقوا القصد من الخيرات الخارجة عنهم وفعلوا الافعال التى تقتضيها الفضيلة وان كانت فيهم قليلة * هذا كلام الحكيم فى هذه المرتبة التى وعدناك الكلام فيها وهو يقول بعد ذلك ليس فى

فى مزاحمة عدو فيجعل له طريقا الى اعلان المساوى وهو مجد ويقصع له فى التشفى مزحا وهو محق * وقد قال بعض الحكماء اذا مازحت عدوك ظهرت له عيوبك وأما الضحك فان اعتياده شاغل عن النظر فى الامور المهمة مذهل عن الفكر فى النوائب الملمة وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار ولا لمن وصم به خطر ولا مقدار * روى أبو ادريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويذهب بنور الوجه * وروى عن ابن عباس فى قوله تعالى ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها أن الصغيرة الضحك وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه من كثر ضحكه قلت هيبته * وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه اذا ضحك العالم ضحكة مج من العلم مجة * وقيل فى منثور الحكم ضحكة المؤمن غفلة من قلبه والقول فى الضحك كالقول فى المزاح أن تجافاه الانسان نفر عنه وأوحش منه وان ألفه كانت حاله ما وصفنا فليكن بدل الضحك عند الايناس تبسما * وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه التبسم دعابة وهذا أبلغ فى الايناس من الضحك الذى هو قد يكون استهزاء وتعجبا وليس ينكر منه المرة النادرة لطارئ استغفل النفس عن دفعه هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملك الخلق لنفسه قد تبسم حتى بدت نواجذه وانما كان ذلك منه صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى ذكرناه

﴿الفصل السادس فى الطيرة والفال﴾ اعلم أنه ليس شئ أضر بالرأى ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيب غراب يرد قضاء أو يدفع مقدورا فقد

معرفة الفضائل كفاية فى الكفاية بل الكفاية فى العمل بها * ومن الناس من ينصاع الى الفضائل وينقاد الى الموعظة ويرغب فى الخيرات وهؤلاء قليلون وهم الذين يمتنعون من جميع الرداآت والشرور * وذلك للغريزة الجيدة والطبع الجيد الفائق * ومنهم من ينقاد الى الخيرات حتى يمتنع من الرداآت والشرور بالوعيد والفزع والانذارات من العذاب فيهرب من الجحيم والهاوية وما أعد فيها من الآلام * ولذلك حكمنا ان بعض الناس أخيار بالطبع وبعضهم أخيار بالشرع وبالتعلم * فالشريعة تجرى لهؤلاء مجرى الماء للانسان الذى به يسيغ غصته * ومن لا ينقاد لها فهو كالشرق بالماء فلا يشرب الماء ولا يجده يسيغ غصته وهو الهالك الذى لا حيلة فيه ولا طمع فى اصلاحه وبرئه ولهذه العلة قلنا * ان من كان بالطبع خيرا فاضلا فذلك لمحبة الله اياه وليس أمره الينا ولا نحن كناسبيه بل الله عز وجل * ومثل هذا هو الذى يقول فيه ارسطوطاليس ان عناية الله به أكبر * فتحصل مما قدمناه أن أصناف السعداء من الناس أربعة وهم موجودون بالتصفح والحس وذلك انا نجد من الناس من هو خير فاضل من مبدا تكوينه

ترى فيه النجابة طفلا وتتفرس فيه الفلاحة ناشئا بان يكون حيا كريم الخيم يؤثر مجالسة الاخيار ومؤانسة الفضلاء وينفر من أضدادهم وليس يكون كذلك الا بعناية تلحقه من أول مولده كما قلناه * ونجد أيضا من لا يكون بهذه الصفة من مبدأ تكوينه بل يكون كسائر الصبيان الا أنه يسعى ويجتهد ويطلب الحق اذا رأى اختلاف الناس فيه ولا يزال كذلك حتى يبلغ مرتبة الحكماء أعنى أن يصير علمه صحيحا وعمله صوابا * وليس يبلغ هذه الدرجة الا بالتفلسف واطراح العصبيات وسائر ماحذرنامنه * ونجد أيضا من يوجد بهذه السيرة أخذا على الاكراه * اما بالتأديب الشرعى واما بالتعليم الحكمى * ومعلوم أن المطلوب هو القسم الثانى اذا كانت الاقسام الباقية هى من خارج ولا يمكن أن تطلب أعنى أن من يتفق له فى أصل مولده السعادة ومن يكره عليها ليس من أقسام الطالب المجتهد وتبين أيضا مقام الطالب المجتهد ومنزلته من السعادة التامة الحقيقية وأنه وحده من بين سائر الطبقات هو السعيد الكامل المقرب الى الله عز وجل المحب المطيع المستحق خلته ومحبته * كما تقدم وصفه

﴿ المقالة السادسة ﴾ (دواء النفوس)

نبتدئ بعون الله وتوفيقه وتأييده فى هذه المقالة بذكر شفاء الامراض التى تلحق نفس الانسان وعلاجها وبذكر الاسباب والعلل التى تولدها وتحدث منها فان حذاق الاطباء لا يقدمون على علاج مرض جسمانى الا بعد أن يعرفوه ويعرفوا السبب والعلة فيه ثم يرومون مقابلته باضداده من العلاجات ويبتدئون من الحمية والادوية اللطيفة الى أن ينتهوا فى بعضها الى استعمال الاغذية الكريهة والادوية البشعة وفى بعضها الى القطع بالحديد والكى بالنار * ولما كانت النفس قوة الهية *

جهل وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر فالعدوى ما يظنه الناس من تعدى العلل والامراض فاخبر أنها لا تعدى فقيل يا رسول الله انا نرى النقطة من الجرب فى مشفر البعير فتتعدى الى جميعه فقال صلى الله عليه وسلم فما أعدى الاول وأما الهامة فهو ما كانت العرب فى الجاهلية تعتقده من أن القتيل اذا طل دمه فلم يدرك بثاره صاحت هامته فى القبر اسقونى * قال الزبرقان بن بدر يعنيها

يا عمرو ان لا تدع شتمى ومنقصتى * أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

وقال ابراهيم بن هرمة

وكيف وقد صاروا عظاما وأقبرا * يصيح صداها بالعشى وهامها
تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة * سريع الى ورد الفناء كرامها

وأما الصفر فهو كالحية يكون فى الجوف يصيب الماشية والناس وهو أعدى عندهم من الجرب وفيه يقول الشاعر

لا يمسك الساق من أين ولا تعب * ولا يعض على شرسوفه الصفر

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا ظننتم فلا تحققوا واذا حسدتم فلا تبغوا واذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا * وقال الشاعر

طيرة الناس لا ترد قضاء * فاعذر الدهر لا تشبه بلوم
أى يوم تخصه بسعود * والمنايا ينزلن فى كل يوم
ليس يوم الا وفيه سعود * ونحوس تجرى لقوم وقوم

وقد

غير جسمانية وكانت مع ذلك مستعملة لمزاج خاص ومربوطة به رباطا طبيعيا الهيا لا يفارق أحدهما صاحبه الا بمشيئة الخالق عز وجل وجب أن نعلم أن أحدهما متعلق بصاحبه متغير بتغيره فيصح بصحته ويمرض بمرضه ونحن نرى ذلك مشاهدة وعيانا بما يظهر لنا من أفعالها * وذلك انا كما نرى المريض من جهة بدنه لاسيما ان كان سبب مرضه أحد الجزأين الشريفين أعني الدماغ والقلب يتغير عقله ويمرض حتى ينكر ذهنه وفكره وتخيله وسائر قوى نفسه الشريفة ويحس هو من نفسه بذلك * كذلك أيضا نرى المريض من جهة نفسه اما بالغضب واما بالحزن واما بالعشق واما بالشهوات الهائجة به تتغير صورة بدنه حتى يضطرب ويرتعد ويصفر ويحمر ويهزل ويسمن ويلحقها ضروب التغير المشاهدة بالحس فيجب لذلك أن نتفقد مبدأ الامراض اذا كان من نفوسنا فان كان مبدؤها من ذاتها كالفكر في الاشياء الرديئة واجالة الرأي فيها وكاستشعار الخوف والخوف من الامور العارضة والمترقبة والشهوات الهائجة قصدنا علاجها بما يخصها * وان كان مبدؤها من المزاج ومن الحواس كالخور الذي مبدؤه ضعف حرارة القلب مع الكسل والرفاهية وكالعشق الذي مبدؤه النظر مع الفراغ والبطالة قصدنا أيضا علاجه بما يخص هذه * وأيضا لما كان طب الابدان ينقسم بالقسمة الاولى الى قسمين أحدهما حفظ صحتها اذا كانت حاضرة والآخر ردها اليها اذا كانت غائبة وجب أن نقسم طب النفوس هذه القسمة بعينها فنردها اذا كانت غائبة ونتقدم في حفظ صحتها اذا كانت حاضرة فنقول * اذا كانت خيرة فاضلة تحب نيل الفضائل وتحرص على اصابتها وتشتاق الى العلوم الحقيقية والمعارف الصحيحة فيجب على صاحبها أن يعاشر من يجانسه ويطلب من يشاكله * ولا يأنس بغيرهم ولا يجالس سواهم * ويحذر كل الحذر من معاشرة أهل الشر والمجون والمجاهرين باصابة اللذات القبيحة وركوب الفواحش المفتخرين بها المنهمكين فيها ولا يصغي الى أخبارهم مستطيبا ولا يروي أشعارهم مستحسنا ولا يحضر مجالسهم مبتهجا * وذلك ان حضور مجلس واحد من مجالسهم وسماع خبر واحد من أخبارهم يعلق من وضره ووسخه بالنفس ما لا يغسل عنها الا بالزمان الطويل والعلاج الصعب وربما كان سببا لفساد الفاضل الحنك وغواية العالم المستبصر حتى يصير فتنة لهما فضلا عن الحدث الناشئ المسترشد * والعلة في ذلك ان محبة اللذات البدنية والراحات الجسمية طبيعة للانسان لاجل النقائص التي فيه فنحن بالجبلة الاولى والفطرة السابقة الينا نميل اليها ونحرص عليها وانما نزم أنفسنا عنها بزمام العقل حتى نقف عند ما يرسم لنا ونقتصر على المقدار الضروري منها * وانما استثنيت في أول هذا الكلام وشرطت بما شرطت لان معاشرة الاصدقاء الذين ذكرت أحوالهم في المقالة المتقدمة وحكمت بتمام السعادة معهم وهم لا تتم الا بالمؤانسة والمداخلة ﴿اللذة التي تطيقها الشريعة﴾ ولابد في ذلك من المزاج

وقد كانت الفرس أكثر الناس طيرة وكانت العرب اذا أرادت سفرا نفرت أول طائر تلقاه فان طار عنة سارت وتيمنت واذا طار يسرة رجعت وتشاءمت فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال أقروا الطير على وكناتها * وحكى عكرمة قال كنا جلوسا عند ابن عباس رضي الله عنهما فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم خير فقال ابن عباس لا خير ولا شر * وقال لبيد

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى * ولا زاجرات الطير ما الله صانع

واعلم أنه قلما يخلو من الطيرة أحد لاسيما من عارضته المقادير في ارادته وصده القضاء عن طلبته فهو يرجو واليأس عليه أغلب ويأمل والخوف اليه أقرب فاذا عاقه القضاء وخانه الرجاء جعل الطيرة عذر خيبته وغفل عن قضاء الله عز وجل ومشيئته فاذا تطير أحجم عن الاقدام ويئس من الظفر وظن أن القياس فيه مطرد وأن العبرة فيه مستمرة ثم يصير ذلك له عادة فلا ينجح له سعي ولا يتم له قصد فاما من ساعدته المقادير ووافقه القضاء فهو قليل الطيرة لاقدامه ثقة باقباله وتعويلا على سعادته فلا يصده خوف ولا يكفه حزن ولا يؤوب الا ظافرا ولا يعود الا منجحا لان الغنم بالاقدام والخيبة مع الاحجام فصارت الطيرة من سمات الادبار واطراحها من أمارات الاقبال فينبغي لمن مني بها وبلي ان يصرف عن نفسه وساوس النوكى ودواعي الخيبة وذرائع الحرمان ولا يجعل للشيطان سلطانا في نقض عزائمه ومعارضة خالقه ويعلم أن قضاء الله تعالى عليه غالب وأن رزقه له طالب الا أن الحركة سبب فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقا ولا يدفع مقدورا وليمض في عزائمه واثقا بالله تعالى ان أعطى وراضيا به ان

المستعذب والاحاديث المستطابة والفكاهة المحبوبة واصابة اللذة التى تطلقها الشريعة ويقدرها العقل حتى لا يتجاوزها الى الاسراف فيها ولا يقصر عنها تهاونا بها وذلك ان الخروج الى أحد الطرفين ان كان الى جانب الزيادة سمى مجونا وفسقا وخلاعة وما أشبهها من أسماء الذم وان كان الى جانب النقصان سمى فدامة وعبوسا وشكاسة وما أشبهها من أسماء الذم أيضا والمتوسط بينهما هو الظريف الذى يوصف بالهشاشة والطلاقة وحسن العشرة ويعرض من الصعوبة فى وجود هذا الوسط ما يعرض فى سائر الفضائل الخلقية ومما يؤخذ به من يحفظ صحة نفسه ان يلتزم وظيفة من الجزء النظرى والعملى لا يسوغ له الاخلال بها البتة لتجرى النفس مجرى الرياضة التى تلزم فى حفظ صحة البدن وأطباء النفوس أشد تعظيما لها فى حفظ صحة النفس وذلك أن النفس متى تعطلت من النظر وعدمت الفكر والغوص على المعانى تبلدت وتبلهت وانقطعت عنها مادة كل خير واذا ألفت الكسل وتبرمت بالروية واختارت العطلة قرب هلاكها لان فى عطلتها هذه انسلاخا من صورتها الخاصة بها ورجوعا منها الى رتبة البهائم وهذا هو الانتكاس فى الخلق نعوذ بالله منه واذا تعود الحدث الناشئ من مبدأ تكوينه الارتياض بالامور الفكرية ولازم التعاليم الاربعة ألف الصدق واحتمل ثقل الروية والنظر وانس بالحق ونبا طبعه عن الباطل وسمعه عن الكذب فاذا بلغ أشده وانتقل الى مطالعة الحكمة استمر طبعه فيها وتشرب ما يستودع منها ولا يرد عليه أمر غريب ولا يحتاج الى كثير تعب فى فهم غوامضها واستخراج دقائقها فيصل الى سعادتها التى ذكرناها سريعا وان كان حافظ هذه الصحة قد توحد فى العلم وبرع فلا يحملنه العجب بما عنده على ترك الازدياد فان العلم لا نهاية له وفوق كل ذى علم عليم ولا يتكاسلن عن معاودة ما علمه والدرس له فان النسيان آفة العلم وليتذكر قول الحسن البصرى رحمة الله عليه (اقدعوا هذه النفوس فانها طائعة وحادثوها فانها سريعة الدثور) واعلم ان هذه الكلمات مع قلة حروفها كثيرة المعانى وهى مع ذلك فصيحة واستوفت شروط البلاغة وليعلم أيضا حافظ هذه الصحة على نفسه انه انما يحفظ عليها نعما شريفة جليلة موهوبة لها وكنوزا عظيمة مدخرة فيها وملابس فاخرة مفرغة عليها وان من كانت هذه المواهب الجليلة موجودة له فى ذاته لا يحتاج الى تطلبها من خارج ولا الى بذل الاموال فيها لغيره ولا تكلف العناء والمؤن الثقال فى تحصيلها ثم أعرض عنها وأهمل أمرها حتى انسلخ عنها وعرى منها الملوم فى فعله مغبون فى رأيه غير رشيد ولا موفق لا سيما وهو يرى طالبى النعم الخارجة كيف يتجشمون الاسفار البعيدة الخطرة ويقطعون السبل المخوفة الوعرة ويتعرضون لضروب المكاره وأنواع التلف من السباع العادية وطبقات الاشرار الباغية وهم يخيبون فى أكثر الاحوال مع مقاساة هذه الاهوال وربما عرضت لهم الندامات المفرطة والحسرات المعطبة التى

منع فقد روى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الانسان ثلاثة الطيرة والظن والحسد فمخرجه من الطيرة أن لا يرجع ومخرجه من الظن ان لا يحقق ومخرجه من الحسد أن لا يبغى وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال كفارة الطيرة التوكل على الله تعالى وقيل فى منثور الحكم الخير فى ترك الطيرة وليقل ان عارضه فى الطيرة ريب أو خامره فيها وهم ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من تطير فليقل اللهم لا يأتى بالخيرات الا أنت ولا يدفع السيئات الا أنت ولا حول ولا قوة الا بالله وقد روى أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انا نزلنا دارا فكثر فيها عددنا وكثرت فيها أموالنا ثم تحولنا عنها الى أخرى فقلت فيها أموالنا وقل فيها عددنا فقال النبى صلى الله عليه وسلم ذروها فهى ذميمة وليس هذا القول منه صلى الله عليه وسلم على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بما فارق وترك ما استوحش منه الى ما أنس به وأما الفال ففيه تقوية للعزم وباعث على الجد ومعونة على الظفر فقد تفاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته وحروبه وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع كلمة فأعجبته فقال أخذنا فألك من فيك فينبغى لمن تفاءل أن يتأول الفال بأحسن تأويلاته ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سبيلا فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم ان البلاء موكل بالمنطق وروى أن يوسف عليه السلام شكا الى الله تعالى طول الحبس فأوحى الله تعالى اليه يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت رب السجن أحب الى ولو قلت العافية أحب الى لعوفيت وحكى أن المؤمل بن أميل الشاعر لما قال يوم الحرة

شف

تقطع أنفاسهم وتنفصل أعضاؤهم فان ظفر وا بشئ من مطالبهم كان لا محالة زائلا عن قرب أو معرضا للزوال وغير مطبوع فى بقائه لانه من خارج وما كان خارجا عنها فهو غير ممتنع عما يطرقه من الحوادث التى لا تحصى كثرة وصاحبه مع هذه الحال شديد الوجل دائم الاشفاق متعب الجسم والنفس يحفظ ما لا يجد الى حفظه سبيلا والحذر على ما لا يغنى فيه الحذر فتيلا وان كان طالب هذه الاشياء الخارجة سلطانا أو صاحب سلطان تضاعفت عليه هذه المكاره اضعافا كثيرة بقدر ما يلابسه و بحسب ما يقاسيه من الاضداد والحساد على البعد ومن القرب و بكثرة ما يحتاج اليه من المؤن فى استصلاح من يليه و يلى من يليه من مدارة من يواليه و يعاديه وهو فى كل ذلك ملوم مستبطأ أو معتب مستقصر و يستزيده جميع أهله والمتصلين به ولا سبيل له الى ارضاء واحد منهم فضلا عن جميعهم ولا يزال يبلغه عن أخص الناس به من أولاده وحرمه ومن يجرى مجراهم من حاشيته وخوله ما يملؤه غيظا وحنقا وهو غير آمن على نفسه من جهتهم مع التحاسد الذى بينهم من مكاتبة الاعداء اياهم ومواطئة الحساد لهم وكلما ازداد من

الاعوان والاعضاد والانصار زادوه فى شغل القلب وجلبوا اليه من المكاره ما لم يكن عنده فهو غنى عن الناس وهو أشدهم فقرا ومحسود وهو أكثرهم حسدا وكيف لا يكون فقيرا وحد الفقر هو كثرة الحاجة فأكثر الناس حاجة أشدهم فقرا كما ان أغنى الناس أقلهم حاجة ولذلك حكمنا حكما صادقا بان الله تعالى أغنى الاغنياء لانه لا حاجة له الى شئ من الاشياء

﴿الملوك﴾

وقد حكمنا أيضا ان الملوك منا هم أشد الناس فقرا لكثرة حاجتهم الى الاشياء ولقد صدق أبو بكر الصديق فى خطبته حيث قال (أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك) ثم وصفهم فقال ان الملك اذا ملك زهده الله فيما فى يده ورغبه فيما فى يد غيره وانتقصه شطرا جله وأشرب قلبه الاشفاق فهو يحسد على القليل و يتسخط بالكثير و يسأم الرخاء وان انقطعت عنه اللذة لا يستعمل العبرة ولا يسكن الى الثقة فهو كالدرهم الغش والسراب الخادع جلد الظاهر حزين الباطن فاذا وجبت نفسه ونضب عمره ومحى ظله حاسبه فأشد حسابه وأقل عفوه ألا ان الملوك هم المرحومون) فهذه صفة الملك اذا تمكن من ملكه لا يغادر منه شيئا ولقد سمعت أعظم من شاهدت من الملوك يستعيد هذا الكلام ثم يستعبر لموافقته ما فى قلبه وصدقه عن حاله وصورته ولعل من يرى ظاهر الملوك من الاسرة والفرش والزينة والاثاث ويشاهدهم فى مواكبهم محفوفين محشودين بين أيديهم الجنائب والمراكب والعبيد والخدم والحجاب والحشم يروعه ذلك فيظن انهم مسرورون بما يراه لهم لا والذى خلقهم وكفانا شغلهم انهم لفى هذه الاحوال ذاهلون عما يراه العبيد لهم مشغولون بالافكار التى تعتورهم وتعتريهم فيما اوتلناه من

شف المؤمل يوم الحيرة النظر * ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عمى فأتاه آت فى منامه فقال له هذا ما طلبت وحكى أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما فى المصحف فخرج له قوله تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد فمزق المصحف وأنشأ يقول

أتوعد كل جبار عنيد * فها أنا ذاك جبار عنيد
اذا ما جئت ربك يوم حشر * فقل يا رب مزقنى الوليد

فلم يلبث الا أياما حتى قتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على سور بلده فنعوذ بالله من البغى ومصارعه والشيطان ومكائده وهو حسبنا وعليه توكلنا

﴿الفصل السابع فى المروءة﴾ اعلم ان من شواهد الفضل ودلائل الكرم المروءة التى هى حلية النفوس وزينة الهمم فالمروءة مراعاة الاحوال التى تكون على أفضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ولا يتوجه اليها ذم باستحقاق * روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت اخوته وقال بعض البلغاء من شرائط المروءة أن يتعفف عن الحرام ويتصلف عن الآثام وينصف فى الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على من لا يسترق ولا يعين قويا على ضعيف ولا يؤثر دنيا على شريف ولا يسر ما يعقبه الوزر والاثم ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال العقل يأمرك بالانفع والمروءة تأمرك بالاجمل ولن تجد

ضروراتهم وقد جربنا ذلك في اليسير مما ملكناه فدلنا على الكثير مما وصفناه ولعل بعض من يصل الى الملك أو السلطان فيلتذ في المبدأ مدة يسيرة جدا بقدر ما يتمكن منه وتنفتح عينه فيه لكنه بعد ذلك يصير جميع ما ملكه كالشيء الطبيعي له لا يلتذ به ولا يفكر فيه ويمد عينه الى ما لا يملكه فلو ملك الدنيا بحذافيرها لتمنى دنيا أخرى أو ترقت همته الى البقاء الابدي والملك الحقيقي حتى يتبرم بجميع ما وصل اليه وبلغته قدرته ذلك ان حفظ الدنيا صعب جدا لما في طبيعتها من الاختلال والتلاشي ولما يضطر الملك اليه من الامور التي وصفناها والاموال الجمة المصروفة الى الجند المرتبطين والخدم المتسومين والذخائر والكنوز المعدة للآفات والحوادث التي لا يؤمن طروتها فهذه حال طلاب النعم الخارجة عنا وأما تلك النعم التي هي في ذواتنا فانها موجودة عندنا وفينا وهي غير مفارقة لنا لانها موهبة الخالق جل وعلا وقد أمرنا باستثمارها والترقي فيها فاذا قبلنا أمره أثمرت لنا نعما بعد نعم ورقينا درجة بعد درجة حتى تؤدينا الى النعم الابدية التي وصفناها فيما تقدم وهو الملك الحقيقي الذي لا يزول والغبطة الابدية

الصافية التي لا تحول فمن أخسر صفقة وأظهر سقطة ممن أضاع جواهر نفيسة باقية عنده وموجودة له وطلب اعراضا خسيسة فانية لست عنده ولا موجودة له فان اتفق أن يجدها لم تبق له ولم تترك عليه وذلك انها تنقل عنه أو ينقل عنها لا محالة

﴿القناعة﴾

لذلك قال الحكيم لمن رزق الكفاية ووجد القصد من السعادة الخارجة أن لا يشتغل بفضول العيش فانها بلا نهاية ومن طلبها أوقعته في مهالك لا نهاية لها

وقد أعلمناك فيما تقدم ما الكفاية وما القصد وان الغرض الصحيح بينهما هو مداواة الآلام والتحرز من الوقوع فيها لا التمتع وطلب اللذة وان من عالج الجوع والعطش اللذين هما مرضان مؤلمان حادان لا ينبغي له أن يقصد لذة البدن بل صحته وسيلتذ لا محالة فان من طلب بالعلاج اللذة لا الصحة لم تحصل له الصحة ولم تبق له اللذة وأما من لم يرزق الكفاية واحتاج الى السعي والاضطراب في تحصيلها فيجب أن لا يتجاوز القصد وقدر حاجته منها الى ما يضطر معه الى السعي الحثيث والحرص الشديد والتعرض لقبيح المكاسب أو ضروب المهالك والمعاطب بل يحمل في طلبها الجمال العارف بخساستها وانه يضطر اليها لنقصانه فيطلب منها كسائر الحيوانات في ضروراتها فان العاقل اذا تصفح أحوالها وجدها اما يأكل الميتة ومنها ما يأكل الروث وما في الحش وهي مسرورة بما تجده من أقواتها قريرة العين بها وليست تحس من نفوسها نفورا ولا تتصرف

الاخلاق على ما وصفنا من حد المروءة منطبعة ولا عن المراعاة مستغنية وانما المراعاة هي المروءة لا ما انطبعت عليه من فضائل الاخلاق لان غرور الهوى ونازع الشهوة يصرفان النفس أن تركب الافضل من خلائقها والاجمل من طرائقها وان سلمت منها وبعيد أن تسلم الا لمن استكمل شرف الاخلاق طبعا واستغنى عن تهذيبها تكلفا وتطبعا وقال الشاعر

من لك بالمحض وليس محض * يخبث بعض ويطيب بعض

ثم لو استكمل الفضل طبعا وفي المعوز أن يكون مستكملا لكان في المستحسن من عادات دهره والموضوع من اصطلاح عصره من حقوق المروءة وشروطها ما لا يتوصل اليه الا بالمعاناة ولا يوقف عليه الا بالتفقد والمراعاة فثبت أن مراعاة النفس على أفضل أحوالها هي المروءة واذا كانت كذلك فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها الا من تسهلت عليه المشاق رغبة في الحمد وهانت عليه الملاذ حذرا من الذم ولذلك قيل سيد القوم أشقاهم وقال أبو تمام الطائي

والحمد شهد لا يرى مشتاره * يجنيه الا من نقيع الحنظل
غل لحامله ويحسبه الذي * لم يوه عاتقه خفيف المحمل

وقد لحظ المتنبي ذلك في قوله

لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يفقر والاقدام قتال

وله أيضا

واذا كانت النفوس كبارا * تعبت في مرادها الاجسام

والداعي الى استسهال ذلك شيئان أحدهما علو الهمة والثاني شرف النفس أما علو الهمة

فلانه

نفوسها عنها كما تنصرف نفوس الحيوانات المضادة لها بل انما تنصرف من أقوات تلك الاخر التى تضادها فى النظافة * مثال ذلك الجعل والخنافس اذا قيست الى النحل فان تلك تهرب من الروائح الطيبة والاقوات النظيفة وهذا يطلبها ويسر بها * فاذن نسبة كل حيوان الى قوته الخاص به كنسبة كل مقتنع بما يحفظ بقاءه وحياته فهو طالب مسرور به * فينبغى أن ننظر الى أقواتنا بهذه العين وننزلها منزلة الحش الذى نضطر الى ملابسته لاخراج ما كنا نحرص على الوصول اليه ولا نبعدها من هذا الآخر لانهما ضروريتان لنا نحن نلابسهما لاجل الضرورة ولا نشغل عقلنا باختيارهما والتمتع بهما وافناء أعمارنا فى التأنق لهما والتوصل اليهما ولا نتكاسل أيضا عن اعدادهما ضرورة اتمامهما * وانما يفضل أحدهما على الآخر ويتحسن السعى فى طلب الدخل ولا يستحسن السعى فى طلب الخرج لان الاول منهما هو غذاء موافق لنا يخلف علينا ما تحلل من أبداننا ولا نستقذره كذلك لا ننفر عما نضعه مكان ما ينقص منه وينوب عنه * وأما الثانى منهما فهو عصارة ذلك الغذاء وما نفته الطبيعة وأخذت حاجتها منه أعنى الذى أحالته دما صافيا وفرقته فى العروق على الاعضاء واطرحت الثفل الذى لا حاجة بها اليه وهو فى غاية المخالفة والبعد من أمزجتنا فنحن نستوحش منه وننفر عنه لاجل الضدية والمخالفة الا أننا مضطرون الى اخراجه وتنحيته ونفضه عنا بالآلات الموهوبة المستعملة فى ذلك ليفرغ مكانه لما يأتى بعده ويجرى مجراه وينبغى لحافظ الصحة على نفسه أن لا يحرك قوته الشهوانية وقوته الغضبية بتذكر ما أصاب منهما من وجد اللذة بل يتركهما حتى يتحركا بانفسهما وذلك ان الانسان ربما تذكر لذاته من اصابة الشهوات وطيبها ومراتب كرامته من السلطان وغيرها فاشتاق اليها

فلانه باعث على التقدم وداع الى التخصيص أنفة من خمول الضعة واستنكار المهانة النقص ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله يحب معالى الامور واشرافها ويكره دنيها وسفاسفها * وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لا تصغرن هممكم فانى لم أر أقعد عن المكرمات من صغر الهمم * وقال بعض الحكماء الهمة راية الجد * وقال بعض البلغاء علو الهمم بذر النعم * وقال بعض العلماء اذا طلب رجلان أمرا ظفر به أعظمهما مروءة * وقال بعض الادباء من ترك التماس المعالى بسوء الرجاء لم ينل جسيما * وأما شرف النفس فان به يكون قبول التأديب واستقرار التقويم والتهذيب لان النفس ربما جمحت عن الافضل وهى به عارفة ونفرت عن التأديب وهى له مستحسنة لانها عليه غير مطبوعة وله غير ملائمة فتصير منه أنفر ولضده الملائم آثر وقد قيل ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه واذا شرفت النفس كانت للآداب طالبة وفى الفضائل راغبة فاذا مازجها صادف طبعا ملائما فنمى واستقر فأما من منى بعلو الهمة وسلب شرف النفس فقد صار عرضة لامر أعوزته آلته وأفسدته جهالته فصار كضرير يروم تعلم الكتابة وأخرس يريد الخطبة فلا يزيده الاجتهاد الا عجزا والطلب الا عوزا ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ما هلك امرؤ عرف قدره * وقيل لبعض الحكماء من أسوأ الناس حالا قال من بعدت همته واتسعت امنيته وقصرت آلته وقلت مقدرته * وقال افنون التغلبى

ولا خير فيما يكذب المرء نفسه * وتقواله للشئ ياليت ذاليا

لعمرك ما يدرى امرؤ كيف يتقى * اذا هو لم يجعل له الله واقيا

واذا اشتاق اليها تحرك نحوها فقد جعلها غرضا له فيضطر الى استعمال الروية واستخدام النفس الناطقة فيها لتدبر له الوصول اليها وهذه صورة من يثير بهائم عادية ويهيج سباعا ضارية ثم يلتمس معالجتها والخلاص منها * وليس يختار العاقل لنفسه هذه الحال بل هى من أفعال المجانين الذين لا يميزون بين الخير والشر ولا بين الصواب والخطأ * ولذلك يجب أن لا يتذكر أعمال هاتين القوتين لئلا يشتاق اليهما ويتحرك نحوهما بل يتركهما فانهما سيثوران لانفسهما ويهيجان عند حاجتهما ويلتمسان ما يحتاج البدن اليه ويتخذان من باعث الطبيعة ما يغنيك عن بعثهما بالفكر والروية والتمييز فيكون حينئذ فكرك وتمييزك فى ازاحة علتهما وتقدير ما تطلقه لهما فى الامر الضرورى الواجب لابداننا الحافظ لصحتها * وهذا هو امضاء مشيئة الله تعالى واتمام سياسته لانه تعالى انما وهب هاتين القوتين لنا لنستخدمهما عند حاجتنا اليهما لا لنخدمهما ونتعبد لهما فكل من استعمل النفس الناطقة فى خدمة عبدها فقد تجاوز أمر الله وتعدى حدوده وعكس

سياسته وتقديره * وذلك ان خالقنا عز وجل رتب لنا هذه القوى بتدبيره وتقديره ولا عدل أشرف وأفضل من ترتيبه وتقديره وكل من خالفه وعدل عنه فهو أعظم جائر على ذاته وأكبر ظالم لنفسه ﴿حافظ الصحة على نفسه﴾ ينبغي لحافظ الصحة على نفسه أن يلطف نظره في كل ما يعمل و يدبر و يستعمل فيه آلات بدنه ونفسه لئلا يجري فيها على عادة تقدمت له مخالفة لما يوجب تمييزه ورويته فانا كثيرا ما يعرض للانسان من بدو أفعال تخالف ما قدم فيه عزيمته وعقد عليه رأيه فمن عرض له مثل هذا فيجب عليه أن يضع لنفسه عقوبات يقابل بها أمثال هذه الذنوب فاذا أنكر من نفسه مبادرة الى طعام ضار وترك حمية قد كان استشعرها أو تناول فاكهة غير موافقة أو حلواء كذلك عاقب نفسه بصوم لا يفطر فيه الا على ألطف مما يقدر عليه وأقله وان أمكنه الطي فليطو ويزيد في الحمية من غير حاجة اليها ويمعن في توبيخه لنفسه أن يقول لها انك قصدت تناول النافع فتناولت الضار وهذا فعل من لا عقل له ولعل كثيرا من البهائم أحسن حالا منك لانه ليس فيها ما تقصد لذة لها ثم تتناول ما يؤلمها فاستحقي الآن للعقوبة * وان أنكر من نفسه مبادرة الى غضب في غير موضعه أو على من لا يستحقه أو زيادة على ما يجب منه فليقابل ذلك بالتعرض لسفيه يعرفه بالبذاء ثم ليحتمله وليتذلل لمن يعرفه بالخبرية ممن كان لا يتواضع له قبل ذلك أو ليفرض على نفسه مالا يخرجه صدقة وليجعل ذلك نذرا عليه لا يخل به * وان أنكر من نفسه كسلا وتوانيا في مصلحة له فليعاقب نفسه بسعي فيه مشقة أو صلاة فيها طول أو بعض الاعمال الصالحة التي فيها كد وتعب وبالجملة فليرسم على نفسه رسوما تصير عليها فرائض وحدودا لا يخل بها ولا يترخص فيها اذا أنكر من نفسه مخالفة لعقله وتجاوزا لمرسومه * وليحذر في جميع أوقاته ملابسة رذيلة أو مساعدة رفيق عليها أو مخالفة صواب ولا يستحقرن شيئا مما يأتيه من صغار السيئات ولا يطلبن رخصة فيها فان ذلك يدعوه الى أعظم منها * ومن تعود في أول نشوه وحدثان شبابه ضبط النفس عن شهواتها عند ثورة غضبه وحفظ لسانه واحتمال أقرانه خف عليه ما يثقل على غيره ممن لم يتأدب بهذه الآداب * وبيان ذلك انا نجد العبيد وأشباههم اذا بلوا عوالي سوء يسفهون عليهم و يسبون أعراضهم هان عليهم الخطب فيما يسمعونه حتى لا يؤثر فيهم وربما تضاحكوا عند سماع مكروه شديد ضحكا غير متكلف و يعملون عند ذلك أعمالهم ودعين طلقين غير قلقين وقد كانوا قبل ذلك شرسين غضوبين غير محتملين ولا ممسكين عن الاجوبة والانتقام بالكلام وطلب التشفي بالخصام * وهذه سبيلنا اذا ألفنا الفضائل وتجنبنا الرذائل وأمسكنا عن مقابلة السفهاء ومجاراتهم والانتقام منهم * ويجب على حافظ الصحة على نفسه أن يتشبه بالملوك الموصوفين بالحزم فانهم يستعدون للاعداء بالعدة والعتاد والتحصن قبل هجوم العدو وهم في مهلة من

وقال بعض الحكماء تجنبوا المنى فانها تذهب ببهجة ما خولتم وتستصغرون بها نعمة الله عليكم وقيل في منثور الحكم المنى من بضائع النوكى فان صادف بهمته حظا نال به أملا كان فيما ناله كالمغتصب وفيما وصل اليه كالمتغلب اذ ليس في الحظوظ تقدير لحق ولا تمييز لمستحق وانما هي كالسحاب الذي يسلك عن منابت الاشجار الى مغائض البحار و ينزل حيث صادف من خبيث وطيب فان صادف أرضا طيبة نفع وان صادف أرضا خبيثة ضر كذلك الحظ ان صادف نفسا شريفة نفع وكان نعمة عامة وان صادف نفسا دنيئة ضر وكان نقمة طامة * وحكى أن موسى بن عمران عليه السلام دعا على قوم بالعذاب فأوحى اليه قد ملكت أسفلها على أعلاها فقال يارب كنت أحب لهم عذابا عاجلا فأوحى الله تعالى اليه أوليس هذا كل العذاب العاجل الاليم فأما شرف النفس اذا تجرد عن علو الهمة فان الفضل به عاطل والقدر به خامل وهو كالقوة في الجلد الكسل والجبان الفشل تضيع قوته بكسله وجلده بفشله * وقد قيل في منثور الحكم من دام كسله خاب أمله * وقال بعض الحكماء نكح العجز التواني فخرج منهما الندامة ونكح الشؤم الكسل فخرج منهما الحرمان * وقال بعض الشعراء

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها * هوانا بها كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وان ضاق مسكن * عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا
واياك والسكنى بمنزل ذلة * يعد مسيئا فيه من كان محسنا

وشرف النفس مع صغر الهمة أولى من علو الهمة مع دناءة النفس لان من علت همته مع

دناءة

زمانهم وفى اتساع من نظرهم ولو أغفلوا ذلك الى أن تحل بهم المكاره وتطرقهم الشدائد لاذهلهم الامر عن الحيلة وعن الرأي السديد * فعلى هذا الاصل يجب أن تبنى أمورنا فى الاستعداد لاعدائنا من الشره والغضب وسائر ما يزيلنا عن أغراضنا من الفضائل بان نتعود الصبر على ما يجب الصبر عليه والحلم عمن ينبغى أن يحلم عنه ونضبط النفس عن الشهوات الرديئة ولا ننتظر دفع هذه الرذائل وقت هيجانها فان الامر عند ذلك صعب جدا ولعله غير ممكن ألبتة ﴿معرفة المرء عيوب نفسه﴾ ويجب على حافظ الصحة على نفسه أن يطلب عيوب نفسه باستقصاء شديد ولا يقنع بما قاله جالينوس فى ذلك فانه ذكر فى كتابه المعروف بتعرف المرء عيوب نفسه * انه لما كان كل انسان يحب نفسه خفيت عليه معايبه ولم يرها وان كانت ظاهرة * وأشار فى كتابه هذا بان يختار من يحب ان يرى من العيوب صديقا كاملا فاضلا فيخبره بعد طول المؤانسة انه انما يعرف صدق مودته اذا أصدقه عن عيوبه حتى يتجنبها ويأخذ عهده على ذلك ولا يرضى منه اذا قال له لا أعرف لك عيبا بل ينكر عليه ويعلمه انه قد اتهمه بالخيانة

ويعاود مسئلته والالحاح عليه * فاذا لم يخبره بشيء من عيوبه زاد فى العتب الصريح والالحاح قليلا فاذا أخبره ببعض ما يعثر عليه منه فلا يظهر له فى وجهه أو كلامه نكرة ولا انقباضا بل يبسط له وجهه ويظهر السرور بما أخرجه اليه وينبهه عليه ويشكره على الايام وفى أوقات المؤانسة ليتطرق له الى اهداء مثله اليه ثم يعالج ذلك العيب بما يزيل أثره ويمحو ظله ليعلم ذلك المهدى اليك عيبك انك من وراء نفسك وفى طريق علاج مرضك فلا ينقبض عن معاودتك ونصيحتك

وهذا الذى أشار به جالينوس معوز غير موجود ولا مطموع فيه ولعل العدو فى هذا الموضع أنفع من الصديق فان العدو لا يحتشمنا فى اظهار عيوبنا بل يتجاوز ربما يعرف منا الى التحرض والكذب فيها فلتنبه على كثير من عيوبنا من جهتها بل نتجاوز الى ذلك ان نتهم نفوسنا بما ليس فيها * ولجالينوس أيضا مقالة يقول فيها ان خيار الناس ينتفعون باعدائهم * وهذا صحيح لا يخالفه فيه أحد وذلك لما ذكرناه * فأما ما اختاره أبو يوسف بن اسحق الكندى فى ذلك فهو ما حكاه بالفاظه وهو هذا قال (ينبغى لطالب الفضيلة لنفسه أن يتخذ صور جميع معارفه من الناس مرآة له ترية صور كل واحد منهم عندما تعرض له آلام الشهوات التى تثمر السيئات حتى لا يغيب عنه شيء من السيئات التى له * وذلك انه يكون متفقدا لسيئات الناس فى رأى سيئة بادية من أحد ذم نفسه عليها كأنه هو فعلها وأكثر عتبه على نفسه من أجلها ويعرض عليها كل يوم وليلة جميع أفعاله حتى لا يشذ عنه شيء منها فانه قبيح بنا أن نجتهد فى حفظ ما نقتضيناه من الحجارة الدنيئة والارمدة الهامدة الغريبة منا التى لا ينقصنا عدمها ألبتة فى كل يوم ولا نحفظ ما ينفق من

دناءة نفسه كان متعديا الى طلب ما لا يستحقه ومتخطيا الى التماس ما لا يستوجبه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحق ومقصر عما يجب له وفضل ما بين الامرين ظاهر وان كان لكل واحد منهما من الذم نصيب * وقد قيل لبعض الحكماء ما أصعب شيء على الانسان قال أن يعرف نفسه ويكتم الاسرار فاذا اجتمع الامران واقترن بشرف النفس علو الهمة كان الفضل بهما ظاهرا والادب بهما وافرا ومشاق الجد بينهما مسهلة وشروط المروءة بينهما متبينة * وقد قال الحسين بن المنذر الرقاشى

ان المروءة ليس يدركها امرؤ * ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا * ونهته عن سبل العلا فأطاعها
فاذا أصاب من المكارم خلة * يبنى الكريم بها المكارم باعها

واعلم أن حقوق المروءة أكثر من أن تحصى وأخفى من أن تظهر لان منها ما يقوم فى الوهم حسا ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدسا ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل فلذلك أعوز استيفاء شروطها الا جلا ينبه الفاضل عليها بيقظته ويستدل العاقل عليها بفطرته وان كان جميع ما تضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها وانما نذكر فى هذا الفصل الاشهر من قواعدها وأصولها والاظهر من شروطها وحقوقها محصورا فى تقسيم جامع وهو ينقسم قسمين أحدهما شروط المروءة فى نفسه والثانى شروطها فى غيره فأما شروطها فى نفسه بعد التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه فيكون بثلاثة أمور وهى العفة والنزاهة والصيانة فأما العفة فنوعان أحدهما العفة عن المحارم والثانى

ذواتنا التي بتوفيرها بقاؤنا وبنقصانها فناؤنا * فاذا وقفنا على سيئة من أفعالنا اشتد عذلنا لانفسنا عليها ثم لنقيم عليها حدا نفرضه ولا نضيعه * واذا تصفحنا أفعال غيرنا ووجدنا فيها سيئة عاتبنا أيضا نفوسنا عليها فان نفوسنا ترتدع حينئذ عن المساوى وتألف الحسنات وتكون المساوى أبدا بين أيدينا لا ننساها ولا يأتي عليها زمان طويل فيعفي ذكرها * ولذلك ينبغي أن نعمل في الحسنات لنفرغ اليها ولا يفوتنا منها شئ * قال وينبغي أن لا ننقطع بأن نصير أشباه الدفاتر والكتب التي تفيد غيرها معاني الحكمة وهي عادمة اقتنائها أو كالمسن يشحذ ولا يقطع بل نكون كالشمس التي تفيد القمر كلما أشرقت عليه انارة من ذاتها فتفعل له تماما حتى يكون له شبهها وان قصر عن نورها * فهكذا ينبغي أن يكون حالنا اذا أفدنا غيرنا الفضائل وهذا الذي ذكره الكندي في ذلك أبلغ مما قاله من تقدمه

رد الصحة على النفس اذا لم تكن حاضرة وهو القول في علاج أمراضها ونبتدئ بمعونة الله تعالى بذكر أجناس هذه الامراض الغالبة ثم بمداواة الأعظم فالأعظم منها نكاية والاكثر فالاكثر جناية فنقول أما أجناسها الغالبة فهي مقابلات الفضائل الاربع التي أحصيناها في مبدأ الكتاب ولما كانت الفضائل أوساطا محمودة وأعيانا موجودة أمكن أن تطلب وتقصد وتنتهي اليها الحركة والسعي والاجتهاد * وأما سائر النقط التي ليست بأوساط فانها غير محدودة ولا أعيانها موجودة ووجودها بالعرض لا بالذات * ومثال ذلك أن الدائرة لها مركز واحد ولها نقطة واحدة ولها وجود في ذاتها يقصد ويشار اليها فان لم نجدها حسا أو لم يمكننا الاشارة اليها أمكننا أن نستخرجها ونقيم البرهان على أنها هي المركز دون غيرها من النقط * وأما النقط التي ليست بمركز فانها لا نهاية لها ولا وجود لها بالذات وانما توجد اذا فرضت فرضا وليست لها عين قائمة فلذلك لا تقصد ولا يمكن استخراجها لانها مجهولة ولانها شائعة في جميع الدائرة * وأما الطرفان اللذان يسميان متضادين فهما موجودان معينان لانهما طرفا خط مستقيم معين والبعد بينهما غاية البعد * مثال ذلك انا اذا أخرجنا من مركز الدائرة خطا مستقيما الى المحيط صار طرفاه محدودين أحدهما المركز والآخر نهايته عند المحيط والبعد بينهما غاية البعد * ومثاله من المحسوس البياض والسواد فان أحدهما يضاد الآخر وهما محدودان موجودان والبعد بين الضدين غاية البعد فاما التي بينهما فهي بلا نهاية وكذلك الالوان هي بلا نهاية * وأما أطراف الفضيلة فلما كانت أكثر من واحد لم تسم ضدا لان لكل ضد ضدا واحدا ولا يمكن أن توجد أضداد كثيرة لضد واحد والسبب في ذلك أن البعد بينهما غاية البعد وقد نجد للفضيلة الواحدة أكثر من طرف واحد * وذلك اذا تصورنا الفضيلة مركزا وأخرجنا منه خطا مستقيما فحصلت له

العفة عن المآثم فاما العفة عن المحارم فنوعان أحدهما ضبط الفرج عن الحرام والثاني كف اللسان عن الاعراض فاما ضبط الفرج عن الحرام فلانه مع وعيد الشرع وزاجر العقل معرة فاضحة وهتكة داحضة * ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من وقى شر ذبذبه ولقلقه وقبقبه فقد وقى يريد بذبذبه الفرج وبلقلقه اللسان وبقبقبه البطن * وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أحب العفاف الى الله تعالى عفاف الفرج والبطن وحكى أن معاوية رضي الله عنه سأل عمر عن المروءة فقال تقوى الله تعالى وصلة الرحم وسأل المغيرة فقال هي العفة عما حرم الله تعالى والحرفة فيما أحل الله تعالى وسأل يزيد فقال هي الصبر على البلوى والشكر على النعمى والعفو عند القدرة فقال معاوية أنت مني حقا * وقال أنوشروان لابنه هرمز من الكامل المروءة فقال من حصن دينه ووصل رحمه وأكرم اخوانه * وقال بعض الحكماء من أحب المكارم اجتنب المحارم وقيل عار الفضيحة يكدر لذتها * وقد أنشدني بعض أهل الأدب للحسن بن علي رضي الله عنهما

الموت خير من ركوب العار * والعار خير من دخول النار
* والله من هذا وهذا جاري *

والداعي الى ذلك شيآن أحدهما ارسال الطرف والثاني اتباع الشهوة * وقد روى عن النبي عليه السلام أنه قال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان الاولى لك والثانية عليك وفي قوله لا تتبع النظرة النظرة تأويلان أحدهما لا تتبع نظر عينيك

نهاية أمكننا أن نخرج من الجانب الآخر المقابل له خطا آخر على استقامته فتصير له نهاية أخرى ويصيران جميعا مقابلين للمركز الذي فرضناه فضيلة الا أن أحدهما يجري مجرى الافراط والغلو والآخر يجري مجرى التفريط والتقصير * واذ قد فهم ذلك فليعلم أن لكل فضيلة طرفين محدودين يمكن الاشارة اليهما وأوساط بينهما كثيرة لانهاية لها ولا يمكن الاشارة اليها الا أن الوسط الحقيقي هو واحد وهو الذي سميناه فضيلة ثم ليعلم انا بحسب هذا البيان نجعل أجناس الشرور والرذائل ثمانية لانها ضعف الفضائل الاربع التي تقدم شرحها وهي هذه * التهور والجبن طرفان للوسط الذي هو الشجاعة * والشره والخمود طرفان للوسط الذي هو العفة * والسفه والبله طرفان للوسط الذي هو الحكمة * والجور والمهانة (أعني الظلم والانظلام) طرفان للوسط الذي هو العدالة * فهذه أجناس الامراض التي تقابل الفضائل التي هي صحة النفس وتحت هذه الاجناس أنواع لانهاية لها ونبدأ بذكر التهور والجبن اللذين هما طرفا الشجاعة وهي فضيلة النفس وصحتها فنقول

«التهور والجبن»

ان سببهما ومبدأهما النفس الغضبية ولذلك صارت الثلاثة بأسرها من علائق الغضب * والغضب في الحقيقة هو حركة للنفس يحدث بها غليان دم القلب شهوة للانتقام فاذا كانت هذه الحركة عنيفة أججت نار الغضب وأضرمتها فاحتد غليان دم القلب وامتلأت الشرايين والدماغ دخانا مظلما مضطربا يسوء منه حال العقل ويضعف فعله ويصير مثل الانسان عند ذلك على ما حكته الحكماء مثل كهف ملئ حريقا وأضرم نارا فاختنق فيه اللهيب والدخان وعلا التأجج والصوت المسمى وحى النار فيصعب علاجه ويتعذر اطفاؤه ويصير كل ما يدنيه للاطفاء سببا لزيادته ومادة لقوته * فلذلك يعمى الانسان عن الرشد ويصم عن الموعظة بل تصير المواعظ في تلك الحال سببا للزيادة في الغضب ومادة اللهب والتأجج وليس له في تلك الحال حيلة * وانما يتفاوت الناس في ذلك بحسب المزاج فان كان المزاج حارا يابسا كان قريب الحال من حال الكبريت الذي اذا أدنيت منه الشرارة الضعيفة التهب * وان كان بالضد فحاله بالضد وهذا في مبدأ أمره وعنفوان حركة الغضب به * فأما اذا احتدم فيكاد الحال يتقارب فيه وتصور ذلك من الحطب اليابس والرطب ومبدأ اشتعال النار بسرعة وشدة من الكبريت والنفط ثم انحدر منهما الى الادهان المتوسطة الى أن تنتهي الى الاحتكاك فان الاحتكاك وان كان ضعيفا في توليد النار فربما قوى حتى تلتهب منه الاجمة العظيمة * وكذلك مثل السحاب الذي هو من البخارين كيف يحتك حتى تنقدح بينهما النيران وينزل منهما الصواعق التي لا يثبت أثرها شيء من المواد ولا يفارق ما يتعلق به حتى يصيره رميما وان كان جبلا أطلس وحجرا أصم * وأما بقراطس فانه قال أني للسفينة اذا عصفت الرياح وتلاطمت عليها الامواج وقذفت

عينيك نظر قلبك والثاني لا تتبع الاولى التي وقعت سهوا بالنظرة الثانية التي توقعها عمدا * وقال عيسى بن مريم عليه السلام اياكم والنظرة بعد النظرة فانها تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة * وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه العيون مصايد الشيطان * وقال بعض الحكماء من أرسل طرفه استدعى حتفه * وقال بعض الشعراء

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وأما الشهوة فهي خادعة العقول وغادرة الالباب ومحسنة القبائح ومسولة الفضائح وليس عطب الا وهي له سبب وعليه ألب ولذلك قال النبي عليه السلام أربع من كن فيه وجبت له الجنة وحفظ من الشيطان من ملك نفسه حين يرغب وحين يرهب وحين يشتهي وحين يغضب وقهرها عن هذه الاحوال يكون بثلاثة أمور أحدها غض الطرف عن اثارتها وكفه عن مساعدتها فانه الرائد المحرك والقائد المهلك * روى سعيد بن سنان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تقبلوا الي بست أتقبل اليكم بالجنة قالوا وما هي يا رسول الله قال اذا حدث أحدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا ائتمن فلا يخون غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم والثاني ترغيبها في الحلال عوضا واقناعها بالمباح بدلا فان الله ما حرم شيئا الا وأغنى عنه بمباح من جنسه لما علمه من نوازع الشهوة وتركيب الفطرة ليكون ذلك عونا على طاعته وحاجزا عن مخالفته وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ما أمر الله تعالى بشيء الا وأعان عليه ولا نهى عن شيء الا وأغنى

بها الى اللجج التى كالجبال أرجى منى للغضبان الملتهب وذلك ان السفينة فى تلك الحال يلطف لها الملاحون و يخلصونها بضروب الحيل وأما النفس اذا استشاطت غضبا فليس يرجى لها حيلة ألبتة وذلك ان كل ما رجى به الغضب من التضرع والمواعظ والخضوع يصير له بمنزلة الجزل من الحطب يؤججه و يزيده اشتعالا أما أسبابه المولدة له فهى العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاح والتيه والاستهزاء والغدر والضيم وطلب الأمور التى فيها العزة يتنافس فيها الناس و يتحاسدون عليها وشهوة الانتقام غاية لجميعها لانها بأجمعها تنتهى اليه ومن لواحقه الندامة وتوقع المجازاة بالعقاب عاجلا وآجلا وتغير المزاج وتعجل الالم وذلك أن الغضب جنون ساعة و ربما أدى الى التلف باختناق حرارة القلب فيه و ربما كان سببا لامراض صعبة مؤدية الى التلف ثم من لواحقه مقت الاصدقاء وشماتة الاعداء واستهزاء الحساد والاراذل من الناس ولكل واحد من هذه الاسباب علاج يبدأ به حتى يقلع من أصله فأما اذا تقدمنا لحسم هذه الاسباب واماطتها فقد أوهنا قوة الغضب وقطعنا مادتها وأسنا غائلتها فان عرض لنا منها عارض كان بحيث نطيع العقل ونلتزم شرائطه وحدثت فضيلته أعنى الشجاعة فيكون حينئذ اقدامنا على ما نقدم عليه كما يجب وحيث يجب وبالمقدار الذى يجب وعلى من يجب

﴿العجب والافتخار﴾

أما العجب فحقيقته اذا حددناه انه ظن كاذب بالنفس باستحقاق مرتبة هى غير مستحقة لها وحقيق على من عرف نفسه ان يعرف كثرة العيوب والنقائص التى تعتورها فان الفضل مقسوم بين البشر وليس يكمل الواحد منهم الا بفضائل غيره وكل كانت فضيلته عند غيره فواجب عليه ان لا يعجب بنفسه وكذلك الافتخار فان الفخر هو المباهاة بالاشياء الخارجة عنا ومن باهى بما هو خارج عنه فقد باهى بما لا يملكه وكيف يملك ما هو معرض للآفات والزوال فى كل ساعة وفى كل لحظة ولسنا على ثقة منه فى شئ من الاوقات وأصح الامثال وأصدقها فيه ما قال الله عز وجل (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب) الى قوله (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها) وقال تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدرا) وفى القرآن من هذه الامثال شئ كثير وكذلك فى الاخبار المروية عن النبى عليه الصلاة والسلام وأما المفتخر بنسبه فأكثر ما يدعيه اذا كان صادقا أن أباه كان فاضلا فلو حضر ذلك الفاضل وقال ان الفضل الذى تدعيه لى أنا مستبد به دونك فما الذى عندك منه مما ليس عند غيرك لأخجمه وأسكته وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا المعنى أخبار كثيرة صحيحة منها أنه قال (لا تأتونى بانسابكم وائتونى بأعمالكم) أو ما هذا معناه و يحكى عن مملوك كان لبعض الفلاسفة أنه افتخر عليه بعض

عنه والثالث اشعار النفس تقوى الله تعالى فى أوامره واتقاؤه فى زواجره والزامها ما ألزم من طاعته وتحذيرها ما حذر من معصيته واعلامها أنه لا يخفى عليه ضمير ولا يعزب عنه قطمير وأنه يجازى المحسن و يكافئ المسىء وبذلك نزلت كتبه وبلغت رسله * روى ابن مسعود أن آخر ما نزل من القرآن واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون وآخر ما نزل من التوراة اذا لم تستحى فاصنع ما شئت وآخر ما نزل من الانجيل شر الناس من لا يبالى أن يراه الناس مسيئا وآخر ما نزل من الزبور من يزرع خيرا يحصد زرعه غبطة فاذا أشعرها ما وصفت انقادت الى الكف وأذعنت بالاتقاء فسلم دينه وظهرت مروءته فهذا شرط وأما كف اللسان عن الاعراض فلانه ملاذ السفهاء وانتقام أهل الغوغاء وهو مستسهل الكلف اذا لم يقهر نفسه عنه برادع كاف وزاجر صاد تلبط بمعاره وتخبط بمضاره وظن أنه لتحاق الناس عنه محمى يتقى ورتبة ترتقى فهلك وأهلك فلذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ألا ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم حرام عليكم فجمع بين الدم والعرض لما فيه من ايغار الصدور وابداء الشرور واظهار البذاء واكتساب الاعداء ولا يبقى مع هذه الامور وزن لموموق ولا مروءة لملحوظ ثم هو بها موتور موزور ولاجلها مجهور مزجور وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال شر الناس من أكرمه الناس اتقاء لسانه وقال بعض الحكماء انما هلك الناس بفضول الكلام وفضول المال وما قدح فى الاعراض من الكلام نوعان أحدهما ما قدح فى عرض صاحبه ولم يتجاوزه الى غيره وذلك شيئان الكذب وفحش القول والثانى ما تجاوزه

رؤساء زمانه فقال له ان افتخرت على بفرسك فالحسن والفراهة للفرس لا لك وان افتخرت بثيابك وآلاتك فالحسن لها دونك وان افتخرت بآبائك فالفضل كان فيهم دونك فاذا كانت الفضائل والمحاسن خارجة عنك وأنت منسلخ عنها وقد رددناها على أصحابها بل لم تخرج عنهم فترد عليهم وأنت ممن يحقق ذلك ان شاء الله تعالى وحكى عن بعض الفلاسفة انه دخل على بعض أهل اليسار والثروة وكان يتشدق فى الزينة ويفتخر بكثرة آلاته وقد حضرت الفيلسوف بصقة فتنحنح لها والتفت فى البيت يمينا وشمالا ثم بصق فى وجه صاحب البيت فلما عوتب على ذلك قال (انى نظرت الى البيت وجميع ما فيه فلم أجد هناك أقبح منه فبصقت عليه) وهكذا يستحق من كان خاليا من فضائل نفسه وافتخر بالخارجات عنه فاما المراء واللجاج فقد ذكرنا قبح صورتهما فى المقالة التى قبل هذه وما يولدانه من الشتات والفرقة والتباغض بين الاخوان

﴿المزاح والتيه والاستهزاء﴾ وأما المزاح فان المعتدل منه محمود وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول الاحقا وكان أمير المؤمنين كثير المزاح حتى عابه بعض الناس فقال لولا دعابة فيه ولكن الوقوف على المقدار المعتدل منه صعب وأكثر الناس يبتدئ ولا يدرى أين يقف منه فيخرج عن حده ويروم الزيادة فيه على صاحبه حتى يصير سببا للوحشة فيثير غضبا كامنا ويزرع حقدا باقيا فلذلك عددناه فى الاسباب فينبغى ان يحذره من لا يعرف حده ويذكر قول القائل

رب جد جره اللعب

وبعض الحرب أوله مزاح
ثم يهيج فتنة لا يهتدى
لعلاجها وأما التيه فهو قريب من العجب والفرق بينهما ان المعجب يكذب نفسه فيما يظن لها والتياه يتيه على غيره ولا يكذب نفسه الا ان علاجه علاج المعجب بنفسه وذلك بان يعرف ان ما يتيه به لا مقدار له عند العقلاء وانهم لا يعتادون به لخساسة قدره ونزارة حظه من السعادة ولأنه متغير زائل غير موثوق ببقائه ولان المال والاثاث وسائر الاعراض قد توجد عند كل صنف من الناس الاراذل والاشراف والجهال فأما الحكمة فليست توجد الا عند الحكماء خاصة وأما الاستهزاء فانه يستعمل المجان من الناس والمساخر ومن لا يبالى عما يقابل به لانه قد وضع فى نفسه احتمال مثل ذلك واضعافه فهو ضاحك ذير العين بضروب الاستخفافات التى تلحقه وانما يتعيش بالدخول تحت المذلة والصغار بل انما يتعرض بقليل ما يبتدئ به لكثير ما يعامل به ليضحك غيره وينال اليسير من بره والحر الفاضل بعيد من هذا المقام جدا لانه يكرم نفسه وعرضه عن تعريضهما للسفهاء وبيعهما بجميع خزائن الملوك فضلا عن الحقير التافه ﴿الغدر والضيم﴾ وأما الغدر فوجوهه كثيرة أعنى أنه قد يستعمل فى المال وفى الجاه وفى الحرم وفى المودة وهو على كثرة وجوهه مذموم بكل لسان ومعيب

الى غيره وذلك أربعة أشياء الغيبة والنميمة والسعاية والسب بقذف أو شتم وربما كان السب أنكاها للقلوب وأبلغها أثرا فى النفوس ولذلك زجر الله عنه بالحد تغليظا وبالتفسيق تشديدا وتصعيبا وقد يكون ذلك لاحد شيئين اما انتقام يصدر عن سفه أو بذاء يحدث عن لؤم * وقد روى أبو سلمة عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم * وقال ابن المقفع الاستطالة لسان الجهالة وكف النفس عن هذه الحال بما يصدها من الزواجر أسلم وهو بذوى المروءة أجمل فهذا شرط وأما العفة عن المآثم فنوعان أحدهما الكف عن المجاهرة بالظلم والثانى زجر النفس عن الاسرار بخيانة فاما المجاهرة بالظلم فعتو مهلك وطغيان متلف وهو يؤول ان استمر الى فتنة أو جلاء فأما الفتنة فى الاغلب فتحيط بصاحبها وتنعكس عن البادئ بها فلا تنكشف الا وهو بها مصروع كما قال الله تعالى ولا يحيق المكر السيئ الا باهله * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الفتنة نائمة فمن أيقظها صار طعاما لها * وقال جعفر بن محمد الفتنة حصاد الظالمين * وقال بعض الحكماء صاحب الفتنة أقرب شئ أجلا وأسوأ شئ عملا * وقال بعض الشعراء

وكنت كعنز السوء قامت لحتفها * الى مدية تحت الثرى تستثيرها

وأما الجلاء فقد يكون من قوة الظالم وتطاول مادته فيصير ظلمه مع المكنة جلاء وفناء كالنار اذا وقعت فى يابس الشجر فلا تبقى معها مع تمكنها شيأ حتى اذا أفنت ما وجدت اضمحلت وخمدت فكذا حال الظالم مهلك ثم هالك والباعث على ذلك شيآن الجراءة والقسوة ولذلك قال النبى عليه السلام أطلبوا الفضل والمعروف عند الرحماء من أمتى تعيشوا فى أكنافهم

عند كل أحد بنفر السماع من ذكره ولا يعترف به انسان وان قل حظه من الانسانية * وليس يوجد الا في جنس من أجناس العبيد فيتوقاهم الناس و يأنف منهم سائر أجناس العبيد * ذلك ان الوفاء الذي هو ضده موجود في جنس الحبشة والروم والنوبة * وقد شاهدنا من حسن وفاء كثير من العبيد ما لم نشاهده في كثير من المتسمين بالاحرار * ومن عرف قبح الغدر باسمه ونفور العقلاء عنه ثم عرف معناه فليس يستعمله و بالأخص من له طبيعة جيدة أو قرأ ما تقدم في هذا الكتاب وتخلق به وانتهى في قراءته الى هذا الموضع * وأما الضيم فهو تكليف احتمال الظلم والغضب و ربما يعرض منه شهوة الانتقام وقد ذكرنا فيما تقدم الظلم والانظلام وشرحنا الحال فيهما * فينبغي أن لا نسرع الى الانتقام عند ضيم يلحقنا حتى ننظر فيه ونحذر أن لا يعود علينا الانتقام بضرر أعظم من احتمال ذلك الضيم * وهذا النظر والحذر هو استشارة العقل وهو الحلم بعينه

﴿المقتنيات والجواهر النفيسة﴾

وأما طالب الامور التي فيها عزة وتتنافس فيها الناس فهو خطأ من الملوك والعظماء فضلاً عن أوساط الناس * وذلك أن الملك اذا حصل في خزانته علق كريم أو جوهر نفيس فهو متعرض به للجزع عند فقده ولا بد من حلول الآفات بما عليه طبيعة عالم الكون والفساد من تغير الامور واحالتها وادخال الفساد على كل ما يدخر ويقتنى * فاذا فقد الملك ذخيرة عزيزة الوجود ظهر عليه ما يظهر على المفجوع المصاب بما يعز عليه وتبين فقره الى نظيره الذي لا يجده فيطلع الصديق والعدو على حزنه وكآبته * وحكي عن بعض الملوك انه أهدى اليه قبة بلور صافية عجيبة النقاء والصفاء محكمة الخرط قد استخرج منها أساطين وصور خاطر بها صانعها مرة بعد مرة في تخليص النقوش والخروق والتعاويف التي بين الصور والاراق فلما حصلت بين يديه كثر عجبه منها واعجابه بها وأمر فرفعت في خاص خزائنه فلم يأت عليها كثير زمان حتى أصابها ما يصيب أمثالها من المتالف وبلغ الملك ذلك فظهر عليه من الأسف والجزع ما منعه من التصرف في أموره والنظر في مهماته والجلوس لجنده وحاشيته واجتهد الناس في وجود شئ شبيه بها فتعذر عليهم فظهر أيضاً من عجزه وامتناع مطلوبه عليه ما تضاعف به جزعه وحزنه * وأما أوساط الناس فانهم متى ادخروا آلة كريمة أو جوهراً نفيساً أو اتخذوا مراكب وأفراساً أو ما أشبه هذه الاشياء التي بها منه من لا يمكنه رده عنها فان عجزه عنها و بخل عليه بها فقد عرض نفسه ونعمته للبوار * وان سمح بها لحقه من الغم والجزع ما كان مستغنياً عنه * وأما الأحجار المتنافس فيها من اليواقيت وأشباهها مما تبعد عنها الآفات في أنفسها فليس تبعد عنها الآفات الخارجة عنها من السرقة ووجوه الحيل فيها واذا ادخرها الملك ذل انتفاعه بها عند حاجته اليها وربما عدم الانتفاع بها دفعة * ذلك فانه اذا

والصاد عن ذلك أن يرى آثار الله تعالى في الظالمين فان له فيهم عبرا و يتصور عواقب ظلمهم فان فيها مزدجرا * وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أصبح ولم ينو ظلم أحد غفر الله له ما اجترم * وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي اتق دعوة المظلوم فانه انما يسأل الله حقه وان الله لا يمنع ذا حق حقه * وقيل في منثور الحكم ويل للظالم من يوم المظالم * وقال بعض البلغاء من جار حكمه أهلكه ظلمه * وقال بعض الشعراء

وما من يد الا يد الله فوقها * ولا ظالم الا سيبلى بظالم

وأما الاستمرار بالخيانة فضيعة لانه بذل الخيانة مهين ولقلة الثقة به مستكين * وقد قيل في منثور الحكم من يخن يهن وقال خالد الربعي قرأت في بعض الكتب السالفة ان مما تعجل عقوبته ولا تؤخر الامانة تخان والاحسان يكفر والرحم تقطع والبغي على الناس ولو لم يكن من ذم الخيانة الا ما يجده الخائن في نفسه من المذلة لكفاه زاجرا ولو تصور عقبى أمانته وجدوى ثقته لعلم أن ذلك من أربح بضائع جاهه وأقوى شفعاء تقدمه مع ما يجده في نفسه من العز ويقابل عليه من الاعظام * وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك * وروى سعيد بن جبير قال لما نزلت هذه الآية ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ذلك بانهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل يعنون أن أموال العرب حلال لهم لانهم من غير أهل الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذب أعداء الله ما من شئ كان في الجاهلية

الجاهلية الاوهو تحت قدمى الا الامانة فانها مؤداة الى البر والفاجر ولا يجعل ما يتظاهر به من الامانة زورا ولا ما يبديه من العفة غرورا فينهتك الزور وينكشف الغرور فيكون مع هتكه للتدليس أقبح ولمعرة الرياء أفضح * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تزال أمتي بخير مالم تر الامانة مغنما والصدقة مغرما * وقال بعض الحكماء من التمس أربعا بأربع التمس مالا يكون * من التمس الجزاء بالرياء التمس مالا يكون ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس مالا يكون ومن التمس وفاء الاخوان بغير وفاء التمس مالا يكون ومن التمس العلم براحة الجسد التمس مالا يكون والداعي الى الخيانة شيئان المهانة وقلة الامانة فاذا حسمهما عن نفسه بما وصفت ظهرت مروءته فهذا شرط قد استوفينا فيه أقسام العفة * وأما النزاهة فنوعان أحدهما النزاهة عن المطامع الدنية والثاني النزاهة عن مواقف الريبة فاما المطامع الدنية فلان الطمع ذل والدناءة لؤم وهما أدفع شئ للمروءة وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه اللهم اني أعوذ بك من طمع يهدي الى طبع * وقال بعض الشعراء

لا تخضعن لمخلوق على طمع * فان ذلك نقص منك في الدين
واسترزق الله مما في خزائنه * فانما هو بين الكاف والنون

والباعث على ذلك شيئان الشره وقلة الانفة فلا يقنع بما أوتي وان كان كثيرا لاجل شرهه ولا يستنكف مما منع وان كان حقيرا لقلة أنفته وهذه حال من لا يرى لنفسه قدرا ويرى المال أعظم خطرا فيرى بذل أهون الامرين لاجلهما مغنما وليس لمن كان المال عنده أجل ونفسه عليه أقل اصغاء لتأنيب ولا قبول لتأديب * وروى أن رجلا قال يا رسول الله أوصني قال عليك باليأس مما في أيدي الناس واياك والطمع فانه فقر حاضر واذا صليت صلاة فصل صلاة مودع واياك وما يعتذر منه * وقال بعض الشعراء

ومن كانت الدنيا مناه وهمه * سبته المنى واستعبدته المطامع

وحسم هذه المطامع شيئان اليأس والقناعة * وقد روى عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان روح القدس نفث في روعي أن نفسا لا تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم إبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله تعالى فان الله عز وجل لا يدرك ما عنده الا بطاعته فهذا شرط * وأما مواقف الريبة فهي التردد بين منزلتي حمد وذم والوقوف بين حالتي سلامة وسقم فتتوجه اليه لائمة المتوهمين ويناله ذلة المريبين وكفى بصاحبها موقفا ان صح افتضح وان لم يصح امتهن وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك الى مالا يريبك وسئل محمد بن علي عن المروءة فقال أن لا تعمل في السر عملا تستحي منه في العلانية وقال حسان بن أبي سنان ما وجدت شيأ أهون من

اضطر اليها لم تنفعه في عاجل أمره وحاضر ضرورة الملك * وقد شاهدنا أعظم الملوك خطرا في عصرنا لما احتاج اليها بعد فناء أمواله ونفاد ما في خزائنه وقلاعه لم يجد ثمنها ولا قريبا من ثمنها عند أحد ولم يحصل منها الا على الفضيحة في حاجته الى رعيته في بعض قيمتها وهو لا يقدر على قليل ولا كثير من أثمانها

وهي مبذولة مبتذلة في أيدي الدلالين والتجار والسوقة يتعجبون منها ولا يقدرون عليها ومن قدر منهم على ثمن شئ منها لم يتجاسر عليها خوفا من تتبعه بعد ذلك وظهور أمره وانتزاعها منه * فهذه حال هذه الذخائر عند الملوك * اما التجار الموسومون بهذه الصناعة فربما اتفق لهم زمان صلاح وسكون من الرؤساء وأمن في السرب وحينئذ تكون بضاعتهم شبيهة بالكاسدة لانها لا تنفق الا على الملوك الودعين الذين لا يحزبهم شئ من نوائب الدهر وقد استمر بهم الخفض وفضلت أموالهم عن الخزائن والقلاع فحينئذ يفترون بالزمان فيقعون في مثل هذه الخدائع ثم تؤول عاقبتهم الى ما حذرنا منه

﴿أسباب الغضب﴾

فهذه أسباب الغضب والامراض الحادثة منها ومن عرف العدالة وتخلق بها كما بيناه فيما تقدم سهل عليه علاج هذا المرض لانه جور وخروج عن الاعتدال * ولذلك لا ينبغي ان نسميه باسماء المديح * وأعني بذلك ان قوما يسمون هذا النوع من الجور أعني الغضب في غير موضعه رجولية وشدة شكيمة ويذهبون به مذهب الشجاعة التي هي بالحقيقة اسم للمدح وشتان ما بين المذهبين * فان صاحب هذا الخلق الذي ذممناه تصدر عنه أفعال رديئة كثيرة يجور فيها على نفسه ثم على اخوانه

الورع قيل له وكيف قال اذا ارتبت بشئ تركته والداعى الى هذه الحال شيئان الاسترسال وحسن الظن والمانع منهما شيئان الحياء والحذر وربما انتفت الريبة بحسن الثقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة * وقد حكى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه رآه بعض الحواريين وقد خرج من منزل امرأة ذات فجور فقال ياروح الله ما تصنع هنا فقال الطبيب انما يداوى المرضى * ولكن لا ينبغى أن يجعل ذلك طريقا الى الاسترسال وليكن الحذر عليه أغلب والى الخوف من تصديق التهم أقرب فما كل ريبة ينفيها حسن الثقة * هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبعد خلق الله من الريب وأصونهم من التهم وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب مسجد يحادثها وكان معتكفا فمر به رجلان من الانصار فلما رأياه أسرعا فقال لهما على رسلكما إنها صفية بنت حيى فقالا سبحان الله أوفيك شك يارسول الله فقال مه ان الشيطان يجرى من أحدكم مجرى لحمه ودمه فخشيت أن يقذف فى قلبكما سوأ فكيف من تخالجت فيه الشكوك وتقابلت فيه الظنون فهل يعرى من فى مواقف الريب من قادح محقق ولائم مصدق * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا لم يشق المرء الا بما عمل فقد سعد واذا استعمل الحزم وغلب الحذر وترك مواقف الريب ومظان التهم ولم يقف موقف الاعتذار ولا عذر لمختار لم يختلج فى نزاهته شك ولم يقدح فى عرضه افك * وقد قال الشاعر

أصونك ان أدل عليك ظنا * لان الظن مفتاح اليقين

وقال سهل بن هارون مؤنة المتوقف أيسر من تكلف المعتسف * وقال بعض الحكماء من حسن ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع * وأنشدنى بعض أهل الأدب لابى بكر الصولى رحمه الله قوله

أحسنت ظنى بأهل دهرى * فخسن ظنى بهم دهانى
لا آمن الناس بعد هذا * ما الخوف الا من الامان

فهذا شرط استوفينا فيه نوعى النزاهة وأما الصيانة وهى الثالث من شروط المروءة فنوعان أحدهما صيانة النفس بالتماس كفايتها وتقدير مادتها والثانى صيانتها عن تحمل المنن من الناس والاسترسال فى الاستعانة وأما التماس الكفاية وتقدير المادة فلان المحتاج الى الناس كل مهتضم وذليل مستثقل وهو لما فطر عليه محتاج الى ما يستمده ليقيم أود نفسه ويدفع ضرورة وقته وقد قالت العرب فى أمثالها كلب جوال خير من أسد رابض وما يستمده نوعان لازم وندب فأما اللازم فما أقام بالكفاية وأفضى الى سد الخلة وعليه فى طلبه ثلاثة شروط أحدها استطابته من الوجوه المباحة وتوقى المحظورة فان المواد المحرمة مستخبثة الاصول ممحوقة المحصول ان صرفها فى بر لم يؤجر وان صرفها فى مدح لم يشكر ثم هو لاوزارها محتقب وعليها معاقب * وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعجبك رحل

ثم على الاقرب فالاقرب من معامليه حتى ينتهى الى عبيده والى حرمه فيكون عليهم سوط عذاب ولا يقيلهم عثرة ولا يرحم لهم عبرة وان كانوا براء من الذنوب غير مجترمين ولا مكتسبين سوأ بل يجرم عليهم ويهيج من أدنى سبب يجد به طريقا اليهم حتى يبسط لسانه ويده وهم لا يمتنعون منه ولا يتجاسرون على رده عن أنفسهم بل يذعنون له ويقرون بذنوب لم يقترفوها استكفافا لشره وتسكينا لغضبه وهو مع ذلك مستمر على طريقته لا يكف يدا ولا لسانا وربما تجاوز فى هذه المعاملة الناس الى البهائم التى لا تعقل والى الاوانى التى لا تحس * فان صاحب هذا الخلق الردى ربما قام الى الحمار والبرذون أو الى الحمار والعصفور فيتناولها بالضرب والمكروه وربما عض القفل اذا تعسر عليه وكسر الآنية التى لا يجد فيها طاعة لأمره * وهذا النوع من رداءة الخلق مشهور فى كثير من الجهال يستعملونه فى الثوب والزجاج والحديد وسائر الآلات * اما الملوك من هذه الطائفة فانهم يغضبون على الهواء اذا هب مخالفا لهواهم وعلى القلم اذا لم يجر على رضاهم فيسبون ذلك ويكسرون هذا وكان بعض من تقدم عهده من الملوك يغضب على البحر اذا تأخرت سفينة فيه لاضطرابه وحركة الامواج حتى يهدده بطرح الجبل فيه وطمه بها * وكان بعض السفهاء فى عصرنا يغضب على القمر ويسبه ويهجوه بشعر له مشهور * وذلك انه كان يتأذى به اذا نام فيه وهذه الافعال كلها قبيحة وبعضها مع قبحه مضحك يهزأ بصاحبه فكيف يمدح بالرجولية والشدة وشرف النفس وعزتها وهى بالمذمة والفضيحة أولى منها بالمدح وأى حظ لها فى العزة

كسب

كسب مالا من غير حله فان أنفقه لم يقبل منه وان أمسكه فهو زاده الى النار * وقال بعض الحكماء شر المال ما لزمك اثم مكسبه وحرمت أجر انفاقه * ونظر بعض الخوارج الى رجل من أصحاب السلطان يتصدق على مسكين فقال انظر اليهم حسناتهم من سيئاتهم * وقال على بن الجهم

سر من عاش ماله فاذا حا * سبه الله سره الاعدام

والثانى طلبه من أحسن جهاته التى لا يلحقه فيها غض ولا يتدنس له بها عرض فان المال يراد لصيانة الاعراض لا لابتذالها ولعز النفوس لا لاذلالها * وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه يا حبذا المال أصون به عرضى وأرضى به ربى * وقال أبو بشر الضرير

كفى حزنا أنى أروح وأغتدى * ومالى من مال أصون به عرضى
وأكثر ما ألقى الصديق بمرحبا * وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى

وسئل ابن عائشة عن قول النبى صلى الله عليه وسلم أطلبوا الحوائج من حسان الوجوه فقال معناه من أحسن الوجوه التى تحل والثالث أن يتأنى فى تقدير مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه خلل ولا يناله زلل فان يسير المال مع حسن التقدير واصابة التدبير أجدى نفعا وأحسن موقعا من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير كالبذر فى الارض اذا روعى يسيره زكا وان أهمل كثيره اضمحل * وقال محمد بن على رضى الله عنه الكمال فى ثلاثة العفة فى الدين والصبر على النوائب وحسن التدبير فى المعيشة * وقيل لبعض الحكماء فلان غنى فقال لا أعرف ذلك ما لم أعرف تدبيره فى ماله فاذا استكمل هذه الشروط فيما يستمده من قدر الكفاية فقد أدى حق المروأة فى نفسه * وسئل الاحنف بن قيس عن المروءة فقال العفة والحرفة وقال بعض الحكماء لابنه يا بنى لا تكن على أحد كلا فانك تزداد ذلا واضرب فى الارض عودا وبدأ ولا تأسف لمال كان فذهب ولا تعجز عن الطلب لوصب ولا نصب فهذا الحال اللازم وقد كان ذوو الهمم العلية والنفوس الأبية يرون ما وصل الى الانسان كسبا أفضل مما وصل اليه إرثا لانه فى الارث فى جدوى غيره وبالكسب مجدا الى غيره وفرق ما بينهما فى الفضل ظاهر وقال كشاجم

لا أستلذ العيش لم أدأب له * طلبا وسعيا فى الهواجر والغلس
وأرى حراما أن يؤاتينى الغنى * حتى يحاول بالعناء ويلتمس
فاصرف نوالك عن أخيك موفرا * فالليث ليس يسيغ الا ما افترس

وأما الندب فهو ما فضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فان الامر فيه معتبر بحال طالبه فان كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤساء وتقاصر عن مطاولة النظراء وانقبض عن منافسة الاكفاء فحسبه ما كفاه فليس فى الزيادة الا شره ولا فى الفضول الا نهم وكلاهما مذموم

والشدة ونحن نجدها فى النساء أكثر منها فى الرجال وفى المرضى أقوى منها فى الاصحاء ونجد الصبيان أسرع غضبا وضجرا من الرجال والشيوخ أكثر من الشبان ونجد رذيلة الغضب مع رذيلة الشره * فان الشره اذا تعذر عليه ما يشتهيه غضب وضجر على من يهيئ طعامه وشرابه من نسائه وأولاده وخدمه وسائر من يلابس أمره * والبخيل اذا فقد شيأ من ماله تسرع بالغضب على أصدقائه ومخالطيه وتوجهت تهمته الى أهل الثقة من خدمه ومواليه وهؤلاء الطبقة لا يحصلون من أخلاقهم الا على فقد الصديق وعدم النصح وعلى الذم السريع واللوم الوجيع وهذه حال لا تتم معها غبطة ولا سرور وصاحبها أبدا محزون كئيب متنغص بعيشه متبرم بأموره وهى حال الشقى المحروم * اما الشجاع العزيز النفس فهو الذى يقهر بحلمه غضبه ويتمكن من التمييز والنظر فيما يدهمه ولا يستفزه ما يرد عليه من المحركات لغضبه حتى يتروى وينظر كيف ينتقم وممن وعلى أى قدر وكيف يصفح ويغضى عمن وفى أى ذنب * حكى عن الاسكندر انه نمى اليه عن بعض أصحابه انه يعيبه وينتقصه فقال له بعض أصحابه لو أدبته أيها الملك بعقوبة تنهكه بها فقال له وكيف يكون انهاكه بعد عقوبتى اياه فى ثلبى وطلب معايبى لانه حينئذ أبسط لسانا وأعذر عند الناس * وأتى يوما ببعض أعدائه من المتغلبين الخارجين عليه وكان قد عاث فى أطراف بلاده عيثا كثيرا فصفح عنه * فقال له بعض جلسائه لو كنت أنا أنت لقتلته * فقال له الاسكندر ولكن لم أكن أنا أنت فلست بقاتله فقد ذكرنا معظم أسباب الغضب ودللنا على معالجتها وحسمها وهو النوع الاعظم من أمراض النفس واذا تقدم الانسان

فى حسم سببه لم يخش تمكنه منه وكان ما يعرض له سهل العلاج قريب الزوال لا مادة له تلهبه ولا تمده ولا سبب يسعره ويوقده

* وتجدالروية موضع الاجالة النظر والفكر فى فضيلة الحلم واستعمال المكافأة ان كان صوابا أو التغافل ان كان حزما

* والذى يتلو معالجة هذا النوع ٢٠٤ من أمراض النفس معالجة الجبن الذى هو الطرف الآخر من ضدتها

* ولما كانت الاضداد يعرف بعضها من بعض وقد عرفنا الطرف الذى حددناه بحركة للنفس عنيفة قوية يحدث منها غليان دم القلب شهوة للانتقام فقد عرفنا اذا مقابله أعنى الطرف الآخر الذى هو سكون للنفس عندما يجب أن تتحرك فيه وبطلان شهوة الانتقام وهذا هو سبب الجبن والخور

﴿الجبن والخور﴾

وتتبعهما إهانة النفس وسوء العيش وطمع طبقات الأنذال وغيرهم من الاهل والاولاد والمعاملين وقلة الثبات والصبر فى المواطن التى يجب فيها الثبات وهما أيضا سبب الكسل ومحبة الراحة اللذين هما سببا كل رذيلة ومن لواحقهما الاستخذاء لكل أحد والرضا بكل رذيلة وضيم * والدخول تحت كل فضيحة فى النفس والاهل والمال وسماع كل قبيحة فاحشة من الشتم والقذف واحتمال كل ظلم من كل معامل وقلة الانفة مما يأنف منه الناس * وعلاج هذه الاسباب واللواحق يكون باضدادها مساويا

* وذلك بان توقظ النفس التى تعرض هذا المرض بالهز والتحريك فان الانسان لا يخلو من القوة الغضبية رأسا حتى تجلب اليه من مكان آخر ولكنها تكون ناقصة عن الواجب فهى بمنزلة النار الخامدة التى فيها بقية لقبول الترويح والنفخ فهى .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى * وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه الدنيا كل على العاقل * وقال عبد الله بن مسعود المستغنى عن الدنيا بالدنيا كمطفئ النار بالتبن * وقال بعض الحكماء اشترماء وجهك بالقناعة وتسل عن الدنيا لتجافيها عن الكرام فان كان ممن منى بعلو الهمم وتحركت فيه أريحية الكرم وآثر أن يكون رأسا ومقدما وأن يرى فى النفوس معظما ومفخما فالكفاية لا تقله حتى يكون ماله فاضلا ونائله فائضا * فقد قيل لبعض العرب ما المروءة فيكم قال طعام مأكول ونائل مبذول وبشر مقبول * وقد قال الاحنف بن قيس

فلومد سروى بمال كثير * لجدت وكنت له باذلا
فان المروءة لا تستطاع * اذا لم يكن مالها فاضلا

وأما صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال فى الاستعانة فلأن المنة استرقاق الاحرار تحدث ذلة فى الممنون عليه وسطوة فى المنان به والاسترسال فى الاستعانة تثقيل ومن ثقل على الناس هان ولا قدر عندهم لمهان * وقال رجل لعمر رضى الله عنه خدمك بنوك فقال أغنانى الله عنهم * وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لابنه الحسن فى وصيته له يا بنى ان استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا فان اليسير من الله تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيره وان كان كل منه كثيرا * وقال زياد لبعض الدهاقين ما المروءة فيكم قال اجتناب الريب فانه لا ينبل مريب واصلاح الرجل ماله فانه من مروأته وقيامه بحوائجه وحوائج أهله فانه لا ينبل من احتاج الى أهله ولا من احتاج أهله الى غيره وأنشد ثعلب

من عف خف على الصديق لقاؤه * وأخو الحوائج وجهه مملول
وأخوك من وفرت ما فى كيسه * فاذا عبثت به فانت ثقيل

وان كان الناس لجملة لا يستغنون عن التعاون ولا يستقلون عن المساعد والمظافر فانما ذلك تعاون ائتلاف يتكافؤن فيه ولا يتفاضلون وربما كان المستعين فيه مفضلا والمعين مستفضلا كاستعانة السلطان بجنده والمزارع باكرته فليس من هذا بد ولا لاحد عنه غنى وانما الذى يتصون عنه الكرام تعاون التفضيل فينقبضون عن أن يستعينوا لئلا يكون عليهم يد ويسارعون أن يعينوا لان يكون لهم يد ومن أقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه أو بمال فقد أوهى مروأته واستبذل صيانته ومن دعاه الاضطرار لنائب ألم أو حادث هجم الى الاستعانة بمن يتنفس به من خناق كربه ويتخلص به من وثاق نوائبه فلا لوم على مضطر فان أغنته الاستعانة بالجاه عن الاستعانة بالمال فلا عذر له فى التعرض للمال ويعدل الى ولاة الامور فان الحوائج عندهم أنجح وهى عليهم أسهل وهم لذلك مندوبون فهم لا يجدون لهم

تتحرك لا محالة اذا حركت بما يلائمها وتبعث ما فى طبيعتها من التوقد والتلهب * وقد حكى عن بعض المتفلسفين انه كان يتعمد مواطن الخوف فيقف فيها ويحمل نفسه على المخاطرات العظيمة بالتعرض لها وركب البحر عند اضطرابه وهيجانه ليعود نفسه الثبات فى المخاوف ويحرك منها القوة التى تسكن عند الحاجة الى حركتها ويخرجها عن رذيلة الكسل ولواحقه ولا يكره لمثل صاحب هذا المرض بعض المراء والتعرض للملاحاة وخصومة من يأمن غائلته حتى يقرب من الفضيلة التى هى وسط بين الرذيلتين أعنى الشجاعة التى هى صحة النفس المطلوبة فاذا وجدها وأحس بها من نفسه كف ووقف ولم يتجاوزها حذرا من الوقوع فى الجانب الآخر الذى علمناك علاجه

﴿الخوف وأسبابه وعلاجه﴾

ولما كان الخوف الشديد فى غير موضعه من أمراض النفس وكان متصلا بهذه القوة وجب أن نذكره ونذكر أسبابه وعلاجه فنقول ان الخوف يعرض من توقع مكروه وانتظار محذور والتوقع والانتظار انما يكونان للحوادث فى الزمان المستقبل * وهذه الحوادث ربما كانت عظيمة وربما كانت يسيرة وربما كانت ضرورية وربما كانت ممكنة * والامور الممكنة ربما كنا نحن أسبابها وربما كان غيرنا سببها وجميع هذه الاقسام لا ينبغى للعاقل أن يخاف منها * أما الامور الممكنة فهى بالجملة مترددة بين أن تكون وبين أن لا تكون ولا يجب أن يصمم على أنها تكون فيستشعر الخوف منها ويتعجل مكروه التألم بها وهى لم تقع بعد ولعلها لا تقع وقد أحسن الشاعر فى قوله

مساويا وليصبرن على إبطائهم فان تراكم الامور عليهم يشغلهم الاعن الملح الصبور ولذلك قيل قدم لحاجتك بعض لجاجتك وقال أبو سارة حميم بن الاعرف

تعد قرابة وتعد صهرا * ويسعد بالقرابة من رعاها
وما زرناك من عدم ولكن * يهش الى الامارة من رجاها
وأيا ما فعلت فان نفسى * تعد صلاح نفسك من غناها

فان تعذر عليه صلاح حاله الاعمال يستعين به على نوائبه كان له مع الضرورة فسحة لكن ان وجده قرضا من دود الم يأخذه صلة وجودا فان القرض مستسمح به فى المروآت هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أعلى الله من قدره وفضله على خلقه قد اقترض ثم قضى فأحسن وقال صلى الله عليه وسلم من أعياه رزق الله تعالى حلالا فليستدن على الله وعلى رسوله وقال صلى الله عليه وسلم المستدين تاجر الله فى أرضه * وقال البحترى

ان لم يكن كنز فضل عطية * يبلغ بها باغى الرضا بعض الرضا
أولم يكن هبة فقرض يسرت * أسبابه وكواهب من أقرضا

ولئن كان الدين رقا فهو أسهل من رق الافضال * وقد روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال من أراد البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء قيل وما فى خفة الرداء من البقاء قال قلة الدين فان أعوزه ذلك الا استسماحا فهو الرق المذل ولذلك قيل لا مروءة لمقل * وقال بعض الحكماء من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك عزه وجلالته والذى يتماسك به الباقى من مروءة الراغبين واليسير التافه من صيانة السائلين وان لم يبق لذى رغبة مروءة ولا لسائل تصون أربعة أمور هى جهد المضطر أحدها أن يتجافى ضرع السائلين وأبهة المستقلين فيذل بالضرع ويحرم بالابهة وليكن من التجمل على ما يقتضيه حال مثله من ذوى الحاجات وقد قيل لبعض الحكماء متى يفحش زوال النعم قال اذا زال معها التجمل وأنشد بعض أهل الادب لعلى بن الجهم

هى النفس ما حملتها تتحمل * وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة * وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولا عار ان زالت عن الحر نعمة * ولكن عارا ان يزول التجمل

والثانى أن يقتصر فى السؤال على ما دعته اليه الضرورة وقادته اليه الحاجة ولا يجعل ذلك ذريعة الى الاغتنام فيحرم باغتنامه ولا يعذر فى ضرورته * وقد قال بعض الحكماء من ألف المسألة ألفه المنع والثالث أن يعذر فى المنع ويشكر على الاجابة فانه ان منع فعما لا يملك وان أجيب فالى ما لا يستحق * فقد قال النمر بن تولب

لا تغضبن على امرئ فى ماله * وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

وقل للفؤاد ان ترى بك نزوة * من الروع أفرج أكثر الروع باطله * فهذه حال ما كان منها عن سبب خارج وقد أعلمناك أنها ليست من الواجبات التي لابد من وقوعها * وما كان كذلك فالخوف من مكروهه يجب أن يكون على قدر حدوثه * وإنما يحسن العيش وتطيب الحياة بالظن الجميل والامل القوى وترك الفكر في كل ما يمكن أن لا يقع من المكاره وأما ما كان سببه سوء اختيارنا وجناياتنا على أنفسنا فينبغي أن نحترز منه بترك الذنوب والجنايات التي نخاف عواقبها ولا نقدم على أمر لا نأمن غائلته فان هذا فعل من نسى أن الممكن هو الذي يجوز أن يكون ويجوز أن لا يكون * وذلك انه اذا أتى ذنبا أو جنى جناية قدر في نفسه أنه يخفى ولا يظهر أو لا يخفى فيظهر الا أنه يتجاوز عنه أو لا يكون له غائلة * وكأنه يجعل طبيعة الممكن واجبا كما أن صاحب القسم الاول يجعل أيضا الممكن واجبا الا أن هذا يأمن الجانب المحذور خاصة * وأعني بهذا أن الممكن لما كان متوسطا بين الجانب الواجب والجانب الممتنع صار كالشئ الذى له جهتان احداهما تلى الواجب والاخرى تلى الممتنع * ومثال ذلك خط ا ج ب فنقطة أ هي الجانب الواجب * ونقطة ب هي الجانب الممتنع * وموضع ج هو الممكن وبعده من الجانبين بعد واحد * فله الى نقطة أ جهة * وله الى نقطة ب جهة تقول * فاذا صار مستقبله ماضيا بطل اسم الممكن عنه وحصل إما في جانب الواجب وإما في جانب الممتنع وليس يصح ما دام ممكنا أن يحسب لا من هذا الجانب ولا من ذلك الجانب بل يعتقد فيه طبيعته الخاصة به وهو أنه يمكن أن يصير الى ههنا

والرابع أن يعتمد على سؤال من كان للمسألة أهلا وكان النجح عنده مأمولا فان ذوى المكنة كثير والمعين منهم قليل ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الخير كثير وقليل فاعله والمرجو الاجابة من تكاملت فيه خصالها وهي ثلاث احداهن كرم الطبع فان الكريم مساعد واللئيم معاند وقد قيل المخذول من كانت له الى اللئام حاجة والثانية سلامة الصدر فان العدو ألب على نكبتك وحرب في نائبتك وقد قيل من أوغرت صدره استدعيت شره فان رق لك بكرم طبعه ورحمك بحسن ظفره فاعظم بها محنة أن يصير عدوك لك راحما وقد قال الشاعر

وحسبك من حادث بامرئ * ترى حاسديه له راحمينا

والثالث ظهور المكنة فان من سأل ما لا يمكن فقد أحال وكان كمستنهض المسجون ومستسعف المديون وكان بالرد خليقا وبالحرمان حقيقا * وقد قال على كرم الله وجهه من لا يعرف لا حتى يقال له لا فهو أحمق * وصى عبد الله بن الاهتم ابنه فقال يا بني لا تطلب الحوائج من غير أهلها ولا تطلبها في غير حينها ولا تطلب ما لست له مستحقا فانك ان فعلت ذلك كنت حقيقا بالحرمان * وقال الشاعر

ولا تسألن امرا حاجة * يحاول من ربه مثلها
فيتركك ما كنت حملته * ويبدأ بحاجته قبلها

فهذا ما يختص بشروط المروءة في نفسه * وأما شروط المروءة في غيره فثلاثة المؤازرة والمياسرة والافضال أما المؤازرة فنوعان أحدهما الاسعاف بالجاه والثاني الاسعاف في النوائب فاما الاسعاف بالجاه فقد يكون من الاعلى قدرا والانفذ أمرا وهو أرخص المكارم ثمنا وألطف الصنائع موقعا * وربما كان أعظم من المال نفعا وهو الظل الذى يلجأ اليه المضطرون والحمى الذى يأوى اليه الخائفون فان أوطأه اتسع بكثرة الانصار والشيع وان قبضه انقطع بنفور الغاشية والتبع فهو بالبذل ينمى ويزيد وبالكف ينقص ويبيد فلا عذر لمن منح جاها أن يبخل به فيكون أسوأ حالا من البخيل بماله الذى قد يعده لنوائبه ويستبقيه للذته ويكثره لذريته وبضد ذلك من بخل بجاهه لانه قد أضاعه بالشح وبدده بالبخل وحرم نفسه غنيمة مكنته وفرصة قدرته فلم يعقبه الا ندما على فائت وأسفا على ضائع ومقتا يستحكم في النفوس وذما قد ينتشر في الناس * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الخلق كلهم عيال الله وأحب خلق الله تعالى اليه أحسنهم صنيعا الى عياله * وقال بعض الحكماء اصنع الخير عند امكانه يبق لك حمده عند زواله وأحسن والدولة لك يحسن لك والدولة عليك واجعل زمان رخائك عدة لزمان بلائك * وقال بعض البلغاء من علامة الاقبال اصطناع الرجال * وقال بعض الادباء بذل الجاه أحد الحباءين * وقال ابن الاعرابي العرب

تقول من أمل شيأ هابه ومن جهل شيأ عابه وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس بشكر النعمة وضده من ضده وليس بذل الجاه لالتماس الجزاء بذلا مشكورا وانما هو بائع جاهه ومعاوض على نعم الله تعالى وآلائه فكان بالذم أحق * وأنشد بعض الادباء لعلى بن عباس الرومى رحمه الله

لا يبذل العرف حين يبذله * كمشترى الحمد أو كمعتاضه
بل يفعل العرف حين يفعله * لجوهر العرف لا لاعراضه

وعلى من أسعد بجاهه ثلاثة حقوق يستكثر بها الشكر ويستمد بها المزيد من الاجر أحدها أن يستسهل المعونة مسرورا ولا يستثقلها كارها فيكون بنعم الله تعالى متبرما ولاحسانه متسخطا * فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من عظمت نعمة الله تعالى عليه عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال والثانى مجانبة الاستطالة وترك الامتنان فانهما من لؤم الطبع وضيق الصدر وفيهما هدم الصنيع واحباط الشكر * وقد قيل للحكيم اليونانى من أضيق الناس طريقا وأقلهم صديقا قال من عاشر الناس بعبوس وجهه واستطال عليهم بنفسه والثالث أن لا يقرن بشكور سعيه تقريعا بذنب ولا توبيخا على هفوة فلا يفى مضض التوبيخ بادراك النجح ويصير الشكر وجدا والحمد عيبا ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم أقيلوا ذوى الهيآت عثراتهم * وقال النابغة الجعدى

ألم تعلما أن الملامة نفعها * قليل اذا ما الشئ ولى فادبرا

وأما الاسعاف فى النوائب فلان الايام غادرة والنوازل غائرة والحوادث عارضة والنوائب راكضة فلا يعذر فيها الاعلم ولا يستنقذه منها الاسليم * وقد قال عدى بن حاتم

كفى زاجرا المرء أيام دهره * تروح له بالواعظات وتغتدى

فاذا وجد الكريم مصابا بحوادث دهره حثه الكرم وشكر النعم على الاسعاف فيما استطاع سبيلا اليه ووجد قدرة عليه * روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال خير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله * وقيل لبعض الحكماء هل شئ خير من الذهب والفضة قال معطيهما والاسعاف فى النوائب نوعان واجب وتبرع فأما الواجب فما اختص بثلاثة أصناف وهم الاهل والاخوان والجيران أما الاهل فلمماسة الرحم وتعاطف النسب وقد قيل لم يسد من احتاج أهله الى غيره * وقال حسان بن ثابت

وان امرأ نال الغنى ثم لم ينل * قريبا ولا ذا حاجة لزهيد
وان امرأ عادى الرجال على الغنى * ولم يسأل الله الغنى لحسود

وأما الاخوان فلمستحكم الودومتأكد العهد * سئل الاحنف بن قيس عن المروءة فقال

أو الى هناك ولهذا قال الحكيم وجوه الامور الممكنة فى اعقابها وأما الامور الضرورية كالهرم وتوابعه فعلاج الخوف منه ان نعلم ان الانسان اذا احب طول الحياة فقد أحب لا محالة الهرم واستشعره استشعار ما لا بد منه ومع الهرم يحدث نقصان الحرارة الغريزية والرطوبة الاصلية التابعة لها وغلبة ضديهما من البرد واليبس وضعف الاعضاء الاصلية كلها ويتبع ذلك قلة الحركة وبطلان النشاط وضعف آلات الهضم وسقوط آلات الطحن ونقصان القوى المدبرة للحياة أعنى القوة الجاذبة والقوة الممسكة والهاضمة والدافعة وسائر ما يتبعها من مواد الحياة وليست الامراض والآلام شيأ غير هذه الاشياء ثم يتبع ذلك موت الاحباء وفقد الاعزاء والمستشعر لهذه الاشياء الملتزم لشرائطها فى مبدأ كونه لا يخاف منها بل ينتظرها ويرجوها ويدعى له بها ويرغب الى الله فيها فهذه جملة الكلام على الخوف المطلق ولما كان أعظم ما يلحق الانسان منه هو خوف الموت وكان هذا الخوف عاما وهو مع عمومه أشد وأبلغ من جميع المخاوف وجب ان نبدأ بالكلام فيه فنقول

﴿علاج الخوف من الموت﴾

ان الخوف من الموت ليس يعرض الا لمن لا يدرى ما الموت على الحقيقة أولا يعلم الى أين تصير نفسه أو لانه يظن ان بدنه اذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور وان العالم سيبقى موجودا وليس هو بموجود فيه كما يظنه من يجهل بقاء النفس وكيفية المعاد أو لانه يظن أن للموت ألما عظيما غير ألم الامراض التى ربما تقدمته وأدت اليه وكانت سبب حلوله أو لانه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت أو لانه متحير

صدق اللسان ومواساة الاخوان وذكر الله تعالى فى كل مكان * وقال بعض حكماء الفرس صفة الصديق أن يبذل لك ماله عند الحاجة ونفسه عند النكبة ويحفظك عند المغيب * ورأى بعض الحكماء رجلين يصطحبان لا يفترقان فسأل عنهما فقيل هما صديقان فقال ما بال أحدهما فقير والآخر غنى وأما الجار فلدنو داره واتصال مزاره قال على كرم الله وجهه ليس حسن الجوار كف الاذى بل الصبر على الاذى * وقال بعض الحكماء من أجار جاره أعانه الله وأجاره * وقال بعض البلغاء من أحسن الى جاره فقد دل على حسن نجاره * وقال بعض الشعراء

وللجار حق فاحترز من أذاته * وما خير جار لا يزال مؤاذيا

فيجب فى حقوق المروءة وشروط الكرم فى هؤلاء الثلاثة تحمل أثقالهم واسعافهم فى نوائبهم ولا فسحة لذى مروءة مع ظهور المكنة أن يكلهم الى غيره أو يلجئهم الى سؤاله وليكن سائل كرم نفسه عنهم فانهم عيال كرمه وأضياف مروءته فكما أنه لا يحسن أن يلجئ عياله وأضيافه الى الطلب والرغبة فهكذا من عاله كرمه وأضافته مروءته * وقال بعض الشعراء

حق على السيد المرجو نائله * والمستجار به فى العرب والعجم
أن لا ينيل الاقاصى صوب راحته * حتى يخص به الادنى من الخدم
ان الفرات اذا جاشت غواربه * روى السواحل ثم امتد فى الامم

وأما التبرع فيمن عدا هؤلاء الثلاثة من البعداء الذين لا يدنون بنسب ولا يتعلقون بسبب فان تبرع بفضل الكرم وفائض المروءة فنهض فى حوادثهم وتكفل بنوائبهم فقد زاد على شروط المروءة وتجاوزها الى شروط الرئاسة * وقيل لبعض الحكماء أى شئ من أفعال الناس يشبه أفعال الاله قال الاحسان الى الناس وان كف تشاغلا بما لزم فلا لوم ما لم يلجأ اليه مضطر لان القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع متعذر فهذا حكم الموازرة وأما المياسرة فنوعان أحدهما العفو عن الهفوات والثانى المسامحة فى الحقوق فأما العفو عن الهفوات فلانه لا مبرأ من سهو وزلل ولا سليم من نقص أو خلل ومن رام سليما من هفوة والتمس بريئا من نبوة فقد تعدى على الدهر بشططه وخادع نفسه بغلطه وكان من وجود بغيته بعيدا وصار باقتراحه فردا وحيدا * وقد قالت الحكماء لا صديق لمن أراد صديقا لا عيب فيه * وقيل لانوشروان هل من أحد لا عيب فيه قال من لا موت له واذا كان الدهر لا يوجد ما طلب ولا ينيله ما أحب وكان الوحيد فى الناس مرفوضا قصيا والمنقطع عنهم وحشيا لزمه مساعدة زمانه فى القضاء ومياسرة اخوانه فى الصفح والاغضاء روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى أمرنى بمداراة الناس كما أمرنى باداء الفرائض وقال

بعض

لا يدرى على أى شئ يقدم بعد الموت أو لانه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات وهذه كلها ظنون باطلة لا حقيقة لها أما من جهل الموت ولم يدر ما هو على الحقيقة فانا نبين له ان الموت ليس بشئ أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها وهى الاعضاء التى يسمى مجموعها بدنا كما يترك الصانع استعمال آلاته وان النفس جوهر غير جسمانى وليست عرضا وانها غير قابلة للفساد وهذا البيان يحتاج فيه الى علوم تتقدمه وهو مبرهن مشروح على الاستقصاء فى موضعه الخاص به ومن تطلع اليه ونشط للوقوف عليه لم يبعد مرامه ومن قنع بما ذكرته فى صدر هذا الكتاب وسكنت نفسه اليه علم ان ذلك الجوهر مفارق لجوهر البدن مباين له كل المباينة بذاته وخواصه وأفعاله وآثاره فاذا فارق البدن كما قلنا وعلى الشريطة التى شرطنا بقى البقاء الذى يخصه ونقى من كدر الطبيعة وسعد السعادة التامة ولا سبيل الى فنائه وعدمه فان الجوهر لا يفنى من حيث هو جوهر ولا تبطل ذاته وانما تبطل الاعراض والنسب والاضافات التى بينه وبين الاجسام باضدادها فأما الجوهر فلا ضد له وكل شئ يفسد فانما فساده من ضده وقد يمكنك أن تقف على ذلك بسهولة من أوائل المنطق قبل أن تصل الى براهينه وان أنت تأملت الجوهر الجسمانى الذى هو أخس من ذلك الجوهر الكريم واستقريت حاله وجدته غير فان ولا متلاش من حيث هو جوهر وانما يستحيل بعضه الى بعض فتبطل خواصه شيأ فشيأ منه واعراضه فأما الجوهر نفسه فهو باق لا سبيل الى عدمه وبطلانه مثال ذلك الماء فانه يستحيل بخارا وهواء وكذلك الهواء

بعض الادباء ثلاث خصال لا تجتمع الا فى كريم حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة الملال وقال ابن الرومى

فعذرك مبسوط لذنب مقدم * وودك مقبول باهل ومرحب
ولو بلغتنى عنك أذنى أقمتها * لدى مقام الكاشح المتكذب
فلست بتقليب اللسان مصارما * خليلا اذا ما القلب لم يتقلب

واذا كان الاغضاء حتما والصفح كرما ترتب بحسب الهفوة وتنزل بقدر الذنب والهفوات نوعان صغائر وكبائر فالصغائر مغفورة والنفوس بها معذورة لان الناس مع أطوارهم المختلفة وأخلاقهم المتفاضلة لا يسلمون منها فكان الوجد فيها مطرحا والعتب مستقبحا وقد قال بعض العلماء من هجر أخاه من غير ذنب كان كمن زرع زرعا ثم حصده فى غير أوانه وقال أبو العتاهية

وشر الاخلاء من لم يزل * يعاتب طورا وطورا يذم
يريك النصيحة عند اللقاء * ويبريك فى السر برى القلم

وأما الكبائر فنوعان أن يهفو بها خاطئا ويزل بها ساهيا فالحرج فيها مرفوع والعتب عنها موضوع لان هفوة الخاطر هدر ولومه هذر وقال بعض الحكماء لا تقطع اخاك الا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه وقال الاحنف بن قيس حق الصديق أن تحتمل له ثلاثا ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة وحكى ابن عون أن غلاما هاشميا عربد على قوم فأراد عمه أن يسىء به فقال ياعم انى قد أسأت وليس معى عقلى فلا تسىء بى ومعك عقلك وقال أبو نواس

لم آخذك اذ جنيت لانى * واثق منك بالاخاء الصحيح
فجميل العدو غير جميل * وقبيح الصديق غير قبيح

فان تشبه خطؤه بالعمد وسهوه بالقصد تثبت ولم يلم بالتوهم فيكون ملوما ولذلك قيل التثبت نصف العفو وقال بعض الحكماء لا يفسدك الظن على صديق أصلحك اليقين له وقال بعض شعراء هذيل

فبعض الامر تصلحه ببعض * فان الغث يحمله السمين
ولا تعجل بظنك قبل خبر * فعند الخبر تنقطع الظنون
ترى بين الرجال العين فضلا * وفيما أضمروا الفضل المبين
كلون الماء مشتبها وليست * تخبر عن مذاقته العيون

والثانى أن يعتمد ما اجترم من كبائره ويقصد ما اجترح من سيئاته ولا يخلو فيما أتاه من أربع أحوال فالحال الاولى أن يكون موتورا قد قابل على وترته وكافأ على مساءته

يستحيل ماء ونارا فتبطل عن الجواهر اعراضه وخواصه وأما الجوهر من حيث هو جوهر فانه لا سبيل الى عدمه هذا فى الجوهر الجسمانى القابل للاستحالة والتغير فأما الجوهر الروحانى الذى لا يقبل الاستحالة ولا التغير فى ذاته وانما يقبل كمالاته وتمامات صوره فكيف يتوهم فيه العدم والتلاشى وأما من يخاف الموت لانه لا يعلم الى أين تصير نفسه أو لانه يظن أن بدنه اذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه وجهل بقاء النفس وكيفية المعاد فليس يخاف الموت على الحقيقة وانما يجهل ما ينبغى ان يعلمه فالجهل اذا هو المخوف اذ هو سبب الخوف وهذا الجهل هو الذى حمل الحكماء على طلب العلم والتعب به وتركوا لاجله اللذات الجسمانية وراحات البدن واختاروا عليه النصب والسهر ورأوا أن الراحة التى تكون من الجهل هى الراحة الحقيقية وان التعب الحقيقى هو تعب الجهل لانه مرض مزمن للنفس والبرء منه خلاص لها وراحة سرمدية ولذة أبدية ولما تيقن الحكماء ذلك واستبصروا فيه وهجموا على حقيقته ووصلوا الى الروح والراحة منه هانت عليهم أمور الدنيا كلها واستحقروا جميع ما يستعظمه الجمهور من المال والثروة واللذات الحسية والمطالب التى تؤدى اليها اذ كانت قليلة الثبات والبقاء سريعة الزوال والفناء كثيرة الهموم اذا وجدت عظيمة الغموم اذا فقدت واقتصروا منها على المقدار الضرورى فى الحياة وتسلوا عن فضول العيش الذى فيه ما ذكرت من العيوب ومالم أذكره ولانها مع ذلك بلا نهاية وذلك ان الانسان اذا بلغ منها الى غاية تاقت نفسه الى غاية

فاللائمة على من وتره عائدة والى البادئ بها راجعة لان المكافئ أعذر وان كان الصفح أجمل ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم اياكم والمشارة فانها تميت الغبرة وتحيى الغرة وقال بعض الحكماء من فعل ما شاء لقى ما لم يشأ وقال بعض الادباء من نالته اساءتك همه مساءتك وقال بعض البلغاء من أولع بقبح المعاملة أوجع بقبح المقابلة وقال صالح ابن عبد القدوس

اذا وترت امرأ فاحذر عداوته * من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
ان العدو وان أبدى مسالمة * اذا رأى منك يوما فرصة وثبا

والاغضاء عن هذا أوجب وان لم تكن المكافأة ذنبا لانه قد رأى عقبى اساءته فان واصل الشر واصلته المكافأة وقد قيل باعتزالك الشر يعتزلك وبحسن النصفة يكون المواصلون وقال بعض الحكماء من كنت سبب بلائه وجب عليك التلطف له فى علاجه من دائه وقد قال أوس بن حجر

اذا كنت لم تعرض عن الجهل والخنا * أصبت حليما أو أصابك جاهل

والحال الثانية أن يكون عدوا قد استحكمت شحناؤه واستوعرت سراؤه واستخشنت ضراؤه فهو يتربص بدوائر السوء انتهاز فرصه ويتجرع بمهانة العجز مرارة غصصه فاذا ظفر بنائبة ساعدها واذا شاهد نعمة عاندها فالبعد منه حذرا أسلم والكف عنه متاركة أغنم فانه لا يسلم من عواقب شره ولا يفلت من غوائل مكره وقد قالت الحكماء لا تعرضن لعدوك فى دولته فاذا زالت كفيت شره وقال لقمان لابنه يا بنى كذب من قال ان الشر بالشر يطفأ فان كان صادقا فليوقد نارين ولينظر هل تطفئ احداهما الاخرى وانما يطفئ الخير الشر كما يطفئ الماء النار وقال جعفر بن محمد كفاك من الله نصرا أن ترى عدوك يعصى الله فيك وقال بعض الحكماء بالسيرة العادلة يقهر المعادى وقال البحترى

وأقسم لا أجزيك بالشر مثله * كفى بالذى جازيتنى لك جازيا

والحال الثالثة أن يكون لئيم الطبع خبيث الاصل قد أغراه لؤم الطبع على سوء الاعتقاد وبعثه خبث الاصل على اتيان الفساد فهو لا يستقبح الشر ولا يكف عن المكروه فهذه الحالة أعظم لان الاضرار بها أعم ولا سلامة من مثله الا بالبعد والانقباض ولا خلاص منه الا بالصفح والاعراض فانه كالسبع الضارى فى سوارح الغنم وكالنار المتأججة فى يابس الحطب لا يقربها الا تالف ولا يدنو منه الا هالك روى مكحول عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الناس كشجرة ذات جنى ويوشك أن يعودوا كشجرة ذات شوك ان ناقدتهم ناقدوك وان هربت منهم

طلبوك

أخرى من غير وقوف على حد ولا انتهاء الى أمد وهذا هو الموت لا ما يخاف منه والحرص عليه هو الحرص على الزائل والشغل به هو الشغل بالباطل ولذلك جزم الحكماء بان الموت موتان موت ارادى وموت طبيعى وكذلك الحياة حياتان حياة ارادية وحياة طبيعية وعنوا بالموت الارادى اماتة الشهوات وترك التعرض لها و بالموت الطبيعى مفارقة النفس البدن وعنوا بالحياة الارادية ما يسعى له الانسان لحياته الدنيا من المآكل والمشارب والشهوات وبالحياة الطبيعية بقاء النفس السرمدى بما تستفيده من العلوم الحقيقية وتبرأ به من الجهل ولذلك وصى أفلاطون طالب الحكمة بان قال له مت بالارادة تحيا بالطبيعة على ان من خاف الموت الطبيعى للانسان فقد خاف ما ينبغى أن يرجوه ذلك ان هذا الموت هو تمام حد الانسان لانه حى ناطق ميت فالموت تمامه وكماله وبه يصير الى أفقه الاعلى ومن علم ان كل شئ هو مركب من حد وحده مركب من جنسه وفصوله وان جنس الانسان هو الحى وفصلاه الناطق والميت علم انه سيحل الى جنسه وفصوله لان كل مركب لا محالة منحل الى ما تركب منه فمن أجهل ممن يخاف تمام ذاته ومن أسوأ حالا ممن يظن ان فناءه بحياته ونقصانه بتمامه ذلك ان الناقص اذا خاف أن يتم فقد دل من نفسه على غاية الجهل فاذا الواجب على العاقل أن يستوحش من النقصان و يأنس بالتمام و يطلب كل ما يتممه و يكمله و يشرفه و يعلى منزلته و يحلى رباطه من الوجه الذى يأمن به الوقوع فى الاسر لا من الوجه الذى يشد وثاقه و يزيده تركيبا وتعقيدا و يثق بأن الجوهر الشريف الالهى

طلبوك وان تركتهم لم يتركوك قيل يا رسول الله وكيف المخرج قال أقرضهم من عرضك ليوم فاقتك وقال عبد الله بن العباس العاقل الكريم صديق كل أحد الا من ضره والجاهل اللئيم عدو كل أحد الا من نفعه وقال شر ما في الكريم أن يمنعك خيره وخير ما في اللئيم أن يكف عنك شره وقال بعض البلغاء أعداؤك داؤك وفي البعد عنهم شفاؤك وقال بعض البلغاء شرف الكريم تغافله عن اللئيم ووصى بعض الحكماء ابنه فقال يا بني اذا سلم الناس منك فلا عليك أن لا تسلم منهم فانه قلما اجتمعت هاتان النعمتان وقال عبد المسيح بن نفيلة

الخير والشر مقرونان في قرن * فالخير متبع والشر محذور

والحال الرابعة أن يكون صديقا قد احدث نبوة وتغيرا أو أخا قد استجد جفوة وتنكرا فأبدى صفحة عقوقه واطرح لازم حقوقه وعدل عن بر الاخاء الى جفوة الاعداء فهذا قد يعرض في المودات المستقيمة كما تعرض الامراض في الاجسام السليمة فان عولجت أقلعت وان أهملت أسقمت ثم أتلفت ولذلك قالت الحكماء دواء المودة كثرة التعاهد وقال كشاجم

أقل ذا الود عثرته وقفه * على سنن الطريق المستقيم
ولا تسرع بمعتبة اليه * فقد يهفو ونيته سليمه

ومن الناس من يرى أن متاركة الاخوان اذا نفروا أصلح واطراحهم اذا فسدوا أولى كأعضاء الجسد اذا فسدت كان قطعها أسلم فان شرها سرت الى نفسه وكالثوب اذا اخلق كان اطراحه بالجديد له أجمل * وقد قال بعض الحكماء رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة * وقد قال بزرجمهر من تغير عليك في مودته فدعه حيث كان قبل معرفته * وقال نصر بن أحمد الخبزارزي

صل من دنا وتناس من بعدا * لا تكرهن على الهوى أحدا
قد أكثرت حواء اذ ولدت * فاذا جفا ولد خذ ولدا

فهذا مذهب من قل وفاؤه وضعف اخاؤه وساءت طرائقه وضاقت خلائقه ولم يكن فيه فضل الاحتمال ولا صبر على الادلال فقابل على الجفوة وعاقب على الهفوة واطرح سالف الحقوق وقابل العقوق بالعقوق فلا بالفضل أخذ ولا الى العفو أخلد وقد علم أن نفسه قد تطغى عليه فترديه وأن جسمه قد يسقم عليه فيؤلمه ويؤذيه وهما أخص به وأحنى عليه من صديق قد تميز بذاته وانفصل بأدواته فيريد من غيره لنفسه ما لا يجده من نفسه لنفسه هذا عين المحال ومحض الجهل مع أن من لم يحتمل بقي فردا وانقلب الصديق فصار عدوا وعداوة من كان صديقا أعظم من عداوة من لم يزل عدوا ولذلك قال

اذا تخلص من الجوهر الكثيف الجسماني خلاص بتماه وصفو ولا خلاص مزاج وكدر فقد سعد وعاد الى ملكوته وقرب من بارئه وفاز بجوار رب العالمين وخالط الارواح الطيبة من أشكاله وأشباهه ونجا من اضداده وأغياره * ومن ههنا يعلم أن من فارقت نفسه بدنه وهي مشتاقة اليه مشفقة عليه خائفة من فراقه فهي في غاية الشقاء والبعد من ذاتها وجوهرها سالكة الى أبعد جهاتها من مستقرها طالبة قرار ما لا قرار له * اما من ظن أن للموت ألما عظيما غير ألم الامراض التي ربما اتفق ان تتقدم الموت وتؤدي اليه فعلاجه أن يبين له ان هذا ظن كاذب لان الالم انما يكون للحي والحي هو القابل اثر النفس * وأما الجسم الذي ليس فيه اثر النفس فانه لا يألم ولا يحس فاذا الموت الذي هو مفارقة النفس البدن لا ألم له لان البدن انما كان يألم ويحس بأثر النفس فيه فاذا صار جسما لا اثر فيه للنفس فلا حس له ولا ألم فقد تبين ان الموت حال للبدن غير محسوس عنده ولا مؤلم لانه فراق ما به كان يحس ويتألم فأما من خاف الموت لاجل العقاب الذي يوعد به بعد فينبغي أن نبين له انه ليس يخاف الموت بل يخاف العقاب والعقاب انما يكون على شيء باق بعد البدن الدائر * ومن اعترف بشيء باق منه بعد البدن وهو لا محالة معترف بذنوب له وأفعال سيئة يستحق عليها العقاب ومع ذلك هو معترف بحاكم عدل يعاقب على السيئات لا على الحسنات فهو اذا خائف من ذنوبه لا من الموت * ومن خاف عقوبة على ذنب فالواجب عليه أن يحذر ذلك الذنب ويجتنبه * وقد بينا فيما تقدم ان الافعال الرديئة

التي تسمى ذنوبا انما تصدر عن هيئات رديئة والهيئات الرديئة هي للنفس وهي الرذائل التي أحصيناها وعرفناك أضدادها من الفضائل * فاذا الخائف من الموت على هذه الطريقة ومن هذه الجهة جاهل بما ينبغي أن يخاف منه وخائف بما لا أثر له ولا خوف منه وعلاج الجهل هو العلم فاذا الحكمة هي التي تخلصنا من هذه الآلام والظنون الكاذبة التي هي نتائج الجهالات والله الموفق لما فيه الخير * وكذلك نقول لمن خاف الموت لانه لا يدري على ما يقدم بعد الموت لان هذه حال الجاهل الذي يخاف بجهله فعلاجه أن يتعلم ليعلم و يثق * وذلك أن من أثبت لنفسه حالا بعد الموت ثم لم يعلم ما هي تلك الحال فقد أقر بالجهل * وعلاج الجهل العلم ومن علم فقد وثق ومن وثق فقد عرف سبيل السعادة فهو يسلكها لا محالة ومن سلك طريقا مستقيما الى غرض صحيح أفضى اليه بلا شك ولا مرية * وهذه الثقة التي تكون بالعلم هي اليقين وهي حال المستبصر في دينه المستمسك بحكمته وقد عرفناك مرتبته ومقامه فيما سلف من القول * اما من زعم أنه ليس يخاف الموت وانما يحزن على ما يخلف من أهله وولده وماله ونشبه ويأسف على ما يفوته من ملاذ الدنيا وشهواتها * فينبغي ان نبين له ان الحزن تعجل ألم ومكروه على ما لا يجدي الحزن اليه بطائل وقد وسنذكر علاج الحزن في باب مفرد له خاص لانا في هذا الباب انما نذكر علاج الخوف وقد أتينا منه على ما فيه مقنع وكفاية الا انا نزيده بيانا ووضوحا فنقول * ان الانسان من جملة الامور الكائنة وقد تبين في الآراء الفلسفية ان كل كائن

النبي صلى الله عليه وسلم أوصاني ربي بسبع الاخلاص في السر والعلانية وأن أعفو عمن ظلمني وأعطي من حرمني وأصل من قطعني وأن يكون صمتي فكرا ونطقي ذكرا ونظري عبرة * وقال لقمان لابنه يا بني لا تترك صديقك الاول فلا يطمئن اليك الثاني يا بني اتخذ ألف صديق والالف قليل ولا تتخذ عدوا واحدا والواحد كثير * وقيل للمهلب بن أبي صفرة ما تقول في العفو والعقوبة قال هما بمنزلة الجود والبخل فتمسك بأيهما شئت * وأنشد ثعلب

اذا أنت لم تستقبل الامر لم تجد * بكفيك في ادباره متعلقا

اذا أنت لم تترك أخاك وزلة * اذا زلها أوشكتما أن تفرقا

فاذا كان الامر على ما وصفت فمن حقوق الصفح الكشف عن سبب الهفوة ليعرف الداء فيعالجه فان لم يعرف الداء لم يقف على الدواء * كما قد قال المتنبي

فان الجرح ينفر بعد حين * اذا كان البناء على فساد

واذا كان ذلك كذلك فلا يخلو حال السبب من أن يكون لملل أو زلل فان كان للملل فودات الملول ظل الغمام وحلم النيام * وقد قيل في منثور الحكم لا تأمن الملول وان تحلى بالصلة وعلاجه أن يترك على ملله فيحمل الجفاء كامل الاخاء وان كان لزلل لوحظت أسبابه فان كان لها مدخل في التأويل وشبهة تؤول الى جميل حمله على أجمل تأويله وصرفه الى أحسن جهة كالذي حكي عن خالد بن صفوان أنه مر به صديقان له فعرج عليه أحدهما وطواه الآخر فقيل له في ذلك فقال نعم عرج علينا هذا بفضله وطوانا ذاك بثقته بنا * وأنشد بعض أهل الادب لمحمد بن داود الاصفهاني

وزعم للواشين أني فاسد * عليك وأني لست فيما عهدتني

وما فسدت لي يعلم الله نية * عليك ولكن خنتني فاتهمتني

غدرت بعهدي عامدا وأخفتني * فخفت ولو آمنتني لأمنتني

وان لم يكن لزلله في التأويل مدخل نظر حاله بعد زلله فان ظهر ندمه وبان خجله فالندم توبة والخجل انابة ولا ذنب لتائب ولا لوم على منيب ولا يكاشف عذرا عما سلف فيلجأ الى ذل التحريف أو خجل التعنيف ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اياكم والمعاذر فان أكثرها مفاجر * وقال علي رضي الله عنه كفى بما يعتذر منه تهمة * وقال مسلم بن قتيبة لرجل اعتذر اليه لا يدعونك أمر قد تخلصت منه الى الدخول في أمر لعلك لا تخلص منه * وقال بعض الحكماء شفيع المذنب اقراره وتوبته اعتذاره * وقال بعض البلغاء من لم يقبل التوبة عظمت خطيئته ومن لم يحسن الى التائب قبحت اساءته * وقال بعض الحكماء الكريم أوسع المغفرة اذا ضاقت بالمذنب المعذرة وقال بعض الشعراء

العذر يلحقه التحريف والكذب * وليس في غير ما يرضيك لي أرب

وقد أسأت فبالنعمى التي سلفت * الا مننت بعفوما له سبب *

وان عجل العذر قبل توبته وقدم التنصل قبل انابته فالعذر توبة والتنصل انابة فلا يكشف عن باطن عذره ولا يعنف بظاهر غدره فيكون لئيم الظفر سيئ المكافأة وقد قيل من غلبته الحدة فلا تغتر بعودته * وقال بعض الحكماء شافع المذنب خضوعه الى عذره * وقال بعض الشعراء

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا * ان بر عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره * وقد أجلك من يعصيك مستترا

وان ترك نفسه فى زلله ولم يتدارك بعذره وتنصله ولا محاه بتوبته وانابته راعيت حاله فى المتاركة فتجده لا ينفك فيها من أمور ثلاثة أحدها أن يكون قد كف عن سيئ عمله وأقلع عن سالف زلله فالكف احدى التوبتين والاقلاع أحد العذرين فكن أنت المعتذر عنه بصفحك والمتنصل له بفضلك فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه المحسن على المسيء أمير والثانى أن يكون قد وقف على ما أسلف من زلله غير تارك ولا متجاوز فوقوف المرض أحد البرأين وكفه عن الزيادة احدى الحسنيين وقد استبقى بالوقوف عن التجاوز أحد شطريه فعول به على صلاح شطره الآخر واياك وارجاءه فان الارجاء يفسد شطر صلاحه والتلافى يصلح شطر فساده فان من سقم من جسمه ما لم يعالجه سرى السقم الى صحته وان عالجه سرت الصحة الى سقمه والثالث أن يتجاوز مع الاوقات فيزيد فيه على مرور الايام فهذا هو الداء العضال فان أمكن استدراكه وتأتى استصلاحه وذلك باستنزاله عنه ان علا وبارغابه ان دنا وبعتابه ان ساوى والا فآخر الداء العياء الكى ومن بلغت به الاعذار الى غايتها فلا لائمة عليه والمقيم على شقاقه باغ مصروع وقد قيل من سل سيف البغى أغمده فى رأسه فهذا شرط وأما المسامحة فى الحقوق فلان الاستيفاء موحش والاستقصاء منفر ومن أراد كل حقه من النفوس المستصعبة بشح أو طمع لم يصل اليه الا بالمنافرة والمشاقة ولم يقدر عليه الا بالمخاشنة والمساحة لما استقر فى الطباع من مقت من شاقها ونافرها وبغض من شاحها ونازعها كما استقر حب من ياسرها وسامحها فكان أليق الامور بالمروءة استلطاف النفوس بالمياسرة والمسامحة وتألفها بالمقاربة والمساهلة * قال بعض الحكماء من عاشر اخوانه بالمسامحة دامت له مودّاتهم * وقال بعض الادباء اذا أخذت عفوا قلوب زكا ريعك وان استقصيت أكديت والمسامحة نوعان فى عقود وحقوق فاما العقود فهو أن يكون فيها سهل المناجزة قليل المحاجزة مأمون الغيبة بعيدا من المكر والخديعة * روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أجملوا فى طلب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له منها وقال صلى الله عليه وسلم ألا أدلكم على شئ يحبه الله تعالى ورسوله قالوا بلى يا رسول الله قال

فاسد لا محالة فمن أحب أن لا يفسد فقد أحب أن لا يكون * ومن أحب أن لا يكون فقد أحب فساد ذاته فكأنه يحب أن يفسد ويحب أن لا يفسد ويحب أن يكون ويحب أن لا يكون وهذا محال لا يخطر ببال عاقل * وأيضا فانه لو لم تمت أسلافنا وآباؤنا لم ينته الوجود الينا ولو جاز أن يبقى الانسان لبقى من تقدمنا ولو بقى من تقدمنا من الناس على ما هم عليه من التناسل ولم يموتوا لما وسعتهم الارض وأنت تتبين ذلك مما أقول هب أن رجلا واحدا ممن كان منذ أربعمائة سنة هو موجود الآن وليكن من مشاهير الناس حتى يمكن أن يحصل أولاده موجودين معروفين كعلى بن أبي طالب كرم الله وجهه مثلا * ثم ولد له أولاد ولاولاده أولاد وبقوا كذلك يتناسلون ولا يموت منهم أحد * كم يكون مقدار من يجتمع منهم فى وقتنا هذا فانك تجدهم أكثر من عشرة آلاف ألف رجل وذلك ان بقيتهم الآن مع ما قدر فيهم من الموت والقتل الذريع أكثر من مائة ألف نسمة فى جميع الارض واحسب لمن كان فى ذلك العصر من الناس على بسيط الارض مثل هذا الحساب فانهم اذا تضاعفوا هذا التضاعف لم تضبطهم كثرة ولم تحصهم عددا * ثم امسح بسيط الارض فانه محدود معروف لتعلم أن الارض حينئذ لا تسعهم قياما فكيف قعودا أو متصرفين ولا يبقى موضع عمارة يفضل عنهم ولا مكان زراعة ولا مسير لاحد ولا حركة فضلا عن غيرها وهذه مدة يسيرة من الزمان فكيف اذا امتد الزمان وتضاعف الناس على هذه النسبة * فهذه حال من يتمنى الحياة الابدية للبدن ويكره الموت ويظن ان ذلك ممكن أو مطموع فيه من الجهل

والغباوة فاذا الحكمة البالغة والعدل المبسوط بالتدبير الالهي هو الصواب الذي لا معدل عنه ولا محيص منه وهو غاية الجود الذي ليس وراءه غاية أخرى لطالب مستزيد أو راغب مستفيد * والخائف منه هو الخائف من عدل البارى وحكمته بل هو الخائف من وجوده وعطائه * فقد ظهر ظهورا حسيا ان الموت ليس بردىء كما يظنه جمهور الناس وانما الردىء هو الخوف منه وان الذي يخاف منه هو الجاهل به وبذاته * وقد ظهر أيضا فيما تقدم من قولنا ان حقيقة الموت هي مفارقة النفس البدن وهذه المفارقة ليست فسادا للنفس وانما هي فساد التركب * وأما جوهر النفس الذي هو ذات الانسان ولبه وخلاصته فهو باق وليس بجسم فيلزم فيه ما لزم في الاجسام مما أوردناه قبيل * بل لا يلزمه شئ من اعراض الاجسام أي لا يتزاحم في المكان لاستغنائه عن المكان ولا يحرص على البقاء الزماني لاستغنائه عن الزمان وانما استفاد بالحواس والاجسام كمالا فاذا كمل بها ثم خلص منها صار الى عالمه الشريف القريب الى بارئه ومنشئه تعالى وتقدس وهذا الكمال الذي يستفيده في هذا العالم الحسي قد بيناه وعرفناك الطريق اليه بما سلف من القول في هذا الباب وانه السعادة القصوى للانسان وأعلمناك ضده الذي هو الشقاء الاقصى له وبينا مع ذلك مراتب السعادة ومنازل الابرار ودرجاتهم من رضوان الله وجنته التي هي دار القرار كما بينا لك اضدادها من سخطه ودركاتهم من النار التي هي الهاوية بلا قرار نسأل الله حسن المعونة على ما يقربنا منه ويبعدنا من سخطه انه جواد كريم رؤف رحيم.

قلت

التغابن للضعيف * وحكى ابن عون أن عمر بن عبيد الله اشترى للحسن البصرى ازارا بستة دراهم ونصف فاعطى التاجر سبعة دراهم فقال ثمنه ستة دراهم ونصف فقال انى اشتريته لرجل لا يقاسم أخاه درهما ومن الناس من يرى أن المساهلة في العقود عجز وأن الاستقصاء فيها حزم حتى انه لينافس في الحقير وان جاد بالجليل الكثير كالذي حكى عن عبد الله بن جعفر وقد ماكس في درهم وهو يجود بما يجود به وقيل له في ذلك فقال ذلك مالى أجود به وهذا عقلى بخلت به وهذا انما يسوغ من أهل المروءة في دفع ما يخادعهم به الادنياء ويغابنهم به الاشحاء وهكذا كانت حال عبد الله بن جعفر فاما مماسكة الاسترسال والاستسماح فكلا لانه مناف للكرم ومباين للمروءة وأما الحقوق فتتنوع المسامحة فيها نوعين أحدهما في الاحوال والثاني في الاموال فاما المسامحة في الاحوال فهو اطراح المنازعة في الرتب وترك المنافسة في التقدم فان مشاحة النفوس فيها أعظم والعناد عليها أكثر فان سامح فيها ولم ينافس كان مع أخذه بأفضل الاخلاق واستعماله لاحسن الآداب أوقع في النفوس من افضاله برغائب الاموال ثم هو أزيد في رتبته وأبلغ في تقدمه وان شاح فيها ونازع كان مع ارتكابه لاخشن الاخلاق واستعماله لاهجن الآداب أنكى في النفوس من حد السيف وطعن السنان ثم هو أخفض للرتبة وأمنع من التقدم حكى أن فتى من بنى هاشم تخطى رقاب الناس عند ابن أبي داود فقال يا بنى ان الآداب ميراث الاشراف ولست أرى عندك من سلفك ارثا وأما المسامحة في الاموال فتتنوع ثلاثة أنواع مسامحة اسقاط لعدم ومسامحة تخفيف لعجز ومسامحة انكار لعسرة وهي مع اختلاف أسبابها تفضل مأثور وتألف مشكور واذا كان الكريم قد يجود بما تحويه يده وينفذ فيه تصرفه كان أولى أن يجود بما خرج عن يده فطاب نفسا بفراقه وقد تصل المسامحة في الحقوق الى من لا يقبل البر ويأبى الصلة فيكون أحسن موقعا وأزكى محلا وربما كانت المسامحة فيها آمن من رد السائل ومنع المجتدى لان السائل كما اجترأ على سؤالك فسيجترئ على سؤال غيرك ان رددته وليس كل من صار أسير حقك ورهين دينك يجد بدا من مسامحتك ومياسرتك ثم لك مع ذلك حسن الثناء وجزيل الاجر * وقال محمود الوراق رحمه الله

المرء بعد الموت احدوثة * يفنى وتبقى منه آثاره
فأحسن الحالات حال امرئ * تطيب بعد الموت أخباره

فهذه حال المياسرة وأما الافضال فنوعان افضال اصطناع وافضال استكفاف ودفاع فاما افضال الاصطناع فنوعان أحدهما ما أسده جودا في شكور والثاني ما تألف به نبوة نفور وكلاهما من شروط المروأة لما فيهما من ظهور الاصطناع وتكاثر الاشياع والاتباع ومن

«علاج الحزن» الحزن ألم نفسانى يعرض لفقد محبوب اوفوت مطلوب * وسببه الحرص على القنيات الجسمانية والشره الى الشهوات البدنية والحسرة على ما يفقده أو يفوته منها وانما يحزن و يجزع على فقد محبوباته وفوت مطلوباته من يظن ان ما يحصل له من محبوبات الدنيا يجوز أن يبقى و يثبت عنده أو ان جميع ما يطلبه من مفقوداتها لابد أن يحصل له و يصير فى ملكه فاذا أنصف نفسه واعلم أن جميع ما فى عالم الكون والفساد غير ثابت ولا باق وانما الثابت الباقى هو ما يكون فى عالم العقل لم يطمع فى المحال ولم يطلبه واذا لم يطمع فيه لم يحزن لفقد ما يهواه ولا لفوت ما يتمناه فى هذا العالم وصرف سعيه الى المطلوبات الصافية واقتصر بهمته على طلب المحبوبات الباقية وأعرض عما ليس فى طبعه أن يثبت ويبقى واذا حصل له منه شئ نادر الى وضعه فى موضعه وأخذ منه مقدار الحاجة الى دفع الآلام التى أحصيناها من الجوع والعرى والضرورات التى تشبهها وترك الادخار والاستكثار والتماس المباهاة والافتخار ولم يحدث نفسه بالمكاثرة بها والتمنى لها * واذا فارقته لم يأسف عليها ولم يبال بها فان من فعل ذلك أمن فلم يجزع وفرح فلم يحزن وسعد فلم يشق * ومن لم يقبل هذه الوصية ولم يعالج نفسه بهذا العلاج لم يزل فى جزع دائم وحزن غير منتقض * وذلك انه لا يعدم فى كل حال فوت مطلوب أو فقد محبوب وهذا لازم لعالمنا هذا لانه عالم الكون والفساد ومن طمع من الكائن الفاسد أن لا يكون ولا يفسد فقد طمع فى المحال * ومن طمع فى المحال لم يزل خائبا والخائب ابدا محزون والمحزون شقى * ومن استشعر بالعادة الجميلة ورضى بكل ما يجده ولا يحزن لشئ .

قلت صنائعه فى الشاكرين وأعرض عن تألف النافرين كان فردا مهجورا وتابعا محقورا ولا امر وأملترولك مطرح ولا قدر لمحقور مهتضم * وقال عمر بن عبد العزيز ما طاوعنى الناس على شئ أردته من الحق حتى بسطت لهم طرفا من الدنيا * وقال بعض الحكماء أقل ما يجب للمنعم بحق نعمته أن لا يتوصل بها الى معصيته * وأنشدت لبعض الاعراب

من جمع المال ولم يجد به * وترك المال لعام جدبه
* هان على الناس هوان كلبه *

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى

يبقى الثناء وتذهب الاموال * ولكل دهر دولة ورجال
ما نال محمدة الرجال وشكرهم * الا الجواد بماله المفضال
لا ترض من رجل حلاوة قوله * حتى يصدق ما يقول فعاله

فان ضاقت به الحال عن الاصطناع بماله فقد عدم من آلة المكارم عمادها وفقد من شروط المروءة سنادها فليواس بنفسه مواساة المساعف وليسعد بها اسعاد المتألف قال المتنبى

* فليسعد النطق ان لم تسعد الحال *

وان كان لا يراها وان أجهدها الا تبعا للمفضلين قليلة بين المكثرين فان الناس لا يساوون بين المعطى والمانع ولا يقنعهم القول دون الفعل ولا يغنيهم الكلام عن المال و يرونه كالصدى ان ردصوتا لم يجد نفعا كما قال الشاعر

يجود بالوعد ولكنه * يدهن من قارورة فارغه

فكل ما خرج عندهم عن المال كان فارغا وكل ما عدا الافضال به كان هينا وقد قدمنا من القول فى شروط الافضال ما أقنع وأما افضال الاستكفاف فلان ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة ومعاند فضيلة يعتريه الجهل باظهار عناده و يبعثه اللؤم على البذى بسفهه فان غفل عن استكفاف السفهاء وأعرض عن استدفاع أهل البذاء صار عرضه هدفا للمثالب وحاله عرضة للنوائب واذا استكف السفيه واستدفع البذى صان عرضه وحمى نعمته * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما وقى به المرء عرضه فهو صدقة وقالت عائشة رضى الله عنها ذبوا بأموالكم عن أحسابكم وامتدح رجل الزهرى فاعطاه قميصه فقال له رجل أتعطى على كلام الشيطان فقال من ابتغى الخير اتقى الشر ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم من أراد بر الوالدين فليعط الشعراء وهذا صحيح لان الشعر سائر يسير به ما ضمن من مدح أو هجاء ومن أجل ذلك قيل لا تواخ شاعرا فانه يمدحك بثمن و يهجوك مجانا ولاستكفاف السفهاء بالافضال شرطان أحدهما أن يخفيه حتى لا ينتشر فيه مطامع السفهاء فيتوصلون الى

بفقده لم يزل مسرورا سعيدا فان ظن ظان ان هذا الاستشعار لا يتم له أولا ينتفع به فلينظر الى استشعارات الناس فى مطالبهم ومعايشهم واختلافهم فيها بحسب قوة الاستشعار فانه سيرى رؤية بينة ظاهرة فرح المتعيشين بمعايشهم على تفاوتها * وسرور أصحاب الحرف المختلفة

بمذاهبهم على تباينها ولينصفح ذلك فى طبقة طبقة من طبقات الدهماء فانه لا يخفى عليه فرح التاجر بتجارته والجندى بشجاعته والمقامر بقماره والشاطر بشطارته والمخنث بتخنثه حتى يظن كل واحد منهم أن المغبون من عدم تلك الحالة حتى فقد بهجتها والمجنون من عمى عنها حرم لذتها وليس ذلك الا لقوة استشعار كل طائفة بحسن مذهبها ولزومها اياها بالعادة الطويلة واذا لزم طالب الفضيلة مذهبه وقوى استشعاره وحسن رأيه وطالت عادته كان أولى بالسرور من هذه الطبقات الذين يخبطون فى جهالاتهم وكان أحظاهم بالنعيم المقيم لانه محق وهم مبطلون * وهو متيقن وهم ظانون ثم هو صحيح وهم مرضى * وهو سعيد وهم أشقياء * وهو ولى الله عز وجل وهم أعداؤه وقد قال الله عز من قائل (ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال الكندى فى كتاب دفع الاحزان * مما يدلك دلالة واضحة أن الحزن شئ يجلبه الانسان ويصنعه وضعا وليس هو من الاشياء الطبيعية ان من فقد ملكا أو طلب أمرا فلم يجده فلحقه حزن ثم نظر فى حزنه ذلك نظرا حكيما وعرف أن أسباب حزنه هى أسباب غير ضرورية وان كثيرا من الناس ليس لهم ذلك الملك وهم غير محزونين بل فرحون مغبوطون علم علما لا ريب فيه ان الحزن .

اجتذابه بسببه والى ماله بثلبه والثانى أن يتطلب له فى المجاملة وجها ويجعله فى الافضال عليه سببا لانه لا يرى أنه على السفه واستدامة البذاء واعلم أنك ما حييت ملحوظ المحاسن محفوظ المساوى ثم من بعد ذلك حديث منتشر لا يراقبك صديق ولا يحامى عنك شقيق فكن أحسن حديث ينشر يكن سعيك فى الناس مشكورا وأجرك عند الله مذخورا * فقد روى زياد بن الجراح عن عمرو بن ميمون أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك فهذا ما اقتضاه هذا الفصل من شروط المروءة وان كان كل كتابنا هذا من شروطها وما اتصل بحقوقها والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿الفصل الثامن فى آداب منثورة﴾ اعلم أن الآداب مع اختلافها بتنقل الاحوال وتغير العادات لا يمكن استيعابها ولا يقدر على حصرها وانما يذكر كل انسان ما بلغه الوسع من آداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات دهره ولو أمكن ذلك لكان الاول قد أغنى الثانى عنها والمتقدم قد كفى المتأخر تكلفها وانما حظ الاخير أن يتعانى حفظ الشارد وجمع المفترق ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته فيثبت ما كان موافقا وينفى ما كان مخالفا ثم يستمد خاطره فى استنباط زيادة واستخراج فائدة فان أسعف بشئ فاز بدركه وحظى بفضيلته ثم يعبر عن ذلك كله بما كان مألوفا من كلام الوقت وعرف أهله فان لاهل كل وقت فى الكلام عادة تؤلف وعبارة تعرف ليكون أوقع فى النفوس وأسبق الى الافهام ثم يرتب ذلك على أوائله ومقدماته ويبنيه على أصوله وقواعده حسبما يقتضيه الجنس فان لكل نوع من العلوم طريقة هى أوضح مسلكا وأسهل مأخذا فهذه خمسة شروط هى حظ الاخير فيما يعانيه وكذلك القول فى كل تصنيف مستحدث ولولا ذلك لكان تعاطى ما تقدم به الاول عناء ضائعا وتكلفا مستهجنا ونرجو الله أن يمدنا بالتوفيق لتأدية هذه الشروط وتنهضنا المعونة بتوفية هذه الحقوق حتى نسلم من ذم التكلف ونبرأ من عيوب التقصير وان كان اليسير مغفورا والخاطئ معذورا فقد قيل من صنف كتابا فقد استهدف فان أحسن فقد استعطف وان أساء فقد استقذف وقد مضت أبواب تضمنت فصولا رأيت اتباعها بما لم أحب الاخلال به فمن ذلك حال الانسان فى مأكله ومشربه فان الداعى الى ذلك شيئان حاجة ماسة وشهوة باعثة فأما الحاجة فتدعو الى ما سد الجوع وسكن الظمأ وهذا مندوب اليه عقلا وشرعا لما فيه من حفظ النفس وحراسة الجسد ولذلك ورد الشرع بالنهى عن الوصال بين صوم اليومين لانه يضعف الجسد ويميت النفس ويعجز عن العبادة وكل ذلك يمنع منه الشرع ويدفع عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد لان ما حرمها من فعل

الطاعات

الطاعات بالعجز والضعف أكثر ثوابا وأعظم أجرا اذ ليس فى ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات واتيان القرب ومن أخسر نفسه ربحا موفورا أو أحرمها أجرا مذخورا كان زهده فى الخير أقوى من رغبته ولم يبق عليه من هذا التكليف الا الشهوة بريائه وسمعته وأما الشهوة فتتنوع نوعين شهوة فى الاكثار والزيادة وشهوة فى تناول الالوان الملذة فاما النوع الاول وهو شهوة الزيادة على قدر الحاجة والاكثار على مقدار الكفاية فهو ممنوع منه فى العقل والشرع لان تناول ما زاد على الكفاية نهم معروشره مضر * وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إياكم والبطنة فانها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة عن العبادة وقال على رضى الله عنه ان كنت بطنا فعد نفسك زمنا وقال بعض البلغاء اقلل طعاما تحمد مناما وقال بعض الادباء الرغب لؤم والنهم شؤم * وقال بعض الحكماء أكبر الدواء تقدير الغذاء وقال بعض الشعراء

فكم من لقمة منعت اخاها * بلذة ساعة أكلات دهر
وكم من طالب يسعى لامر * وفيه هلاكه لو كان يدرى

وقال آخر

كم دخلت أكلة حشاشره * فاخرجت روحه من الجسد
لابارك الله فى الطعام اذا * كان هلاك النفوس فى المعد

ورب أكلة هاضت آكلا وأحرمته مآكل * روى أبو يزيد المدنى عن عبد الرحمن بن المرقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يخلق وعاء ملئ شرا من بطن فان كان لابد فاعلا فاجعلوا ثلثا للطعام وثلثا للشراب وثلثا للريح وأما النوع الثانى وهو شهوة الاشياء الملذة ومنازعة النفوس الى طلب الانواع الشهية فمذاهب الناس فى تمكين النفس منها مختلفة فمنهم من يرى ان صرف النفس عنها أولى وقهرها عن اتباع شهواتها أحرى ليذل له قيادها ويهون عليه عنادها لان تمكينها وما تهوى بطر يطغى وأشر يردى لان شهواتها غير متناهية فاذا أعطاها المراد من شهوات وقتها تعدتها الى شهوات قد استجدتها فيصير الانسان أسير شهوات لاتنقضى وعبد هوى لاينتهى ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ولم يوجد فيه فضل وأنشدت لابى الفتح البستى

ياخادم الجسم كم تشقى بخدمته * لتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها * فانت بالنفس لا بالجسم انسان

وللحذر من هذه الحال ما حكى أن أبا حازم رحمه الله كان يمر على الفاكهة فيشتهيها فيقول موعدك الجنة وقال آخر تمكين النفس من لذاتها أولى واعطاؤها ما اشتهت من المباحات أحرى لما فيه من ارتياح النفس بنيل شهواتها ونشاطها بادراك لذاتها فتنحسر عنها ذلة المقهور وبلادة المجبور ولا تقصر عن درك ولا تعصى فى نهضة ولا تنكل عن استعانة وقال آخرون بل توسط الامرين أولى لان فى اعطائها كل شهواتها بلادة والنفس البليدة عاجزة وفى منعها عن البعض كف لها عن السلاطة وفى تمكينها من البعض حسم لها عن البلادة وهذا العمرى أشبه المذاهب بالسلام لان التوسط فى الامور أحمد واذ قد مضى

ليس بضرورى ولا طبيعى وان من حزن من الناس وجلب لنفسه هذا العارض فهو لا محالة سيسلو ويعود الى حاله الطبيعى فقد شاهدنا قوما فقدوا من الاولاد والاعزة والاصدقاء ما اشتد حزنهم عليه ثم لم يلبثوا أن يعودوا الى حالة المسرة والضحك والغبطة ويصيرون الى حال من لم يحزن قط * ولذلك نشاهد من يفقد المال والضياع وجميع ما يقتنيه الانسان مما يعز عليه ويحزنه فانه لا محالة يتسلى ويزول حزنه ويعاود أنسه واغتباطه * فالعاقل اذا نظر الى أحوال الناس

الكلام في المأكول والمشروب فينبغي أن نتبع بذكر الملبوس اعلم أن الحاجة وان كانت في المأكول والمشروب أدعى فهي الى الملبوس ماسة وبها اليه فاقة لما في الملبوس من حفظ الجسد ودفع الأذى وستر العورة وحصول الزينة قال الله تعالى يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير فعني قوله أنزلنا عليكم لباسا أي خلقنا لكم ما تلبسون من الثياب يواري سوآتكم أي يستر عوراتكم وسميت العورة سوأة لانه يسوء صاحبها انكشافها من جسده وقوله وريشا فيه أربعة تأويلات أحدها أنه المال وهو قول مجاهد والثاني أنه اللباس والعيش والنعيم وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما والثالث أنه المعاش وهو قول معبد الجهني والرابع أنه الجمال وهو قول عبد الرحمن بن زيد وقوله ولباس التقوى فيه ستة تأويلات أحدها أن لباس التقوى هو الايمان وهو قول قتادة والسدي والثاني أنه العمل الصالح وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما والثالث أنه السمت الحسن وهو قول عثمان بن عفان رضي الله عنه والرابع هو خشية الله تعالى وهو قول عروة بن الزبير والخامس أنه الحياء وهذا قول معبد الجهني والسادس هو ستر العورة وهذا قول عبد الرحمن بن زيد وقوله ذلك خير فيه تأويلان أحدهما أن ذلك راجع الى جميع ما تقدم من قوله قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ثم قال ذلك خير أي ذلك الذي ذكرته خير كله والثاني أن ذلك راجع الى لباس التقوى ومعنى الكلام وان لباس التقوى خير من الرياش واللباس وهذا قول قتادة والسدي فلما وصف الله تعالى حال اللباس وأخرجه مخرج الامتنان علم انه معونة منه لشدة الحاجة اليه واذا كان كذلك ففي اللباس ثلاثة أشياء أحدها دفع الأذى والثاني ستر العورة والثالث الجمال والزينة فأما دفع الأذى به فواجب بالعقل لان العقل يوجب دفع المضار واجتلاب المنافع وقد قال الله تعالى والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم فأخبر بحالها ولم يأمر بها اكتفاء بما يقتضيه العقل واستغناء بما يبعث عليه الطبع ويعني بالظلال الشجر وبالاكنان جمع كن وهو الموضع الذي يستكن فيه ويعني بقوله سرابيل تقيكم الحر ثياب القطن والكتان والصوف وبقوله وسرابيل تقيكم بأسكم الدروع التي تقي البأس وهو الحرب فان قيل كيف قال تقيكم الحر ولم يذكر البرد وقال جعل لكم من الجبال أكنانا ولم يذكر السهل فعن ذلك جوابان أحدهما أن القوم كانوا أصحاب جبال وخيام فذكر لهم الجبال وكانوا أصحاب حر دون برد فذكر لهم نعمته عليهم فيما هو مختص بهم وهذا قول عطاء والجواب الثاني أنه اكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الآخر اذ كان معلوما أن السرابيل التي تقي الحر أيضا تقي البرد ومن اتخذ من الجبال أكنانا اتخذ من السهل وهذا قول الجمهور وأما ستر العورة فقد اختلف الناس فيه هل وجب بالعقل أو بالشرع فقالت طائفة وجب سترها بالعقل لما في ظهورها من القبح وما كان قبيحا فالعقل مانع منه ألا ترى أن آدم وحواء لما أكلا من الشجرة التي نهي عنها بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة تنبيها لعقولهما في ستر ما رأياه مستقبحا من سوآتهما الا انهما لم يكونا قد كلفا ستر ما لم يبد لهما ولا كلفاه بعد أن بدت لهما وقبل سترها

وقالت

في الحزن وأسبابه * علم أن ليس يختص من بينهم بمصيبة غريبة ولا يتميز عنهم بمحنة بديعة وان غايته من مصيبته السلوة وان الحزن هو مرض عارض يجري مجرى سائر الرداآت فلم يضع لنفسه عارضا رديئا ولم يكتسب مرضا وصعبا أعني مجتلبا غير طبيعي * وينبغي أن نتذكر ما قدمنا ذكره من حال من يحيا بتحية على ان يشمها ويتمتع بها ثم يردها ليشمها غيره ويتمتع بها سواه فأطمعته نفسه فيها وظن انها موهوبة له هبة أبدية فلما أخذت منه حزن وأسف وغضب فان

وقالت طائفة أخرى بل ستر العورة واجب بالشرع لأنه بعض الجسد الذى لا يوجب العقل ستر باقيه وانما اختصت العورة بحكم شرعى فوجب أن يكون ما يلزم من سترها حكما شرعيا وقد كانت قريش وأكثر العرب مع ما كانوا عليه من وفور العقل وصحة الالباب يطوفون بالبيت عراة ويحرمون على نفوسهم اللحم والودك ويرون ذلك أبلغ فى القرب وانما القرب ما استحسنت فى العقل حتى أنزل الله تعالى يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين يعنى بقوله خذوا زينتكم الثياب التى تستر عوراتكم وكلوا واشربوا ما حرمتموه على أنفسكم من اللحم والودك وفى قوله تعالى ولا تسرفوا تأويلان أحدهما لا تسرفوا فى التحريم وهذا قول السدى والثانى لا تأكلوا حراما فانه اسراف وهذا قول ابن زيد فأوجب بهذه الآية ستر العورة بعد أن لم يكن العقل موجباله فدل ذلك على أن سترها وجب بالشرع دون العقل وأما الجمال والزينة فهو مستحسن بالعرف والعادة من غير أن يوجبه عقل أو شرع وفى هذا النوع قد يقع التجاوز والتقصير والتوسط المطلوب فيه معتبر من وجهين أحدهما فى صفة الملبوس وكيفيته والثانى فى جنسه وقيمته فأما صفته فمعتبرة بالعرف من وجهين أحدهما عرف البلاد فان لاهل المشرق زيا مألوفا ولاهل المغرب زيا مألوفا وكذلك لما بينهما من البلاد المختلفة عادات فى اللباس مختلفة والثانى عرف الاجناس فان للاجناد زيا مألوفا وللتجار زيا مألوفا وكذلك لمن سواهما من الاجناس المختلفة عادات فى اللباس وانما اختلفت عادات الناس فى اللباس من هذين الوجهين ليكون اختلافهم سمة يتميزون بها وعلامة لا يخفون معها فان عدل أحد عن عرف بلده وجنسه كان ذلك منه خرقا وحمقا ولذلك قيل العرى الفادح خير من الزى الفاضح وأما جنس الملبوس وقيمته فمعتبر من وجهين أحدهما بالمكنة من اليسار والاعسار فان للموسر فى الزى قدرا وللمعسر دونه والثانى بالمنزلة والحال فان لذى المنزلة الرفيعة فى الزى قدرا وللمنخفض عنه دونه ليتفاضل فيه على حسب تفاضل أحوالهم فيصيروا به متميزين فان عدل الموسر الى زى المعسر كان شحا وبخلا وان عدل الرفيع الى الزى الدنىء كان مهانة وذلا وان عدل المعسر الى زى الموسر كان تبذيرا وسرفا وان عدل الدنىء الى الزى الرفيع كان جهلا وتخلفا ولزوم العرف المعهود واعتبار الحد المقصود ادل على العقل وامنع من الذم ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اياكم ولبستين لبسة مشهورة ولبسة محقورة * وقال بعض الحكماء البس من الثياب ما لا يزدريك فيه العظماء ولا يعيبه عليك الحكماء * وقال بعض الشعراء

ان العيون رمتك اذ فاجأتها * وعليك من شهر الثياب لباس
أما الطعام فكل لنفسك ما تشا * واجعل لباسك ما اشتهاه الناس

واعلم أن المروءة أن يكون الانسان معتدل الحال فى مراعاة لباسه من غير اكثار ولا اطراح فان اطراح مراعاتها وترك تفقدها مهانة وذل وكثرة مراعاتها وصرف الهمة الى العناية بها دناءة ونقص وربما توهم بعض من خلا من فضل وعرى عن تمييز أن ذلك هو المروءة الكاملة والسيرة الفاضلة لما يرى من تميزه بذلك عن الاكثرين وخروجه عن جملة العوام المسترذلين وخفى عليه انه اذا تعدى طوره وتجاوز قدره كان أقبح لذكره وأبعث على ذمه فكان

هذه حال من عدم عقله وطمع فيما لا مطمع فيه * وهذه حالة الحسود لانه يحب ان يستبد بالخيرات من غير مشاركة الناس والحسد أقبح الامراض وأشنع الشرور * لذلك قالت الحكماء من أحب أن ينال الشر أعداءه فهو محب للشر ومحب الشر شرير وشر من هذا من أحب الشر لمن ليس له بعدو * وأسوأ من هذا حالا من أحب أن لا ينال أصدقاءه خير * ومن أحب ان يحرم صديقه الخير فقد أحب له الشر ويحب له من هذه الردا آت الحزن على ما يتناوله الناس من الخيرات وان يحسدهم على ما يصلون اليه منها

كما قال المتنبي

لا تعجبن مضيما حسن بزته * وهل يروق دفينا جودة الكفن

وحكى المبرد أن رجلا من قريش كان اذا اتسع لبس ارث ثيابه واذا ضاق لبس أحسنها فقيل له في ذلك فقال اذا اتسعت تزينت بالجود واذا ضقت فبالهيئة وقد أتى ابن الرومي بابلغ من هذا المعنى في شعره فقال

وما الحلى الا زينة لنقيصة * يتمم من حسن اذا الحسن قصرا
فاما اذا كان الجمال موفرا * لحسنك لم يحتج الى ان يزورا

ولذلك قالت الحكماء ليست العزة في حسن البزة * وقال بعض الشعراء

وترى سفيه القوم يدنس عرضه * سفها ويمسح نعله وشراكها

واذا اشتد كلفه بمراعاة لباسه قطعه ذلك عن مراعاة نفسه وصار الملبوس عنده أنفس وهو على مراعاته أحرص وقد قيل في منثور الحكم البس من الثياب ما يخدمك ولا يستخدمك وقال خالد بن صفوان لاياس بن معاوية أراك لا تبالي ما لبست فقال ألبس ثوبا أقي به نفسي أحب الي من ثوب أقيه بنفسي فكما أنه لا يكون شديد الكلف بها فكذلك لا يكون شديد الاطراح لها فقد حكى عن ابن عائشة أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فنظر اليه رث الهيئة فقال ما مالك قال من كل المال قد آتاني الله فقال ان الله تعالى يحب اذا أنعم على امرئ نعمة أن ينظر الى أثرها عليه وقد قيل المروءة الظاهرة في الثياب الطاهرة وهكذا القول في غلمانه وحشمه ان اشتد كلفه بهم صار عليهم قيما ولهم خادما وان اطرحهم قل رشادهم وظهر فسادهم فصاروا سببا لمقته وطريقا الى ذمه لكن يكفهم عن سيئ الاخلاق و يأخذهم بأحسن الآداب ليكونوا كما قال فيهم الشاعر

سهل الفناء اذا مررت ببابه * طلق اليدين مؤدب الخدام

وليكن في تفقد أحوالهم على ما يحفظ تجمله و يصون مبتذله فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ادهنوا يذهب البؤس عنكم والبسوا تظهر نعمة الله عليكم وأحسنوا الى مماليككم فانه أكبت لعدوكم وليتوسط فيهم ما بين حالتي اللين والخشونة فانه ان لان هان عليهم وان خشن مقتوه وكان على خطر منهم حكى أن الموبذ سمع ضحك الخدام في مجلس أنوشروان فقال أما تمنع هؤلاء الغلمان فقال أنوشروان انما يهابنا أعداؤنا وقال أبو تمام الطائي

حشم الصديق عيونهم بحاثة * لصديقه عن صدقه ونفاقه
فلينظرن المرء من غلمانه * فهم خلائقه على أخلاقه

واعلم أن للنفس حالتين حالة استراحة ان حرمتها اياها كلت وحالة تصرف ان أرحتها فيها تخلت فالاولى بالانسان تقدير حاليه حال نومه ودعته وحال تصرفه و يقظته فان لهما قدرا محدودا وزمانا مخصوصا يضر بالنفس مجاوزة أحدهما وتغير زمانهما فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال نوم الصبحة معجزة منفخة مكسلة مورمة مفشلة منساة للحاجة وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما النوم ثلاثة نوم خرق وهي الصبحة ونوم

* وسواء كانت هذه الخيرات من قنياتنا وما ملكناه أو مما لم نقتنه ولم نملكه لان الجميع مشترك للناس وهي ودائع الله عند خلقه وله ان يرتجع العارية متى شاء على يد من شاء ولا سيئة علينا ولا عار اذا رددنا الودائع وانما العار والسيئة ان نحزن اذا ارتجعت منا وهو مع ذلك كفر للنعمة لان أقل ما يجب من الشكر للمنعم ان نرد عليه عاريته عن طيب نفس وتسرع الى اجابته اذا استردها ولا سيما اذا ترك المعير علينا أفضل ما أعارنا وارتجع أخسه قال وأعني بالافضل ما لا تصل اليه يد ولا

خلق وهي القائلة ونوم حمق وهو العشي وقد روى محمد بن يزدان عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نوم الضحى خرق والقيلولة خلق ونوم العشي حمق وقيل في منثور الحكم من لزم الرقاد عدم المراد فاذا أعطى النفس حقها من النوم والدعة واستوفى حقه بالتصرف واليقظة خلص بالاستراحة من عجزها وكلالها وسلم بالرياضة من بلادتها وفسادها وحكى أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه فوجده نائما فقال يا أبت أتنام والناس بالباب فقال يا بني نفسي مطيتي وأكره أن أتعبها فتقوم بي وينبغي أن يقسم حالة تصرفه ويقظته على المهم من حاجاته فان حاجة الانسان لازمة والزمان يقصر عن استيعاب المهم فكيف به ان تجاوز الى ما ليس بمهم هل يكون الا

كتاركة بيضها بالعراء * وملبسة بيض أخرى جناحا

ثم عليه أن يتصفح في ليله ما صدر من أفعال نهاره فان الليل أخطر للخاطر وأجمع للفكر فان كان محمودا أمضاه واتبعه بما شاكله وضاهاه وان كان مذموما استدركه ان أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل فانه اذا فعل ذلك وجد أفعاله لا تنفك من أربعة أحوال اما أن يكون قد أصاب فيها الغرض المقصود بها أو يكون قد أخطأ فيها فوضعها في غير موضعها أو يكون قصر فيها فنقصت عن حدودها أو يكون قد زاد فيها حتى تجاوزت محدودها وهذا التصفح انما هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل ليعلم به مواقع الاصابة ويتحرز به استدراك الخطأ وقد قيل من كثر اعتباره قل عثاره وكما يتصفح أحوال نفسه فكذا يجب أن يتصفح أحوال غيره فربما كان استدراكه الصواب منها أسهل بسلامة النفس من شبهة الهوى وخلو الخاطر من حسن الظن فان ظفر بصواب وجده من غيره أو أعجبه جميل من فعله زين نفسه بالعمل به فان السعيد من تصفح أفعال غيره فاقتدى باحسنها وانتهى عن سيئها وقد روى زيد بن خالد الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال السعيد من وعظ بغيره وقال الشاعر

ان السعيد له من غيره عظة * وفي التجارب تحكيم ومعتبر

وأنشد بعض أهل العلم لطاهر بن الحسن

اذا أعجبتك خصال امرئ * فكنه يكن منك ما يعجبك
فليس على المجد والمكرمات * اذا جئتها حاجب يحجبك

فاما ما يرومه من أعماله ويؤثر الاقدام عليه من مطالبه فيجب أن يقدم الفكر فيه قبل دخوله فان كان الرجاء فيه أغلب من الاياس منه وجدت العاقبة فيه سلكه من أسهل مطالبه وألطف جهاته وبقدر شرفه يكون الاقدام وان كان الاياس أغلب عليه من الرجاء مع شدة التغرير ودناءة الامر المطلوب فليحذر أن يكون له متعرضا فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا هممت بامر فتفكر في عاقبته فان رشدا فأمضه وان كان غيا فانته عنه وقالت الحكماء طلب ما لا يدرك عجز وقال بعض الشعراء

فاياك والامر الذي ان توسعت * موارده ضاقت عليك المصادر
فما حسن أن يعذر المرء نفسه * وليس له من سائر الناس عاذر

يشركنا فيه أحد أعني النفس والعقل والفضائل الموهوبة لنا هبة لا تسترد ولا ترتجع ويقول ان كان ارتجع الاقل الاخس كما اقتضاه العدل فقد أبقى الاكثر الافضل وانه لو كان واجبا ان نحزن على كل ما نفقده لوجب ان نكون أبدا محزونين فينبغي للعاقل ان لا يفكر في الاشياء الضارة المؤلمة وان يقل القنية ما استطاع اذ كان فقدها سببا للاحزان وقد حكي عن سقراط انه سئل عن سبب نشاطه وقلة حزنه فقال لانني لا أقتني ما اذا فقدته حزنت عليه واذ قد ذكرنا أجناس الامراض الغالبة التي

وليعلم أن لكل حين من أيام عمره خلقا وفى كل وقت من أوقات دهره عملا فان تخلق فى كبره باخلاق الصغر وتعاطى أفعال الفكاهة والبطر استصغره من هو أصغر وحقره من هو أقل وأحقر وكان كالمثل المضروب بقول الشاعر

وكل باز يمسه هرم * تخرى على رأسه العصافير

فكن أيها العاقل مقبلا على شأنك راضيا عن زمانك سلما لاهل دهرك جاريا على عادة عصرك منقادا لمن قدمه الناس عليك متحننا على من قدمك الناس عليه ولا تباينهم بالعزلة عنهم فيمقتوك ولا تجاهرهم بالمخالفة لهم فيعادوك فانه لا عيش لممقوت ولا راحة لمعادى وأنشد بعض أهل الادب لبعضهم

اذا اجتمع الناس فى واحد * وخالفهم فى الرضا واحد

فقد دل اجماعهم دونه * على عقله أنه فاسد

واجعل نصح نفسك غنيمة عقلك ولا تداهنها باخفاء عيبك واظهار عذرك فيصير عدوك أحظى منك فى زجر نفسه بانكارك ومجاهرتك من نفسك التى هى أخص بك لاغرائك لها باعذارك ومساءتك خبلك سوأرجل ينفع عدوه ويضر نفسه * وقال بعض الحكماء أصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعا لك * وقال بعض البلغاء من أصلح نفسه أرغم أنف أعاديه ومن أعمل جده بلغ كنه أمانيه وقال بعض الادباء من عرف معايبه فلا يلم من عابه وأنشدنى أبو ثابت النحوى لبعض الشعراء

ومن سرفة عيناه عن عيب نفسه * ولو بان عيب من أخيه لأبصرا

ولو كان ذا الانسان ينصف نفسه * لأمسك عن عيب الصديق وقصرا

فهذب أيها الانسان نفسك بأفكار عيوبك وانفعها كنفعك لعدوك فان من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ أعاننا الله واياك على القول بالعمل وعلى النصح بالقبول وحسبنا الله وكفى

تخص النفس وأشرنا الى علاجاتها ودللنا على شفائها فليس يتعذر على العاقل المحب لنفسه الساعى لها فيما يخلصها من آلامها وينجيها من مهالكها أن يتصفح الامراض التى تحت هذه الاجناس من أنواعها وأشخاصها فيداوى نفسه منها ويعالجها عقابلا تهامن العلاجات الراغبة الى الله عز وجل بعد ذلك فى التوفيق فان التوفيق مقرون بالاجتهاد وليس يتم أحدهما الا بالآخر * هذا آخر المقالة السادسة وهى تمام الكتاب والحمد لله رب العالمين والصلاة على النبى محمد وآله وأصحابه أجمعين وحسبنا الله ونعم المعين

بحمد من بين الرشد من الغى ولم يفرط فى الكتاب من شئ

تم كتاب أدب الدنيا والدين للعلامة أبى الحسن على الماوردى البصرى بهجة المحققين وهو الكتاب الجامع لفرائد الآداب الغنى بشهرته عن المدح والاطناب الجدير بنشر عرفه على عموم البرية لتخلق بما فيه من الاخلاق المرضية وعلى هامشه الكتاب المسمى تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق للشيخ ابن مسكويه وذلك بالمطبعة العامرة الادبيه بسوق الخضار القديم بمصر المحميه سنة ١٣١٨ هجريه على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحيه

﴿ فهرست كتاب أدب الدنيا والدين لابى الحسن البصرى ﴾

صحيفه

(تمت الفهرست)

﴿فهرست كتاب تهذيب الاخلاق والاعراق الذى بالهامش﴾